التفسير الوسيط للقرآن الكريم

تفسير سور

يس الصافات

ص الزمر

غافر فصلت

الإمام الأكبر

الدكتور محمد سيد طنطاوى

شيخ الأزهر

المجلد الثانى عشر

نهضة مصر

للطباعة والنشر والتوزيع

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (**١٢٧**)﴾

تفسير

سورة يس

بسم الله الرّحمن الرّحيم

مقدّمة

١ ـ سورة «يس» من السور التي يحفظها كثير من الناس ، لاشتهارها فيما بينهم ، وهي السورة السادسة والثلاثون في ترتيب المصحف ، وكان نزولها بعد سورة «الجن».

قال القرطبي : وهي مكية بإجماع ، وهي ثلاث وثمانون آية. إلا أن فرقة قالت : إن قوله تعالى ـ : ﴿وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ ...﴾ نزلت في بنى سلمة من الأنصار ، حين أرادوا أن يتركوا ديارهم ، وينتقلوا إلى جوار مسجد الرسول صلى‌الله‌عليه‌وسلم [1].

٢ ـ وقد ذكروا في فضلها كثيرا من الآثار ، إلا أن معظم هذه الآثار ضعفها المحققون من العلماء ، لذا نكتفي بذكر ما هو مقبول منها.

قال ابن كثير ما ملخصه : أخرج الحافظ أبو يعلى عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم يقول : «من قرأ «يس» في ليلة أصبح مغفورا له» ...

وأخرج ابن حيان في صحيحه ، عن جندب بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم : «من قرأ «يس» في ليلة ابتغاء وجه الله غفر له».

وأخرج الإمام أحمد في مسنده ، عن معقل بن يسار ، أن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم قال : «البقرة سام القرآن ، ويس قلب القرآن. لا يقرأها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له ، واقرءوها على موتاكم» أى : في ساعات الاحتضار وعند خروج الروح.

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا صفوان. قال : كان المشيخة يقولون : إذا قرئت ـ يعنى يس ـ عند الميت ، خفف عنه بها [2].

وقال الآلوسى ما ملخصه : صح من حديث الإمام أحمد ، وأبى داود ، وابن ماجة ، والطبراني ، وغيرهم عن معقل بن يسار ، أن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم قال : «يس قلب القرآن».

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ١.

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٤٨.

وذكر أنها تسمى المعمّة، والمدافعة، والقاضية، ومعنى المعمة: التي تعم صاحبها بخير الدنيا والآخرة. ومعنى المدافعة التي تدفع عن صاحبها كل سوء، ومعنى القاضية: التي تقضى له كل حاجة. بإذن الله وفضله [1].

٣. وقد افتتحت سورة «يس» بتأكيد صدق الرسول ﷺ فيما يبلغه عن ربه، وبتكذيب أعدائه الذين أعرضوا عن دعوته، وبتسليته عما أصابه منهم من أذى.

قال. تعالى.: ﴿يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ. إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ. تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ. لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ. لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾.

٤. ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك قصة أصحاب القرية، وما جرى بينهم وبين الرسل الذين جاءوا إليهم لهدايتهم، وكيف أهلك الله. تعالى. المكذبين لرسله...

قال. سبحانه.: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ. إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ فَقالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ. قالُوا ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا، وَما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ. قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ. وَما عَلَيْنا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾.

٥. ثم تسوق السورة الكريمة بعد ذلك، ألوانا من مظاهر قدرة الله. تعالى.، ومن نعمه على عباده، تلك النعم التي نراها في الأرض التي نعيش عليها، وفي الخيرات التي تخرج منها، كما نراها في الليل والنهار. وفي الشمس وفي القمر، وفي غير ذلك من مظاهر نعمه التي لا تحصى.

قال. تعالى. ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها، وَأَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ. وَجَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ، وَفَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ. لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ، وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ. سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ، وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾.

٦. وبعد هذا البيان الحكيم لمظاهر قدرة الله. تعالى.، وفضله على عباده، حكت السورة الكريمة جانبا من دعاوى المشركين الباطلة، وردت عليهم بما يخرس ألسنتهم، وصورت أحوالهم عند ما يخرجون من قبورهم مسرعين، ليقفوا بين يدي الله. تعالى للحساب والجزاء...

(١) راجع تفسير الآلوسى ج ٢٢ ص ٢٠٩.

قال ـ تعالى ـ : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ. قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا ، هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ. إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ. فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ، وَلا تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٧ ـ وبعد أن تحكى السورة الكريمة ما أعده الله تعالى بفضله وكرمه لعباده المؤمنين ، من جنات النعيم ، ومن خير عميم ، تعود فتحكى ما سيكون عليه الكافرون من هم وغم ، وكرب وبلاء ، بسبب كفرهم ، وتكذيبهم للحق الذي جاءهم به نبيهم صلى‌الله‌عليه‌وسلم.

قال ـ تعالى ـ : ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ. وَأَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ. وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ. هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ. اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

٨ ـ ثم تنزه السورة الكريمة النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم عما اتهمه به أعداؤه ، من أنه شاعر ، وتسليه عما أصابه منهم ، وتبين للناس أن وظيفته صلى‌الله‌عليه‌وسلم إنما هي الإنذار والبلاغ.

قال ـ تعالى ـ : ﴿وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغِي لَهُ ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ. لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ﴾.

إلى أن يقول ـ سبحانه ـ : ﴿فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ﴾.

٩ ـ ثم تختتم السورة الكريمة بحكاية ما قاله أحد الأشقياء منكرا للبعث والحساب ، وردت عليه وعلى أمثاله برد جامع حكيم ، برشد كل عاقل إلى إمكانية البعث ، وأنه حق لا شك فيه ...

قال ـ تعالى ـ : ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ. وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ. أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ، بَلى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ. إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

١٠ ـ وبعد. فهذا عرض مجمل لسورة «يس» ومنه نرى ، أن هذه السورة الكريمة ، قد اهتمت بإقامة الأدلة على وحدانية الله ـ تعالى ـ وعلى كمال قدرته كما اهتمت بإبراز الأدلة المتعددة على أن البعث حق ، وعلى أن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وسلم صادق فيما يبلغه عن ربه ...

كما اهتمت بضرب الأمثال لبيان حسن عاقبة الأخيار ، وسوء عاقبة الأشرار.

كل ذلك بأسلوب بليغ مؤثر ، يغلب عليه قصر الآيات ، وإيراد الشواهد المتنوعة على قدرة

الله ـ تعالى ـ ، عن طريق مخلوقاته المبثوثة في هذا الكون ، والتي من شأن المتأمل فيها بعقل سليم ، أن يهتدى إلى الحق ، وإلى الصراط المستقيم.

وصدق الله ـ تعالى ـ في قوله : ﴿سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾.

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

د. محمد سيد طنطاوى

القاهرة ـ مدينة نصر

صباح الخميس : ٢٣ من شوال سنة ١٤٠٥ ه

١١ / ٧ / ١٩٨٥ م

التفسير

قال الله ـ تعالى ـ :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ﴾ (١٢)

قوله ـ تعالى ـ يس من الألفاظ التي اختلف المفسرون في معناها ، فمنهم من يرى أن هذه الكلمة اسم للسورة ، أو للقرآن ، أو للرسول ﷺ .

ومنهم من يرى أن معناها : يا رجل ، أو يا إنسان.

ولعل أرجح الأقوال أن هذه الكلمة من الألفاظ المقطعة التي افتتحت بها بعض السور القرآنية ، للإشارة إلى إعجاز القرآن الكريم ، وللتنبيه إلى أن هذا القرآن المؤلف من جنس الألفاظ التي ينطقون بها ، هو من عند الله ـ تعالى ـ ، وأنهم ليس في إمكانهم أو إمكان غيرهم

أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور من مثله ، أو بسورة من مثله ...

قال الآلوسى : قوله ـ تعالى ـ : ﴿يس﴾ : الكلام فيه كالكلام في «ألم» ونحوه من الحروف المقطعة في أوائل بعض السور ، إعرابا ومعنى عند الكثيرين.

وظاهر كلام بعضهم أن «يس» بمجموعه ، اسم من أسمائه ﷺ.

وقرأ جمع بسكون النون مدغمة في الواو ، وقرأ آخرون بسكونها مظهرة ، والقراءتان سبعيتان ... [1].

قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ قسم منه ـ تعالى ـ بكتابه ذي الحكمة العالية. والهدايات السامية ، والتوجيهات السديدة ، والتشريعات القويمة ، والآداب الحميدة ...

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ جواب لهذا القسم.

أى : وحق هذا القرآن الحكيم ، إنك أيها الرسول الكريم ـ لمن عبادنا الذين اصطفيناهم لحمل رسالتنا ، وتبليغ دعوتنا إلى الناس ، لكي يخلصوا العبادة لنا ، ولا يشركوا معنا في ذلك غيرنا.

وجاء هذا الجواب مشتملا على أكثر من مؤكد ، للرد على أولئك المشركين الذين استنكروا رسالة النبي ﷺ وقالوا في شأنه : «لست مرسلا».

قال بعض العلماء : واعلم أن الأقسام الواقعة في القرآن. وإن وردت في صورة تأكيد المحلوف عليه ، إلا أن المقصود الأصلى بها تعظيم المقسم به ؛ لما فيه من الدلالة على اتصافه ـ تعالى ـ بصفات الكمال ، أو على أفعاله العجيبة ، أو على قدرته الباهرة فيكون المقصود من الحلف : الاستدلال به على عظم المحلوف عليه ، وهو هنا عظم شأن الرسالة. كأنه قال : إن من أنزل القرآن ـ وهو من هو في عظم شأنه ـ هو الذي أرسل رسوله محمدا ﷺ ومثل ذلك يقال له في الأقسام التي في السور الآتية ... [2].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ خبر ثان لحرف «إن» في قوله ـ تعالى ـ قبل ذلك : ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

أى : إنك ـ يا محمد ـ لمن أنبيائنا المرسلين ، على طريق واضح قويم ، لا اعوجاج فيه ولا اضطراب ، ولا ارتفاع فيه ولا انخفاض ، بل هو في نهاية الاعتدال والاستقامة.

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ خبر بعد خبر ، أو صلة للمرسلين.

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٢ ص ٢١٠.

(٢) تفسير «صفوة البيان» ج ٢ ص ٢١٥ لفضيلة الأستاذ الشيخ حسنين محمد مخلوف.

فإن قلت : أى حاجة إليه خبرا كان أو صلة ، وقد علم أن المرسلين لا يكونون إلا على صراط مستقيم؟

قلت : ليس الغرض بذكره ما ذهبت إليه من تمييز من أرسل على صراط مستقيم عن غيره ممن ليس على صفته. وإنما الغرض وصفه ، ووصف ما جاء به من الشريعة ، فجمع بين الوصفين في نظام واحد ، كأنه قال : إنك لمن المرسلين الثابتين على طريق ثابت ، وأيضا فإن التنكير فيه دل على أنه أرسل من بين الصراط المستقيمة ، على صراط مستقيم لا يكتنه وصفه . أى : في التضخيم والتعظيم . [1].

ثم مدح ـ سبحانه ـ كتابه بمدائح أخرى فقال : ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ وقد قرأ بعض القراء السبعة : ﴿تَنْزِيلَ﴾ بالنصب على المدح ، أو على المصدرية لفعل محذوف. أى : نزل الله ـ تعالى ـ القرآن تنزيل العزيز الرحيم.

وقرأ البعض الآخر : ﴿تَنْزِيلَ﴾ بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف. أى : هذا القرآن هو تنزيل العزيز ـ الذي لا يغلبه غالب ـ ، الرحيم أى الواسع الرحمة بعباده.

ثم بين ـ سبحانه ـ الحكمة من إرسالة لنبيه ﷺ فقال : ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ﴾.

واللام في قوله : ﴿لِتُنْذِرَ﴾ متعلقة بفعل مضمر يدل عليه قوله : ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

والإنذار : إخبار معه تخويف في مدة تتسع للتحفظ من الخوف. فإن لم تتسع له فهو إعلام وإشعار لا إنذار. وأكثر ما يستعمل في القرآن في التخويف من عذاب الله ـ تعالى ـ.

والمراد بالقوم : كفار مكة الذين بعث النبي ﷺ لإنذارهم ، وهذا لا يمنع أن رسالته عامة إلى الناس جميعا ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ...﴾ و ﴿ما﴾ نافية. والمراد بآبائهم : آباؤهم الأقربون ، لأن آباءهم الأبعدون قد أرسل الله ـ تعالى ـ إليهم إسماعيل ـ عليه السلام ـ.

أى : أرسلناك ـ يا محمد ـ بهذه الرسالة من لدنا ، لتنذر قوما ، وهم قريش المعاصرون لك ، لم يسبق لهم أو لآبائهم أن جاءهم نذير منا يحذرهم من سوء عاقبة الإشراك بالله ـ تعالى ـ فهم لذلك غافلون عما يجب عليهم نحو خالقهم من إخلاص العبادة له ، وطاعته في السر والعلن.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٤.

قال ابن كثير : قوله ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ﴾ يعنى بهم العرب ، فإنه ما أتاهم من نذير من قبله. وذكرهم وحدهم لا ينفى من عداهم كما أن ذكر بعض الأفراد لا ينفى العموم ، الذي وردت به الآيات والأحاديث المتواترة ... [1].

وقال الجمل ما ملخصه : قوله ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً ...﴾ أى العرب وغيرهم وقوله ﴿ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ﴾ أى الأقربون ، وإلا فآباؤهم الأبعدون قد أنذروا فآباء العرب الأقدمون أنذروا بإسماعيل ، وآباء غيرهم أنذروا بعيسى .. و «ما» نافية ، لأن قريشا لم يبعث إليهم نبي قبل نبينا ﷺ فالجملة صفة لقوله «قوما» أى : قوما لم تنذروا. وقوله ﴿فَهُمْ غافِلُونَ﴾ مرتب على الإنذار ... [2].

ثم بين ـ سبحانه ـ مصير هؤلاء الغافلين ، الذين استمروا في غفلتهم وكفرهم بعد أن جاءهم النذير ، فقال : ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ ، فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾.

والجملة جواب لقسم محذوف. ومعنى ﴿حَقَ﴾ ثبت ووجب.

والمراد بالقول : العذاب الذي أعده الله ـ تعالى ـ لهم بسبب إصرارهم على كفرهم.

أى : والله لقد ثبت وتحقق الحكم أولا بالعذاب على أكثر هؤلاء المنذرين بسبب عدم إيمانهم برسالتك ، وجحودهم الحق الذي جئتهم به ، وإيثارهم باختيارهم الغي على الرشد ، والضلال على الهدى ...

وقال ـ سبحانه ـ ﴿عَلى أَكْثَرِهِمْ﴾ لأن قلة منهم اتبعت الحق ، وآمنت به ، وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ﴾ [3].

ثم صور ـ سبحانه ـ انكبابهم على الكفر ، وإصرارهم عليه ، تصويرا بليغا فقال : ﴿إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾.

والأغلال : جمع غل ـ بضم الغين ، وهو القيد الذي تشد به اليد إلى العنق بقصد التعذيب والأذقان : جمع ذقن ـ بفتح الذال ـ وهو أسفل الفم.

ومقمحون. من الإقماح ، وهو رفع الرأس مع غض البصر. يقال : قمح البعير قموحا إذا رفع رأسه عن الحوض ولم يشرب. والفاء في قوله ﴿فَهِيَ﴾ وفي قوله ﴿فَهُمْ﴾ : للتقريع.

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٤٩.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٥٠٣.

(٣) سورة يونس الآيتان ٩٦ ، ٩٧.

أى : إنا جعلنا في أعناق هؤلاء الجاحدين قيودا عظيمة ، فهي . أى هذه القيود . واصلة إلى أذقانهم ، فهم بسبب ذلك مرفوعة رءوسهم ، مع غض أبصارهم ، بحيث لا يستطيعون أن يخفضوها ، لأن القيود التي وصلت إلى أذقانهم منعتهم من خفض رءوسهم.

فقد شبه . سبحانه . في هذه الآية ، حال أولئك الكافرين ، المصرين على جحودهم وعنادهم ، بحال من وضعت الأغلال في عنقه ووصلت إلى ذقنه ، ووجه الشبه أن كليهما لا يستطيع الانفكاك عما هو فيه.

ثم أكد . سبحانه . هذا الإصرار من الكافرين على كفرهم فقال : ﴿وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾. أى : أننا لم نكتف بجعل الأغلال في أعناقهم ، بل أضفنا إلى ذلك أننا جعلنا من أمامهم حاجزا عظيما ، ومن خلفهم كذلك حاجزا عظيما. ﴿فَأَغْشَيْناهُمْ﴾ أى : فجعلنا على أبصارهم غشاوة وأغطية تمنعهم من الرؤية ﴿فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ شيئا بسبب احتجاب الرؤية عنهم.

فالآية الكريمة تمثيل آخر لتصميمهم على كفرهم ، حيث شبههم . سبحانه . بحال من أحاطت بهم الحواجز من كل جانب ، فمنعتهم من الرؤية والإبصار.

ولذا قال صاحب الكشاف عند تفسيره لهاتين الآيتين : ثم مثل تصميمهم على الكفر ، وأنه لا سبيل الى ارعوائهم ، بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ، ولا يعطفون أعناقهم نحوه ، ولا يطأطئون رءوسهم له ، وكالحاصلين بين سدين لا يبصرون ما قدامهم ولا ما خلفهم في أن لا تأمل لهم ولا تبصر ، وأنهم متعامون عن النظر في آيات الله» [(١)].

وقد ذكروا في سبب نزول هاتين الآيتين روايات منها ما أخرجه ابن جرير عن عكرمة ، أن أبا جهل قال : لئن رأيت محمدا لأفعلن ولأفعلن ، فأنزل الله . تعالى . قوله : ﴿إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالاً ...﴾ فكانوا يقولون لأبى جهل : هذا محمد ﷺ فيقول : أين هو؟ ولا يبصره [(٢)].

وقوله . تعالى . : ﴿وَسَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ بيان لما وصل إليه هؤلاء الجاحدون من عناد وانصراف عن الحق.

وقوله ﴿سَواءٌ﴾ اسم مصدر بمعنى الاستواء ، والمراد به اسم الفاعل. أى : مستو.

أى : أن هؤلاء الذين جعلنا في أعناقهم أغلالا ... وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٥.

(٢) لباب النقول في أسباب النزول ج ١٨٧ للسيوطي.

سدا ، مستو عندهم إنذارك إياهم وعدمه ، فهم ـ لسوء استعدادهم وفساد فطرهم ـ لا يؤمنون بالحق الذي جئتهم به سواء دعوتهم إليه أم لم تدعهم إليه ، وسواء خوفتهم بالعذاب أم لم تخوفهم به ، لأنهم ماتت قلوبهم ، وصارت لا تتأثر بشيء مما تدعوهم إليه ..

ثم بين ـ سبحانه ـ من هم أهل للتذكير فقال : ﴿إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾.

أى : إنما تنذر ـ أيها الرسول الكريم ـ إنذارا نافعا ، أولئك الذين اتبعوا إرشادات القرآن الكريم وأوامره ونواهيه ...

وينفع إنذارك ـ أيضا ـ مع من ﴿خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ﴾ أى : مع من خاف عقاب الرحمن دون أن يرى هذا العقاب ، ودون أن يرى الله ـ تعالى ـ الذي له الخلق والأمر.

هؤلاء هم الذين ينفع معهم الإنذار والتذكير والإرشاد ، لأنهم فتحوا قلوبهم للحق ، واستجابوا له.

والفاء في قوله : ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ لترتيب البشارة أو الأمر بها ، على ما قبلها من اتباع الذكر والخشية.

أى : فبشر ـ أيها الرسول الكريم ـ هذا النوع من الناس ، بمغفرة عظيمة منا لذنوبهم ، وبأجر كريم لا يعلم مقداره أحد سوانا.

ثم أكد ـ سبحانه ـ أن البعث حق ، وأن الجزاء حق ، لكي لا يغفل عنهما الناس ، ولكي يستعدوا لهما بالإيمان والعمل الصالح فقال : ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى ...﴾.

أى : إنا نحن بقدرتنا وحدها نحيي الموتى بعد موتهم ، ونعيدهم إلى الحياة مرة أخرى لكي نحاسبهم على أعمالهم.

﴿وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ﴾ أى : وإنا نحن الذين نسجل عليهم أعمالهم التي عملوها في الدنيا سواء أكانت هذه الأعمال صالحة أم غير صالحة.

ونسجل لهم ـ أيضا ـ آثارهم التي تركوها بعد موتهم سواء أكانت صالحة كعلم نافع ، أو صدقة جارية ... أم غير صالحة كدار للهو واللعب ، وكرأى من الآراء الباطلة التي اتبعها من جاء بعدهم ، وسنجازيهم على ذلك بما يستحقون من ثواب أو عقاب ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ﴾ أى : وكل شيء أثبتناه وبيناه في أصل عظيم ، وفي كتاب واضح عندنا. ألا وهو اللوح المحفوظ ، أو علمنا الذي لا يعزب عنه شيء.

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : وفي قوله : ﴿آثارَهُمْ﴾ قولان :

أحدهما : ونكتب أعمالهم التي باشروها بأنفسهم ، وآثارهم التي أثروها ـ أى تركوها ـ من

بعدهم ، فنجزيهم على ذلك . أيضا . ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر. كقوله ﷺ من سن في الإسلام سنة حسنة ، فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة ، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء ..

والثاني : أن المراد بقوله ﴿وَآثَارَهُمْ﴾ أى : آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية. فقد روى مسلم والإمام أحمد عن جابر بن عبد الله قال : خلت البقاع حول المسجد ، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لهم : «إنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا إلى المسجد؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، قد أردنا ذلك ، فقال : يا بنى سلمة ، دياركم تكتب آثاركم ، دياركم تكتب آثاركم».

ثم قال ابن كثير : ولا تنافى بين هذا القول والذي قبله ، بل في القول الثاني تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأولى والأحرى ، فإنه إذا كانت هذه الآثار تكتب ، فلأن تكتب التي فيها قدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى (١).

هذا ، وتلك الرواية الصحيحة تشير إلى أن هذه الآية ليست مدنية . كما قيل . ، لأن هذه الرواية تصرح بأن الرسول ﷺ قد قال لبنى سلمة ، «دياركم تكتب آثاركم» أى : ألزموا دياركم تكتب آثاركم .. دون إشارة إلى سبب النزول.

قال الآلوسى ما ملخصه : والأحاديث التي فيها أن الله . تعالى . أنزل هذه الآية ، حين أراد بنو سلمة أن ينتقلوا من ديارهم. معارضة بما في الصحيحين من أن النبي ﷺ قرأ لهم هذه الآية ، ولم يذكر أنها نزلت فيهم ، وقراءته ﷺ لا تنافى تقدم النزول. أى : أن الآية مكية كبقية السورة (٢).

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد أثبتت صدق الرسول ﷺ فيما يبلغه عن ربه ، وبينت الحكمة من رسالته ، كما بينت أن يوم القيامة آت لا ريب فيه.

ثم أمر الله . تعالى . رسوله ﷺ أن يقرأ على الناس . ليعتبروا ويتعظوا . قصة أصحاب القرية ، وما جرى بينهم وبين الرسل الذين جاءوا لهدايتهم وإرشادهم إلى الطريق المستقيم فقال . تعالى ..

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٥١.

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٢ ص ٢١٨.

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ فَقالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤) قالُوا ما أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا وَما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥) قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَما عَلَيْنا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٧) قالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ (١٨) قالُوا طائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ (١٩)

قال القرطبي ما ملخصه : قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحابَ الْقَرْيَةِ﴾ وهذه القرية هي «أنطاكية» في قول جميع المفسرين ... والمرسلون : قيل : هم رسل من الله على الابتداء. وقيل : إن عيسى بعثهم إلى أنطاكية للدعاء إلى الله ـ تعالى ـ [1].

ولم يرتض ابن كثير ما ذهب إليه القرطبي والمفسرون من أن المراد بالقرية «أنطاكية» كما أنه لم يرتض الرأى القائل بأن الرسل الثلاثة كانوا من عند عيسى ـ عليه‌السلام ـ فقد قال ـ رحمه‌الله ـ ما ملخصه : وقد تقدم عن كثير من السلف ، أن هذه القرية هي أنطاكية ، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلا من عيسى ـ عليه‌السلام ـ وفي ذلك نظر من وجوه :

أحدها : أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله ـ عزوجل ـ لا من جهة عيسى ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ ...﴾

الثاني : أن أهل أنطاكية آمنوا برسل عيسى إليهم ، وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح عليه‌السلام ، ولهذا كانت عند النصارى ، إحدى المدن الأربعة التي فيها بتاركة ـ أى ، علماء بالدين المسيحي ..

---

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٥ ص ١٤.

الثالث : أن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب عيسى ، كانت بعد نزول التوراة ، وقد ذكر أبو سعيد الخدري وغيره ، أن الله تعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم ، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين ...

فعلى هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة. قرية أخرى غير أنطاكية .. فإن هذه القرية المشهورة بهذا الاسم لم يعرف أنها أهلكت ، لا في الملة النصرانية ولا قبل ذلك (١).

والذي يبدو لنا أن ما ذهب إليه الإمام ابن كثير هو الأقرب إلى الصواب وأن القرآن الكريم لم يذكر من هم أصحاب القرية ، لأن اهتمامه في هذه القصة وأمثالها ، بالعبر والعظات التي تؤخذ منها.

وضرب المثل في القرآن الكريم كثيرا ما يستعمل في تطبيق حالة غريبة ، بأخرى تشبهها ، كما في قوله ـ تعالى ـ ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ، كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما ، فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللهِ شَيْئاً. وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾.

فيكون المعنى : واجعل ـ أيها الرسول الكريم ـ حال أصحاب القرية ، مثلا لمشركي مكة في الإصرار على الكفر والعناد ، وحذرهم من أن مصيرهم سيكون كمصير هؤلاء السابقين ، الذين كانت عاقبتهم أن أخذتهم الصيحة فإذا هم خامدون ، لأنهم كذبوا المرسلين.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ بدل اشتمال من ﴿أَصْحابَ الْقَرْيَةِ﴾.

والمراد بالمرسلين : الذين أرسلهم الله إلى أهل تلك القرية ، لهدايتهم إلى الحق.

وقوله : ﴿إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما ...﴾ بيان لكيفية الإرسال ولموقف أهل القرية ممن جاءوا لإرشادهم إلى الدين الحق.

أى : إن موقف المشركين منك ـ أيها الرسول الكريم ـ ، يشبه موقف أصحاب القرية من الرسل الذين أرسلناهم لهدايتهم ، إذ أرسلنا إلى أصحاب هذه القرية اثنين من رسلنا ، فكذبوهما. وأعرضوا عن دعوتهما.

والفاء في قوله ﴿فَكَذَّبُوهُما﴾ للإفصاح ، أى : أرسلنا إليهم اثنين لدعوتهم إلى إخلاص العبادة لنا فذهبا إليهم فكذبوهما.

وقوله : فعززنا بثالث أى : فقو بنا الرسالة برسول ثالث ، من التعزيز بمعنى التقوية ، ومنه

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٥٩.

قولهم : تعزز لحم الناقة ، إذا اشتد وقوى. وعزز المطر الأرض ، إذا قواها وشدها. وأرض عزاز ، إذا كانت صلبة قوية.

ومفعول ﴿فَعَزَّزْنا﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه أى : فعززناهما برسول ثالث ﴿فَقالُوا﴾ أى الرسل الثلاثة لأصحاب القرية : ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾ لا إلى غيركم ، فأطيعونا فيما ندعوكم إليه من إخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ ، ونبذ عبادة الأصنام.

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما دار بين الرسل وأصحاب القرية من محاورات فقال : ﴿قالُوا ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا ، وَما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾.

أى : قال أصحاب القرية للرسل على سبيل الاستنكار والتطاول : أنتم لستم إلا بشرا مثلنا في البشرية ، ولا مزية لكم علينا ، وكأن البشرية في زعمهم تتنافى مع الرسالة ، ثم أضافوا إلى ذلك قولهم : وما أنزل الرحمن من شيء مما تدعوننا إليه.

ثم وصفوهم بالكذب فقالوا لهم : ما أنتم إلا كاذبون ، فيما تدعونه من أنكم رسل إلينا.

وهكذا قابل أهل القرية رسل الله ، بالإعراض عن دعوتهم وبالتطاول عليهم ، وبالإنكار لما جاءوا به ، وبوصفهم بالكذب فيم يقولونه.

ولكن الرسل قابلوا كل ذلك بالأناة والصبر ، شأن الواثق من صدقه ، فقالوا لأهل القرية : ﴿رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ. وَما عَلَيْنا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾.

أى : قالوا لهم بثقة وأدب : ربنا ـ وحده ـ يعلم إنا إليكم لمرسلون ، وكفى بعلمه علما ، وبحكمه حكما ، وما علينا بعد ذلك بالنسبة لكم إلا أن نبلغكم ما كلفنا بتبليغه إليكم تبليغا واضحا ، لا غموض فيه ولا التباس.

فأنت ترى أن الرسل لم يقابلوا سفاهة أهل القرية بمثلها ، وإنما قابلوا تكذيبهم لهم. بالمنطق الرصين ، وبتأكيد أنهم رسل الله ، وأنهم صادقون في رسالتهم ، لأن قولهم ﴿رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ جار مجرى القسم في التوكيد.

وقولهم : ﴿وَما عَلَيْنا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ تحديد للوظيفة التي أرسلهم الله ـ تعالى ـ من أجلها.

ولكن أهل القرية لم يقتنعوا بهذا المنطق السليم ، بل ردوا على الرسل ردا قبيحا ، فقالوا لهم : ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ ، لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ ، وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ والتطير : التشاؤم. أى قالوا في الرد عليهم : إنا تشاءمنا من وجودكم بيننا ، وكرهنا النظر إلى

وجوهكم ، وإذا لم ترحلوا عنا ، وتكفوا عن دعوتكم لنا إلى ما لا نريده ، لنرجمنكم بالحجارة ، وليمسنكم منا عذاب شديد الألم قد ينتهى بقتلكم وهلاككم.

قال صاحب الكشاف : قوله ﴿تَطَيَّرْنا بِكُمْ﴾ أى : تشاءمنا بكم ، وذلك أنهم كرهوا دينهم ، ونفرت منه نفوسهم ، وعادة الجهال أن يتيمنوا بكل شيء مالوا إليه ، واشتهوه وآثروه وقبلته طباعهم ، ويتشاءموا مما نفروا عنه وكرهوه ، فإن أصابهم خير أو بلاء ، قالوا : ببركة هذا وبشؤم هذا .. [1].

ولكن الرسل قابلوا هذا التهديد ـ أيضا ـ بالثبات ، والمنطق الحكيم فقالوا لهم : ﴿طائِرُكُمْ مَعَكُمْ ، أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾.

أى : قال الرسل لأهل القرية : ليس الأمر كما ذكرتم من أننا سبب شؤمكم ، بل الحق أن شؤمكم معكم ، ومن عند أنفسكم ، بسبب إصراركم على كفركم ، وإعراضكم عن الحق الذي جئناكم به من عند خالقكم.

وجواب الشرط لقوله : ﴿أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ محذوف ، والتقدير : أئن وعظتم وذكرتم بالحق ، وخوفتم من عقاب الله .. تطيرتم وتشاءمتم.

وقوله : ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ إضراب عما يقتضيه الاستفهام والشرط من كون التذكير سببا للشؤم.

أى : ليس الأمر كما ذكرتم من أن وجودنا بينكم هو سبب شؤمكم ، بل الحق أنكم قوم عادتكم الإسراف في المعاصي ، وفي إيثار الباطل على الحق ، والغي على الرشد ، والتشاؤم على التيامن.

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد تلك المحاورة التي دارت بين أهل القرية وبين الرسل ، والتي تدل على أن أهل القرية كانوا مثلا في السفاهة والكراهة للخير والحق.

بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك ما دار بين أهل القرية ، وبين رجل صالح منهم ساءه أن يرى من قومه تنكرهم لرسل الله ـ تعالى ـ وتطاولهم عليهم ، وتهديدهم لهم بالرجم : فقال ـ تعالى ـ :

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٩.

﴿وَجاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢١) وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) وَما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ وَما كُنَّا مُنْزِلِينَ (٢٨) إِنْ كانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ (٢٩) يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٣٠) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ﴾ (٣٢)

(١) وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَجاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى ...﴾ معطوف على كلام محذوف يفهم من سياق القصة ، والتقدير :

وانتشر خبر الرسل بين أصحاب القرية ، وعلم الناس بتهديد بعضهم لهم ﴿وَجاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾ أى من أبعد مواضعها ﴿رَجُلٌ يَسْعى﴾ أى : رجل ذو فطرة سليمة ، يسرع

(١) أول الجزء الثالث والعشرون.

الخطا لينصح قومه ، وينهاهم عن إيذاء الرسل ويأمرهم باتباعهم.

قالوا : وهذا الرجل كان اسمه حبيب النجار ، لأنه كان يشتغل بالنجارة.

وقد أكثر بعض المفسرين هنا من ذكر صناعته وحاله قبل مجيئه ، ونحن نرى أنه لا حاجة إلى ذلك ، لأنه لم يرد نص صحيح يعتمد عليه فيما ذكروه عنه.

ويكفيه فخرا هذا الثناء من الله . تعالى . عليه بصرف النظر عن اسمه أو صنعته أو حاله ، لأن المقصود من هذه القصة وأمثالها في القرآن الكريم هو الاعتبار والاقتداء بأهل الخير.

وعبر هنا بالمدينة بعد التعبير عنها في أول القصة بالقرية للإشارة إلى سعتها ، وإلى أن خبر هؤلاء الرسل قد انتشر فيها من أولها إلى آخرها.

والتعبير بقوله : ﴿يَسْعى﴾ : يدل على صفاء نفسه ، وسلامة قلبه ، وعلو همته ، ومضاء عزيمته ، حيث أسرع بالحضور إلى الرسل وإلى قومه ، ليعلن أمام الجميع كلمة الحق ، ولم يرتض أن يقبع في بيته . كما يفعل الكثيرون . بل هرول نحو قومه ، ليقوم بواجبه في الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وقوله . تعالى . : ﴿قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ بيان لما بدأ ينصح قومه به بعد وصوله إليهم.

أى : ﴿قالَ﴾ لقومه على سبيل الإرشاد والنصح ﴿يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ الذين جاءوا لهدايتكم إلى الصراط المستقيم ، ولإنقاذكم من الضلال المبين الذي انغمستم فيه.

ثم أكد هذه الدعوة بقوله : ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ اتبعوا هؤلاء الرسل الذين جاءوا بأمر ربكم إليكم ، ليرشدوكم الى الطريق الحق ، والحال أنهم في أنفسهم ثابتون على الهدى ، راسخون في التمسك بالعقيدة السليمة.

ثم أخذ بعد ذلك في حض قومه على اتباع الحق ، عن طريق بيان الأسباب التي حملته على الإيمان ، حتى يستثير قلوبهم نحو الهدى ، فقال . كما حكى القرآن عنه . : ﴿وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً؟ إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ. إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ. إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾.

أى : قال الرجل الصالح لقومه : وأى مانع يمنعني من أن أعبد الله . تعالى . وحده ، لأنه هو الذي خلقني ولم أكن قبل ذلك شيئا مذكورا ، وهو الذي إليه يكون مرجعكم بعد مماتكم ، فيحاسبكم على أعمالكم في الدنيا ، ويجازيكم عليها بما تستحقون من ثواب أو عقاب.

والاستفهام في قوله : ﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ..﴾ للإنكار والنفي.

أى : لا يصح ولا يجوز أن اتخذ معه في العبادة آلهة أخرى ، كائنة ما كانت هذه الآلهة ، لأنه ﴿إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً﴾ من النفع ، حتى ولو كان هذا النفع في نهاية القلة والحقارة.

﴿وَلا يُنْقِذُونِ﴾ : ولا تستطيع هذه الآلهة إنقاذى وتخليصي مما يصيبني من ضر أراد الرحمن أن ينزله بي.

﴿إِنِّي إِذاً﴾ لو اتخذت هذه الآلهة شريكا مع الله في العبادة ﴿لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ أى : لأكونن في ضلال واضح لا يخفى على أحد من العقلاء.

ثم ختم حديثه معهم بإعلان إيمانه بكل صراحة وقوة فقال : ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ ، الذي خلقكم ورزقكم ﴿فَاسْمَعُونِ﴾ أى : فاسمعوا ما نطقت به ، واشهدوا لي بأنى آمنت بربكم الذي خلقكم وخلقني ، وكفرت بهؤلاء الشركاء ، ولن أشرك معه ـ سبحانه ـ في العبادة أحدا. مهما كانت النتائج.

وهكذا نرى الرجل الصالح الذي استقر الإيمان في قلبه ومشاعره ووجدانه يدافع عن الحق الذي آمن به دفاعا قويا دون أن يخشى أحدا إلا الله ، ويدعو قومه بشتى الأساليب إلى اتباعه ويقيم لهم ألوانا من الأدلة على صحة ما يدعو إليه.

ثم يصارحهم في النهاية ، ويشهدهم على هذه المصارحة ، بأنه قد آمن بما جاء به الرسل إيمانا لا يقبل الشك أو التردد ، ولا يثنيه عنه وعد أو وعيد أو إيذاء أو قتل.

ورحم الله صاحب الكشاف ، فقد أجاد في تصوير هذه المعاني فقال ما ملخصه : قوله : ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ كلمة جامعة في الاستجابة لدعوة الرسل ، أى : لا تخسرون معهم شيئا من دنياكم ، وتربحون صحة دينكم ، فينتظم لكم خير الدنيا وخير الآخرة.

ثم أبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه ، وهو يريد مناصحتهم ، وليتلطف بهم ويداريهم .. فقال : ﴿وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

ثم قال : ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ يريد فاسمعوا قولي وأطيعونى ، فقد نبهتكم على الصحيح الذي لا معدل عنه ، أن العبادة لا تصح إلا لمن منه مبتدؤكم وإليه مرجعكم ..[1].

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١١.

ولكن هذه النصائح الغالية الحكيمة من الرجل الصالح لقومه ، لم تصادف أذنا واعية بل إن سياق القصة بعد ذلك ليوحى بأن قومه قتلوه ، فقد قال ـ تعالى ـ بعد أن حكى نصائح هذا الرجل لقومه ، ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ...﴾.

أى : قالت الملائكة لهذا الرجل الصالح عند موته على سبيل البشارة : ادخل الجنة بسبب إيمانك وعملك الطيب.

قال الآلوسى : قوله : ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ..﴾ استئناف لبيان ما وقع له بعد قوله ذلك.

والظاهر أن الأمر المقصود به الإذن له بدخول الجنة حقيقة ، وفي ذلك إشارة إلى أن الرجل قد فارق الحياة ، فعن ابن مسعود أنه بعد أن قال ما قال قتلوه ..

وقيل : الأمر للتبشير لا للإذن بالدخول حقيقة ، أى : قالت ملائكة الموت وذلك على سبيل البشارة له بأنه من أهل الجنة ـ يدخلها إذا دخلها المؤمنون بعد البعث [1].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ. بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ استئناف بيانى لبيان ما قاله عند البشارة.

أى : قيل له ادخل الجنة بسبب إيمانك وعملك الصالح ، فرد وقال : يا ليت قومي الذين قتلوني ولم يسمعوا نصحى ، يعلمون بما نلته من ثواب من ربي ، فقد غفر لي ـ سبحانه ـ ، وجعلني من المكرمين عنده ، بفضله وإحسانه ..

قال ابن كثير : ومقصوده ـ من هذا القول ـ أنهم لو اطلعوا على ما حصل عليه من ثواب ونعيم مقيم ، لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل ، فرحمه الله ورضى عنه ، فلقد كان حريصا على هداية قومه.

روى ابن أبي حاتم أن عروة بن مسعود الثقفي ، قال للنبي ﷺ : ابعثني إلى قومي أدعوهم إلى الإسلام ، فقال له ﷺ «إني أخاف أن يقتلوك» ، فقال : يا رسول الله ، لو وجدوني نائما ما أيقظوني. فقال له رسول الله ﷺ «انطلق إليهم» فانطلق إليهم ، فمر على اللات والعزى فقال : لأصبحنك غدا بما يسوؤك ، فغضبت ثقيف فقال لهم : يا معشر ثقيف : أسلموا تسلموا ـ ثلاث مرات .. فرماه رجل منهم فأصاب أكحله فقتله ـ والأكحل : عرق في وسط الذراع ـ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : «هذا مثله كمثل صاحب يس ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ. بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [2].

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٢ ص ٢٢٨.

(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٥٨.

وقال صاحب الكشاف ما ملخصه : وقوله : ﴿يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ..﴾ إنما تمنى علم قومه بحاله ، ليكون علمهم بها سببا لاكتساب مثلها لأنفسهم ، بالتوبة عن الكفر ، والدخول في الإيمان .. وفي حديث مرفوع : «نصح قومه حيا وميتا».

وفيه تنبيه عظيم على وجوب كظم الغيظ والحلم عن أهل الجهل والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغي ، والتشمر في تخليصه ، والتلطف في افتدائه ، والاشتغال بذلك عن الشماتة به ، والدعاء عليه ، ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته ، وللباغين له الغوائل وهم كفرة وعبدة أصنام .. [1].

ثم بين ـ سبحانه ـ ما نزل بأصحاب القرية من عذاب أهلكهم فقال : ﴿وَما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ﴾ : أى : من بعد موته.

﴿مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ﴾ لأنهم كانوا أحقر وأهون من أن نفعل معهم ذلك.

﴿وَما كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ أى : وما صح وما استقام في حكمتنا أن ننزل عليهم جندا من السماء ، لهوان شأنهم ، وهوان قدرهم.

﴿إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً﴾ أى : ما كانت عقوبتنا لهم إلا صيحة واحدة صاحها بهم جبريل بأمرنا.

﴿فَإِذا هُمْ خامِدُونَ﴾ أى : هامدون ميتون ، شأنهم في ذلك كشأن النار التي أصابها الخمود والانطفاء ، بعد أن كانت مشتعلة ملتهبة ، يقال. خمدت النار تخمد خمودا. إذا سكن لهيبها ، وانطفأ شررها ، وخمد الرجل ـ كقعد ـ إذا مات وانقطعت أنفاسه.

وهكذا كانت نهاية الذين كذبوا المرسلين ، وقتلوا المصلحين ، فقد نزلت بهم عقوبة الله ـ تعالى ـ فجعلتهم في ديارهم جاثمين.

وبعد أن بين ـ سبحانه ـ سوء مصارع المكذبين ، أتبع ذلك بدعوة الناس إلى الاتعاظ بذلك من قبل فوات الأوان ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾.

والحسرة : الغم والحزن على ما فات ، والندم عليه ندما لا نفع من ورائه ، كأن المتحسر قد انحسرت عنه قواه وذهبت ، وصار في غير استطاعته إرجاعها.

و «يا» حرف نداء. و «حسرة» منادى ونداؤها على المجاز بتنزيلها منزلة العقلاء.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١١.

والمراد بالعباد : أولئك الذين كذبوا الرسل ، وآثروا العمى على الهدى ، ويدخل فيهم دخولا أوليا أصحاب تلك القرية المهلكة.

والمقصود من الآية الكريمة ، التعجب من حال هؤلاء المهلكين ، وبيان أن حالهم تستحق التأثر والتأسف والاعتبار ، لأنها حالة تدل على بؤسهم وظلمهم لأنفسهم وجهلهم.

والمعنى : يا حسرة على العباد الذين أهلكوا بسبب إصرارهم على كفرهم احضرى فهذا أوان حضورك ، فإن هؤلاء المهلكين كانوا في دنياهم ما يأتيهم من رسول من الرسل ، إلا كانوا به يستهزئون ، ويتغامزون ، ويستخفون به وبدعوته ، مع أنهم ـ لو كانوا يعقلون ـ لقابلوا دعوة رسلهم بالطاعة والانقياد.

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ...﴾ نداء للحسرة عليهم ، كأنما قيل لها : تعالى يا حسرة فهذه من أحوالك التي حقك أن تحضرى فيها ، وهي حال استهزائهم بالرسل.

والمعنى : أنهم أحقاء بأن يتحسر عليهم المتحسرون ، ويتلهف عليهم المتلهفون. أو هم متحسر عليهم من جهة الملائكة والمؤمنين من الثقلين.

وقرئ : يا حسرة العباد ، على الإضافة إليهم لاختصاصها بهم ، من حيث إنها موجهة إليهم [1].

أى : يا حسرة العباد منهم على أنفسهم ، بسبب تكذيبهم لرسلهم ، واستهزائهم بهم.

ثم وبخ ـ سبحانه ـ كفار مكة ، بسبب عدم اعتبارهم بمن سبقهم فقال : ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ﴾.

والقرون : جمع قرن. وهم القوم المقترنون في زمن واحد. و «كم» خبرية بمعنى كثير.

أى : ألم يعلم كفار مكة أننا أهلكنا كثيرا من الأمم السابقة عليهم ، بسبب إصرارهم على كفرهم ، واستهزائهم برسلهم ، وأن هؤلاء المهلكين لا يرجعون إليهم ليخبروهم بما جرى لهم ، لأنهم لن يستطيعوا ذلك في الدنيا ، لحكمة أرادها الله ـ تعالى ـ.

ولكن الجميع سيعودون إليه ـ سبحانه ـ وسيبعثهم يوم القيامة من قبورهم للحساب والجزاء ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ﴾.

و «إن» حرف نفى ، و «كل» مبتدأ ، والتنوين فيه عوض عن المضاف إليه

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٣.

و «لما» بمعنى إلا. و «جميع» خبر المبتدأ. و «محضرون» خبر ثان.

أى: لقد علم أهل مكة وغيرهم أننا أهلكنا كثيرا من القرى الظالم أهلها. وأن هؤلاء المهلكين لن يرجعوا إلى أهل مكة في الدنيا، ولكن الحقيقة التي لا شك فيها أنه ما من أمة من الأمم، أو جماعة من الجماعات المتقدمة أو المتأخرة إلا ومرجعها إلينا يوم القيامة، لنحاسبها على أعمالها، ولنجازيها بالجزاء الذي تستحقه.

كما قال ـ سبحانه ـ في آية أخرى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمالَهُمْ إِنَّهُ بِما يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [1].

ثم ساق ـ سبحانه ـ بعد ذلك ألوانا من الأدلة الدالة على وحدانيته وقدرته، وهذه الأدلة منها ما هو أرضى، ومنها ما هو سماوي، ومنها ما هو بحرى، وكلها تدل ـ أيضا ـ على فضله ورحمته، قال ـ تعالى ـ:

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها وَأَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ وَفَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)

---

(١) سورة هود آية ١١١.

﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ (٤٣) إِلاَّ رَحْمَةً مِنَّا وَمَتاعاً إِلى حِينٍ﴾ (٤٤)

قال الإمام الرازي ما ملخصه قوله : ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها﴾ وجه تعلقه بما قبله ، أنه ـ سبحانه ـ لما قال : ﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ﴾ كان ذلك إشارة إلى الحشر ، فذكر ما يدل على إمكانه قطعا لإنكارهم واستبعادهم ، وعنادهم فقال : ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها ..﴾ أى : وكذلك نحيي الموتى ... [1].

والمراد بالآية هنا : العلامة والبرهان والدليل.

والمراد بالأرض الميتة : الأرض الجدباء التي لا نبات فيها.

والمراد بالحب : جنسه من حنطة وشعير وغيرهما.

أى : ومن العلامات الواضحة لهؤلاء المشركين على قدرتنا على إحياء الموتى ، أننا ننزل الماء على الأرض الجدباء. فتهتز وتربو ، وتخرج ألوانا وأصنافا من الحبوب التي يعيشون عليها. ويأكلون منها.

ونكر ـ سبحانه ـ لفظ ﴿آيَةٌ﴾ للإشعار بأنها آية عظيمة ، كان ينبغي لهؤلاء المشركين أن يلتفتوا إليها ، لأنهم يشاهدون بأعينهم الأرض القاحلة السوداء ، كيف تتحول إلى أرض خضراء بعد نزول المطر عليها.

والله ـ تعالى ـ الذي قدر على ذلك ، قادر ـ أيضا ـ على إحياء الموتى وإعادتهم إلى الحياة.

وقوله : ﴿أَحْيَيْناها﴾ كلام مستأنف مبين لكيفية كون الأرض الميتة آية.

وقدم ـ سبحانه ـ الجار والمجرور في قوله ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ للدلالة على أن الحب هو الشيء الذي تكون منه معظم المأكولات التي يعيشون عليها ، وأن قلّته تؤدى الى القحط والجوع.

---

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ٧٧.

ثم بين ـ سبحانه ـ بعض النعم الأخرى التي تحملها الأرض لهم فقال : ﴿وَجَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ ، وَفَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ﴾.

والآية الكريمة معطوفة على قوله ﴿أَحْيَيْناها﴾ ، ونخيل : جمع نخل ، كعبيد جمع عبد ، وأعناب : جمع عنب : والعيون ، جمع عين. والمراد بها الآبار التي تسقى بها الزروع.

أى : أحيينا هذه الأرض الميتة بالماء .. وجعلنا فيها ـ بقدرتنا ورحمتنا ـ بساتين كثيرة من نخيل وأعناب ، وفجرنا وشققنا فيها كثيرا من الآبار والعيون التي تسقى بها تلك الزروع والثمار.

وخص النخيل والأعناب بالذكر ، لأنها أشهر الفواكه المعروفة لديهم ، وأنفعها عندهم.

واللام في قوله : ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ متعلق بقوله : ﴿وَجَعَلْنا ....﴾.

والضمير في قوله : ﴿مِنْ ثَمَرِهِ﴾ يعود إلى المذكور من الجنات والنخيل والأعناب. أو إلى الله ـ تعالى ـ..

أى : وجعلنا في الأرض ما جعلنا من جنات ومن نخيل ومن أعناب ، ليأكلوا ثمار هذه الأشياء التي جعلناها لهم ، وليشكرونا على هذه النعم.

و «ما» في قوله : ﴿وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾ الظاهر أنها نافية والجملة حالية ، والاستفهام للحض على الشكر.

أى : جعلنا لهم في الأرض جنات من نخيل وأعناب ، ليأكلوا من ثمار ما جعلناه لهم ، وإن هذه الثمار لم تصنعها أيديهم ، وإنما الذي أوجدها وصنعها هو الله ـ تعالى ـ بقدرته ومشيئته.

وما دام الأمر كذلك ، فهلا شكرونا على نعمنا ، وأخلصوا العبادة لنا.

قال ابن كثير : وقوله : ﴿وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ أى : وما ذاك كله إلا من رحمتنا بهم ، لا بسعيهم ولا كدهم ، ولا بحولهم وقوتهم. قاله ابن عباس وقتادة. ولهذا قال : ﴿أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾ أى : فهلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى (١).

ويصح أن تكون «ما» هنا موصولة فيكون المعنى : ليأكلوا من ثمره ومن الذي عملته أيديهم من هذه الثمار كالعصير الناتج منها ، وكغرسهم لتلك الأشجار وتعهدها بالسقى وغيره ، إلى أن آتت أكلها.

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٦١.

قال الشوكانى : وقوله : ﴿وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ معطوف على ثمره ، أى : ليأكلوا من ثمره ، ويأكلوا مما عملته أيديهم كالعصير والدبس ونحوهما وكذلك ما غرسوه وحفروه على أن «ما» موصولة ، وقيل : هي نافية ، والمعنى : لم يعملوه بأيديهم ، بل العامل له هو الله .. .[1]

ثم أثنى ـ سبحانه ـ على ذاته بما هو أهل له من ثناء فقال : ﴿سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ ، وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾.

ولفظ : ﴿سُبْحانَ﴾ اسم مصدر منصوب على أنه مفعول مطلق بفعل محذوف ، والتقدير : سبحت الله سبحانا : أى : تسبيحا. بمعنى نزهته تنزيها عن كل سوء ، وعظمته تعظيما.

و «من» في الآية الكريمة للبيان.

أى : ننزه الله ـ تعالى ـ تنزيها عن كل سوء. ونعظمه تعظيما لا نهاية له ، فهو ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ﴿الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها﴾ أى : الأنواع ، والأصناف كلها ذكورا وإناثا.

﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ أى : خلق الأصناف كلها التي تنبت في الأرض من حبوب وغيرها.

﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أى : وخلقها من أنفسهم إذ الذكر من الأنثى ، والأنثى من الذكر.

﴿وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾ أى : وخلق هذه الأصناف كلها من أشياء لا علم لهم بها ، وإنما مرد علمها إليه وحده ـ تعالى ـ كما قال ـ سبحانه ـ ﴿وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ﴾.

فالمقصود من الآية الكريمة بيان لمظهر من مظاهر قدرته ـ تعالى ـ وبديع خلقه ، حيث خلق الأصناف كلها ، نرى بعضها نابتا في الأرض ، ونرى بعضها متمثلا في الإنسان المكون من ذكر وأنثى ، وهناك مخلوقات أخرى لا يعلمها إلا الله ـ تعالى ..

وبعد أن بين ـ سبحانه ـ مظاهر قدرته عن طريق التأمل في الأرض التي نعيش عليها ، عقب ذلك ببيان مظاهر قدرته عن طريق التأمل في تقلب الليل والنهار ، وتعاقب الشمس والقمر ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ. فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾.

وقوله : ﴿نَسْلَخُ﴾ من السلخ بمعنى الكشط والإزالة ، يقال : سلخ فلان جلد الشاة ، إذا أزاله عنها.

والمراد هنا : إزالة ضوء النهار عن الليل ، ليبقى لليل ظلمته.

قال صاحب الكشاف : سلخ جلد الشاة ، إذا كشطه عنها وأزاله. ومنه : سلخ الحية

---

(١) تفسير فتح القدير ج ٤ ص ٣٦٨.

لخرشائها ـ أى : لجلدها ـ فاستعير ذلك لإزالة الضوء وكشفه عن مكان الليل ، وملقى ظله .(١)

أى : ومن البراهين والعلامات الواضحة ، الدالة على وحدانية الله ، وقدرته على إحياء الموتى ، وجود الليل والنهار بهذه الطريقة التي نشاهدها ، حيث ينزع ـ سبحانه ـ عن الليل النهار ، فيبقى لليل ظلامه ، ويصير الناس في ليل مظلم ، بعد أن كانوا في نهار مضيء.

فمعنى : (فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ) : فإذا هم داخلون في الظلام ، بعد أن كانوا بعيدين عنه. يقال : أظلم القوم. إذا دخلوا في الظلام. وأصبحوا ، إذا دخلوا في وقت الصباح.

وقوله ـ تعالى ـ : (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها) بيان لدليل آخر على قدرته ـ تعالى ـ وهو معطوف على قوله ـ تعالى ـ قبل ذلك : (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ ...).

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله : (لِمُسْتَقَرٍّ لَها) أى لحد معين تنتهي إليه .. شبه بمستقر المسافر إذا انتهى من سيره ، والمستقر عليه اسم مكان ، واللام بمعنى إلى ..

ويصح أن يكون اسم زمان ، على أنها تجرى إلى وقت لها لا تتعداه ، وعلى هذا فمستقرها : انتهاء سيرها عند انقضاء الدنيا .. (٢).

والمعنى : وآية أخرى لهم على قدرتنا ، وهي أن الشمس تجرى إلى مكان معين لا تتعداه ، وإلى زمن محدد لا تتجاوزه ، وهذا المكان وذلك الزمان ، كلاهما لا يعلمه إلا الله ـ تعالى ..

قال بعض العلماء : قوله ـ تعالى ـ : (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها) أى : والشمس تدور حول نفسها ، وكان المظنون أنها ثابتة في موضعها الذي تدور فيه حول نفسها. ولكن عرف أخيرا أنها ليست مستقرة في مكانها ، وإنما هي تجرى فعلا .. تجرى في اتجاه واحد ، في هذا الفضاء الكونى الهائل بسرعة حسبها الفلكيون باثنى عشر ميلا في الثانية.

والله ربها الخبير بجريانها وبمصيرها يقول : إنها تجرى لمستقر لها ، هذا المستقر الذي ستنتهى إليه لا يعلمه إلا هو ـ سبحانه ـ ولا يعلم موعده سواه.

وحين نتصور أن حجم هذه الشمس يبلغ نحو مليون ضعف لحجم أرضنا هذه ، وأن هذه الكتلة الهائلة تتحرك أو تجرى في الفضاء لا يسندها شيء ، حين نتصور ذلك ، ندرك طرفا من صفة القدرة التي تصرف هذا الوجود عن قوة وعن علم (٣).

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٦.

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ١٢.

(٣) تفسير في ظلال القرآن ج ٢٣ ص ٢٥.

وقد ساق القرطبي عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث فقال : وفي صحيح مسلم عن أبي ذر قال سألت رسول الله ﷺ عن قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها﴾ قال مستقرها تحت العرش.

ولفظ البخاري عن أبي ذر قال : قال النبي ﷺ لي حين غربت الشمس. «تدرى أين تذهب»؟ قلت : الله ورسوله أعلم. قال : فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش ، فتستأذن فيؤذن لها ، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها ، وتستأذن فلا يؤذن لها. فقال لها : ارجعي من حيث جئت. فتطلع من مغربها. فذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها﴾ (1).

واسم الإشارة في قوله ﴿ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ يعود الى الجري المفهوم من «تجرى».

أى : ذلك الجريان البديع العجيب المقدر الشمس ، تقدير الله ـ تعالى ـ العزيز الذي لا يغلبه غالب ، العليم بكل شيء في هذا الكون علما لا يخفى معه قليل أو كثير من أحوال هذا الكون.

ثم ذكر ـ سبحانه ـ آية أخرى تتعلق بكمال قدرته فقال : ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ ..﴾.

ولفظ القمر قرأه جمهور القراء بالنصب على أنه مفعول لفعل محذوف يفسره ما بعده.

والمنازل جمع منزل. والمراد بها أماكن سيره في كل ليلة ، وهي ثمان وعشرون منزلا ، تبدأ من أول ليلة في الشهر ، إلى الليلة الثامنة والعشرين منه. ثم يستتر القمر ليلتين إن كان الشهر تاما. ويستتر ليلة واحدة إن كان الشهر تسعا وعشرين ليلة.

أى : وقدرنا سير القمر في منازل ، بأن ينزل في كل ليلة في منزل لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه ، إذ كل شيء عندنا بمقدار ..

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو «والقمر» بالرفع على الابتداء ، وخبره جملة «قدرناه».

قال الآلوسى ما ملخصه. قوله : ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ﴾ ـ بالنصب ـ أى : وصيرنا سيره ، أى : محله الذي يسير فيه «منازل» فقدّر بمعنى صيّر الناصب لمفعولين. والكلام على

---

(1) راجع تفسير القرطبي ج ١٥ ص ١٧ وابن كثير ج ٦ ص ٥٦٢.

حذف مضاف ، والمضاف المحذوف مفعوله الأول و ﴿مَنازِلَ﴾ مفعوله الثاني.

وقرأ الحرميان وأبو عمرو : ﴿وَالْقَمَرَ﴾ بالرفع ، على الابتداء ، وجملة ﴿قَدَّرْناهُ﴾ خبره.

والمنازل : جمع منزل ، والمراد به المسافة التي يقطعها القمر في يوم وليلة [1].

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ تصوير بديع لحالة القمر وهو في آخر منازله.

والعرجون : هو قنو النخلة ما بين الشماريخ إلى منبته منها ، وهو الذي يحمل ثمار النخلة سواء أكانت تلك الثمار مستوية أم غير مستوية. وسمى عرجونا من الانعراج ، وهو الانعطاف والتقوس ، شبه به القمر في دقته وتقوسه واصفراره.

أى : وصيرنا سير القمر في منازل لا يتعداها ولا يتقاصر عنها ، فإذا صار في آخر منازله ، أصبح في دقته وتقوسه كالعرجون القديم ، أى : العتيق اليابس.

قال بعض العلماء : والذي يلاحظ القمر ليلة بعد ليلة. يدرك ظل التعبير القرآنى العجيب ﴿حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ وبخاصة ظل ذلك اللفظ «القديم». فالقمر في لياليه الأولى هلال. وفي لياليه الأخيرة هلال. ولكنه في لياليه الأولى يبدو وكأن فيه نضارة وقوة. وفي لياليه الأخيرة يطلع وكأنما يغشاه سهوم ووجوم ، ويكون فيه شحوب وذبول. ذبول العرجون القديم. فليست مصادفة أن يعبر القرآن عنه هذا التعبير الموحى العجيب [2].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ، وَلَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ بيان لدقة نظامه ـ سبحانه ـ في كونه ، وأن هذا الكون الهائل يسير بترتيب في أسمى درجات الدقة ، وحسن التنظيم.

أى : لا يصح ولا يتأتى للشمس أن تدرك القمر في مسيره فتجتمع معه بالليل.

وكذلك لا يصح ولا يتأتى الليل أن يسبق النهار ، بأنه يزاحمه في محله أو وقته ، وإنما كل واحد من الشمس والقمر ، والليل والنهار ، يسير ، في هذا الكون بنظام بديع قدره الله ـ تعالى ـ له ، بحيث لا يسبق غيره ، أو يزاحمه في سيره.

قال الإمام ابن كثير : قوله ـ تعالى ـ : ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ قال

---

(١) راجع تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ١٦.

(٢) تفسير في ظلال القرآن ج ٢٣ ص ٢٥.

مجاهد : لكل منهما حد لا يعدوه ، ولا يقصر دونه ، إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا ، وإذا ذهب سلطان هذا جاء سلطان هذا ..

وقال عكرمة : يعنى أن لكل منهما سلطانا فلا ينبغي للشمس أن تطلع بالليل.

وقوله : ﴿وَلَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ﴾ يقول : لا ينبغي إذا كان الليل أن يكون ليل آخر ، حتى يكون النهار .. [1].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ التنوين في «كل» عوض عن المضاف إليه ..

قال الآلوسى : والفلك : مجرى الكواكب ، سمى بذلك لاستدارته ، كفلكة المغزل ، وهي الخشبة المستديرة في وسطه ، وفلكة الخيمة ، وهي الخشبة المستديرة التي توضع على رأس العمود لئلا تتمزق الخيمة [2].

أى : وكل من الشمس والقمر ، والليل والنهار ، في أجزاء هذا الكون يسيرون بانبساط وسهولة ، لأن قدرة الله ـ تعالى ـ تمنعهم من التصادم أو التزاحم أو الاضطراب.

ثم ذكر ـ سبحانه ـ نوعا آخر من النعم التي امتن بها على عباده فقال : ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾.

وللمفسرين في تفسير هذه الآية أقوال منها : أن الضمير في «لهم» يعود إلى أهل مكة ، والمراد بذريتهم : أولادهم صغارا أو كبارا ، والمراد بالفلك المشحون : جنس السفن.

فيكون المعنى : ومن العلامات الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، أننا حملنا ـ بفضلنا ورحمتنا ـ أولادهم صغارا وكبارا في السفن المملوءة بما ينفعهم دون أن يصيبهم أذى ، وسخرنا لهم هذه السفن لينتقلوا فيها من مكان إلى آخر.

ويرى بعضهم أن الضمير في «لهم» يعود إلى الناس عامة ، والمراد بذريتهم آباؤهم الأقدمون ، والمراد بالفلك المشحون : سفينة نوح ـ عليه‌السلام ـ التي أنجاه الله ـ تعالى ـ فيها بمن معه من المؤمنين ، الذين لم يبق على وجه الأرض من ذرية آدم غيرهم.

فيكون المعنى : وعلامة ودليل واضح للناس جميعا على قدرتنا ، أننا حملنا ـ بفضلنا ورحمتنا ـ آباءهم الأقدمين الذين آمنوا بنوح ـ عليه‌السلام ـ في السفينة التي أمرناه بصنعها ، والتي كانت مليئة ومشحونة ، بما ينتفعون به في حياتهم.

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٦٤.

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ٢٣.

قال الجمل : وإطلاق الذرية على الأصول صحيح ، فإن لفظ الذرية مشترك بين الضدين ، الأصول والفروع ؛ لأن الذرية من الذرء بمعنى الخلق. والفروع مخلوقون من الأصول ، والأصول خلقت منها الفروع. فاسم الذرية يقع على الآباء كما يقع على الأولاد [1].

وهذا الرأى الثاني قد اختاره الإمام ابن كثير ولم يذكر سواه ، فقد قال ﷺ : يقول ـ تعالى ـ : ودلالة لهم ـ أيضا ـ على قدرته ـ تعالى ـ تسخيره البحر ليحمل السفن ، فمن ذلك ـ بل أوله ـ سفينة نوح التي أنجاه الله فيها بمن معه من المؤمنين ، ولهذا قال : ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أى : آباءهم.

﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ أى : في السفينة المملوءة بالأمتعة والحيوانات ، التي أمره الله أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين [2].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ﴾ بيان لنعمة أخرى من نعمه ـ تعالى ـ على عباده.

والضمير في قوله ـ تعالى ـ : ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾ يعود على السفن المشبهة لسفينة نوح ـ عليه السلام ..

قال القرطبي : ما ملخصه قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ﴾ والأصل ما يركبونه ... والضمير في «من مثله» للإبل. خلقها لهم للركوب في البر ، مثل السفن المركوبة في البحر ، والعرب تشبه الإبل بالسفن. وقيل إنه للإبل والدواب وكل ما يركب.

والأصح أنه للسفن. أى : خلقنا لهم سفنا أمثالها ، أى : أمثال سفينة نوح يركبون فيها.

قال الضحاك وغيره : هي السفن المتخذة بعد سفينة نوح ـ عليه السلام ـ [3].

ثم بين ـ سبحانه ـ مظهرا آخر من مظاهر فضله على الناس فقال : ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ. إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتاعاً إِلى حِينٍ﴾.

الصريخ : المغيث. أى : فلا مغيث لهم. أو فلا إغاثة لهم ، على أنه مصدر كالصراخ ، لأن المستغيث الخائف ينادى من ينقذه ، فيصرخ المغيث له قائلا : جاءك الغوث والعون.

والاستثناء هنا مفرغ من أعم العلل.

أى : وإن نشأ أن نغرق هؤلاء المحمولين في السفن أغرقناهم ، دون أن يجدوا من يغيثهم

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٥١٥.

(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٦٥.

(٣) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٣٤.

منا ، أو من ينقذهم من الغرق ، سوى رحمتنا بهم ، وفضلنا عليهم ، وتمتيعنا إياهم بالحياة إلى وقت معين تنقضي عنده حياتهم.

فالآيتان الكريمتان تصوران مظاهر قدرة الله ورحمته بعباده أكمل تصوير ؛ وذلك لأن السفن التي تجرى في البحر ـ مهما عظمت ـ تصير عند ما تشتد أمواجه في حالة شديدة من الاضطراب ، ويغشى الراكبين فيها من الهول والفزع ما يغشاهم ، وفي تلك الظروف العصيبة لا نجاة لهم مما هم فيه إلا عن طريق رعاية الله ـ تعالى ـ ورحمته بهم.

ثم ذكر ـ سبحانه ـ جانبا من رد المشركين السيئ على من يدعوهم إلى الخير ، ومن جهالاتهم حيث تعجلوا العذاب الذي لا محيص لهم عنه ، ومن أحوالهم عند قيام الساعة ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَما خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (٤٦) وَإِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٤٨) ما يَنْظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١) قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِنْ كانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً

وَاحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٥٤)

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَما خَلْفَكُمْ ..﴾ حكاية لموقف المشركين من الناصحين لهم ، وكيف أنهم صموا آذانهم عن سماع الآيات التنزيلية ، بعد صممهم عن التفكر في الآيات التكوينية.

أى : وإذا قال قائل لهؤلاء المشركين على سبيل النصح والإرشاد : ﴿اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَما خَلْفَكُمْ﴾ أى : احذروا ما تقدم من ذنوبكم وما تأخر ، وصونوا أنفسكم عن ارتكاب المعاصي التي ارتكبها الظالمون من قبلكم ، فأهلكوا بسببها وأبيدوا ، وآمنوا بالله ورسوله واعملوا العمل الصالح ، لعلكم بسبب ذلك تنالون الرحمة من الله ـ تعالى ..

وجواب «إذا» محذوف دل عليه ما بعده ، والتقدير : إذا قيل لهم ذلك أعرضوا عن الناصح ، واستخفوا به ، وتطاولوا عليه.

ويشهد لهذا الجواب المحذوف قوله ـ تعالى ـ بعد ذلك : ﴿وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ﴾.

و «من» الأولى مزيدة لتأكيد إعراضهم وصممهم عن سماع الحق ، والثانية للتبعيض.

أى : ولقد بلغ الجحود والجهل والعناد عند هؤلاء المشركين ، أنهم ما تأتيهم آية من الآيات التي تدل على وحدانية الله ـ تعالى ـ وقدرته ، وعلى أن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وسلم صادق في دعوته ، إلا كانوا عن كل ذلك معرضين إعراضا تاما ، شأنهم في ذلك شأن الجاحدين من قبلهم.

وأضاف ـ سبحانه ـ إليه الآيات التي أتتهم ، لتفخيم شأنها ، وبيان أنها آيات عظيمة ، كان من شأنهم ـ لو كانوا يعقلون ـ أن يتدبروها ، ويتبعوا من جاء بها.

ثم حكى ـ سبحانه ـ موقفا آخر ، من مواقفهم القبيحة ممن نصحهم وأرشدهم إلى الصواب ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ ، قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ ...﴾.

وقد ذكروا في سبب نزول هذه الآية روايات منها : أن أبا بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ كان يطعم مساكين المسلمين ، فلقيه أبو جهل فقال له : يا أبا بكر : أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء؟.

قال نعم. قال : فما باله لم يطعمهم؟ قال أبو بكر : ابتلى ـ سبحانه ـ قوما بالفقر ، وقوما بالغنى ، وأمر الفقراء بالصبر ، وأمر الأغنياء بالإعطاء.

فقال أبو جهل : والله يا أبا بكر : إن أنت إلا في ضلال ، أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء وهو لا يطعمهم ، ثم تطعمهم أنت .. فنزلت هذه الآية.

وقيل : كان العاصي بن وائل السهمي ، إذا سأله المسكين قال له : اذهب إلى ربك فهو أولى منى بك. ثم يقول : قد منعه الله فأطعمه أنا .. [1].

والمعنى. وإذا قال قائل من المؤمنين لهؤلاء الكافرين : أنفقوا على المحتاجين شيئا من الخير الكثير الذي رزقكم الله ـ تعالى ـ إياه.

قال الكافرون ـ على سبيل الاستهزاء والسخرية ـ للمؤمنين : هؤلاء الفقراء الذين طلبتم منا أن ننفق عليهم ، لو شاء الله لأطعمهم ولأغناهم كما أغنانا.

﴿إِنْ أَنْتُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ في أمركم لنا بالإنفاق عليهم أو على غيرهم.

قال الشوكانى ما ملخصه : وقوله : ﴿أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ﴾ حكاية لتهكم الكافرين ، وقد كانوا سمعوا المؤمنين يقولون : إن الرزاق هو الله ، وإنه يغنى من يشاء ، ويفقر من يشاء ، فكأنهم حاولوا بهذا القول الإلزام للمؤمنين ، وقالوا : نحن نوافق مشيئة الله فلا نطعم من لم يطعمه الله. وهذا غلط منهم ومكابرة ومجادلة بالباطل ، فإن الله ـ سبحانه ـ أغنى بعض خلقه وأفقر بعضا ، وأمر الغنى أن يطعم الفقير ، وابتلاه به فيما فرض له من ماله من الصدقة ، وقولهم : ﴿مَنْ لَوْ يَشاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ﴾ هو وإن كان كلاما صحيحا في نفسه ، ولكنهم لما قصدوا به الإنكار لقدرة الله ، وإنكار جواز الأمر بالإنفاق مع قدرة الله ، كان احتجاجهم من هذه الحيثية باطلا.

وقوله : ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ من تتمة كلام الكفار. وقيل : هو رد من الله عليهم .. [2].

ثم يحكى القرآن إنكارهم للبعث ، واستهزاءهم بمن يؤمن به فيقول : ﴿وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾.

أى : ويقول الكافرون للمؤمنين ـ على سبيل الاستهزاء والتكذيب بالبعث ـ ﴿مَتى هذَا

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٥١٧.

(٢) تفسير فتح القدير ج ٤ ص ٣٧٣.

﴿الْوَعْدُ﴾ الذي تعدوننا به من أن هناك بعثا ، وحسابا وجزاء ... أحضروه لنا ﴿إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ فيما تعدوننا به.

وهنا يجيء الرد الذي يزلزلهم ، عن طريق بيان بعض مشاهد يوم القيامة ، فيقول ـ سبحانه ـ : ﴿ما يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ. فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾.

المراد بالصيحة هنا : النفخة الأولى التي ينفخها إسرافيل بأمر الله ـ تعالى ـ فيموت جميع الخلائق.

وقوله ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ أى : يختصمون في أمور دنياهم. وفي هذا اللفظ عدة قراءات سبعية.

منها قراءة أبو عمرو وابن كثير : ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ ـ بفتح الياء والخاء وتشديد الصاد مع الفتح ـ ومنها قراءة عاصم والكسائي : ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ بفتح الياء وكسر الخاء وتشديد الصاد مع الكسر.

ومنها قراءة حمزة ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ بإسكان الخاء وكسر الصاد مع التخفيف.

أى : أن هؤلاء الكافرين الذين يستنكرون قيام الساعة ، ويستبعدون حصولها ، جاهلون غافلون ، فإن الساعة آتية لا ريب فيها ، وستحل بهم بغتة فإنهم ما ينتظرون ﴿إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً﴾ يصيحها إسرافيل بأمرنا ، فتأخذهم هذه الصيحة وتصعقهم وتهلكهم ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أى : وهم يتخاصمون ويتنازعون في أمور دنياهم.

وعند ما تنزل بهم هذه الصيحة ، لا يستطيع بعضهم أن يوصى بعضا بما يريد أن يقول له ولا يستطيعون جميعا الرجوع إلى أهليهم ، لأنهم يصعقون في أماكنهم التي يكونون فيها عند حدوث هذه الصيحة.

فأنت ترى أن الآيتين الكريمتين قد اشتملتا على أبلغ تصوير لأهوال علامات يوم القيامة ، ولسرعة مجيء هذه الأهوال.

أخرج الشيخان عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما ، فلا يتبايعانه ، ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة والرجل يليط حوضه ـ أى يسده بالطين ـ فلا يسقى منه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن ناقته فلا يطعمه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فمه فلا يطعمها» (١).

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ٣١.

ثم بين ـ سبحانه ـ حالهم عند النفخة الثانية فقال : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ ..

والمراد بالنفخ هنا : النفخة الثانية التي يكون معها البعث والحساب.

والصور : القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل ، ولا يعلم كيفيته سوى الله ـ تعالى ـ :
والأجداث : جمع جدث ـ بفتحتين ـ كفرس وأفراس ـ وهي القبور.

وينسلون : أى : يسرعون بطريق الجبر والقهر لا بطريق الاختيار ، والنّسلان : الإسراع في السير.

أى : ونفخ في الصور النفخة الثانية ، فإذا بهؤلاء الكافرين الذين كانوا يستبعدون البعث وينكرونه ، يخرجون من قبورهم سراعا ـ وبدون اختيار منهم ـ متجهين إلى ربهم ومالك أمرهم ليقضى فيهم بقضائه العادل.

﴿قالُوا﴾ بعد خروجهم من قبورهم بسرعة وفزع ﴿يا وَيْلَنا﴾ أى : يا هلاكنا احضر فهذا أوان حضورك.

ثم يقولون بفزع أشد : ﴿مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا﴾ أى من أثارنا من رقادنا ، وكأنهم لهول ما شاهدوا قد اختلطت عقولهم ، وأصيبت بالهول ، فتوهموا أنهم كانوا نياما.

قال ابن كثير ـ رحمه‌الله ـ ﴿قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا﴾ يعنون قبورهم التي كانوا يعتقدون في الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها ، فلما عاينوا ما كذبوه في محشرهم قالوا : يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ، وهذا لا ينفى عذابهم في قبورهم ، لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد.

وقوله : ﴿هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ رد من الملائكة أو من المؤمنين عليهم. أو هو حكاية لكلام الكفرة في رد بعضهم على بعض على سبيل الحسرة واليأس.

و «ما» موصولة والعائد محذوف ، أى : هذا الذي وعده الرحمن والذي صدّقه المرسلون.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : إذا جعلت «ما» مصدرية ، كان المعنى : هذا وعد الرحمن ، وصدق المرسلين ، على تسمية الموعود والمصدق فيه بالوعد والصدق ، فما وجه قوله : ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾؟ إذا جعلتها موصولة؟.

قلت : تقديره : هذا الذي وعده الرحمن ، والذي صدقه المرسلون ، بمعنى : والذي صدق فيه المرسلون ، من قولهم : صدقوهم الحديث والقتال ...

ثم بين ـ سبحانه ـ سرعة امتثالهم وحضورهم للحساب فقال : ﴿إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ﴾.

أى : ما كانت النفخة التي حكيت عنهم آنفا ﴿إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً﴾ صاحها إسرافيل بإذننا وأمرهم فيها بالقيام من قبورهم ﴿فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ﴾ دون أن يتخلف أحد منهم لدينا محضرون ومجموعون للحساب والجزاء.

﴿فَالْيَوْمَ﴾ وهو يوم القيامة ﴿لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾ من الظلم ، وإنما كل نفس توفى حقها.

وقوله ـ تعالى ـ ﴿وَلا تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى : ولا تجزون إلا جزاء ما كنتم تعملونه في الدنيا ، فالجملة الكريمة تأكيد وتقرير لما قبلها.

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ، وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَكَفى بِنا حاسِبِينَ﴾ [(١)].

وبعد هذا الحديث المتنوع عن أحوال الكافرين يوم القيامة ، جاء الحديث عما أعده الله ـ تعالى ـ بفضله وكرمه للمؤمنين ، وعما يقال للكافرين في هذا اليوم من تبكيت وتأنيب فقال ـ تعالى ـ :

﴿إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ (٥٦) لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ وَلَهُمْ ما يَدَّعُونَ (٥٧) سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (٥٨) وَامْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (٦٤)

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٤٧.

فقوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ﴾ بيان لأحوالهم الطيبة ، بعد بيان أحوال الكافرين السيئة.

والشغل : الشأن الذي يشغل الإنسان عما سواه من الشئون ، لكونه أهم عنده من غيره ، وما فيه من التنكير للتفخيم ، كأنه قيل : في شغل أى شغل.

وفاكهون. أى : متنعمون متلذذون في النعمة التي تحيط بهم ، مأخوذ من الفكاهة ـ بفتح الفاء ـ وهي طيب العيش مع النشاط. يقال : فكه الرجل فكها وفكاهة فهو فكه وفاكه ، إذا طاب عيشه ، وزاد سروره ، وعظم نشاطه وسميت الفاكهة بذلك لتلذذ الإنسان بها.

أى : يقال للكافرين في يوم الحساب والجزاء زيادة في حسرتهم ـ إن أصحاب الجنة اليوم في شغل عظيم ، يتلذذون فيه بما يشرح صدورهم ، ويرضى نفوسهم ، ويقر عيونهم ، ويجعلهم في أعلى درجات التنعم والغبطة.

وعبر عن حالهم هذه بالجملة الاسمية المؤكدة ، للإشعار بأن هذه الحال ثابتة لهم ثبوتا تاما ، بفضل الله ـ تعالى ـ وكرمه.

ثم بين ـ سبحانه ـ جانبا من كيفية هذا التمتع بالجنة ونعيمها فقال : ﴿هُمْ وَأَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ﴾.

و «هم» مبتدأ ، و «أزواجهم» معطوف عليه. و «متكئون» خبر المبتدأ.

قال الامام الرازي. ولفظ الأزواج هنا يحتمل وجهين :

أحدهما : أشكالهم في الإحسان. وأمثالهم في الإيمان ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْواجٌ﴾.

وثانيهما : الأزواج هم المفهومون من زوج المرأة وزوجة الرجل ، كما في قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِلَّا عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ ...﴾ (1).

ويبدو أن المراد بالأزواج هنا : حلائلهم اللاتي أحلهن الله لهم ، زيادة في مسرتهم وبهجتهم ، وعلى هذا سار عامة المفسرين.

والظلال : جمع ظل أو ظلة ، وهي ما يظل الإنسان ويقيه من الحر.

والأرائك : جمع أريكة وهي ما يجلس عليه الإنسان من سرير ونحوه للراحة والمتعة.

أى : أن أصحاب الجنة هم وحلائلهم يجلسون على الأرائك متكئين في متعة ولذة.

---

(1) تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ١٠٠.

﴿لَهُمْ فِيها﴾ أى في الجنة ﴿فاكِهَةٌ﴾ كثيرة متنوعة ﴿وَلَهُمْ ما يَدَّعُونَ﴾ أى : ولهم فوق ذلك جميع ما يطلبونه من مطالب وما يتمنونه من أمنيات.

فقوله : ﴿يَدَّعُونَ﴾ يصح أن يكون من الدعاء بمعنى الطلب ، كما يصح أن يكون من الادعاء بمعنى التمني.

يقال : ادع عليّ ما شئت أى : تمن عليّ ما شئت. ويقال : فلان في خير ما يدّعى ، أى : في خير ما يتمنى.

ثم ختم ـ سبحانه ـ هذا العطاء الجزيل للمؤمنين بقوله : ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾.

وللمفسرين في إعراب قوله : ﴿سَلامٌ﴾ أقوال منها : أنه مبتدأ خبره الناصب للفظ ﴿قَوْلاً﴾ أى : سلام يقال لهم قولا ... (١).

وقد أشار صاحب الكشاف إلى بعض هذه الأقوال فقال : وقوله : ﴿سَلامٌ﴾ بدل من قوله ﴿ما يَدَّعُونَ﴾ كأنه قال لهم : سلام يقال لهم قولا من جهة رب رحيم.

والمعنى : أن الله ـ تعالى ـ يسلم عليهم بواسطة الملائكة ، أو بغير واسطة ، مبالغة في تكريمهم ، وذلك غاية متمناهم .. (٢).

وقد ذكر الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية بعض الأحاديث ، منها ما رواه ابن أبي حاتم ـ بسنده ـ عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : «بينما أهل الجنة في نعيمهم ، إذ سطح لهم نور ، فرفعوا رءوسهم فإذا الرب ـ تعالى ـ قد أشرف عليهم من فوقهم ، فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة. فذلك قوله : ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ قال : فينظر إليهم وينظرون إليه ، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ماداموا ينظرون إليه. حتى يحتجب عنهم ، ويبقى نوره وبركته عليهم وفي ديارهم» (٣).

والمتأمل في هذه الآيات الكريمة ـ كما يقول الإمام الفخر الرازي ـ يراها تشير إلى أن أصحاب الجنة ليسوا في تعب ، كما تشير إلى وحدتهم ، وإلى حسن المكان ، وإلى إعطائهم كل ما يحتاجونه ، وإلى تلذذهم بالنعيم وإلى تلقيهم لأجمل تحية ..» (٤).

هذا هو حال المؤمنين ، وهذا بعض ما يقال لهم من ألفاظ التكريم ، فما ذا يقال للمجرمين.

---

(١) راجع حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٥٢١.

(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢٢.

(٣) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٧٠.

(٤) راجع تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ١٠١.

لقد بين . سبحانه . بعد ذلك ما يقال للمجرمين فقال : ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أى : ويقال للمجرمين في هذا اليوم . على سبيل الزجر والتأنيب انفردوا . أيها المجرمون . عن المؤمنين ، واتجهوا إلى ما أعد لكم من عذاب في جهنم ، بسبب كفركم وجحودكم للحق.

يقال : امتاز وتميز القوم بعضهم عن بعض ، إذا انفصل كل فريق عن غيره.

قال تعالى : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ. فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ (١).

وقوله . تعالى . بعد ذلك : ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ من جملة ما يقال لهم . أيضا . على سبيل التقريع والتوبيخ.

والعهد بالشيء : الوصية به ، والمراد به هنا : وصية الله . تعالى . للناس على ألسنة رسله ، أن يخلصوا له العبادة والطاعة ، وأن يخالفوا : ما يوسوس لهم به الشيطان من شرك ومعصية قال الآلوسى : والمراد بالعهد هنا. ما كان منه . تعالى . على ألسنة الرسل . عليهم السلام . من الأوامر والنواهي التي من جملتها قوله . تعالى . ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ ...﴾.

وقيل : هو الميثاق المأخوذ عليهم في عالم الذر ، إذ قال . سبحانه . ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾.

وقيل : هو ما نصب لهم من الحجج العقلية والسمعية الآمرة بعبادة الله . تعالى . الزاجرة عن عبادة غيره ...

والمراد بعبادة الشيطان : طاعته فيما يوسوس به إليهم ، ويزينه لهم ، عبر عنها بالعبادة لزيادة التحذير والتنفير عنها (٢).

والمعنى : لقد عهدت إليكم . يا بنى آدم . عهدا مؤكدا على ألسنة رسلي ، أن لا تعبدوا الشيطان وأن لا تستمعوا لوسوسته ، وأن لا تتبعوا خطواته ، لأنه لكم عدو ظاهر العداوة ، بحيث لا تخفى عداوته على أحد من العقلاء.

فجملة ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ تعليل لوجوب الانتهاء عن طاعة الشيطان.

---

(١) سورة الروم الآيات من ١٤ ـ ١٦.

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ٤٠.

وقوله : ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ بيان لما يجب عليهم أن يفعلوه بعد النهى عما يجب عليهم أن يجتنبوه.

و «أن» في قوله ﴿أَنْ لا تَعْبُدُوا﴾ وفي قوله ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ مفسرة ، والجملة الثانية معطوفة على الأولى.

أى : لقد عهدت إليكم بأن تتركوا عبادة الشيطان ، وعهدت إليكم أن تعبدونى وحدي دون غيرى.

والإشارة في قوله : ﴿هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ تعود إلى إخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ.

أى : هذا الذي أمرتكم به من إخلاص العبادة والطاعة لي هو الطريق الواضح المستقيم ، الذي يوصلكم إلى عز الدنيا ، وسعادة الآخرة.

وقوله ـ سبحانه ـ ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ استئناف مسوق لتأكيد النهى عن طاعة الشيطان. ولتشديد التوبيخ لمن اتبع خطواته.

«وجبلا كثيرا» بمعنى : خلقا كثيرا حتى إنهم لكثرتهم كالجبل العظيم.

ولفظ «جبلّا» قرأه نافع وعاصم ـ بكسر الجيم والباء ، وقرأه ابن كثير وحمزة والكسائي ﴿جِبِلًّا﴾ بضم الجيم وتسكين الباء مع تخفيف اللام وجميع القراءات بمعنى واحد. أى : ولقد أغوى الشيطان منكم يا بنى آدم خلقا كثيرا ، فهل عقلتم ذلك ، واتعظتم بما فعله مع كثير من أبناء جنسكم ، وأخلصتم لنا العبادة والطاعة ، واتخذتم الشيطان عدوا لكم كما صرح بعداوتكم. وبالعمل على إغوائكم.

قال ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ، إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ﴾ (١).

وقال ـ سبحانه ـ حكاية عنه. ﴿قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٢).

وبعد هذا التوبيخ لمن أطاعوا الشيطان ، يقال لهم في النهاية : ﴿هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

أى : هذه جهنم ماثلة أمام أعينكم أيها الكافرون ، وهي التي كنتم توعدون بها في الدنيا. وكنتم تقابلون ذلك بالسخرية والتكذيب.

---

(١) سورة فاطر آية ٦.

(٢) سورة ص الآيتان ٨٢ ، ٨٣.

﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أى : ذوقوا حرها ولهيبها وسعيرها ، بسبب كفركم في الدنيا ، وموتكم على هذا الكفر.

والأمر في قوله ـ تعالى ـ : ﴿اصْلَوْهَا﴾ للتحقير والإهانة ، كما في قوله ـ تعالى ـ : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ والذين يأمروهم بذلك هم خزنة النار ، بأمر من الله ـ تعالى ـ ثم تنتقل السورة الكريمة فتحكى لنا جانبا آخر من أحوال الكافرين في هذا اليوم العصيب ، كما تحكى لنا جانبا من مظاهر قدرة الله ـ تعالى ـ فتقول :

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) وَلَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (٦٦) وَلَوْ نَشاءُ لَمَسَخْناهُمْ عَلى مَكانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا وَلا يَرْجِعُونَ (٦٧) وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ﴾ (٦٨)

والمراد باليوم في قوله ـ تعالى ـ : ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ ...﴾ يوم القيامة.

وقوله : ﴿نَخْتِمُ﴾ من الختم ، والختم الوسم على الشيء بطابع ونحوه. مأخوذ من وضع الخاتم على الشيء وطبعه فيه للاستيثاق ، لكي لا يخرج منه ما هو بداخله ، ولا يدخله ما هو خارج عنه.

أى : في يوم القيامة نختم على أفواه الكافرين فنجعلها لا تنطق ، وإنما تكلمنا أيديهم ، وتشهد عليهم أرجلهم بما كانوا يكسبونه في الدنيا من أقوال باطلة ، وأفعال قبيحة.

قالوا : وسبب الختم على أفواههم ، أنهم أنكروا أنهم كانوا مشركين في الدنيا ، كما حكى عنهم ـ سبحانه ـ ذلك في قوله ـ تعالى ـ : ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا وَاللهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [1].

---

(١) سورة الأنعام آية ٢٣.

أو ليكونوا معروفين لأهل الموقف في ذلك اليوم العصيب ، أو لأن إقرار غير الناطق أبلغ في الحجة من إقرار الناطق ، أو ليعلموا أن أعضاءهم التي ارتكبت المعاصي في الدنيا ، قد صارت شهودا عليهم في الآخرة.

وجعل ـ سبحانه ـ ما تنطق به الأيدى كلاما ، وما تنطق به الأرجل شهادة ، لأن مباشرة المعاصي ـ غالبا ـ تكون بالأيدى ، أما الأرجل فهي حاضرة لما ارتكب بالأيدى من سيئات ، وقول الحاضر على غيره شهادة بما له ، أما قول الفاعل فهو إقرار ونطق بما فعله.

قال الجمل : وقال الكرخي : أسند سبحانه فعل الختم إلى نفسه ، وأسند الكلام والشهادة إلى الأيدى والأرجل ، لئلا يكون فيه احتمال أن ذلك منهم كان جبرا ، أو قهرا. والإقرار مع الإجبار غير مقبول. فقال : تكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم ، أى باختيارها بعد إقدار الله لها على الكلام ، ليكون أدل على صدور الذنب منهم (١).

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات جملة من الأحاديث. التي صرحت بأن أعضاء الإنسان تشهد عليه يوم القيامة بما ارتكبه في الدنيا من سيئات. ومن تلك الأحاديث ما جاء عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : كنا عند النبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه ، ثم قال : «أتدرون مم أضحك؟ قلنا : الله ورسوله أعلم. قال من مجادلة العبد ربه يوم القيامة.

يقول : رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول : بلى ، فيقول : لا أجيز علىّ إلا شاهدا من نفسي ، فيقول الله ـ تعالى ـ له : كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ، وبالكرام الكاتبين شهودا.

قال : فيختم على فيه ، ويقال لأركانه ـ أى لأعضائه ـ : انطقى. فتنطق بما عمله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام ، فيقول : بعدا وسحقا فعنكن كنت أناضل». (٢).

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ. حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣). ثم بين ـ سبحانه ـ أن هؤلاء الكافرين هم في قبضته في كل وقت فقال : ﴿وَلَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٥٢٢.

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٧٢ ، وتفسير القرطبي ج ١٥ ص ٤٨.

(٣) سورة فصلت الآية ١٩ ، ٢٠.

وقوله : ﴿لَطَمَسْنا﴾ الطمس إزالة أثر الشيء عن طريق محوه. يقال : طمست الشيء طمسا ـ من باب ضرب ـ بمعنى محوته وأزلت أثره ، والمطموس والطميس الأعمى. ومفعول المشيئة محذوف. والصراط : الطريق وهو منصوب بنزع الخافض.

أى : ولو نشاء طمس أعينهم بأن نمحو عنها الرؤية والإبصار لفعلنا ، ولكنا لم نفعل بهم ذلك فضلا منا عليهم ، ورحمة بهم ، فكان من الواجب عليهم أن يقابلوا نعمنا بالشكر لا بالكفر.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ﴾ معطوف على ﴿لَطَمَسْنا﴾ على سبيل الفرض.

أى : لو نشاء محو أبصارهم لمحوناها ، فلو أرادوا في تلك الحالة المبادرة إلى الطريق ليسيروا فيه ، أو ليعبروه لما استطاعوا ذلك. لأنهم كيف يستطيعون ذلك وهم لا يبصرون شيئا.

فالاستفهام في قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ لاستبعاد اجتيازهم الطريق ، ونفى قدرتهم على التصرف.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَلَوْ نَشاءُ لَمَسَخْناهُمْ عَلى مَكانَتِهِمْ ، فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا وَلا يَرْجِعُونَ﴾ والمسخ : تبديل الخلقة وتحويلها من حال إلى حال ، ومن هيئة إلى هيئة.

أى : وفي قدرتنا إذا شئنا ، أن نغير صورهم الإنسانية إلى صور أخرى قبيحة ، كأن نحولهم إلى قردة أو حيوانات وهم ﴿عَلى مَكانَتِهِمْ﴾ أى : وهم في مكانهم الذي يقيمون فيه ﴿فَمَا اسْتَطاعُوا﴾ بسبب هذا المسخ ﴿مُضِيًّا﴾ أى : ذهابا إلى مقاصدهم ﴿وَلا يَرْجِعُونَ﴾ أى : ولما استطاعوا ـ أيضا ـ إذا ذهبوا أن يرجعوا.

أى : في إمكاننا أن نمسخهم وهم جالسون في أماكنهم ، فلا يقدرون أن يمضوا إلى الأمام ، أو أن يعودوا إلى الخلف.

فالمقصود بالآيتين الكريمتين تهديدهم على استمرارهم في كفرهم ، وبيان أنهم تحت قدرة الله ـ تعالى ـ وفي قبضته ، وأنه ـ سبحانه ـ قادر على أن يفعل بهم ما يشاء من طمس للأبصار ، ومن مسخ للصور ، ومن غير ذلك مما يريده ـ تعالى ـ.

ثم بين ـ سبحانه ـ أحوال الإنسان عند ما يتقدم به العمر فقال : ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ﴾.

وقوله : ﴿نُعَمِّرْهُ﴾ من التعمير ، بمعنى إطالة العمر.

قال القرطبي : وقوله : ﴿نُنَكِّسْهُ﴾ قرأه عاصم وحمزة ـ بضم النون الأولى وتشديد

الكاف ـ من التنكيس. وقرأه الباقون : ﴿نُنَكِّسْهُ﴾ ـ بفتح النون الأولى وضم الكاف ـ من نكست الشيء أنكسه نكسا إذا قلبته على رأسه فانتكس.

قال قتادة : المعنى : أنه يصير إلى حال الهرم الذي يشبه حال الصبا ... قال الشاعر :

من عاش أخلقت الأيام جدّته وخانه ثقتاه السمع والبصر

فطول العمر يصير الشباب هرما ، والقوة ضعفا ، والزيادة نقصا .. وقد استعاذ النبي ﷺ من أن يرد إلى أرذل العمر ..» [1].

والمعنى : «ومن نطل عمره ننكسه في الخلق» أى : نرده إلى أرذل العمر ، فنجعله ـ بقدرتنا ـ ضعيفا بعد أن كان قويا ، وشيخا بعد أن كان شابا فتيا ، وناقص العقل بعد أن كان مكتمله ... ﴿أَفَلا يَعْقِلُونَ﴾ ذلك ـ أيها الناس ـ مع أنه من الأمور المشاهدة أمام أبصاركم ، وتعرفون أن من قدر على تحويل الإنسان من ضعف إلى قوة ، ومن قوة إلى ضعف .. قادر ـ أيضا ـ على إعادته إلى الحياة مرة أخرى بعد موته.

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً ، يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [2].

وقوله ـ سبحانه ـ ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ [3].

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد هددت الكافرين بسوء المصير إذا استمروا في كفرهم ، وبينت جانبا من فضل الله ـ تعالى ـ عليهم ، لعلهم يفيئون إلى رشدهم ، ويشكرونه على نعمه.

ثم رد ـ سبحانه ـ على الكافرين الذين وصفوا النبي ﷺ بأنه شاعر ، كما قالوا عن القرآن أنه شعر ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (٦٩) لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ﴾ (٧٠)

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٥١.

(٢) سورة الروم آية ٥٤.

(٣) سورة النحل الآية ٧٠.

أى : وما علّمنا الرسول ﷺ الشعر وإنما الذي علمناه إياه هو القرآن الكريم ، المشتمل على ما يسعد الناس في دنياهم وفي آخرتهم.

فالمقصود من هذه الجملة الكريمة ، نفى أن يكون القرآن شعرا بأبلغ وجه لأن الذي علمه الله . تعالى . لنبيه هو القرآن وليس الشعر ، وما دام الأمر كذلك فالقرآن ليس شعرا.

وقوله . تعالى . : ﴿وَما يَنْبَغِي لَهُ﴾. أى : ما علمناه الشعر ، وإنما علمناه القرآن ، فقد اقتضت حكمتنا أن لا نعجل الشعر في طبعه ﷺ ولا في سليقته ، فحتى لو حاوله . على سبيل الفرض . فإنه لا يتأتى له ، ولا يسهل عليه ولا يستقيم مع فطرته ﷺ .

والضمير في قوله . تعالى . : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ يعود إلى القرآن الكريم : أى : ما هذا القرآن الكريم إلا ذكر من الأذكار النافعة ، والمواعظ الناجحة ، والتوجيهات الحكيمة ، وهو في الوقت نفسه ﴿قُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ أى : كتاب مقروء من الكتب السماوية الواضحة ، التي لا تختلط ولا تلتبس بكلام البشر.

وقد أنزلناه على الرسول الكريم ﴿لِيُنْذِرَ﴾ به ﴿مَنْ كانَ حَيًّا﴾.

أى : من كان مؤمنا عاملا ذا قلب حي ، ونفس نقية ، وأذن واعية ، لأن من كانت هذه صفاته انتفع بالإنذار والتذكير.

﴿وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ﴾ أى : أن من كان ذا قلب فإنه ينتفع بالإنذار ، أما من كان مصرا على كفره وضلاله ، فإن كلمة العذاب قد حقت عليه ، وصارت نهايته الإلقاء به في جهنم وبئس القرار.

وقد تكلم المفسرون هنا كلاما مفصلا. عن كون القرآن ليس شعرا ، وكون الرسول ﷺ ليس شاعرا ، وعلى رأسهم صاحب الكشاف فقد قال ما ملخصه : كانوا يقولون لرسول الله ﷺ إنه شاعر. فرد عليهم بقوله : ﴿وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ﴾ أى : أن القرآن ليس بشعر ، وأين هو من الشعر. والشعر إنما هو كلام موزون مقفى يدل على معنى ، فأين الوزن؟ وأين التقفية؟

وأين المعاني التي ينتحيها الشعراء من معانيه؟ وأين نظم كلامهم من نظمه وأساليبه ...

﴿وَما يَنْبَغِي لَهُ﴾ أى : وما يصح له ، ولا يتطلبه إن طلبه ، أى : جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يتأت له ، ولم يتسهل كما جعلناه أميا .. لتكون الحجة أثبت ، والشبهة أدحض ...

فإن قلت : فقوله :

أنـــــا النــــــــبي لا كــــــــذب أنــــا ابــــن عبــــد المطلـــــب

قلت : ما هو إلا كلام من جنس كلامه ﷺ الذي كان يرمى به على السليقة. من غير صنعة ولا تكلف ، إلا أنه اتفق ذلك من غير قصد إلى ذلك ، ولا التفات منه إذا جاء موزونا ، كما يتفق في كثير من إنشاءات الناس في خطبهم ورسائلهم ، أشياء موزونة ، ولا يسميها أحد شعرا ، ولا يخطر ببال السامع ولا المتكلم أنها شعر ...» [1].

ثم ذكر ـ سبحانه ـ المشركين ببعض النعم التي أسبغها عليهم ، والتي يرونها بأعينهم ، ويعلمونها بعقولهم ، وسلّى النبي ﷺ عما لقيه منهم ، فقال ـ تعالى ـ :

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً فَهُمْ لَها مالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْناها لَهُمْ فَمِنْها رَكُوبُهُمْ وَمِنْها يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيها مَنافِعُ وَمَشارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (٧٤) لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (٧٥) فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ (٧٦))

والاستفهام في قوله ـ تعالى ـ : (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً ...) للإنكار والتعجب من أحوال هؤلاء المشركين ، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام.

والأنعام : جمع نعم : وهي الإبل والبقر والغنم.

والمعنى : أعمى هؤلاء المشركون عن مظاهر قدرتنا ، ولم يروا بأعينهم ، ولم يعلموا بعقولهم. أنا خلقنا لهم مما عملته أيدينا. وصنعته قدرتنا. أنعاما كثيرة هم لها مالكون يتصرفون فيها تصرف المالك في ملكه.

وأسند ـ سبحانه ـ العمل إلى الأيدى ، للإشارة إلى أن خلق هذه الأنعام كان بقدرته

---

(١) راجع تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢٩. وراجع تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ٤٧.

ـ تعالى ـ وحده دون أن يشاركه في ذلك مشارك، أو يعاونه معاون. كما يقول القائل: هذا الشيء فعلته بيدي وحدي، للدلالة على تفرده بفعله.

والتعبير بقوله ـ تعالى ـ ﴿لَهُمْ﴾ للإشعار بأن خلق هذه الأنعام إنما حدث لمنفعتهم ومصلحتهم.

وما في قوله ﴿مِمَّا عَمِلَتْ﴾ موصولة. والعائد محذوف. أى: مما عملته أيدينا.

وقوله: ﴿فَهُمْ لَها مالِكُونَ﴾ بيان لإحدى المنافع المترتبة على خلق هذه الأنعام لهم.

أما المنافع الأخرى فقد جاءت بعد ذلك في قوله: ﴿وَذَلَّلْناها لَهُمْ ...﴾ أى: وجعلنا هذه الأنعام مذللة ومسخرة لهم، بحيث أصبحت في أيديهم سهلة القيادة، مطواعة لما يريدونه منها، يقودونها فتنقاد للصغير والكبير. كما قال القائل:

لقد عظم البعير بغير لبّ فلم يستغن بالعظم البعير
يصرّفه الصبى بكل وجه ويحبسه على الخسف الجرير [1]
وتضربه الوليدة بالهراوى فلا غير لديه ولا نكير [2]

ففي هذه الجملة الكريمة تذكير لهم بنعمة تسخير الأنعام لهم، ولو شاء ـ سبحانه ـ لجعلها وحشية بحيث ينفرون منها.

والفاء في قوله: ﴿فَمِنْها رَكُوبُهُمْ وَمِنْها يَأْكُلُونَ﴾ تفريع على ما تقدم وركوب بمعنى مركوب.

أى: وصيرنا هذه الأنعام مذللة ومسخرة لهم، فمنها ما يستعملونه في ركوبهم والانتقال عليها من مكان إلى آخر، ومنها ما يستعملونه في مآكلهم عن طريق ذبحه.

وفضلا عن كل ذلك، فإنهم «لهم» في تلك الأنعام «منافع» أخرى غير الركوب وغير الأكل كالانتفاع بها في الحراثة وفي نقل الأثقال ... ولهم فيها ـ أيضا ـ «مشارب» حيث يشربون من ألبانها.

والاستفهام في قوله: ﴿أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾ للتحضيض على الشكر، أى: فهلا يشكرون الله ـ تعالى ـ على هذه النعم، ويخلصون له العبادة والطاعة.

ثم بين ـ سبحانه ـ موقفهم الجحودى من هذه النعم فقال: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ﴾.

---

(١) الجرير. الحبل الذي يربط به البعير.

(٢) فلا غير لديه ولا نكير: أى فلا غيرة لديه ولا إنكار منه لما ينزل به من خسف.

أى : إن هؤلاء الكافرين لم يقابلوا نعمنا عليهم بالشكر ، وإنما قابلوها بالجحود والبطر. فقد تركوا عبادتنا ، واتخذوا من دوننا آلهة أخرى لا تنفع ولا تضر ، متوهمين أنها تنصرهم عند ما يطلبون نصرها. وراجين أن تدفع عنهم ضرا عند التماس ذلك منها.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ..﴾ دفع لما توهموه من نصرهم ونفى لما توقعوه من نفعهم.

أى : هذه الآلهة المزعومة ، لا يستطيعون نصر هؤلاء الكافرين. لأنهم أعجز من أن ينصروا أنفسهم ، فضلا عن نصرهم لغيرهم.

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿لا يَسْتَطِيعُونَ﴾ بالواو والنون على طريقة جمع العقلاء بناء على زعم المشركين أن هذه الأصنام تنفع أو تضر أو تعقل.

والضمير «هم» في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ يعود إلى المشركين ، والضمير في قوله ﴿لَهُمْ﴾ يعود إلى الآلهة المزعومة.

أى : وهؤلاء الكفار ـ لجهالتهم وانطماس بصائرهم ـ قد صاروا في الدنيا بمنزلة الجند الذين أعدوا أنفسهم لخدمة هذه الآلهة والدفاع عنها. والحضور عندها لخدمتها ، ورعايتها وحفظها.

ويرى بعضهم أن الضمير «هم» للآلهة ، والضمير في «لهم» للمشركين ، عكس القول الأول ، فيكون المعنى : وهؤلاء الآلهة لا يستطيعون نصر المشركين وهم أى الآلهة ـ «لهم» أى : للمشركين ، «جند محضرون» أى : جند محضرون معهم إلى النار ، ليلقوا فيها كما يلقى الذين عبدوهم ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ﴾.

والفاء في قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ للإفصاح. أى : إذا كان حال هؤلاء المشركين كما ذكرنا لك ـ أيها الرسول الكريم من الجهالة والغفلة ، فأعرض عنهم ، ولا تحزن عليهم ، ولا تبال بأقوالهم.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ﴾ تعليل للنهى عن الحزن بسبب أقوالهم. أى لا تحزن ـ أيها الرسول الكريم ـ بسبب أقوالهم الباطلة ، فإنا نعلم علما تاما ما يسرونه من حقد عليك ، وما يعلنونه من أعمال قبيحة ، وسنعاقبهم على كل ذلك العقاب الذي يستحقونه.

فالآية الكريمة تسلية للرسول صلّى الله عليه وسلّم عما كان يلقاه من هؤلاء المشركين.

ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة ، بإقامة الأدلة الساطعة على أن البعث حق ، وعلى أن قدرته ـ تعالى ـ لا يعجزها شيء ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٣)

وقد ذكروا في سبب نزول هذه الآيات ، أن أبيّ بن خلف جاء إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم ، وهو يفتته ويذريه في الهواء ويقول : يا محمد ، أتزعم أن الله يبعث هذا؟ فقال ﷺ : نعم. يميتك الله ـ تعالى ـ ثم يبعثك ، ثم يحشرك إلى النار». ونزلت هذه الآيات إلى آخر السورة ...

والمراد بالإنسان : جنسه. ويدخل فيه المنكرون للبعث دخولا أوليا.

وأصل النطفة : الماء القليل الذي يبقى في الدلو أو القربة. وجمعها نطف ونطاف. يقال : نطفت القربة ، إذا تقاطر ماؤها بقلة.

والمراد بها هنا : المنى الذي يخرج من الرجل ، إلى رحم المرأة.

والخصيم : الشديد الخصام والجدال لغيره ، والمراد به هنا : الكافر والمجادل بالباطل.

والمعنى : أبلغ الجهل بهذا الإنسان ، أنه لم يعلم أنا خلقناه بقدرتنا ، من ذلك الماء المهين

الذي يخرج من الرجل فيصب في رحم المرأة ، وأن من أوجده من هذا الماء قادر على أن يعيده إلى الحياة بعد الموت.

لقد كان من الواجب عليه أن يدرك ذلك ، ولكنه لغفلته وعناده ، بادر بالمبالغة في الخصومة والجدل الباطل. وجاهر بذلك مجاهرة واضحة ، مع علمه بأصل خلقته.

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله ـ تعالى ـ : ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان بطلان إنكارهم البعث ، بعد ما شاهدوا في أنفسهم ما يوجب التصديق به ... والهمزة للإنكار والتعجب من أحوالهم ، وإيراد الإنسان مورد الضمير ، لأن مدار الإنكار متعلق بأحواله من حيث هو إنسان. والمراد بالإنسان الجنس. والخصيم إنما هو الكافر المنكر للبعث مطلقا.

وقوله : ﴿فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ عطف على الجملة المنفية ، داخل في حيز الإنكار والتعجب كأنه قيل : أو لم ير أنا خلقناه من أخس الأشياء وأمهنها ، فأظهر الخصومة في أمر يشهد بصحته مبدأ فطرته شهادة بينة ...» (١).

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ معطوف على الكلام المتقدم ، وداخل في حيز الإنكار.

أى : أن هذا الإنسان الجاهل المجادل بالباطل ، لم يكتف بذلك ، بل ضرب لنا مثلا هو في غاية الغرابة ، حيث أنكر قدرتنا على إحياء الموتى ، وعلى بعثهم يوم القيامة ، فقال : ـ دون أن يفطن إلى أصل خلقته ـ من يحيى العظام وهي رميم ، أى : وهي بالية أشد البلى. فرميم بزنة فعيل بمعنى فاعل. من رمّ اللازم بمعنى بلى ، أو بمعنى مفعول ، من رم المتعدى بمعنى أبلى. يقال : رمه إذا أبلاه. فيستوى فيه المذكر والمؤنث.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم سمى قوله : ﴿مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ مثلا؟

قلت : لما دل عليه من قصة عجيبة شبيهة بالمثل ، وهي إنكار قدرة الله ـ تعالى ـ على إحياء الموتى .. مع أن ما أنكر من قبيل ما يوصف الله ـ تعالى ـ بالقدرة عليه ، بدليل النشأة الأولى .. (٢).

ثم لقن الله ـ تعالى ـ رسوله ﷺ الجواب الذي يخرس ألسنة المنكرين للبعث فقال : ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ ...

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ٥٣.

(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٣٠.

أى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء الجاهلين المنكرين لإعادة الحياة إلى الأجساد بعد موتها ، قل لهم : يحيى هذه الأجسام والأجساد البالية ، الله ـ تعالى ـ الذي أوجدها من العدم دون أن تكون شيئا مذكورا ، ومن قدر على إيجاد الشيء من العدم قادر من باب أولى على إعادته بعد هلاكه. وهو ـ سبحانه ـ بكل شيء في هذا الوجود عليم علما تاما ، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، سواء أكان هذا الشيء صغيرا أم كبيرا ، مجموعا أم مفرقا.

قال الشوكانى : وقد استدل أبو حنيفة وبعض أصحاب الشافعى بهذه الآية على أن العظام مما تحله الحياة ـ أى أنها بعد الموت تكون نجسة.

وقال الشافعى : لا تحله الحياة ، وأن المراد بقوله : ﴿مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ﴾ من يحيي أصحاب العظام على تقدير مضاف محذوف. ورد بأن هذا التقدير خلاف الظاهر» [1].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ دليل آخر على إمكانية البعث وهو بدل من قوله ـ تعالى ـ قبل ذلك : ﴿الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ ...﴾.

والمراد بالشجر الأخضر : الشجر النّدى الرطب ، كشجر المرخ والعفار وهما نباتان أخضران إذا ضرب أحدهما بالآخر اتقدت منهما شرارة نار بقدرة الله ـ تعالى ..

قال ابن كثير ؛ المراد بذلك سرح ـ أى : شجر المرخ والعفار. ينبت بأرض الحجاز فيأتى من أراد قدح نار وليس معه زناد ، فيأخذ منه عودين أخضرين ، ويقدح أحدهما بالآخر ، فتتولد النار من بينهما ، كالزناد سواء سواء.

روى هذا عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وفي المثل : «لكل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار» [2].

أى : لكل شجر حظ من النار ، ولكن أكثر الأشجار حظا من النار : المرخ والعفار. فهو مثل يضرب في تفضيل بعض الشيء على بعض.

أى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء المنكرين للبعث ، يحيى الأجساد البالية الله ـ تعالى ـ الذي أنشأها أول مرة ، والذي جعل لكم ـ بفضله ورحمته وقدرته ـ من الشجر الأخضر الرطب نارا ، فإذا أنتم من هذا الشجر الأخضر توقدون النار. وتنتفعون بها في كثير

---

(١) تفسير فتح القدير ج ٤ ص ٣٨٣.

(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٨١.

من أحوال حياتكم.

وإذا فمن قدر على إحداث النار من الشجر الأخضر ـ مع ما فيه من المائية المضادة لها ـ كان أقدر على إعادة الأجساد بعد فنائها.

ثم أضاف ـ سبحانه ـ إلى توبيخهم على جهلهم وكفرهم توبيخا آخر. فقال : ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾.

والاستفهام ـ كسابقه ـ للإنكار والتعجيب من جهالاتهم ، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام والضمير في «مثلهم» يعود إلى المنكرين للبعث.

والمعنى : إن من قدر على خلق السموات والأرض ـ وهما في غاية العظم ـ قادر من باب أولى على إعادة خلق البشر ، الذي هو صغير الشكل ، ضعيف القوة.

وجملة : ﴿بَلى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ جواب من جهته ـ تعالى ـ وتصريح بما أفاده الاستفهام الإنكارى ، من تقرير ما بعد النفي ، وتأكيد قدرته ـ سبحانه ـ على الخلق والإعادة. لأن «بلى» حرف جواب ، يؤتى به لإثبات فعل ورد قبله منفيا.

أى : بلى إنه لقادر ـ سبحانه ـ على أن يخلق مثلهم ، وعلى أن يعيدهم للحياة مرة أخرى ، وهو ـ سبحانه ـ «الخلاق» أى : الكثير المخلوقات «العليم» أى : الكثير العلم بحيث لا يخفى عليه شيء.

ثم أكد ـ سبحانه ـ شمول قدرته لكل شيء فقال : ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

أى : إنما شأنه ـ سبحانه ـ في إيجاد الشيء ، أنه إذا أراد إحداثه ، أن يقول له كن ، أى : كن موجودا فيكون ، أى : فهذا الشيء يكون ويوجد في الحال ... قال الشاعر :

إذا ما أراد الله أمرا فإنما ... يقول له «كن» قولة فيكون

ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة بتنزيهه ـ تعالى ـ عن كل نقص ، فقال ﴿فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

أى : فتنزه الله ـ تعالى ـ الذي له ملك كل شيء ملكا تاما ، والذي إليه المرجع والمآب ، عن كل ما يقوله الكافرون من عدم قدرته على إحياء الموتى.

فهو ـ سبحانه ـ لا يعجزه شيء ، ولا يخفى على علمه شيء ، ولا يحول دون قدرته شيء ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبارَكَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ﴾.

وبعد : فهذا تفسير محرر لسورة «يس» نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصبحه وسلم.

كتبه الراجي عفو ربه

د. محمد سيد طنطاوى.

القاهرة ـ مدينة نصر : صباح الثلاثاء ٥ من ذي القعدة سنة ١٤٠٥ ه‍ ـ الموافق ٢٣ / ٧ / ١٩٨٥ م

تفسير

سورة الصّافّات

بسم الله الرّحمن الرّحيم

مقدمة وتمهيد

١ . سورة الصافات هي السورة السابعة والثلاثون في ترتيب المصحف ، وكان نزولها كما ذكر صاحب الإتقان . بعد سورة «الأنعام» [١].

ومعنى ذلك أن نزولها كان في السنة الرابعة أو الخامسة من البعثة ، لأننا قد سبق أن قلنا عند تفسيرنا لسورة الأنعام ، أنه يغلب على الظن أن نزولها كان في السنة الرابعة من البعثة [٢].

٢ . قال الآلوسى : هي مكية ولم يحكوا في ذلك خلافا. وهي مائة وإحدى وثمانون آية عند البصريين ، ومائة واثنتان وثمانون آية عند غيرهم [٣].

وتعتبر هذه السورة . من حيث عدد الآيات . السورة الثالثة من بين السور المكية ، ولا يفوقها في ذلك سوى سورتي الأعراف والشعراء.

٣ . وسميت بهذا الاسم لافتتاحها بقوله . تعالى . : ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾. وقد سماها بعض العلماء بسورة «الذبيح» ، وذلك لأن قصة الذبيح لم تأت في سور أخرى سواها.

٤ . وقد افتتحت سورة «الصافات» بقسم من الله . تعالى . بجماعات من خلقه على أن الألوهية والربوبية الحقة إنما هي لله . تعالى . وحده ، ثم أقام . سبحانه . بعد ذلك ألوانا من الأدلة على صدق هذه القضية ، منها خلقه للسموات والأرض وما بينهما ، ومنها تزيينه لسماء الدنيا بالكواكب.

قال . تعالى . : ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا فَالزَّاجِراتِ زَجْراً. فَالتَّالِياتِ ذِكْراً. إِنَّ إِلهَكُمْ لَواحِدٌ. رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَرَبُّ الْمَشارِقِ. إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ. وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ﴾.

٥ . ثم حكى . سبحانه . بعض الشبهات التي تذرع بها المشركون في إنكارهم للبعث

---

(١) راجع الإتقان في علوم القرآن ج ١ ص ٢٧.

(٢) راجع مقدمة تفسير سورة الانعام للمؤلف.

(٣) تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ٦٤.

والحساب ، ورد عليها بما يمحقها ، فقال . تعالى . : ﴿وَقالُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ. أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ. أَوَآباؤُنَا الْأَوَّلُونَ. قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ داخِرُونَ. فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾.

٦ . وبعد أن بين . سبحانه . سوء عاقبة هؤلاء المشركين ، وتوبيخ الملائكة لهم ، وإقبال بعضهم على بعض للتساؤل والتخاصم .. بعد كل ذلك بين . سبحانه . حسن عاقبة المؤمنين ، فقال . تعالى .. ﴿وَما تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ : إِلَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ. أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ. فَواكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ. فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ. عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ. يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ. بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ. لا فِيها غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ﴾.

٧ . ثم حكى . سبحانه . جانبا من المحاورات التي تدور بين أهل الجنة وأهل النار ، وكيف أن أهل الجنة يتوجهون بالحمد والشكر لخالقهم ، حيث أنعم عليهم بنعمة الإيمان ، ولم يجعلهم من أهل النار الذين يأكلون من شجرة الزقوم.

قال . تعالى . : ﴿إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ. أَذلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ. إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ. إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ، طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ. فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْها فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾.

٨ . ثم ساق . سبحانه . بعد ذلك جانبا من قصة نوح مع قومه ، ومن قصة إبراهيم مع قومه. ومع ابنه إسماعيل . عليهما السلام .

ومن قصة موسى وهارون وإلياس ولوط ويونس . عليهم الصلاة والسلام ..

٩ . ثم أخذت السورة الكريمة . في أواخرها . في توبيخ المشركين الذين جعلوا بين الله . سبحانه . وبين الملائكة نسبا ، ونزه . سبحانه . ذاته عن ذلك. وهدد أولئك الكافرين بأشد ألوان العذاب بسبب كفرهم وأقوالهم الباطلة.

وبين بأن عباده المؤمنين هم المنصورون ، وختم . سبحانه . السورة الكريمة بقوله : ﴿سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ، وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾.

١٠ . والمتأمل في هذه السورة الكريمة . بعد هذا العرض المجمل لآياتها . يراها بأنها قد اهتمت بإقامة الأدلة على وحدانية الله . تعالى . ، وعلى أن البعث حق ، وعلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم صادق فيما يبلغه عن ربه ، وذلك لكي تغرس العقيدة السليمة في النفوس .. كما يراها تهتم بحكاية أقوال المشركين وشبهاتهم .. ثم ترد على تلك الأقوال والشبهات بما يزهقها ويبطلها.

كما يراها ـ كذلك ـ تسوق ألوانا من المحاورات التي تدور بين المشركين فيما بينهم عند ما يحيط بهم العذاب يوم القيامة ، وألوانا من المحاورات التي تدور بينهم وبين أهل الجنة الذين نجاهم الله ـ تعالى ـ من النار وسعيرها.

كما يراها ـ أيضا ـ تسوق لنا نماذج من قصص الأنبياء مع أقوامهم ، تارة بشيء من التفصيل كما في قصة إبراهيم مع قومه ، وتارة بشيء من التركيز والإجمال كما في بقية قصص الأنبياء الذين ورد الحديث عنهم فيها.

وتمتاز بعرضها للمعاني والأحداث بأسلوب مؤثر. ترى فيه قصر الفواصل وكثرة المشاهد ، والمواقف. مما يجعل القارئ لآياتها في شوق إلى ما تسوقه من نتائج.

نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا وأنس نفوسنا.

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه الراجي عفو ربه

د. محمد سيد طنطاوى

القاهرة ـ مدينة نصر

مساء الجمعة ٨ من ذي القعدة سنة ١٤٠٥ ه‍

٢٦ / ٧ / ١٩٨٥

«تفسير»

قال الله ـ تعالى ـ :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِراتِ زَجْراً (٢) فَالتَّالِياتِ ذِكْراً (٣) إِنَّ إِلهَكُمْ لَواحِدٌ (٤) رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَرَبُّ الْمَشارِقِ﴾ (٥)

والواو في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَالصَّافَّاتِ﴾ للقسم. وجوابه قوله : ﴿إِنَّ إِلهَكُمْ لَواحِدٌ﴾.

و «الصافات» من الصف ، وهو أن تجعل الشيء على خط مستقيم. تقول : صففت القوم فاصطفوا ، إذا أقمتهم على خط مستقيم. سواء أكانوا في الصلاة ، أم في الحرب ، أم في غير ذلك.

و «الزاجرات» : من الزجر ، وهو الدفع بقوة. تقول : زجرت الإبل زجرا ـ من باب قتل ـ إذا منعتها من الدخول في شيء ودفعتها إلى غيره.

و «التاليات» : من التلاوة ، بمعنى القراءة في تدبر وتأمل.

وأكثر المفسرين على أن المراد بالصافات والزاجرات والتاليات : جماعة من الملائكة. موصوفة بهذه الصفات.

فيكون المعنى : وحق الملائكة الذين يصفون أنفسهم صفا لعبادة الله ـ تعالى ـ وطاعته ، أو الذين يصفون أجنحتهم في السماء انتظارا لأمر الله ، والذين يزجرون غيرهم عن ارتكاب المعاصي ، أو يزجرون السحاب إلى الجهات التي كلفهم الله ـ تعالى ـ بدفعه إليها ، والذين يتلون آيات الله المنزلة على أنبيائه تقربا إليه ـ تعالى ـ وطاعة له.

وقد جاء وصف الملائكة بأنهم صافون في قوله ـ تعالى ـ في السورة نفسها : ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ. وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾.

كما جاء وصفهم بذلك فيما رواه مسلم في صحيحه عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ «فضلنا على الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض مسجدا. وجعلت لنا تربتها طهورا إذا لم نجد الماء» [(١)].

وفي حديث آخر رواه مسلم وغيره عن جابر بن سمره قال : قال رسول الله ﷺ : «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربهم»؟ قلنا : وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال : «يتمون الصفوف المتقدمة ، ويتراصون في الصف» [(٢)].

وجاء وصفهم بما يدل على أنهم يلقون الذكر على غيرهم من الأنبياء ، لأجل الإعذار والإنذار به. كما في قوله ـ تعالى ـ في أوائل المرسلات : ﴿فَالْمُلْقِياتِ ذِكْراً. عُذْراً أَوْ نُذْراً﴾.

قال الإمام ابن كثير : قوله : ﴿فَالتَّالِياتِ ذِكْراً﴾ هم الملائكة يجيئون بالكتاب والقرآن من عند الله إلى الناس ، وهذه الآية كقوله ـ تعالى ـ : ﴿فَالْمُلْقِياتِ ذِكْراً. عُذْراً أَوْ نُذْراً﴾ [(٣)] ومنهم من يرى أن المراد بالصافات والزاجرات والتاليات هنا : العلماء الذين يصفون أقدامهم عند الصلاة وغيرها من الطاعات ، ويزجرون غيرهم عن المعاصي ، ويتلون كلام الله ـ تعالى ..

ومنهم من يرى أن المراد بالصافات : الطيور التي تصف أجنحتها في الهواء وبالزاجرات وبالتاليات : جماعات الغزاة في سبيل الله ، الذين يزجرون أعداء الله ـ تعالى ـ : ويكثرون من ذكره.

ويبدو لنا أن القول الأول هو الأظهر والأرجح ، لأن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي سقناها قبل ذلك تؤيده ، ويؤيده ـ أيضا ـ ما يجيء بعد ذلك من أوصاف للملائكة كما في قوله ـ تعالى ـ : ﴿لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ﴾ والمراد بالملإ الأعلى هنا. الملائكة.

ولأن هذا القول هو المأثور عن جماعة من الصحابة والتابعين ، كابن مسعود وابن عباس ، ومسروق ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ومجاهد.

وإنما أقسم الله ـ تعالى ـ هنا بالملائكة ، لشرفهم ، وسمو منزلتهم وامتثالهم لأوامره.

---

(١) صحيح مسلم : في كتاب المساجد ج ٢ ص ٦٣.

(٢) صحيح مسلم كتاب الصلاة ج ٢ ص ٢٩.

(٣) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣.

سبحانه ـ امتثالا تاما وله ـ تعالى ـ أن يقسم بما شاء من خلقه ، تنويها بشأن المقسم ، ولفتا لأنظار الناس إلى ما فيه من منافع.

ولفظ «الصافات» مفعوله محذوف. والتقدير ، وحق الملائكة الصافات نفوسها أو أجنحتها طاعة وامتثالا لأمر الله ـ تعالى ..

والترتيب بالفاء في هذه الصفات ، على سبيل الترقي ، إذ الأولى كمال ، والثانية أكمل ، لتعدى منفعتها إلى الغير ، والثالثة أكمل وأكمل ، لتضمنها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والتخلي عن الرذائل ، والتحلي بالفضائل.

وقوله «صفا ، وزجرا ، وذكرا» مصادر مؤكدة لما قبلها.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿إِنَّ إِلهَكُمْ لَواحِدٌ﴾ جواب للقسم ، وهو المقسم عليه. أى : وحق الملائكة الذين تلك صفاتهم ، إن ربكم ـ أيها الناس ـ لواحد لا شريك له في ذاته ، ولا في صفاته ولا في أفعاله ، ولا في خلقه.

وقوله : ﴿رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَرَبُّ الْمَشارِقِ﴾ بدل من قوله ﴿لَواحِدٌ﴾ أو خبر بعد خبر لمبتدأ محذوف.

أى : إن إلهكم ـ أيها الناس ـ لواحد : هو ـ سبحانه ـ رب السموات والأرض ، ورب ما بينهما من مخلوقات كالهواء وغيره ، ورب المشارق التي تشرق منها الشمس في كل يوم على مدار العام ، إذ لها في كل يوم مشرق معين تشرق منه. ولها في كل يوم ـ أيضا مغرب تغرب فيه.

واكتفى هنا بذكر المشارق عن المغارب ، لأن كل واحد منهما يستلزم الآخر ، ولأن الشروق أدل على القدرة ، وأبلغ في النعمة ، ولأن الشروق سابق على الغروب ، وقد قال ـ تعالى ـ في آية أخرى : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ [1].

والمراد بهما هنا جنسهما ، فهما صادقان على كل مشرق من مشارق الشمس التي هي ثلاثمائة وستون مشرقا ـ كما يقول العلماء ـ وعلى كل مغرب من مغاربها التي هي كذلك.

وقال في سورة الرحمن : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ أى : مشرق الشتاء ومشرق الصيف ومغربهما ، أو مشرق الشمس والقمر ومغربهما.

وبذلك يتبين أنه لا تعارض بين مجيء هذه الألفاظ تارة مفردة ، وتارة على سبيل التثنية ،

---

(١) سورة المزمل الآية ٩.

وتارة على سبيل الجمع.

قال بعض العلماء: قوله ﴿وَرَبُّ الْمَشارِقِ﴾ أى: ولكل نجم مشرق، ولكل كوكب مشرق فهي مشارق كثيرة في كل جانب من جوانب السموات الفسيحة.

وللتعبير دلالة أخرى دقيقة في التعبير عن الواقع في هذه الأرض التي نعيش عليها كذلك. فالأرض في دورتها أمام الشمس تتوالى المشارق على بقاعها المختلفة. كما تتوالى المغارب، فكلما جاء قطاع منها أمام الشمس، كان هناك مشرق على هذا القطاع. وكان هناك مغرب على القطاع المقابل له في الكرة الأرضية.. وهي حقيقة ما كان يعرفها الناس في زمان نزول القرآن الكريم، أخبرهم الله ـ تعالى ـ بها في ذلك الزمان القديم..[1].

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك بعض مظاهر قدرته في خلقه لهذه السموات وكيف أنه ـ تعالى ـ قد زين السماء الدنيا بالكواكب. وحفظها من تسلل أى شيطان إليها فقال تعالى:

﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ (٦) وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ (٧) لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ (٨) دُحُوراً وَلَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ (٩) إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ﴾ (١٠)

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿زَيَّنَّا﴾ من التزيين بمعنى التحسين والتجميل. والمراد بالسماء الدنيا: السماء التي هي أقرب سماء إلى الأرض. فالدنيا مؤنث أدنى بمعنى أقرب.

والكواكب: جمع كوكب وهو النجم الذي يرى في السماء.

وقوله: ﴿بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ﴾ فيه ثلاث قراءات سبعية، فقد قرأ الجمهور بإضافة زينة إلى الكواكب. أى: بلا تنوين في لفظ «بزينة». وقرأ بعضهم بتنوين لفظ «زينة» وخفض لفظ الكواكب على أنه بدل منه. وقرأ بعضهم بتنوين لفظ ﴿بِزِينَةٍ﴾ ونصب لفظ الكواكب، على أنه مفعول لفعل محذوف أى: أعنى الكواكب.

والمعنى: إنا بقدرتنا وفضلنا زينا السماء الدنيا التي ترونها بأعينكم ـ أيها الناس ـ بالكواكب، فجعلناها مضيئة بحيث تهتدون بها في سيركم من مكان إلى مكان.

---

(١) في ظلال القرآن ج ٢٣ ص ٤٦.

كما قال ـ تعالى ـ في آية أخرى : ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَجَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ﴾ (١).

ومما لا شك أن منظر السماء وهي مليئة بالنجوم ، يشرح الصدور ، ويؤنس النفوس ، وخصوصا للسائرين في فجاج الأرض ، أو ظلمات البحر.

قوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ﴾ بيان لما أحاط به ـ سبحانه ـ السماء الدنيا من حفظ ورعاية.

ولفظ «حفظا» منصوب على المصدرية بإضمار فعل قبله. أى وحفظناها حفظا ، أو معطوف على محل «بزينة».

والشيطان : كل متمرد من الجن والإنس والدواب. والمراد به هنا : المتمرد من الجن.

والمارد : الشديد العتو والخروج عن طاعة الله ـ تعالى ـ المتعرى من كل خير.

أى : إنا جعلنا السماء الدنيا مزينة بالكواكب وضيائها ، وجعلناها كذلك محفوظة من كل شيطان متجرد من الخير ، خارج عن طاعتنا ورحمتنا.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى ، وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ. دُحُوراً وَلَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ﴾ جملة مستأنفة لبيان حالهم عند حفظ السماء ، وبيان كيفية الحفظ ، وما يصيبهم من عذاب وهلاك إذا ما حاولوا استراق السمع منها.

ولفظ «يسّمّعون» بتشديد السين ـ وأصله يتسمعون. فأدغمت التاء في السين والضمير للشياطين ، وقرأ الجمهور ﴿لا يَسَّمَّعُونَ﴾ بإسكان السين.

قال صاحب الكشاف : الضمير في «لا يسمعون» لكل شيطان ، لأنه في معنى الشياطين ، وقرئ بالتخفيف والتشديد. وأصله «يتسمعون». والتسمع : تطلب السماع. يقال : تسمع فسمع. أو فلم يسمع.

فإن قلت : أى فرق بين سمعت فلانا يتحدث ، وسمعت إليه يتحدث. وسمعت حديثه ، وإلى حديثه؟

قلت : المعدى بنفسه يفيد الإدراك ، والمعد بإلى يفيد الإصغاء مع الإدراك (٢).

والملأ في الأصل : الجماعة يجتمعون على أمر فيملئون النفوس هيبة ، والمراد بالملإ الأعلى هنا : الملائكة الذين يسكنون السماء.

---

(١) سورة الملك آية ٥.

(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٣٥.

وسموا بذلك لشرفهم ، ولأنهم في جهة العلو ، بخلاف غيرهم فإنهم يسكنون الأرض.

وقوله : ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ من القذف بمعنى الرجم والرمي ، و ﴿دُحُوراً﴾ مفعولا لأجله ، أى : يقذفون لأجل الدّحور ، وهو الطرد والإبعاد ، مصدر دحره يدحره دحرا ودحورا : إذا طرده وأبعده.

والواصب : الدائم ، من الوصوب بمعنى الدوام ، يقال : وصب الشيء يصب وصوبا ، إذا دام وثبت ، ومنه قوله : ﴿وَلَهُ الدِّينُ واصِباً﴾ أى : دائما ثابتا.

والمعنى : إنا زينا السماء الدنيا بنور الكواكب ، وحفظناها ـ بقدرتنا ورعايتنا ـ من كل شيطان متجرد من الخير ، فإن هذا الشيطان وأمثاله كلما حاولوا الاستماع إلى الملائكة في السماء ، لم نمكنهم من ذلك ، بل قذفناهم ورجمناهم بالشهب والنيران من كل جانب من جوانب السماء ، من أجل أن ندمرهم ونطردهم ونبعدهم عنها ، ولهم منا ـ فوق كل ذلك ـ عذاب دائم ثابت لا نهاية له.

وقوله : ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ استثناء من الواو في «يسمعون» و «من» في محل بدل من الواو.

والخطف : الأخذ للشيء بسرعة وخفية واختلاس وغفلة من المأخوذ منه.

أى : لا يسمع الشياطين إلى الملأ الأعلى ، إلا الشيطان الذي خطف الخطفة من كلام الملائكة بسرعة وخفة ، فيما يتفاوضون فيه من أحوال البشر ـ دون ما يتعلق بالوحي ـ فإنه في هذه الحالة يتبع هذا الشيطان ويلحقه ﴿شِهابٌ ثاقِبٌ﴾ أى : شعلة من النار تثقب الجو بضوئها فتهلكه وتحرقه وتثقبه وتمزقه.

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً. وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ. فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً﴾ (١).

ومما يدل على أن استراقهم للسمع ، واختطافهم للخطفة ، إنما يكون في غير الوحى ، قوله ـ تعالى ـ ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ (٢).

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : كانت للشياطين مقاعد في السماء فكانوا يستمعون الوحى قال : وكانت النجوم لا تجرى ، وكانت الشياطين لا ترمى. قال : فإذا سمعوا الوحى نزلوا إلى الأرض ، فزادوا في الكلمة تسعا. قال : فلما بعث رسول

---

(١) سورة الجن الآيتان ٨ ، ٩.

(٢) سورة الشعراء الآية ٢١٢.

الله ﷺ جعل الشيطان إذا قعد مقعده ، جاءه شهاب فلم يخطئه حتى يحرقه [1].

ثم أمر ـ سبحانه ـ رسوله ﷺ أن يوبخ المنكرين للبعث والحساب ، وحكى جانبا من أقوالهم الباطلة حول هذه القضية ، ورد عليهم ردا يزهق باطلهم .. فقال ـ تعالى ـ :

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنا إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقالُوا إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (١٥) أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَآباؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ داخِرُونَ (١٨) فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩) وَقالُوا يا وَيْلَنا هذا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هذا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (٢١)

والفاء في قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ ..﴾ هي الفصيحة ، والاستفتاء : الاستخبار عن الشيء ومعرفة وجه الصواب فيه.

والمراد من الاستفهام في الآية : توبيخ المشركين على إصرارهم على شركهم وجهلهم. وتعجيب العقلاء من أحوالهم.

واللازب : أى : الملتصق بعضه ببعض. يقال : لزب الشيء يلزب لزبا ولزوبا ، إذا تداخل بعضه في بعض ، والتصق بعضه ببعض. والطين اللازب : هو الذي يلزق باليد ـ مثلا ـ إذا ما التقت به قال النابغة الذبياني :

فلا تحسبون الخير لا شر بعده ... ولا تحسبون الشر ضربة لازب

أى : ضربة ملازمة لا مفارقة لها.

والمعنى : إذا كان الأمر كما أخبرناك أيها الرسول الكريم ـ من أن كل شيء في هذا

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٥.

الكون يشهد بوحدانيتنا وقدرتنا ، فاسأل هؤلاء المشركين «أهم أشد خلقا» أى : أهم أقوى خلقة وأمتن بنية ، وأضخم أجسادا .. «أم من خلقنا» من ملائكة غلاظ شداد ، ومن سماوات طباق ، ومن أرض ذات فجاج.

لا شك أنهم لن يجدوا جوابا يردون به عليك ، سوى قولهم : إن خلق الملائكة والسموات والأرض. أشد من خلقنا.

وقوله ـ تعالى ـ ﴿إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ﴾ إشارة إلى المادة الأولى التي خلقوا منها في ضمن خلق أبيهم آدم ـ عليه‌السلام ـ ..

أى : إنا خلقناهم من طين ملتصق بعضه ببعض ، ومتداخل بعضه في بعض.

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد ساقت دليلين واضحين على صحة البعث الذي أنكره المشركون.

أما الدليل الأول فهو ما يعترفون به من أن خلق السموات والأرض والملائكة .. أعظم وأكبر منهم ... ومن كان قادرا على خلق الأعظم والأكبر كان من باب أولى قادرا على خلق الأقل والأصغر.

وقد ذكر ـ سبحانه ـ هذه الحقيقة في آيات كثيرة منها قوله ـ تعالى ـ ﴿لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (١).

وأما الدليل الثاني فهو قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ﴾ وذلك لأن من خلقهم أولا من طين لازب ، قادر على أن يعيدهم مرة أخرى بعد أن يصيروا ترابا وعظاما.

إذ من المعروف لدى كل عاقل أن الإعادة أيسر من الابتداء. وقد قرر ـ سبحانه ـ هذه الحقيقة في آيات منها قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ، وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢).

ثم بين ـ سبحانه ـ أن حال هؤلاء المشركين تدعو إلى العجب فقال : ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾.

قال الجمل : وقوله : ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ إضراب إما عن مقدر دل عليه قوله : ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ أى : هم لا يقرون بل عجبت ، وإما عن الأمر بالاستفتاء ، أى :

---

(١) سورة غافر الآية ٥٧.

(٢) سورة الروم الآية ٢٧.

لا تستفتهم فإنهم معاندون ، بل انظر إلى تفاوت حالك وحالهم [1].

أى : بل عجبت . أيها الرسول الكريم . ومن حقك أن تعجب ، من إنكار هؤلاء الجاحدين لإمكانية البعث ، مع هذه الأدلة الساطعة التي سقناها لهم على أن البعث حق.

وجملة «يسخرون» حالية. أى : والحال أنهم يسخرون من تعجبك ومن إنكارك عليهم ذلك ، ومن إيمانك العميق بهذه الحقيقة ، حتى إنك لترددها على مسامعهم صباح مساء.

قال الآلوسى : وقرأ حمزة والكسائي : ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ . بضم التاء . . . وأولت هذه القراءة بأن ذلك من باب الفرض ، أى : لو كان العجب مما يجوز علىّ لعجبت من هذه الحال.

ثم قال : والذي يقتضيه كلام السلف أن العجب فينا انفعال يحصل للنفس عند الجهل للسبب ، ولذا قيل : إذا ظهر السبب بطل العجب ، وهو في الله . تعالى . بمعنى يليق لذاته . تعالى . وهو . سبحانه . أعلم به ، فلا يعينون معناه [2].

وقوله . تعالى . : ﴿وَإِذا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ. وَإِذا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ بيان لشدة تماديهم في الباطل ، وإصرارهم عليه.

أى : أن هؤلاء القوم من دأبهم ومن صفاتهم الملازمة لهم ، أنهم إذا وعظوا بما ينفعهم لا يتعظون ، وإذا رأوا آية واضحة في دلالتها على الحق ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ أى : يبالغون في السخرية وفي الاستهزاء بها ، يقال : استسخر القوم من الشيء ، إذا استدعى بعضهم بعضا للاستهزاء به.

ثم بين . سبحانه . أنهم لا يكتفون بالسخرية ، بل قالوا أقوالا تدل على جحودهم وجهلهم ، فقال . تعالى . ﴿وَقالُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

أى : وقالوا . على سبيل الجحود والعناد . ما هذا الذي أتانا به محمد . ﷺ . إلا سحر واضح بين ، ولا يشك أحد منا في كونه كذلك.

﴿أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ، أَوَآباؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾.

أى : أنهم لم يكتفوا بقولهم : إن ما جاء به الرسول ﷺ سحر واضح ، بل أضافوا إلى ذلك على سبيل المبالغة في الإنكار لما جاءهم به قولهم : أإذا متنا وانتهت حياتنا ووضعنا في قبورنا ، وصرنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون ومعادون إلى الحياة مرة أخرى؟ وهل آباؤنا الأولون الذين صاروا من قبلنا عظاما ورفاتا يبعثون أيضا؟.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٥٣٢.

(٢) راجع تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ٧٧.

ولا شك أن قولهم هذا دليل واضح على انطماس بصائرهم ، وعلى شدة غفلتهم عن آثار قدرة الله ـ تعالى ـ التي لا يعجزها شيء. والتي من آثارها إيجادهم من العدم.

ولذا لقن الله ـ تعالى ـ نبيه ﷺ الجواب الذي يخرس ألسنتهم فقال : ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ داخِرُونَ﴾.

أى : قل لهم ـ أيها الرسول الكريم ـ ستبعثون أنتم وآباؤكم الأقدمون ، وأنتم جميعا ﴿داخِرُونَ﴾ أى : صاغرون مستسلمون ، لا تستطيعون التأخر أو التردد .. يقال : دخر الشخص يدخر ـ بفتح الخاء ـ دخورا ، إذا ذل وصغر وهان.

ثم بين ـ سبحانه ـ أن بعثهم من قبورهم إنما يقع بصيحة واحدة فقال : ﴿فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾.

والزجرة واحدة من الزجر ، يقال : زجر الراعي غنمه إذا صاح عليها ، ومنعها من شيء معين. والضمير راجع إلى البعثة المدلول عليها بسياق الكلام ، والفاء : هي الفصيحة.

أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا. فإنما بعثهم من مرقدهم يكون بصيحة واحدة يصيحها إسرافيل فيهم بأمرنا ، فإذا هم قيام من قبورهم ينظرون إلى ما حولهم في ذهول ، وينتظرون في استسلام وذلة حكم الله ـ تعالى ـ فيهم.

والمراد بهذه الزجرة : النفخة الثانية التي يقوم بها إسرافيل بأمر الله ـ تعالى ـ كما قال ـ تعالى ـ : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ ، ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [1].

والتعبير عن الصيحة بالزجرة للدلالة على شدتها وعنفها على هؤلاء المشركين ، وأنها قد أتتهم ممن لا يستطيعون معصية أمره.

ثم بين ـ سبحانه ـ أحوالهم بعد هذه الزجرة فقال : ﴿وَقالُوا يا وَيْلَنا﴾ أى : وقالوا بعد أن خرجوا من قبورهم في ذهول : ﴿يا وَيْلَنا﴾ أى : يا هلاكنا احضر فهذا أوان حضورك.

وقوله : ﴿هذا يَوْمُ الدِّينِ﴾ يصح أن يكون من كلام بعضهم مع بعض بعد أن رأوا أن ما كانوا ينكرونه ، قد أصبح حقيقة واقعة أمام أعينهم.

أى : قال بعضهم لبعضهم في ذعر وفزع : يا ويلنا هذا يوم الجزاء على الأعمال. الذي كنا ننكره في الدنيا ، قد أصبح حقيقة ماثلة أمام أعيننا.

---

(١) سورة الزمر الآية ٦٨.

ويصح أن يكون هو وما بعده ، وهو قوله ـ تعالى ـ : ﴿هذا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ من كلام الملائكة على سبيل التأنيب لهم.

أى : تقول لهم الملائكة : اطلبوا ما شئتم من الويل والهلاك ، فهذا اليوم هو يوم الجزاء على الأعمال ، وهو يوم الفصل والقضاء الذي كنتم تكذبون به في الدنيا ، وتستهزءون ممن يأمركم بحسن الاستعداد له ، وينذركم بسوء المصير إذا ما سرتم في طريق الكفر به ، والإنكار له.

ثم بين ـ سبحانه ـ حكمه العادل فيهم ، وصور أحوالهم البائسة تصويرا تقشعر من هوله الجلود ، وحكى جانبا من حسراتهم خلال تساؤلهم فيما بينهم فقال ـ تعالى ـ :

﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْواجَهُمْ وَما كانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ (٢٤) ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (٢٧) قالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْناكُمْ إِنَّا كُنَّا غاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ لا إِلهَ إِلاَّ اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) إِنَّكُمْ لَذائِقُوا الْعَذابِ الْأَلِيمِ (٣٨) وَما تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٣٩)

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿احْشُرُوا﴾ من الحشر بمعنى الجمع مع السوق يقال : حشر القائد جنده حشرا ـ من باب قتل ـ إذا جمعهم. والمحشر : المكان الذي يجتمع فيه الخلائق.

والمراد بالذين ظلموا : المشركون الذين أشركوا مع الله ـ تعالى ـ آلهة أخرى في العبادة ، ومن الآيات التي وردت وأطلق فيها الظلم على الشرك والكفر ، قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ وقوله ـ سبحانه ـ ﴿وَالْكافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

وقد ثبت في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ فسر الظلم بالشرك في قوله ـ تعالى ـ : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [1].

والمراد بأزواجهم : أشباههم ، ونظراؤهم وأمثالهم في الشرك والكفر ، وهذا التفسير مأثور عن عدد من الصحابة والتابعين ، منهم عمر بن الخطاب ، والنعمان بن بشير ، وابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ومجاهد ، وأبو العالية.

وقيل المراد بأزواجهم. قرناؤهم من الشياطين ، بأن يحشر كل كافر مع شيطانه.

وقيل المراد بهم : نساؤهم اللائي كن على دينهم ، بأن كن مشركات في الدنيا كأزواجهن ، ويبدو لنا أن جميع من ذكروا محشور. والعياذ بالله. إلى جهنم ، إلا أن تفسير الأزواج هنا : بالأشباه والنظائر والأصناف أولى ، خصوصا وأن إطلاق الأزواج على الأصناف والأشباه جاء كثيرا في القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ ، وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾.

والمراد بما كانوا يعبدونه : الآلهة الباطلة التي كانوا في الدنيا يعبدونها من دون الله ، كالأصنام والأوثان.

والأمر من الله ـ تعالى ـ للملائكة في هذا اليوم الشديد ، وهو يوم القيامة.

أى : احشروا واجمعوا الذين كانوا مشركين في الدنيا ، واجمعوا معهم كل من كان على شاكلتهم في الكفر والضلال ، ثم اجمعوا معهم ـ أيضا ـ آلهتهم الباطلة التي عبدوها من دون الله ـ تعالى ـ ثم ألقوا بها جميعا في جهنم ، ليذوقوا سعيرها وحرها.

وفي حشر الآلهة الباطلة مع عابديها ، زيادة تحسير وتخجيل لهؤلاء العابدين لأنهم رأوا بأعينهم بطلان وخسران ما كانوا يفعلونه في الدنيا.

والضمير في قوله : ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ﴾ يعود إلى المشركين وأشباههم وآلهتهم. وقوله : ﴿فَاهْدُوهُمْ﴾ من الهداية بمعنى الدلالة على الشيء والإرشاد إليه.

أى : احشروهم جميعا إلى جهنم ، وعرفوهم طريقها إن كانوا لا يعرفونه ، وأروهم إياه إن كانوا لا يرونه.

---

(١) سورة الأنعام الآية ٨٢.

والتعبير بالهداية والصراط فيه ما فيه من التهكم بهم ، والتأنيب لهم فكأنه . سبحانه . يقول : بما أنهم لم يهتدوا في الدنيا إلى الخير وإلى الحق ، وإلى الصراط المستقيم ، فليهتدوا في الآخرة إلى صراط الجحيم.

وقوله . سبحانه . ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ﴾ زيادة في توبيخهم وإذلالهم ، والوقف هنا : بمعنى الحبس.

قال القرطبي : يقال : وقفت الدابة أقفها وقفا فوقفت هي وقوفا .. أى : احبسوهم ، وهذا يكون قبل السوق إلى الجحيم ، وفيه تقديم وتأخير أى : قفوهم للحساب ثم سوقوهم إلى النار .. [1] أى : واحبسوهم في موقف الحساب ، لأنهم مسئولون عما كانوا يقترفونه في الدنيا من عقائد زائفة ، وأفعال منكرة ، وأقوال باطلة.

ولا تعارض بين هذه الآية وأمثالها من الآيات التي صرحت بأن المجرمين يسألون يوم القيامة ، وبين آيات أخرى صرحت بأنهم لا يسألون كما في قوله . تعالى . : ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ﴾.

أقول لا تعارض بين هذه الآيات ، لأن في يوم القيامة مواقف متعددة ، فقد يسألون في موقف ولا يسألون في آخر .. أو أن السؤال المثبت هو سؤال التوبيخ والتقريع والسؤال المنفي هو سؤال الاستعلام والاستخبار.

قوله . تعالى . : ﴿ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ﴾ تقريع آخر لهم ، أى : ما الذي جعلكم في هذا اليوم عاجزين عن التناصر فيما بينكم . أيها الكافرون . مع أنكم في الدنيا كنتم تزعمون أنكم جميع منتصر؟

ثم أضرب . سبحانه . عما تقدم إلى بيان حالهم يوم القيامة فقال : ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾.

والاستسلام : أصله طلب السلامة ، والمراد به هنا : الانقياد التام ، والخضوع المطلق. يقال : استسلم العدو لعدوه ، إذا انقاد له وخضع لأمره.

أى : ليسوا في هذا اليوم بقادرين على التناصر ، بل هم اليوم خاضعون ومستسلمون ، لعجزهم عن أى حيلة تنقذهم مما هم فيه من بلاء.

ثم يحكى . سبحانه . ما يدور بينهم من مجادلات يوم القيامة فيقول : ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ﴾.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٧٤.

ويبدو أن التساؤل والتجادل هنا ، يكون بين الأتباع والمتبوعين ، أو بين العامة والزعماء.

كما تدل عليه آيات منها قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ الْقَوْلَ ، يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ، لَوْ لا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [(١)].

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما قاله الضعفاء للزعماء فقال : ﴿قالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ﴾ وللمفسرين في تأويل معنى اليمين هنا اتجاهات منها :

أن المراد باليمين هنا : الجهة التي هي جهة الخير واليمن : أى : قال الضعفاء للرؤساء : إنكم كنتم في الدنيا توهموننا وتخدعوننا بالبقاء على ما نحن عليه من عبادة الأصنام والأوثان ، لأن بقاءنا على ذلك فيه الخير واليمن والسلامة. فأين مصداق ما قلتموه لنا وقد نزل بنا ما نزل من أهوال وآلام؟

فالمقصود بالآية الكريمة بيان ما يقوله الأتباع للمتبوعين على سبيل الحسرة والندامة ، لأنهم خدعوا بوسوستهم ، وأصيبوا بالخيبة بسبب اتباعهم لهم.

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : اليمين لما كانت أشرف العضوين وأمتنهما ، وكانوا يتيمنون بها ، فبها يصافحون ، ويماسحون ، ويناولون ويتناولون ، ويزاولون أكثر الأمور.

لما كانت كذلك استعيرت لجهة الخير وجانبه ، فقيل : أتاه عن اليمين ، أى من الخير وناحيته .. [(٢)].

ومنهم من يرى أن المراد باليمين هنا : اليمين الشرعية التي هي القسم ، وعن بمعنى الباء.

أى : قالوا لهم : إنكم كنتم في الدنيا تأتوننا بالأيمان المغلظة على أننا وأنتم على الحق فصدقناكم ، فأين نحن وأنتم الآن من هذه الأيمان المغلظة؟ لقد ظهر كذبها وبطلانها ، وأنتم اليوم مسئولون عما نحن فيه من كرب.

ومنهم من يرى أن المراد باليمين هنا : القوة والغلبة. أى : أنكم كنتم في الدنيا تجبروننا وتقسروننا على اتباعكم لأننا كنا ضعفاء وكنتم أقوياء.

والذي نراه أن الآية الكريمة تسع كل هذه الأقوال ، لأن الرؤساء أوهموا الضعفاء بأنهم على

---

(١) سورة سبأ الآية ٣١.

(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٣٩.

الحق ، وأقسموا لهم على ذلك ، وهددوهم بالقتل أو الطرد إن هم اتبعوا ما جاءهم به الرسول ﷺ .

ومقصود الضعفاء من هذا القول ، إلقاء المسئولية كاملة على الرؤساء ، توهما منهم أن هذا الإلقاء سيخفف عنهم شيئا من العذاب.

ثم يحكى القرآن بعد ذلك : أن الرؤساء قد ردوا عليهم بخمسة أجوبة.

أولها : ﴿قالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أى : قال الرؤساء للأتباع : نحن لم نتسبب في كفركم في الدنيا ، بل أنتم الذين أبيتم الإيمان باختياركم ، وآثرتم عليه الكفر باختياركم . أيضا ـ فكفركم نابع من ذواتكم ، وليس من شيء خارج عنكم ، ولم يدخل الإيمان قلوبكم في وقت من الأوقات.

فالجملة الكريمة إضراب إبطالى من المتبوعين ، عما ادعاه التابعون.

وثانيها : يتجلى في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ﴾ أى : وما كان لنا عليكم من قوة أو غلبة تجبركم على البقاء في الكفر والضلال ، ولكنكم أنتم الذين رضيتم بالكفر عن اختيار واقتناع منكم به.

وثالثها قوله ـ تعالى ـ : ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ﴾ أى : نحن لم يكن لنا سلطان عليكم ، بل أنتم الذين كنتم في الدنيا قوما طاغين وضالين مثلنا. والطغيان مجاوزة الحد في كل شيء.

ورابعها : نراه في قوله ـ سبحانه ـ : ﴿فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ﴾ والفاء للتفريع على ما تقدم ، من كون الرؤساء لم يجبروا الضعفاء على البقاء في الكفر. أى : نحن وأنتم لم تكونوا مؤمنين أصلا. فكانت نتيجتنا جميعا ، أن استحققنا العذاب ، وأن لزمنا ما توعدنا به خالقنا من ذوق العذاب ، جزاء كفرنا وشركنا به ـ تعالى ..

وخامس هذه الأجوبة : بينه ـ سبحانه ـ في قوله ـ حكاية عنهم ـ : ﴿فَأَغْوَيْناكُمْ إِنَّا كُنَّا غاوِينَ﴾.

أى : فدعوناكم للغواية والضلالة دعوة غير ملجئة ، فاستجبتم لنا باختياركم الغي على الرشد ﴿إِنَّا كُنَّا غاوِينَ﴾ مثلكم ، فلا تلومونا ولوموا أنفسكم فنحن ما أجبرناكم على اتباعنا ولكن أنتم الذين اتبعتمونا باختياركم.

وهكذا رد الرؤساء على الضعفاء فيما اتهموهم به من أنهم السبب فيما حل بهم من عذاب أليم يوم القيامة.

وهنا يبين ـ سبحانه ـ حكمه العادل في الجميع ، في الرؤساء والأتباع فيقول ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ﴾.

أى : كما كانوا متشاركين في الدنيا في الغواية والضلالة ، فإنهم في الآخرة مشتركون جميعا في حلول العذاب بهم ، وذوقهم لآلامه وسعيره.

فالضمير في قوله ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ يعود للتابعين والمتبوعين ، لأنهم جميعا مستحقون للعذاب.

ثم بين ـ سبحانه ـ الأسباب التي أدت بالكافرين جميعا إلى هذا المصير السيئ فقال : ﴿إِنَّا كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ أى : مثل هذا العذاب الأليم نفعل بالمجرمين ، لأنهم أشركوا معنا غيرنا في العبادة ، وآذوا رسلنا الذين جاءوا لهدايتهم وإرشادهم.

﴿إِنَّهُمْ كانُوا﴾ في الدنيا ﴿إِذا قِيلَ لَهُمْ﴾ على سبيل النصيحة والدعوة إلى الحق ﴿لا إِلهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن قبول هذه النصيحة ، ويعرضون عنها ، ويصرون على كفرهم وجحودهم للحق ، ويستكبرون عن النطق بكلمة الإيمان.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ لمن نصحهم : ﴿أَإِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾.

أى : ويقولون باستهزاء وغرور لمن دعاهم إلى الإيمان وإلى قول لا إله إلا الله ، يقولون له أتدعونا إلى أن نترك ما عليه آباؤنا وأجدادنا من عقائد وأفعال ، وإلى أن نتبع ما جاءنا به هذا الشاعر المجنون.

ويعنون بالشاعر المجنون ـ قبحهم الله ـ رسول الله ﷺ الذي أرسله الله ـ تعالى ـ لهدايتهم.

ولذا رد الله ـ تعالى ـ عليهم بقوله : ﴿بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

أى : ليس الرسول ﷺ شاعرا أو مجنونا ، كما زعمتم ـ أيها الجاهلون ـ ، بل هو رسول صادق فيما يبلغه عن ربه ، وقد جاءكم بالحق وهو دين التوحيد الذي دعا إليه جميع الرسل ، فكان مصدقا لهم في الدعوة إليه. فكيف تزعمون أنه شاعر مجنون؟

﴿إِنَّكُمْ﴾ .. أيها المشركون بسبب هذه المزاعم ﴿لَذائِقُوا﴾ في هذا اليوم ﴿الْعَذابِ الْأَلِيمِ﴾ الذي يذلكم ويخزيكم ويجعلكم في حزن دائم.

﴿وَما تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى : وما نجازيكم بهذا الجزاء الموجع المؤلم. إلا بسبب أعمالكم القبيحة في الدنيا.

وهكذا نجد الآيات الكريمة قد بينت لنا بأسلوب مؤثر بديع ، سوء عاقبة الكافرين ، بسبب

إعراضهم عن الحق. واستكبارهم عن الدخول فيه ، ووصفهم للرسول ﷺ بما هو برىء منه.

وكعادة القرآن الكريم في المقارنة بين مصير الأشرار ومصير الأخيار . ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة . أتبع . سبحانه . الحديث عن سوء عاقبة الكافرين . بالحديث عن حسن عاقبة المؤمنين ، فقال . تعالى . :

﴿إِلاَّ عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (٤١) فَواكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ (٤٤) يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (٤٥) بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (٤٦) لا فِيها غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ (٤٧) وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ (٤٩)

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ﴿إِلَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء منقطع من ضمير «ذائقو» وما بينهما اعتراض جيء به مسارعة إلى تحقيق الحق. ببيان أن ذوقهم العذاب ليس إلا من جهتهم لا من جهة غيرهم أصلا. فإلا مؤولة بلكن.

فالمعنى : إنكم . أيها المشركون . لذائقو العذاب الأليم ، لكن عباد الله المخلصين . ليسوا كذلك . أولئك لهم رزق معلوم .. [1].

ولفظ ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ قرأه بعض القراء السبعة . بفتح اللام . ، أى : لكن عباد الله . تعالى . الذين أخلصهم الله . تعالى . لطاعته وتوحيده ليسوا كذلك.

وقرأه البعض الآخر بكسر اللام. أى : لكن عباد الله الذين أخلصوا له العبادة والطاعة ، لا يذوقون حر النار كالمشركين.

واسم الإشارة في قوله : ﴿أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ يعود إلى هؤلاء العباد المخلصين.

أى : أولئك العباد المتصفون بتلك الصفة الكريمة وهي الإخلاص ، لهم رزق عظيم معلوم في وقته ، كما قال . تعالى . : ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾. ومعلوم في خصائصه الكريمة

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ٨٥.

وصفاته الحسنة ككونه لذيذ الطعم ، حسن المنظر ، غير مقطوع ولا ممنوع إلى غير ذلك من الصفات التي تجعله محل الرغبة والاشتهاء.

وقوله . تعالى . : ﴿فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ بدل مما قبله ، أو خبر لمبتدأ محذوف ، أى هذا الرزق المعلوم ، هو فواكه.

والمراد بهذه الفواكه : ما يأكله الآكل على سبيل التلذذ والتفكه ، وجميع ما يأكله أهل الجنة كذلك حتى اللحم والخبز ، لأنهم في الجنة في غنى عن القوت الذي يحفظون به حياتهم. وخصت الفاكهة بالذكر لأنها أطيب ما يأكله الآكلون.

وفضلا عن كل ذلك فهم فيها منعمون مكرمون ، لا يحتاجون إلى شيء إلا ويجدونه بين أيديهم ، بفضل الله . تعالى . ورحمته.

ثم بين . سبحانه . مكانهم وهيئتهم فقال : ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ، عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ﴾.

أى : هم في جنات ليس فيها إلا النعيم الدائم ، وهم في الوقت نفسه يجلسون على سرر متقابلين ، بأن تكون وجوههم متقابلة لا متدابرة ، فإن من شأن المتصافين أن يجلسوا متقابلين.

﴿يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ والكأس. هو الإناء الذي فيه شراب ، فإن لم يكن فيه شراب فهو قدح ، وقد يسمى الشراب ذاته كأسا ، فيقال : شربت كأسا ، وذلك من باب تسمية الشيء باسم محله.

و «معين» اسم فاعل من معن وهو صفة لكأس مأخوذ من عان الماء إذا نبع وظهر على الأرض. أى : يطاف على هؤلاء العباد المخلصين وهم في الجنة ، بكأس ملئ بخمر لذة للشاربين ، نابعة من العيون ، وظاهرة للأبصار ، تجرى في أنهار الجنة كما تجرى المياه في الأنهار.

فالتعبير بقوله . تعالى . ﴿بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ يشعر بكثرتها ، وقربها ممن يريدها.

وقوله . تعالى . : ﴿بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ صفتان للكأس باعتبار ما فيه.

أى هذه الخمر التي يطاف بها عليهم ، بيضاء اللون ، لذيذة الطعم والرائحة عند الشاربين.

﴿لا فِيها غَوْلٌ﴾ أى : أذى أو مضرة ، والغول. إهلاك الشيء . على غرة وغفلة.

يقال : غاله يغوله غولا ، واغتاله اغتيالا ، إذا قضى عليه بغتة ، وأخذه من حيث لا يشعر.

أى : أن خمر الآخرة ليس فيها ما يضر أو يؤذى ، كما هو الحال بالنسبة لخمر الدنيا.

﴿وَلا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ﴾ وعن هنا للسببية ، فهي بمعنى الباء ، أى : ولا هم بسبب شربها تذهب عقولهم ، وتختل أفكارهم ، كما هو الحال في خمر الدنيا.

وأصل النّزف : نزع الشيء من مكانه وإذهابه بالتدريج ، يقال : نزف فلان ماء البئر ينزفه ـ من باب ضرب ـ إذا نزحه شيئا فشيئا إلى نهايته ، ويقال : نزف الرجل ـ كعنى ـ إذا سكر حتى اختل عقله ، وخصت هذه المفسدة بالذكر مع عموم ما قبلها ، لكونها من أعظم مفاسد الخمر.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾ بيان لمتعة أخرى من المتع التي أحلها الله ـ تعالى ـ لهم.

وقاصرات : من القصر بمعنى الحبس ، وعين ، جمع عيناء ، وهي المرأة الواسعة العين في جمال. أى وفضلا عن ذلك ، فقد متعنا هؤلاء العباد بمتع أخرى. وهي أننا جعلنا عندهم للمؤانسة نساء قصرن أبصارهن على أزواجهن لا يمدونها إلى غيرهم ، لشدة محبتهن لهم ، ومن صفات هؤلاء النساء ـ أيضا أنهن جميلات العيون.

﴿كَأَنَّهُنَ﴾ أى : هؤلاء النسوة ﴿بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ ، أى : كأنهن كبيض النعام. الذي أخفاه الريش في العش ، فلم تمسه الأيدى ، ولم يصبه الغبار ، في صفاء البشرة ، ونقاء الجسد.

وشبههن ببيض النعام ، لأن لونه مع بياضه وصفائه يخالطه شيء من الصفرة وهو لون محبوب في النساء عند العرب ولذا قالوا في النساء الجميلات : بيضات الخدور.

وإلى هنا تجد الآيات الكريمة قد بشرت عباد الله المخلصين. بالعطاء المتنوع الجزيل ، الذي تنشرح له الصدور ، وتقر به العيون ، وتبتهج له النفوس.

ثم حكى ـ سبحانه ـ بعض المحاورات التي تدور بين عباده المخلصين ، بعد أن رأوا ما أعده ـ سبحانه ـ لهم من نعيم مقيم .. فقال ـ تعالى ـ :

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (٥٠) قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَواءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قالَ تَاللهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْ لا نِعْمَةُ رَبِّي

لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلاَّ مَوْتَتَنَا الْأُولى وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ﴾ (٦١)

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : علام عطف قوله : ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ﴾؟

قلت ؛ هو معطوف على قوله ـ تعالى ـ قبل ذلك : ﴿يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ والمعنى : يشربون فيتحادثون على الشراب كعادة الشاربين.

قال الشاعر :

وما بقيت من اللذات إلا أحاديث الكرام على المدام

فيقبل بعضهم على بعض ﴿يَتَساءَلُونَ﴾ عما جرى لهم وعليهم في الدنيا. إلا أنه جيء به ماضيا على عادة الله في أخباره [1].

أى : أن هؤلاء العباد المخلصين ، بعد أن أعطاهم الله ما أعطاهم من النعم ، أقبل بعضهم على بعض ﴿يَتَساءَلُونَ﴾ فيما بينهم عن ذكرياتهم ، وإذا بواحد منهم يقول لإخوانه ـ من باب التحدث بنعمة الله :

﴿إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ﴾ أى : إنى في الدنيا كان لي صديق ملازم لي ، ينهاني عن الإيمان ـ بالبعث والحساب ، ويقول لي ـ بأسلوب التهكم والاستهزاء :

﴿أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ أى : أإنك ـ أيها الرجل ـ لمن المصدقين بأن هناك بعثا وحسابا ، وثوابا وعقابا ، وجنة ونارا.

ثم يضيف إلى ذلك قوله : ﴿أَإِذا مِتْنا﴾ وانتهت حياتنا في هذه الدنيا ، ووضعنا في قبورنا ﴿وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً﴾ أى : وصارت أجسادنا مثل التراب ومثل العظام البالية. ﴿أَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ أى : أإنا بعد كل ذلك لمبعوثون ومعادون إلى الحياة مرة أخرى ، ومجزيون بأعمالنا. فقوله ـ تعالى ـ : ﴿لَمَدِينُونَ﴾ من الدين بمعنى الجزاء ، ومنه قوله ـ تعالى ـ : ﴿مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ والاستفهام : للاستبعاد والإنكار من ذلك القرين للبعث والحساب.

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٤٤.

وهنا يعرض هذا المؤمن على إخوانه، أن يشاركوه في الاطلاع على مصير هذا القرين الكافر بالبعث فيقول لهم: ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ﴾ أى: هل أنتم مطلعون معى على أهل النار لنرى جميعا حال ذلك القرين الذي حكيت لكم حاله؟ والاستفهام للتخصيص، أى: هيا صاحبونى في الاطلاع على هذا القرين الكافر.

﴿فَاطَّلَعَ﴾ ذلك الرجل المؤمن ومعه إخوانه على أهل النار. فرآه في سواء الجحيم، أى: فرأى ذلك الرجل الذي كان قرينه وصاحبه الملازم له في الدنيا، ملقى به في «سواء الجحيم» أى: في وسط النار، وسمى الوسط سواء لاستواء المسافة منه إلى باقى الجوانب.

قال الآلوسى: واطلاع أهل الجنة على أهل النار، ومعرفة من فيها، مع ما بينهما من التباعد غير بعيد بأن يخلق الله ـ تعالى ـ فيهم حدة النظر، ويعرفهم من أرادوا الاطلاع عليه.

ولعلهم ـ إن أرادوا ذلك ـ وقفوا على الأعراف. فاطلعوا على من أرادوا الاطلاع عليه من أهل النار. وقيل: إن لهم طاقات في الجنة ينظرون منها من علو إلى أهل النار، وعلم القائل بأن القرين من أهل النار، لأنه كان منكرا للبعث (١).

ثم يحكى القرآن بعد ذلك ما قاله ذلك الرجل المؤمن لقرينه في الدنيا بعد أن رآه في وسط الجحيم فيقول. ﴿قالَ تَاللهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ، وَلَوْ لا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾.

وقوله: ﴿تَاللهِ﴾ قسم فيه معنى التعجب، و ﴿إِنْ﴾ مخففة من الثقيلة. واللام في قوله: ﴿لَتُرْدِينِ﴾ هي الفارقة بين إن المخففة والنافية، والجملة جواب القسم، وتردين: أى تهلكني يقال: أردى فلان فلانا إذا أهلكه. وردى فلان ـ من باب رضى ـ إذا هلك.

و ﴿الْمُحْضَرِينَ﴾ من الإحضار، يقال: أحضر المجرم ليلقى جزاءه، وهذا اللفظ يستعمل عند الإطلاق في الشر، إذ يدل على السوق مع الإكراه والقسر.

أى: قال الرجل المؤمن لقرينه الملقى في وسط جهنم. وحق الله ـ تعالى ـ لقد كدت أيها القرين أن تهلكني بصدك إياى عن الإيمان بالبعث والحساب ولو لا نعمة ربي علىّ، حيث عصمنى من طاعتك، ووفقني للإيمان ... لكنت اليوم من الذين أحضروا للعذاب مثلك ومثل أشباهك، ولساقنى ملائكة العذاب إلى هذا المصير الأليم الذي أنت فيه اليوم، فحمدا لله ـ تعالى ـ على الإيمان والهداية.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿أَفَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ. إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولى وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ بيان لما

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ٩٢.

يقوله هذا الرجل المؤمن لأصحابه الذين معه في الجنة ، وبعد أن انتهى من كلامه مع قرينه.

وهذا الكلام يقوله على سبيل التلذذ والتحدث بنعمة الله عليهم.

والاستفهام للتقرير ، والفاء للعطف على مقدر يستدعيه المقام ، والمعطوف عليه محذوف.

والمعنى : أنحن مخلدون في هذا النعيم ، ولن يلحقنا موت مرة أخرى بعد موتتنا الأولى التي لحقتنا في الدنيا ، ولن يصيبنا شيء من العذاب كما أصاب غيرنا؟

إننا لنشعر جميعا بأننا لن نموت مرة أخرى ، وسنبقى في هذا النعيم الدائم بفضل الله ورحمته.

وبعضهم يرى أن هذا السؤال من أهل الجنة للملائكة حين يذبح الموت.

قال القرطبي : قوله : ﴿أَفَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ. إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولى﴾ : هو من قول أهل الجنة للملائكة حين يذبح الموت ، ويقال : «يا أهل الجنة خلود بلا موت ، ويا أهل النار خلود بلا موت» [1].

والإشارة في قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ لما سبق الإخبار به من نفى الموت والعذاب عن أهل الجنة. وهذا القول ـ أيضا ـ حكاية لما يقوله ذلك المؤمن لمن معه في الجنة ، أى : إن هذا النعيم الدائم الذي نحن فيه ـ يا أهل الجنة ـ لهو الفوز العظيم ، الذي لا يدانيه فوز ، ولا يقاربه فلاح.

ثم يقول لهم ـ أيضا ـ : ﴿لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ﴾ أى : لمثل هذا العطاء الجزيل ، والنعيم المقيم ، فليعمل العاملون ، لا لغير ذلك من الأعمال الدنيوية الزائلة الفانية.

ثم ساق ـ سبحانه ـ ما يدل على البون الشاسع ـ بين النعيم المقيم الذي يعيش فيه عباد الله المخلصون. وبين الشقاء الدائم الذي يعيش فيه الكافرون ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿أَذلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْها فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٨٤.

عَلَيْها لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آباءَهُمْ ضالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلى آثارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠) وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (٧٢) فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣) إِلاَّ عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٧٤)

واسم الإشارة «ذلك» في قوله ـ تعالى ـ : ﴿أَذلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ يعود إلى نعيم الجنة الذي سبق الحديث عنه ، والذي يشمل الرزق المعلوم وما عطف عليه.

والاستفهام للتوبيخ والتأنيب. والنزل : ما يقدم للضيف وغيره من طعام ومكان ينزل به.

و «ذلك» مبتدأ ، و «خير» خبره ، و «نزلا» : تمييز لخير ، والخيرية بالنسبة لما اختاره الكفار على غيره. والجملة مقول لقول محذوف.

وشجرة الزقوم هي شجرة لا وجود لها في الدنيا ، وإنما يخلقها الله ـ تعالى ـ في النار ، كما يخلق غيرها من أصناف العذاب كالحيات والعقارب.

وقيل : هي شجرة سامة متى مست جسد أحد تورم ومات ، وتوجد في الأراضي المجدبة المجاورة للصحراء.

والزقوم : من التزقم ، وهو ابتلاع الشيء الكريه ، بمشقة شديدة.

والمعنى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء الكافرين أذلك النعيم الدائم الذي ينزل به المؤمنون في الجنة خير ، أم شجرة الزقوم التي يتبلغ بها الكافرون وهم في النار ، فلا يجدون من ورائها إلا الغم والكرب لمرارة طعمها ، وقبح رائحتها وهيئتها.

ومعلوم أنه لا خير في شجرة الزقوم ، ولكن المؤمنين لما اختاروا ما أدى بهم إلى نعيم الجنة وهو الإيمان والعمل الصالح ، واختار الكافرون ما أدى بهم إلى النار وبئس القرار ، قيل لهم ذلك على سبيل التوبيخ والتقريع ، لسوء اختيارهم.

ثم بين ـ سبحانه ـ شيئا عن هذه الشجرة فقال : ﴿إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ أى : إنا جعلنا هذه الشجرة محنة وابتلاء وامتحانا لهؤلاء الكافرين الظالمين ، لأنهم لما أخبرهم

رسولنا ﷺ بوجود هذه الشجرة في النار. كذبوه واستهزءوا به، فحق عليهم عذابنا بسبب هذا التكذيب والاستهزاء.

قال القرطبي ما ملخصه قوله ـ تعالى ـ ﴿إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ أى، المشركين. وذلك أنهم قالوا. كيف تكون في النار شجرة، مع أن النار تحرق الشجر..؟

وكان هذا القول جهلا منهم، إذ لا يستحيل في العقل أن يخلق الله في النار شجرا من جنسها لا تأكله النار، كما يخلق الله فيها الأغلال والقيود والحيات والعقارب.. (١).

ثم بين ـ سبحانه ـ أصل هذه الشجرة ومنبتها فقال: ﴿إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ أى: منبتها وأصلها يخرج من أسفل الجحيم، أما أغصانها وفروعها فترتفع إلى دركاتها.

ثم بين ـ سبحانه ـ ثمرها فقال: ﴿طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ﴾ أى: ثمرها الذي يخرج منها، وحملها الذي يتولد عنها، يشبه في تناهى قبحه وكراهيته، رؤوس الشياطين التي هي أقبح ما يتصوره العقل، وأبغض شيء يرد على الخاطر.

قال صاحب الكشاف ما ملخصه: شبه حمل شجرة الزقوم برءوس الشياطين، للدلالة على تناهيه في الكراهة وقبح المنظر، لأن الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس، لاعتقادهم أنه شر محض لا يخالطه خير، فيقولون في القبيح الصورة: كأنه وجه شيطان، أو كأنه رأس شيطان، وإذا صوره المصورون صوروه على أقبح صورة.

كما أنهم اعتقدوا في الملك أنه خير محض لا شر فيه، فشبهوا به الصورة الحسنة، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ما هذا بَشَراً إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾. وهذا تشبيه تخييلى.

وقيل: الشيطان حية عرفاء لها صورة قبيحة المنظر.. فجاء التشبيه بها.. (٢).

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْها فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ تفريع على ما تقدم من كونها فتنة لهم.

أى: هذا هو حال تلك الشجرة، وهذا هو أصلها وثمرها، وإن هؤلاء الكفار الذين يستهزئون بمن يحدثهم عنها لآكلون من ثمارها حتى تمتلئ بطونهم، رغما عنهم، وإذلالا لهم.

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْها﴾ أى: على ما يأكلونه منها ﴿لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ﴾ أى: لشرابا مخلوطا بماء شديد الحرارة يقطع الأحشاء، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَسُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ﴾.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٨٦.

(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٤٦.

فالشوب : الخلط يقال : شاب فلان طعامه ، إذا خلطه بغيره.

والحميم : الماء الذي بلغ الغاية في الحرارة. فطعامهم . والعياذ بالله . قد اجتمع فيه مرارة الزقوم وحرارة الماء وهذا أشنع ما يكون عليه الطعام.

ثم بين . سبحانه . مصيرهم الدائم فقال. ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ أى : ثم إن مرجعهم ومصيرهم ومقرهم الدائم بعد كل ذلك لإلى دركات الجحيم لا إلى غيرها.

ثم بين . سبحانه . بعد ذلك الأسباب التي أدت بهم إلى هذا المصير السيئ فقال . تعالى . : ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آباءَهُمْ ضالِّينَ : فَهُمْ عَلى آثارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾.

وقوله : ﴿أَلْفَوْا﴾ من الإلف للشيء بمعنى التعود عليه بعد وجوده وحصوله.

وقوله : ﴿يُهْرَعُونَ﴾ من الإهراع بمعنى الإسراع الشديد ، أو الإسراع الذي تصحبه رعدة وفزع ، يقال : هرع وأهرع . بالبناء للمجهول فيهما . إذا استحث وأزعج ، ويقال : فلان يهرع . بضم الياء . إذا جاء مسرعا في غضب أو ضعف أو خوف.

أى : إن ما أصاب هؤلاء الكافرين من عذاب أليم ، سببه أنهم وجدوا آباءهم مقيمين على الضلال ، فاقتدوا بهم اقتداء أعمى ، وساروا خلفهم وعلى آثارهم بسرعة وبغير تدبر أو تعقل ، كما يسير الأعمى خلف من يذهب به إلى طريق هلاكه.

فالآيتان الكريمتان توبيخ شديد لهؤلاء الكافرين ، لأنهم لم يكتفوا بتقليد آبائهم في الضلال ، بل أسرعوا إلى ذلك إسراعا لا تمهل معه ولا تدبر.

ثم بين . سبحانه . أحوال السابقين عليهم فقال : ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

أى : ولقد ضل قبل هؤلاء الظالمين من قومك . أيها الرسول الكريم . أكثر الأقوام السابقين الذين أرسلنا إليهم رسلنا لهدايتهم.

وفي التعبير بقوله : ﴿أَكْثَرُ﴾ إنصاف ومدح للقلة المؤمنة التي اتبعت الحق.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ أى : ولقد أرسلنا في هؤلاء الأقوام السابقين أنبياء كثيرين ينذرونهم ويخوفونهم من عاقبة الكفر والشرك ، ولكن أكثر هؤلاء الأقوام لم يستجيبوا للحق.

﴿فَانْظُرْ﴾ . أيها الرسول الكريم . ﴿كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أى : فانظر وتأمل كيف كانت عاقبة هؤلاء الذين أنذروا فلم يستجيبوا للحق ، لقد كانت عاقبتهم أن دمرناهم تدميرا ﴿إِلَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أى : دمرنا هؤلاء الأقوام إلا عبادنا الذين أخلصوا لنا العبادة والطاعة فقد أنجيناهم بفضلنا ورحمتنا.

ثم ذكر . سبحانه . بعد ذلك قصص بعض الأنبياء السابقين مع أقوامهم لتثبيت فؤاد

النبي ﷺ وتسليته عما أصابه من قومه ، وابتدأ تلك القصص ببيان جانب من قصة نوح . عليه السلام . مع قومه فقال . تعالى . :

﴿وَلَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ (٨٢)

وقصة نوح . عليه السلام . قد وردت في القرآن الكريم في سور متعددة منها : سورة الأعراف ، وسورة هود ، وسورة نوح ، وسورة المؤمنون.

وهنا يحدثنا القرآن عن جانب من النعم التي أنعم بها الله . تعالى . على نبيه نوح . عليه السلام . حيث أجاب له دعاءه ، ونجاه وأهله من الكرب العظيم وأهلك أعداءه المكذبين.

واللام في قوله : ﴿وَلَقَدْ نادانا نُوحٌ ...﴾ واقعة في جواب قسم محذوف والمراد بالنداء الدعاء الذي تضرع به نوح . عليه السلام . وطلب منا أن ننصره على قومه الكافرين فاستجبنا له أحسن إجابة ، ونعم المجيبون نحن ، فقد أهلكنا أعداءه بالطوفان.

أخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : كان النبي . ﷺ . إذا صلّى في بيتي فمر بهذه الآية ، قال : «صدقت ربنا ، أنت أقرب من دعى ، وأقرب من بغى . أى طلب لإجابة الدعاء . فنعم المدعو أنت ، ونعم المعطى أنت. ونعم المسئول أنت ربنا ونعم النصير» (١).

والمراد بأهله في قوله . تعالى . : ﴿وَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ الذين آمنوا معه.

أى : ونجيناه وأهله الذين آمنوا معه . بفضلنا وإحساننا . من الكرب العظيم ، الذي حل بأعدائه الكافرين ، حيث أغرقناهم أجمعين.

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ٩٨.

﴿وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ﴾ أى : وجعلنا ذريته من بعده هم الذين بقوا وبقي نسلهم من بعدهم ، وذلك لأن الله ـ تعالى ـ أهلك جميع الكافرين من قومه ، أما من كان معه من المؤمنين من غير ذريته ، فقد قيل إنهم ماتوا ، ولم يبق سوى أولاده.

قال ابن كثير : قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ﴾ : قال ابن عباس : لم تبق إلا ذرية نوح.

وقال قتادة : الناس كلهم من ذرية نوح.

وروى الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم عن سمرة عن النبي ﷺ في قوله : ﴿وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ﴾ قال : «هم سام ، وحام ، ويافث».

وروى الإمام أحمد ـ بسنده ـ عن سمرة عن النبي ﷺ أنه قال : «سام أبو العرب ، وحام أبو الحبش ، ويافث أبو الروم» (١).

﴿وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ. سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ﴾ أى : وأبقينا عليه في الأمم التي ستأتى من بعده إلى يوم القيامة ، الذكر الحسن ، والكلمة الطيبة ألا وهي قولهم : سلام على نوح في العالمين ، أى : تحية وأمان وثناء جميل على نوح في العالمين.

وقوله : ﴿إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ تعليل لما منحه ـ سبحانه ـ لعبده نوح من نعم وفضل وإجابة دعاء.

أى : مثل ذلك الجزاء الكريم الذي جازينا به نوحا ـ عليه‌السلام ـ نجازي كل من كان محسنا في أقواله وأفعاله. وإن عبدنا نوحا قد كان من عبادنا الذين بلغوا درجة الكمال في إيمانهم وإحسانهم.

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ أى من الأمم هذه الكلمة ، وهي : «سلام على نوح» يعنى : يسلمون عليه تسليما ويدعون له. فإن قلت : فما معنى قوله : ﴿فِي الْعالَمِينَ﴾.

قلت : معناه الدعاء بثبوت هذه التحية فيهم جميعا ، وأن لا يخلو أحد منهم منها ، كأنه قيل : ثبت الله التسليم على نوح وأدامه في الملائكة والثقلين ، يسلمون عليه عن آخرهم.

علل ـ سبحانه ـ مجازاة نوح بتلك التكرمة السنية ، من تبقية ذكره ، وتسليم العالمين عليه إلى آخر الدهر ، بأنه كان محسنا ، ثم علل كونه محسنا ، بأنه كان عبدا مؤمنا ، ليريك جلالة

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٩.

محل الإيمان ، وأنه القصارى من صفات المدح والتعظيم ، ويرغبك في تحصيله وفي الازدياد منه [1].

ثم ختم ـ سبحانه ـ القصة بقوله : ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ أى : لقد أضفنا إلى تلك النعم التي أعطيناها لنبينا نوح ـ عليه السلام ـ أننا أغرقنا أعداءه الذين آذوه ، وأعرضوا عن دعوته.

وتلك سنتنا لا تتخلف ، أننا ننجي المؤمنين ، ونهلك الكافرين.

وجاءت بعد قصة نوح ـ عليه السلام ـ قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ وقد حكى الله ـ تعالى ـ ما دار بين إبراهيم وبين قومه ، كما حكى بعض النعم التي أنعمها ـ سبحانه ـ عليه ، بسبب إيمانه وإحسانه ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ (٨٣) إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما ذا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَما ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَراغَ إِلى آلِهَتِهِمْ فَقالَ أَلا تَأْكُلُونَ (٩١) ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ (٩٢) فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قالَ أَتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ (٩٦) قالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْياناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨) وَقالَ إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠)

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٩.

فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ما ذا تَرى قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَما وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ (١٠٩) كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبارَكْنا عَلَيْهِ وَعَلى إِسْحاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِما مُحْسِنٌ وَظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ (١١٣)

والضمير في قوله : ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ﴾ يعود على نوح ـ عليه‌السلام ـ وشيعة الرجل : أعوانه وأنصاره وأتباعه ، وكل جماعة اجتمعوا على أمر واحد أو رأى واحد فهم شيعة ، والجمع شيع مثل سدرة وسدر.

قال القرطبي : الشيعة : الأعوان ، وهو مأخوذ من الشياع ، وهو الحطب الصغار الذي يوقد مع الكبار حتى يستوقد. [1].

والمعنى : وإن من شيعة نوح لإبراهيم ـ عليهما‌السلام ـ لأنه تابعه في الدعوة إلى الدين الحق ، وفي الصبر على الأذى من أجل إعلاء كلمة الله تعالى ونصرة شريعته .. وهكذا جميع الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ اللاحق منهم يؤيد السابق ، ويناصره في دعوته التي جاء بها من عند ربه ، وإن اختلفت شرائعهم في التفاصيل والجزئيات ، فهي متحدة في الأصول والأركان.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٩١.

وكان بين نوح وإبراهيم ، نبيان كريمان هما : هود ، وصالح . عليهما السلام . والظرف في قوله . تعالى . : ﴿إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ متعلق بمحذوف تقديره : اذكر أى : اذكر . أيها العاقل لتعتبر وتتعظ . وقت أن جاء إبراهيم إلى ربه بقلب سليم من الشرك ومن غيره من الآفات كالحسد والغل والخديعة والرياء.

والمراد بمجيئه ربه بقلبه : إخلاص قلبه لدعوة الحق ، واستعداده لبذل نفسه وكل شيء يملكه في سبيل رضا ربه . عزّ وجلّ ..

فهذا التعبير يفيد الاستسلام المطلق لربه والسعى الحثيث في كل ما يرضيه.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى المجيء بقلبه ربه؟ قلت : معناه أنه أخلص لله قلبه ، وعرف ذلك منه فضرب المجيء مثلا لذلك [(١)].

وقوله : ﴿إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما ذا تَعْبُدُونَ﴾ شروع في حكاية ما دار بينه وبين أبيه وقومه. والجملة بدل من الجملة السابقة عليها ، أو هي ظرف لقوله ﴿سَلِيمٍ﴾ أى : لقد كان إبراهيم . عليه السلام . سليم القلب ، نقى السريرة ، صادق الإيمان ، وقت أن جادل أباه وقومه قائلا لهم : أى شيء هذا الذي تعبدونه من دون الله . تعالى . ثم أضاف إلى هذا التوبيخ لهم توبيخا آخر فقال لهم : ﴿أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ﴾؟. والإفك أسوأ الكذب. يقال أفك فلان يأفك إفكا فهو أفوك .. إذا اشتد كذبه. وهو مفعول به لقوله ﴿تُرِيدُونَ﴾ وقوله ﴿آلِهَةً﴾ بدل منه. وجعلت الآلهة نفس الإفك على سبيل المبالغة.

أى : أتريدون إفكا آلهة دون الله؟ إن إرادتكم هذه يمجها ويحتقرها كل عقل سليم.

ثم حذرهم من السير في طريق الشرك فقال : ﴿فَما ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ﴾.

والاستفهام للإنكار والتحذير من سوء عاقبتهم إذا ما استمروا في عبادتهم لغيره . تعالى .. أى : فما الذي تظنون أن يفعله بكم خالقكم ورازقكم إذا ما عبدتم غيره؟ إنه لا شك سيحاسبكم على ذلك حسابا عسيرا ، ويعذبكم عذابا أليما ، وما دام الأمر كذلك فاتركوا عبادة هذه الآلهة الزائفة. وأخلصوا عبادتكم لخالقكم ورازقكم.

قال الآلوسى : قوله : ﴿فَما ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ﴾ أى : أى شيء ظنكم بمن هو حقيق بالعبادة ، لكونه ربا للعالمين؟ أشككتم فيه حتى تركتم عبادته . سبحانه . بالكلية ، أو أعلمتم أى شيء هو حتى جعلتم الأصنام شركاءه أو أى شيء ظنكم بعقابه . عزّ وجلّ . حتى اجترأتم على الإفك عليه ، ولم تخافوا عذابه. [(٢)].

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٤٨.

(٢) راجع تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ١١٠.

وعلى أية حال فالآية تدل دلالة واضحة على استنكاره لما كان عليه أبوه وقومه من عبادة لغير الله . تعالى . وعلى نفور فطرته لما هم عليه من باطل.

ويهمل القرآن الكريم هنا ردهم عليه لتفاهته. وتنتقل السورة للإشارة إلى ما أضمره إبراهيم . عليه السلام . لتلك الآلهة الباطلة فتقول : ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ. فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ. فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾.

قالوا : كان قوم إبراهيم يعظمون الكواكب ، ويعتقدون تأثيرها في العالم .. وتصادف أن حل أوان عيد لهم. فدعوه إلى الخروج معهم كما هي عادتهم في ذلك العيد.

فتطلع إلى السماء ، وقلب نظره في نجومها ، ثم قال لهم معتذرا عن الخروج معهم . ليخلوا بالأصنام فيحطمها . : ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أى مريض مرضا يمنعني من مصاحبتكم. ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾. أى : فتركوه وحده وانصرفوا إلى خارج بلدتهم.

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : وإنما قال إبراهيم لقومه ذلك ليقيم في البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم ، فإنه كان قد أزف خروجهم إلى عيد لهم ، فأحب أن يختلى بآلهتهم ليكسرها ، فقال لهم كلاما هو حق في نفس الأمر فهموا منه أنه سقيم على ما يعتقدونه ، فتولوا عنه مدبرين.

قال قتادة : والعرب تقول لمن تفكر في أمر : نظر في النجوم ، يعنى قتادة : أنه نظر في السماء متفكرا فيما يلهيهم به فقال ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أى : ضعيف.

وقول النبي صلى الله عليه وسلم لم يكذب إبراهيم غير ثلاث كذبات : اثنتين في ذات الله ، قوله : «إنى سقيم» وقوله : «بل فعله كبيرهم هذا» وقوله في سارة «هي أختى».

ليس المراد بالكذب هنا الكذب الحقيقي الذي يذم فاعله ، حاشا وكلا ، وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزا ، وإنما هو من المعاريض في الكلام لمقصد شرعي ديني ، كما جاء في الحديث : إن من المعاريض لمندوحة عن الكذب.

وقيل قوله «إنى سقيم» أى : بالنسبة لما يستقبل ، يعنى مرض الموت.

وقيل : أراد بقوله : «إنى سقيم» أى ، مريض القلب من عبادتكم للأوثان من دون الله . تعالى . ... [1].

ويبدو لنا أى نظر إبراهيم . عليه السلام . في النجوم ، إنما هو نظر المؤمن المتأمل في ملكوت الله . تعالى . المستدل بذلك على وحدانية الله وقدرته ، وأنه إنما فعل ذلك أمامهم .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٠.

وهم قوم يعظمون النجوم ـ ليقنعهم بصدق اعتذاره عن الخروج معهم ، ويتم له ما يريده من تحطيم الأصنام.

كما يبدو لنا أن قوله : «إنى سقيم» المقصود منه : إنى سقيم القلب بسبب ما أنتم فيه من كفر وضلال ، فإن العاقل يقلقه ويزعجه ويسقمه ما أنتم فيه من عكوف على عبادة الأصنام.

وقال لهم ذلك ليتركوه وشأنه ، حتى ينفذ ما أقسم عليه بالنسبة لتلك الأصنام.

فكلام إبراهيم حق في نفس الأمر ـ كما قال الإمام ابن كثير ـ وقد ترك لقومه أن يفهموه على حسب ما يعتقدون.

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما فعله إبراهيم بالأصنام بعد أن انفرد بها فقال : ﴿فَراغَ إِلى آلِهَتِهِمْ فَقالَ أَلا تَأْكُلُونَ﴾.

وأصل الروغ : الميل إلى الشيء بسرعة على سبيل الاحتيال. يقال : راغ فلان نحو فلان. إذا مال إليه لأمر يريده منه على سبيل الاحتمال.

أى : فذهب إبراهيم مسرعا إلى الأصنام بعد أن تركها القوم وانصرفوا إلى عيدهم ، فقال لها على سبيل التهكم والاستهزاء : أيتها الأصنام ألا تأكلين تلك الأطعمة التي قدمها لك الجاهلون على سبيل التبرك؟

وخاطبها كما يخاطب من يعقل فقال : «ألا تأكلون» ، لأن قومه أنزلوها تلك المنزلة. وقوله : «ما لكم لا تنطقون» زيادة في السخرية بتلك الأصنام ، وفي إظهار الغيظ منها ، والضيق بها ، والغضب عليها.

هذا الغضب الذي كان من آثاره ما بينه القرآن في قوله : ﴿فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ﴾ أى : فمال عليهم ضاربا إياهم بيده اليمنى ، حتى حطمهم كما قال ـ تعالى ـ في آية أخرى : ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾.

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿ضَرْباً بِالْيَمِينِ﴾ للدلالة على أن إبراهيم ـ عليه‌السلام ـ لشدة حنقه وغضبه على الأصنام ـ قد استعمل في تحطيمها أقوى جارحة يملكها وهي يده اليمنى. وقيل : يجوز أن يراد باليمين : اليمين التي حلفها حين قال : ﴿وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾.

وانتهى إبراهيم من تحطيم الأصنام ، وارتاحت نفسه لما فعله بها ، وشفى قلبه من الهم والضيق الذي كان يجده حين رؤيتها ...

وجاء قومه من رحلتهم ، ووجدوا أصنامهم قد تحطمت ، ويترك القرآن هنا ما قالوه

لإبراهيم عند ما رأوا منظر آلهتهم بهذه الصورة المفزعة لهم ، مكتفيا بإبراز حالهم فيقول : «فأقبلوا إليه يزفون».

أى : فحين رأوا آلهتهم بهذه الصورة. أقبلوا نحو إبراهيم يسرعون الخطا ولهم جلبة وضوضاء تدل على شدة غضبهم لما أصاب آلهتهم.

يقال : زفّ النعام يزفّ زفّا وزفيفا ، إذا جرى بسرعة حتى لكأنه يطير.

ولم يأبه إبراهيم ـ عليه‌السلام ـ لهياج قومه ، وإقبالهم نحوه بسرعة وغضب ، بل رد عليهم ردا منطقيا سليما ، فقال لهم : (أَتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ. وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ).

أى : قال لهم مؤبخا ومؤنبا : أتعبدون أصناما أنتم تنحتونها وتقطعونها من الحجارة أو من الخشب بأيديكم ، وتتركون عبادة الله ـ تعالى ـ الذي خلقكم وخلق الذي تعملونه من الأصنام وغيرها.

قال القرطبي ما ملخصه : قوله ـ تعالى ـ : (وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ) «ما» في موضع نصب ، أى : خلقكم وخلق ما تعملونه من الأصنام ، يعنى الخشب والحجارة وغيرها.

وقيل إن «ما» استفهام ، ومعناه : التحقير لعملهم. وقيل : هي نفى أى : أنتم لا تعملون ذلك لكن الله خالقه والأحسن أن تكون «ما» مع الفعل مصدرا. والتقدير : والله خلقكم وعملكم ، وهذا مذهب أهل السنة ، أن الأفعال خلق لله ـ عزوجل ـ واكتساب للعباد.

وروى أبو هريرة عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم أنه قال : «إن الله خالق كل صانع وصنعته» (١).

ولكن هذا المنطق الرصين من إبراهيم ، لم يجد أذنا واعية من قومه ، بل قابلوا قوله هذا بالتهديد والوعيد الذي حكاه ـ سبحانه ـ في قوله : (قالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْياناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ) أى قالوا فيما بينهم : ابنوا لإبراهيم بنيانا ، ثم املئوه بالنار المشتعلة ، ثم ألقوا به فيها فتحرقه وتهلكه.

فالمراد بالجحيم : النار الشديدة التأجج. وكل نار بعضها فوق بعض فهي جحيم ، وهذا اللفظ مأخوذ من الجحمة وهي شدة التأجج والاتقاد ـ يقال : جحم فلان النار ـ كمنع ـ إذا أوقدها وأشعلها ، واللام فيه عوض عن المضاف إليه ـ أى ـ ألقوه في جحيم ذلك البنيان المليء بالنار.

وبنوا البنيان ، وأضرموه بالنار ، وألقوا بإبراهيم فيها ، فماذا كانت النتيجة؟

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٩٦.

كانت كما قال ـ سبحانه ـ بعد ذلك : ﴿فَأَرادُوا بِهِ كَيْداً﴾ أى : شرا وهلاكا عن طريق إحراقه بالنار ﴿فَجَعَلْناهُمُ﴾ ـ بقدرتنا التي لا يعجزها شيء ـ الأسفلين أى : الأذلين المقهورين ، حيث أبطلنا كيدهم. وحولنا النار إلى برد وسلام على عبدنا إبراهيم ـ عليه‌السلام ـ ..

وهكذا رعاية الله ـ تعالى ـ تحرس عباده المخلصين ، وتجعل العاقبة لهم على القوم الكافرين.

ثم تسوق لنا السورة الكريمة بعد ذلك جانبا آخر من قصة إبراهيم ـ عليه‌السلام ـ هذا الجانب يتمثل في هجرته من أجل نشر دعوة الحق وفي تضرعه إلى ربه أن يرزقه الذرية الصالحة ، فتقول : ﴿وَقالَ إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ. رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ..﴾.

أى : قال إبراهيم بعد أن نجاه الله ـ تعالى ـ من كيد أعدائه ﴿إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي﴾ أى : إلى المكان الذي أمرنى ربي بالسير إليه ، وهو بلاد الشام ، وقد تكفل ـ سبحانه ـ بهدايتى إلى ما فيه صلاح ديني ودنياى.

قال القرطبي : «هذه الآية أصل في الهجرة والعزلة. وأول من فعل ذلك إبراهيم ـ عليه‌السلام ـ وذلك حين خلصه الله من النار ﴿قالَ إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي﴾ أى : مهاجر من بلد قومي ومولدي ، إلى حيث أتمكن من عبادة ربي ، فإنه ﴿سَيَهْدِينِ﴾ فيما نويت إلى الصواب [(١)].

قال مقاتل : هو أول من هاجر من الخلق مع لوط وسارة. إلى الأرض المقدسة وهي أرض الشام ..» [(٢)].

والسين في قوله ﴿سَيَهْدِينِ﴾ لتأكيد وقوع الهداية في المستقبل ، بناء على شدة توكله ، وعظيم أمله في تحقيق ما يرجوه من ربه ، لأنه ما هاجر من موطنه إلا من أجل نشر دينه وشريعته ـ سبحانه ..

ثم أضاف إلى هذا الأمل الكبير في هداية الله ـ تعالى ـ له ، أملا آخر وهو منحه الذرية الصالحة فقال : ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

أى : وأسألك يا ربي بجانب هذه الهداية إلى الخير والحق ، أن تهب لي ولدا هو من عبادك الصالحين ، الذين أستعين بهم على نشر دعوتك ، وعلى إعلاء كلمتك.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٩٦.

(٢) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٩٧.

وأجاب الله ـ تعالى ـ دعاء عبده إبراهيم ، كما حكى ذلك في قوله : ﴿فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ﴾.

أى : فاستجبنا لإبراهيم دعاءه فبشرناه على لسان ملائكتنا بغلام موصوف بالحلم وبمكارم الأخلاق.

قال صاحب الكشاف : ـ وقد انطوت البشارة على ثلاثة : على أن الولد غلام ذكر ، وأنه يبلغ أوان الحلم ، وأنه يكون حليما [1].

وهذا الغلام الذي بشره الله ـ تعالى ـ به. المقصود به هنا إسماعيل ـ عليه‌السلام ـ ..

والفاء في قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ فصيحة ، أى : بشرناه بهذا الغلام الحليم ، ثم عاش هذا الغلام حتى بلغ السن التي في إمكانه أن يسعى معه فيها ، ليساعده في قضاء مصالحه.

قيل : كانت سن إسماعيل في ذلك الوقت ثلاث عشرة سنة.

﴿قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ما ذا تَرى﴾.

أى : فلما بلغ الغلام مع أبيه هذه السن ، قال الأب لابنه : يا بنى إنى رأيت في منامي أنى أذبحك ، فانظر ماذا ترى في شأن نفسك.

قال الآلوسى ما ملخصه : يحتمل أنه ـ عليه‌السلام ـ رأى في منامه أنه فعل ذلك .. ويحتمل أنه رأى ما تأويله ذلك ، ولكنه لم يذكره وذكر التأويل ، كما يقول الممتحن وقد رأى أنه راكب سفينة : رأيت في المنام أنى ناج من هذه المحنة.

ورؤيا الأنبياء وحى كالوحى في اليقظة ، وفي رواية أنه رأى ذلك في ليلة التروية فأخذ يفكر في أمره ، فسميت بذلك ، فلما رأى ما رآه سابقا عرف أن هذه الرؤيا من الله ، فسمى بيوم عرفة ، ثم رأى مثل ذلك في الليلة الثالثة فهمّ بنحره فسمى بيوم النحر.

ولعل السر في كونه مناما لا يقظة ، أن تكون المبادرة إلى الامتثال ، أدل على كمال الانقياد والإخلاص .. [2].

وإنما شاوره بقوله : ﴿فَانْظُرْ ما ذا تَرى﴾ مع أنه سينفذ ما أمره الله ـ تعالى ـ به في منامه سواء رضى إسماعيل أم لم يرض ، لأن في هذه المشاورة إعلاما له بما رآه ، لكي يتقبله بثبات وصبر ، وليكون نزول هذا الأمر عليه أهون ، وليختبر عزمه وجلده.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٥٣.

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ١٢٩.

وقوله : ﴿قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ ، سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ حكاية لما رد به إسماعيل على أبيه إبراهيم ـ عليهما السلام ـ وهو رد يدل على علو كعبه في الثبات ، وفي احتمال البلاء ، وفي الاستسلام لقضاء الله وقدره.

أى : قال الابن لأبيه : يا أبت افعل ما تؤمر به من قبل الله ـ تعالى ـ ولا تتردد في ذلك وستجدني إن شاء الله من الصابرين على قضائه.

وفي هذا الرد ما فيه من سمو الأدب ، حيث قدم مشيئة الله ـ تعالى ـ ، ونسب الفضل إليه ، واستعان به ـ سبحانه ـ في أن يجعله من الصابرين على البلاء.

وهكذا الأنبياء ـ عليهم السلام ـ يلهمهم الله ـ تعالى ـ في جميع مراحل حياتهم ما يجعلهم في أعلى درجات السمو النفسي ، واليقين القلبي ، والكمال الخلقي.

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك ما كان من الابن وأبيه فقال : ﴿فَلَمَّا أَسْلَما وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ وأسلما : بمعنى استسلما وانقادا لأمر الله ، فالفعل لازم ، أو بمعنى : سلّم الذبيح نفسه وسلم الأب ابنه ، فيكون متعديا والمفعول محذوف.

وقوله ﴿وَتَلَّهُ﴾ أى : صرعه وأسقطه ، وأصل التل : الرمي على التّل وهو الرمل الكثيف المرتفع ، ثم عمم في كل رمى ودفع ، يقال : تل فلان فلانا إذا صرعه وألقاه على الأرض.

والجبين : أحد جانبي الجبهة ، وللوجه جبينان ، والجبهة بينهما.

أى : فلما استسلم الأب والابن لأمر الله ـ تعالى ـ وصرع الأب ابنه على شقه ، وجعل جبينه على الأرض ، واستعد الأب لذبح ابنه .. كان ما كان منا من رحمة بهما. ومن إكرام لهما ، ومن إعلاء لقدرهما.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : أين جواب لما؟ قلت : هو محذوف تقديره : فلما أسلما وتله للجبين «وناديناه أن يا إبراهيم. قد صدقت الرؤيا» كان ما كان مما تنطق به الحال ، ولا يحيط به الوصف من استبشارهما واغتباطهما ، وحمدهما لله ، وشكرهما على ما أنعم به عليهما من دفع البلاء العظيم بعد حلوله ، وما اكتسبا في تضاعيفه من الثواب ، ورضوان الله الذي ليس وراءه مطلوب .. [1].

وقد ذكروا هنا آثارا منها أن إسماعيل ـ عليه السلام ـ لما هم أبوه بذبحه قال له : يا أبت اشدد رباطى حتى لا أضطرب ، واكفف عنى ثيابك حتى لا يتناثر عليها شيء من دمى فتراه أمى فتحزن ، وأسرع مرّ السكين على حلقى ليكون أهون للموت على ، فإذا أتيت أمى فاقرأ

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٥٥.

عليه السلام منى .. وكان ذلك عند الصخرة التي بمنى .. »[1].

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَنادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ ، قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا﴾ أى : وعند ما صرع إبراهيم ابنه ليذبحه ، واستسلما لأمرنا .. نادينا إبراهيم بقولنا ﴿يا إِبْراهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا﴾ أى : قد فعلت ما أمرناك به ، ونفذت ما رأيته في رؤياك تنفيذا كاملا ، يدل على صدقك في إيمانك ، وعلى قوة إخلاصك.

قال الجمل : فإن قلت : كيف قال الله ـ تعالى ـ لإبراهيم : قد صدقت الرؤيا وهو إنما رأى أن يذبح ابنه ، وما كان تصديقها إلا لو حصل منه الذبح؟

قلت : جعله الله مصدقا لأنه بذل جهده ووسعه ، وأتى بما أمكنه ، وفعل ما يفعله الذابح ، فأتى بالمطلوب ، وهو انقيادهما لأمر الله [2].

وجملة «إنا كذلك نجزى المحسنين» تعليل لما قبلها. أى : فعلنا ما فعلنا من تفريج الكرب عن إبراهيم وإسماعيل ، لأن سنتنا قد اقتضت أن نجازي المحسنين الجزاء الذي يرفع درجاتهم ، ويفرج كرباتهم ، ويكشف الهم والغم عنهم.

واسم الإشارة في قوله : ﴿إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ﴾ يعود إلى ما ابتلى الله ـ تعالى ـ نبيه إبراهيم وإسماعيل.

أى : إن هذا الذي ابتلينا به هذين النبيين الكريمين ، لهو البلاء الواضح ، والاختبار الظاهر ، الذي به يتميز قوى الإيمان من ضعيفه ، والذي لا يحتمله إلا أصحاب العزائم العالية ، والقلوب السليمة ، والنفوس المخلصة لله رب العالمين.

ثم بين ـ سبحانه ـ مظاهر فضله على هذين النبيين الكريمين فقال : ﴿وَفَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ والذبح بمعنى المذبوح فهو مصدر بمعنى اسم المفعول كالطحن بمعنى المطحون.

أى : وفدينا إسماعيل ـ عليه السلام ـ بمذبوح عظيم في هيئته ، وفي قدره ، لأنه من عندنا ، وليس من عند غيرنا.

قيل : افتداه الله ـ تعالى ـ بكبش أبيض ، أقرن ، عظيم القدر.

﴿وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ. سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ. كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أى : ومن مظاهر فضلنا وإحساننا وتكريمنا لنبينا إبراهيم ـ أننا أبقينا ذكره الحسن في الأمم التي ستأتى من بعده ، وجعلنا التحية والسلام منا ومن المؤمنين عليه إلى يوم الدين ، ومثل هذا

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ١٣٠.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٥٤٨.

الجزاء نجزى المحسنين ، إنه ـ عليه السلام ـ من عبادنا الصادقين في إيمانهم.

ثم بين ـ سبحانه ـ مظهرا آخر من مظاهر فضله على نبيه إبراهيم فقال : ﴿وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ. وَبارَكْنا عَلَيْهِ وَعَلى إِسْحاقَ ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِما مُحْسِنٌ وَظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾.

أى : ومن مظاهر تكريمنا لإبراهيم ، أننا بشرناه بولد آخر هو إسحاق ، الذي جعلناه نبيا من أنبيائنا الصالحين لحمل رسالتنا ، وأفضنا على إبراهيم وعلى إسحاق الكثير من بركاتنا الدينية والدنيوية ، بأن جعلنا عددا كبيرا من الأنبياء من نسلهما.

ومع ذلك فقد اقتضت حكمتنا أن نجعل من ذريتهما من هو محسن في قوله وعمله ، ومن هو ظالم لنفسه بالكفر والمعاصي ظلما واضحا بينا ، وسنجازى كل فريق بما يستحقه من ثواب أو عقاب.

هذا ومن الأحكام والآداب التي أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتى :

١ ـ أن الرسل جميعا قد جاءوا من عند الله ـ تعالى ـ بدين واحد في أصوله ، وأن كل واحد منهم قد سار على نهج سابقه في الدعوة إلى وحدانية الله ، وإلى مكارم الأخلاق ، وقد بين ـ سبحانه ـ في مطلع هذه القصة ، أن إبراهيم كان من شيعة نوح ـ عليه السلام ـ أى : من أتباعه الذين ساروا على سنته في دعوة الناس إلى عبادة الله وحده.

وقد أمر ـ عزّ وجلّ ـ نبيه صلّى الله عليه وسلّم أن يقتدى بإخوانه السابقين من الأنبياء ، فقال : ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ﴾.

٢ ـ أن تعاطى الحيل الشرعية من أجل إزالة المنكر ، أمر مشروع ، فإن إبراهيم ـ عليه السلام ـ لكي يقضى على الأصنام ، اعتذر لقومه عن الخروج معهم في يوم عيدهم ، وقال لهم : إنى سقيم ـ بعد أن نظر في النجوم.

وكان مقصده من وراء ذلك ، أن يختلى بالأصنام ليحطمها ، ويثبت لقومه أنها لا تصلح للألوهية.

٣ ـ أن سنة الله ـ تعالى ـ قد اقتضت أن يراعى ـ بفضله وكرمه ـ عباده المخلصين ، وأن ينصرهم على أعدائهم ، الذين يبيتون لهم الشرور والسوء.

ونرى ذلك جليا في هذه القصة ، فقد أضمر الكافرون لإبراهيم الكيد والإهلاك. فأنجاه الله ـ تعالى ـ من مكرهم ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿فَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾.

٤ ـ أن على المؤمن إذا لم يتمكن من نشر دعوة الحق في مكان معين أن ينتقل منه إلى مكان

آخر متى كان قادرا على ذلك.

وهذا ما فعله إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقد قال لقومه بعد أن يئس من صلاحهم ، وبعد أن نجاه الله من كيدهم : ﴿إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

٥ ـ أن الدعاء متى صدر من نفس عامرة بالإيمان والتقوى ، ومن قلب سليم من الهوى .. كان جديرا بالإجابة.

فلقد تضرع إبراهيم إلى ربه أن يرزقه الذرية الصالحة ، فأجاب الله دعاءه.

كما حكى ـ سبحانه ـ ذلك في قوله : ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ، فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ﴾.

ثم قال ـ سبحانه ـ بعد ذلك : ﴿وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

٦ ـ أن إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ قد ضربا أروع الأمثال في صدق الإيمان ، وفي الاستسلام لأمر الله ـ تعالى ـ وفي الرضاء بقضائه.

فكافأهما ـ عز وجل ـ على ذلك مكافأة جزيلة ، بأن جعل الذكر الحسن باقيا لإبراهيم إلى يوم القيامة ، وبأن افتدى الذبيح بذبح عظيم.

قال ـ تعالى ـ : ﴿وَفَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ. وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ. سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ. كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾.

٧ ـ أن الذبيح الذي ورد ذكره في هذه القصة ، والذي افتداه الله ـ تعالى ـ بذبح عظيم ، هو إسماعيل ـ عليه السلام ـ وعلى ذلك سار جمهور العلماء ، ومن أدلتهم على ما ذهبوا إليه ما يأتى :

(أ) أن سياق القصة يدل دلالة واضحة على أن الذبيح إسماعيل ، لأن الله ـ تعالى ـ حكى عن إبراهيم أنه تضرع إليه ـ تعالى ـ بقوله : ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فبشره ـ سبحانه ـ ﴿بِغُلامٍ حَلِيمٍ﴾ ، وهذا الغلام عند ما بلغ السن التي يمكنه معها مساعدة أبيه في أعماله. قال له أبوه : ﴿يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ما ذا تَرى﴾ ثم افتدى الله ـ تعالى ـ هذا الغلام بذبح عظيم.

ثم قال ـ تعالى ـ بعد كل ذلك : ﴿وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

وهذا يدل على أن المبشر به الأول وهو إسماعيل ، غير المبشر به الثاني وهو إسحاق.

(ب) أن البشارة بمولد إسحاق ـ عليه السلام ـ قد جاء الحديث عنها مفصلا في سورة

هود. وظروف هذه البشارة وملابساتها ، تختلف عن الظروف والملابسات التي وردت هنا في سورة الصافات ، وقد أشار إلى ذلك الإمام السيوطي فقال :

وتأملت القرآن فوجدت فيه ما يقتضى القطع . أو ما يقرب منه . على أن الذبيح إسماعيل ، وذلك لأن البشارة وقعت مرتين :

مرة في قوله . تعالى . ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ. فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ. فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ...﴾.

فهذه الآية قاطعة في أن المبشر به هو الذبيح.

ومرة في قوله . في سورة هود . : ﴿وَامْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ﴾.

فقد صرح فيها بأن المبشر به إسحاق ، ولم يكن بسؤال من إبراهيم ، بل قالت امرأته إنها عجوز ، وأنه شيخ ، وكان ذلك في بلاد الشام ، لما جاءت الملائكة إليه ، بسبب قوم لوط ، وكان إبراهيم في آخر عمره.

أما البشارة الأولى فكانت حين انتقل من العراق إلى الشام ، وحين كان سنه لا يستغرب فيه الولد ، ولذلك سأله ، فعلمنا بذلك أنهما بشارتان في وقتين بغلامين ، أحدهما بغير سؤال ، وهو إسحاق ، والثانية قبل ذلك بسؤال وهو غيره ، فقطعنا بأنه إسماعيل وهو الذبيح [1].

ج . أن القول بأن الذبيح إسماعيل قد ورد . كما قال الإمام ابن القيم . عن كثير من الصحابة والتابعين ومن بعدهم. وأما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجها.

ثم قال الإمام ابن القيم : وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية . رحمه الله . يقول : هذا القول إنما هو متلقى عن أهل الكتاب ، مع أنه باطل بنص كتابهم فإن فيه : إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه «بكره» وفي لفظ «وحيده» ، ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاد إبراهيم [2].

ومن العلماء الذين فصلوا القول في هذه المسألة ، الإمام ابن كثير ، فقد قال رحمه الله : «وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق ، وحكى ذلك عن طائفة من السلف ، حتى نقل عن بعض الصحابة . أيضا . وليس ذلك في كتاب ولا سنة ، وما أظن ذلك تلقّى إلا عن أحبار أهل الكتاب ، وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل ، فإنه

(١) راجع تفسير القاسمي ج ١٤ ص ٥٠٥٧.

(٢) راجع تفسير القاسمي ج ١٤ ص ٥٠٥٣.

ذكر البشارة بالغلام الحليم، وذكر أنه الذبيح، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾ وقال. تعالى.: ﴿فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَمِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ﴾ أى: يولد له في حياتهما ولد يسمى يعقوب، فيكون من ذريته عقب ونسل.

وقد قدمنا أنه لا يجوز بعد ذلك أن يؤمر بذبحه وهو صغير، لأن الله قد وعدهما بأنه سيعقب، ويكون له نسل، فكيف يمكن بعد هذا أن يؤمر بذبحه صغيرا، وإسماعيل وصف هنا بالحلم، لأنه مناسب لهذا المقام» [1].

قال الآلوسى. رحمه الله. بعد أن ساق أقوال العلماء في ذلك بالتفصيل: «والذي أميل إليه أنه. أى الذبيح. إسماعيل. عليه السلام.، بناء على أن ظاهر الآية يقتضيه، وأنه المروي عن كثير من أئمة أهل البيت، ولم أتيقن صحة حديث مرفوع يقتضى خلاف ذلك، وحال أهل الكتاب لا يخفى على ذوى الألباب» [2].

هذه بعض الأحكام والآداب التي يمكن أن نأخذها من هذه القصة، التي حكاها. سبحانه. عن نبيه إبراهيم. عليه السلام. في هذه السورة الكريمة، وهناك أحكام وآداب أخرى يستطيع أن يستخلصها المتدبر في هذه الآيات الكريمة.

ثم ذكر. سبحانه. جانبا من قصة موسى وهارون. عليهما السلام. وهما من ذرية إبراهيم وإسحاق، فقال. تعالى.:

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلى مُوسى وَهارُونَ (١١٤) وَنَجَّيْناهُما وَقَوْمَهُما مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرْناهُمْ فَكانُوا هُمُ الْغالِبِينَ (١١٦) وَآتَيْناهُمَا الْكِتابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْناهُمَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨) وَتَرَكْنا عَلَيْهِما فِي الْآخِرِينَ (١١٩) سَلامٌ عَلى مُوسى وَهارُونَ

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٣.

(٢) راجع تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ١٣٦.

(١٢٠) ﴿إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُما مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢٢)

وموسى : هو ابن عمران بن يصهر بن ماهيث بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق ، وكانت ولادته في حوالى القرن الثالث عشر ق م.

وهارون : أخو موسى ، قيل كان شقيقا له ، وقيل كان أخا له لأمه ..

والمعنى : لقد أنعمنا على موسى . وهارون . عليهما‌السلام بنعمة النبوة ، وبغيرها من النعم الأخرى.

والتي من بينها أننا نجيناهما وقومهما المؤمنين ، من استعباد فرعون إياهم ، ومن ظلمه لهم.

﴿وَنَصَرْناهُمْ فَكانُوا هُمُ الْغالِبِينَ﴾ أى : ونصرنا موسى وهارون ومن آمن بهما. فكانوا بسبب هذا النصر الذي منحناهم إياه ، هم الغالبين لأعدائهم ، بعد أن كانوا تحت أسرهم وقهرهم.

﴿وَآتَيْناهُمَا﴾ بعد كل ذلك ﴿الْكِتابَ الْمُسْتَبِينَ﴾ أى : الكتاب المبين الواضح وهو التوراة.

يقال : استبان الشيء ، إذا ظهر ووضح وضوحا تاما.

﴿وَهَدَيْناهُمَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ، أى : وهديناهما وأرشدناهما . بفضلنا وإحساننا . إلى الطريق الواضح الذي لا عوج فيه.

﴿وَتَرَكْنا عَلَيْهِما فِي الْآخِرِينَ. سَلامٌ عَلى مُوسى وَهارُونَ﴾ أى : وأبقينا عليهما في الأمم المتأخرة الثناء الجميل ، والذكر الحسن.

﴿إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أى : مثل هذا التكريم نجازي عبادنا المحسنين ﴿إِنَّهُما مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى الذين صدقوا في إيمانهم ، وفي طاعتهم لنا.

ثم ساق . سبحانه . جانبا من قصة إلياس . عليه‌السلام . وهو أيضا من ذرية إبراهيم وإسحاق ، فقال . تعالى . :

﴿وَإِنَّ إِلْياسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ

الْخالِقِينَ (١٢٥) اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلاَّ عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلامٌ عَلى إِلْ ياسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٢)

وإلياس ـ عليه‌السلام ـ هو ابن فنحاص بن العيزار بن هارون ـ عليه‌السلام ـ فهو ينتهى نسبه ـ أيضا ـ إلى إبراهيم وإسحاق.

ويعرف إلياس في كتب الإسرائيليين باسم إيليا وقد أرسله الله ـ تعالى ـ إلى قوم كانوا يعبدون صنما يسمونه بعلا.

ويقال : إن رسالته كانت في عهد «آحاب» أحد ملوك بنى إسرائيل في حوالى القرن العاشر ق م.

والمعنى : ﴿وَإِنَّ إِلْياسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ الذين أرسلناهم إلى الناس ليخرجوهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

وقوله : ﴿إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ﴾ شروع في بيان ما نصح به إلياس قومه ، والظرف مفعول لفعل محذوف ، والتقدير اذكر وقت أن قال لقومه ألا تتقون الله. وتخشون عذابه ونقمته. والاستفهام للحض على تقوى الله ـ تعالى ـ واجتناب ما يغضبه.

ثم أنكر عليهم عبادتهم لغيره ـ سبحانه ـ فقال : ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخالِقِينَ﴾.

والبعل : اسم للصنم الذي كان يعبده قومه ، وهو صنم قيل : سميت باسمه مدينة بعلبك بالشام ، وكان قومه يسكنون فيها ، وقيل : البعل : الرب بلغة اليمن.

أى : قال لهم على سبيل التوبيخ والزجر : أتعبدون صنما لا يضر ولا ينفع وتتركون عبادة أحسن من يقال له خالق ، وهو الله ـ عزوجل ـ الذي خلقكم ورزقكم.

ولفظ الجلالة في قوله : ﴿اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ بدل من ﴿أَحْسَنَ الْخالِقِينَ﴾.

أى : أتعبدون صنما صنعتموه بأيديكم ، وتذرون عبادة الله ـ تعالى ـ الذي هو ربكم ورب آبائكم الأولين.

وقرأ غير واحد من القراء السبعة ﴿اللَّهَ﴾ ـ بالرفع ـ على أنه مبتدأ ، و ﴿رَبَّكُمْ﴾ خبره.

والتعرض لذكر ربوبيته ـ تعالى ـ لآبائهم الأولين ، الغرض منه التأكيد على بطلان عبادتهم لغيره ـ سبحانه ـ فكأنه يقول لهم : إن الله ـ تعالى ـ الذي أدعوكم لعبادته وحده ليس هو ربكم وحدكم بل ـ أيضا ـ رب آبائكم الأولين ، الذين من طريقهم أتيتم إلى هذه الحياة.

وقوله ـ تعالى ـ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ بيان لموقفهم من نبيهم ، ولما حل بهم من عذاب بسبب إعراضهم عن دعوته.

أى : دعا إلياس قومه إلى عبادة الله ـ تعالى ـ وحده ، فكذبوه وأعرضوا عن دعوته ، وسيترتب على تكذيبهم هذا ، إحضارهم إلى جهنم إحضارا فيه ذلهم وهوانهم.

﴿إِلَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ فإنهم ناجون من الإحضار الأليم ، لأنهم سيكونون يوم القيامة محل تكريمنا وإحساننا.

﴿وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ أى : وأبقينا على إلياس في الأمم الآخرين ﴿سَلامٌ عَلى إِلْ ياسِينَ﴾ أى : أمان وتحية منا ومنهم على إلياس ومن آمن معه.

﴿إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثم ساق ـ سبحانه ـ بعد ذلك جانبا من قصة لوط مع قومه. فقال ـ تعالى ـ :

﴿وَإِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (١٣٨)

ولوط ـ عليه‌السلام ـ هو ابن أخ لسيدنا إبراهيم ـ عليه‌السلام ـ وكان قد آمن به وهاجر معه ، كما في قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقالَ إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي﴾.

وقد أرسل الله ـ تعالى ـ لوطا إلى قرية سدوم ـ من قرى الشام ـ وكان أهلها يعبدون الأصنام ويرتكبون الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين.

أى : ﴿وَإِنَّ لُوطاً﴾ ـ عليه‌السلام ـ ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ الذين أرسلناهم لهداية الناس ، ﴿إِذْ نَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ أى : اذكر ـ أيها العاقل ـ وقت أن نجيناه وجميع المؤمنين معه ، بفضلنا ورحمتنا.

﴿إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ﴾ والمراد بالعجوز : امرأته التي بقيت على كفرها وكانت تفشى أسرار زوجها. أى : نجينا لوطا والمؤمنين معه من أهله ، إلا عجوزا بقيت في العذاب مع القوم الغابرين أى : مع الباقين في العذاب.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ أى : ثم دمرنا القوم الآخرين الباقين على كفرهم ، كما دمرنا من بقي على كفره من أهل لوط ، كامرأته التي أعرضت عن دعوة الحق ، وانحازت إلى قومها المفسدين.

ثم وجه ـ سبحانه ـ الخطاب لمشركي قريش فقال : ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ. وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾؟.

أى : وإنكم يا أهل مكة لتمرون على مساكن قوم لوط المهلكين ، وأنتم سائرون إلى بلاد الشام ، تارة تمرون عليهم وأنتم داخلون في وقت الصباح ، وتارة تمرون عليهم وأنتم داخلون في وقت الليل ، وترون بأعينكم ما حل بهم من دمار.

وقوله ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ معطوف على مقدر ، أى : أتشاهدون ذلك فلا تعقلون ، فالاستفهام للتوبيخ والحض على الاعتبار بأحوال الماضين.

ثم ختم ـ سبحانه ـ هذه القصص ، بذكر جانب من قصة يونس ـ عليه‌السلام ـ فقال :

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْ لا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤)

﴿فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْناهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ﴾ (١٤٨)

ويونس ـ عليه‌السلام ـ : هو ابن متى ، وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم أنه قال : «ما ينبغي لعبد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى».

وملخص قصته أن الله ـ تعالى ـ أرسله إلى أهل نينوى بالعراق ، وفي حوالى القرن الثامن قبل الميلاد ، فدعاهم إلى إخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ فاستعصوا عليه ، فضاق بهم ذرعا ، وأخبرهم أن العذاب سيأتيهم خلال ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الثالث خرج يونس من بلدة قومه ، قبل أن يأذن الله له بالخروج ، فلما افتقده قومه ، آمنوا وتابوا ، وتضرعوا بالدعاء إلى الله قبل أن ينزل بهم العذاب.

فلما لم ير يونس نزول العذاب ، استحى أن يرجع إليهم وقال : لا أرجع إليهم كذابا أبدا ، ومضى على وجهه فأتى سفينة فركبها فلما وصلت اللجة وقفت ولم تتحرك.

فقال صاحبها : ما يمنعها أن تسير إلا أن فيكم رجلا مشئوما ، فاقترعوا ليلقوا في البحر من وقعت عليه القرعة ، فكانت على يونس ثم أعادوها فوقعت عليه ، فلما رأى ذلك ألقى بنفسه في البحر ، فالتقمه الحوت .. [1].

والمعنى : وإن يونس ـ عليه‌السلام ـ لمن المرسلين الذين اصطفيناهم لحمل رسالتنا وتبليغها إلى الناس.

﴿إِذْ أَبَقَ﴾ أى : هرب من قومه بغير إذن من ربه ـ يقال : أبق العبد ـ كضرب ومنع ـ إذا هرب من سيده فهو آبق.

﴿إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ أى : هرب من قومه إلى الفلك المليء بالناس والأمتعة ﴿فَساهَمَ﴾ أى : فقارع من في السفينة بالسهام ، يقال : استهم القوم إذا اقترعوا ﴿فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾.

أى : من المغلوبين حيث وقعت عليه القرعة دون سواء. يقال : دحضت حجة فلان ، إذا بطلت وخسرت.

---

(١) راجع تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ١٤٣.

﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أى بعد أن وقعت القرعة عليه ، ألقى بنفسه في البحر ، «فالتقمه الحوت» أى : ابتلعه بسرعة : يقال : لقم فلان الطعام ـ كسمع ـ والتقمه ، إذا ابتلعه بسرعة ، وتلقّمه إذا ابتلعه على مهل.

وجملة «وهو مليم» حالية في محل نصب ، أى : فالتقمه الحوت وهو مكتسب من الأفعال ما يلام عليه ، حيث غادر قومه بدون إذن من ربه.

يقال : رجل مليم ، إذا أتى من الأقوال أو الأفعال ما يلام عليه ، وهو اسم فاعل من آلام الرجل ، إذا أتى ما يلام عليه.

﴿فَلَوْ لا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ. لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أى : فلو لا أن يونس ـ عليه‌السلام ـ كان من المسبحين لله ـ تعالى ـ المداومين على ذكره. لو لا هذا التسبيح للبث يونس في بطن الحوت إلى يوم القيامة.

فهاتان الآيتان تدلان دلالة واضحة على أن الإكثار من ذكر الله ـ تعالى ـ وتسبيحه .. سبب في تفريج الكروب ، وإزالة الهموم ، بإذن الله ورحمته. وفي الحديث الشريف : «تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة».

ورحم الله الإمام القرطبي فقد قال : «أخبر الله ـ عزوجل ـ أن يونس كان من المسبحين ، وأن تسبيحه كان سبب نجاته ، ولذا قيل : إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر.

وفي الحديث الشريف : «من استطاع منكم أن تكون له خبيئة من عمل صالح فليفعل» فليجتهد العبد ، ويحرص على خصلة من صالح عمله ، يخلص فيها بينه وبين ربه ، ويدخرها ليوم فاقته وفقره ، ويسترها عن خلق الله ، لكي يصل إليه نفعها وهو أحوج ما يكون إليه (١).

فنبذناه بالعراء وهو سقيم ، والنبذ : الطرح ، والعراء : الخلاء.

أى : أن يونس ـ عليه‌السلام ـ بعد أن التقمه الحوت أخذ في الإكثار من تسبيحنا ومن دعائنا ، فاستجبنا له دعاءه ، وأمرنا الحوت بطرحه في الفضاء الواسع من الأرض.

وجملة «وهو سقيم» حالية. أى : ألقيناه بالأرض الفضاء حالة كونه عليلا سقيما ، لشدة ما لحقه من تعب وهو في بطن الحوت.

﴿وَأَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ﴾ أى : ومن مظاهر رحمتنا به ، أننا جعلنا فوقه شجرة من يقطين لكي تظلل عليه وتمنع عنه الحر.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ١٢٧.

واليقطين : يطلق على كل شجر لا يقوم على ساق ، كالبطيخ والقثاء والقرع وهو مأخوذ من قطن بالمكان إذا أقام به.

وقد قالوا إن المراد بهذه الشجرة ، هي شجرة القرع ، وقيل غير ذلك.

﴿وَأَرْسَلْناهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ. فَآمَنُوا فَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ﴾ أى : وبعد أن تداركته رحمتنا ، وأخرجناه من بطن الحوت ، ورعيناه برعايتنا ، أرسلناه إلى مائة ألف من الناس أو يزيدون على ذلك في نظر الناظر إليهم ، فآمنوا جميعا ﴿فَمَتَّعْناهُمْ﴾ بالحياة ﴿إِلى حِينٍ﴾ انتهاء آجالهم.

قال الإمام ابن كثير : ولا مانع من أن يكون الذين أرسل إليهم أولا ، أمر بالعودة إليهم بعد خروجه من بطن الحوت ، فصدقوه كلهم ، وآمنوا به. وحكى البغوي أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت ، كانوا مائة ألف أو يزيدون [١].

هذا ومن العبر التي نأخذها من هذه القصة ، أن رحمة الله ـ تعالى ـ قريب من المحسنين ، وأن العبد إذا تاب توبة صادقة نصوحا ، وفي الوقت الذي تقبل فيه التوبة ، قبل الله ـ تعالى ـ توبته ، وفرج عنه كربه ، وأن التسبيح يكون سببا في رفع البلاء.

وبعد هذه الجولة مع قصص بعض الأنبياء ، أمر الله ـ تعالى ـ رسوله ﷺ أن يسأل هؤلاء المشركين ، سؤال توبيخ وتأنيب ، عما قالوه في شأن الملائكة من باطل وزور ، وأن يرد على أكاذيبهم ردا يخرص ألسنتهم فقال ـ تعالى ـ :

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَناتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِناثاً وَهُمْ شاهِدُونَ (١٥٠) أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَناتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١٥٧) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٥.

نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلاَّ عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠) فَإِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ (١٦١) ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفاتِنِينَ (١٦٢) إِلاَّ مَنْ هُوَ صالِ الْجَحِيمِ (١٦٣) وَما مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) وَإِنْ كانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (١٧٠)

وقوله ـ تعالى ـ ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ ..﴾ معطوف على قوله ـ تعالى ـ في أوائل السورة : ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنا ..﴾ عطف جملة على جملة. والخطاب للرسول ﷺ والاستفتاء : الاستخبار والاستفهام وطلب الفتيا من المفتي.

أى : أسأل ـ أيها الرسول ـ هؤلاء المشركين سؤال تقريع وتأنيب : ﴿أَلِرَبِّكَ الْبَناتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ أى : أسألهم بأى وجه من وجوه القسمة جعلوا لربك البنات وجعلوا لأنفسهم البنين؟ إن قسمتهم هذه لهى قسمة جائرة وفاسدة عند كل عاقل ، لأنه لا يليق في أى عقل أن يجعلوا لله ـ تعالى ـ الجنس الأدنى وهو جنس الإناث ، بينما يجعلون لأنفسهم الجنس الأعلى.

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثى. تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى﴾ [(١)].

قال صاحب الكشاف : ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ معطوف على مثله في أول السورة ، وإن تباعدت بينهما المسافة ، أمر رسوله ﷺ باستفتاء قريش عن وجه إنكارهم البعث أولا. ثم ساق الكلام موصولا بعضه ببعض ، ثم أمره باستفتائهم عن وجه القسمة الضيزى التي قسموها ، حيث جعلوا لله الإناث ولأنفسهم الذكور ، في قولهم الملائكة بنات الله ، مع كراهتهم الشديدة لهن. ولقد ارتكبوا في ذلك ثلاثة أنواع من الكفر :

أحدها : التجسيم ، لأن الولادة مختصة بالأجسام.

---

(١) سورة النجم الآيتان ٢١ ، ٢٢.

والثاني : تفضيل أنفسهم على ربهم ، حيث جعلوا أوضع الجنسين له ، وأرفعهما لهم.

والثالث : أنهم استهانوا بأكرم خلق الله ، وأقربهم إليه ، حيث أنثوهم. ولو قيل لأقلهم وأدناهم : فيك أنوثة ، أو شكلك شكل النساء ، للبس لقائله جلد النمور ، ولا تقلبت حماليقه . أى : أجفان عينيه. [1].

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِناثاً وَهُمْ شاهِدُونَ﴾ ، تقريع آخر لهم على جهالاتهم وسفههم ، حيث أضرب ـ سبحانه ـ عن الكلام الأول إلى ما هو أشد منه في التبكيت والتأنيب.

أى : إنهم زعموا أن لربك البنات ولهم البنون ، فهل كانوا حاضرين وقت أن خلقنا الملائكة حتى يعرفوا أنهم إناث؟ كلا إنهم لم يكونوا حاضرين وإنما هم يهرفون بما لا يعرفون.

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً ، أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ، سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ﴾ [2].

قال صاحب الكشاف فإن قلت : لم قال : ﴿وَهُمْ شاهِدُونَ﴾ فخص علم المشاهدة؟

قلت : ما هو إلا الاستهزاء بهم وتجهيل .. وذلك لأنهم كما لم يعلموا ذلك بطريق المشاهدة ، لم يعلموه بخلق علمه في قلوبهم ، ولا بإخبار صادق ، ولا بطريق استدلال ونظر [3].

ثم أخبر ـ سبحانه ـ عن كذبهم فقال : ﴿أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ. وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾ والإفك : أشنع الكذب وأقبحه. يقال : أفك فلان كضرب وعلم ـ إفكا وأفكا ، إذا كذب كذبا فاحشا.

أى : ألا إن هؤلاء الكافرين. من شدة كذبهم ، وشناعة جهلهم ليقولون زورا وبهتانا : ﴿وَلَدَ اللهُ﴾ أى : اتخذ الله ولدا ﴿وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾ في ذلك كذبا ﴿تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا﴾.

وافتتحت الآية الكريمة بأداة الاستفتاح «ألا» لتأكيد قولهم ، وأنهم كانوا مصرين على هذا القول الذي لا نهاية لبطلانه.

ثم كرر ـ سبحانه ـ توبيخهم وتقريعهم فقال : ﴿أَصْطَفَى الْبَناتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ والاصطفاء : الاختيار والانتقاء. والاستفهام للإنكار والنفي ، أى : هل اختار الله البنات على

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٦٣.

(٢) سورة الزخرف الآية ١٩.

(٣) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٦٣.

البنين في زعمهم؟ كلا إن الله ـ تعالى ـ لم : يفعل شيئا من ذلك لأنه ـ سبحانه ـ غني عن العالمين.

﴿ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أى : أى شيء حدث لكم ، وكيف أصدرتم هذه الأحكام الظاهرة البطلان عند كل من كان عنده أثر من عقل.

وقوله : ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾. معطوف على كلام محذوف والتقدير : أتجهلون هذه الأمور الواضحة ، فلا تعقلون ولا تتذكرون ولا تعتبرون.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ. فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ إضراب وانتقال من توبيخهم على جهالاتهم ، إلى تحديهم وإثبات كذبهم.

أى : بل ألكم حجة واضحة على صحة هذا القول الذي قلتموه من أن الملائكة بنات الله؟ إن كانت عندكم هذه الحجة فأتوا بها إن كنتم صادقين فيما زعمتم.

فالمقصود بالآيتين الكريمتين تعجيزهم وإثبات المزيد من جهالاتهم وأكاذيبهم.

ثم حكى ـ سبحانه ـ زعما آخر من زعمهم في شأن الملائكة فقال : ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً ، وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾.

والمراد بالجنة هنا : الملائكة. سمو بذلك لاجتنانهم واستتارهم عن الأعين.

أى : أن المشركين لم يكتفوا بما قالوا في الآيات السابقة ، بل أضافوا إلى ذلك جريمة أخرى ، وهي أنهم جعلوا بين الله ـ تعالى ـ وبين الملائكة نسبا ، ولقد علمت الجنة ، ـ أى الملائكة ـ ، «إنهم» أى القائلون لهذه المقالة الباطلة «لمحضرون» أى : إلى العذاب يوم القيامة. ليذوقوا سوء عاقبة كذبهم.

قال القرطبي : أكثر أهل التفسير أن الجنة هاهنا الملائكة. عن مجاهد قال : قالوا ـ يعنى كفار قريش ـ الملائكة بنات الله ، فقال لهم أبو بكر : فمن أمهاتهن؟ قالوا : مخدرات الجن ... ومعنى «نسبا» : مصاهرة. وقال قتادة : قالت اليهود إن الله صاهر الجن فكانت الملائكة من بينهن.

وقال الحسن : أشركوا الشيطان في عبادة الله ، فهو النسب الذي جعلوه [1].

ثم نزه ـ سبحانه ـ ذاته عما افتروه فقال : ﴿سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أى : تنزه الله ـ تعالى ـ وتقدس عما يقوله هؤلاء الجاهلون.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ١٣٤.

وقوله : ﴿إِلَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء منقطع من قوله ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ وما بينهما جملة معترضة لتنزيه الله ـ تعالى ـ وتقديسه.

أى : والله لقد علمت الملائكة أن المشركين القائلين بهذا القول الفاسد لمحضرون إلى النار ، ويدعّون إليها دعا ، لكن عباد الله الذين أخلصوا له العبادة والطاعة ليسوا كذلك ، بل هم ناجون من عذاب جهنم ، لتنزيههم الخالق ـ عزّ وجلّ ـ عما لا يليق به.

ثم حقر ـ سبحانه ـ من شأن المشركين ، ومن شأن آلهتهم المزعومة فقال : ﴿فَإِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ. ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفاتِنِينَ. إِلَّا مَنْ هُوَ صالِ الْجَحِيمِ﴾.

وهذا الكلام يجوز أن يكون حكاية لما رد به الملائكة على المشركين الذين قالوا الإفك والزور قبل ذلك ، ويجوز أن يكون كلاما مستأنفا من الله ـ تعالى ـ على سبيل الاستخفاف والتهكم بالمشركين وبآلهتهم.

والفاء في قوله ﴿فَإِنَّكُمْ﴾ واقعة في جواب شرط مقدر. و «الواو» في قوله ﴿وَما تَعْبُدُونَ﴾ للعطف على اسم إن ، أو بمعنى مع. و «ما» موصولة أو مصدرية. و «ما» في قوله : ﴿ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفاتِنِينَ﴾ نافية والضمير في «عليه» يعود على الله ـ عزّ وجلّ ـ والجار والمجرور متعلق «بفاتنين». والمراد بالفتن : هنا الإفساد ، من قولهم : فلان فتن على فلان خادمه. إذا أفسده. وجملة «ما أنتم عليه بفاتنين» خبر إن.

و «صال» ـ بكسر اللام ـ اسم فاعل منقوص ـ كقاض ـ مضاف إلى ما بعده. وحذفت ياؤه لالتقاء الساكنين.

والمعنى : إذا أدركتم ـ أيها المشركون ـ ما قلناه لكم. فثقوا أنكم أنتم وآلهتكم لن تستطيعوا أن تضلوا أحدا هداه الله ـ تعالى ـ لكنكم تستطيعون أن تضلوا من كان من أهل الجحيم مثلكم.

فالمقصود بهذه الآيات الكريمة ، الاستخفاف بالمشركين وبآلهتهم ، وبيان أن من هداه الله ، تعالى ـ لا سلطان لهم عليه في إغوائه أو إضلاله.

قال صاحب الكشاف : والضمير في «عليه» لله ـ تعالى ـ ومعناه : فإنكم ومعبوديكم ما أنتم وهم جميعا بفاتنين على الله ، إلا أصحاب النار الذين سبق في علمه أنهم لسوء أعمالهم يستوجبون أن يصلوها.

فإن قلت : كيف يفتنونهم على الله؟ قلت : يفسدونهم عليه بإغوائهم واستهوائهم.

من قولك : فتن فلان على فلان امرأته ، كما تقول : أفسدها وخيبها عليه .. [1].

ثم بين . سبحانه . أن الملائكة معترفون اعترافا تاما بطاعتهم لله . تعالى . وبمداومتهم على عبادته وتسبيحه فقال : ﴿وَما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ. وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ. وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾.

أى : لقد اعترف الملائكة بطاعتهم الكاملة لله . تعالى . وقالوا : وما منا أحد إلا له مقام معلوم في عبادة الله . تعالى . وطاعته ، وإنا لنحن الصافون أنفسنا في مواقف العبودية والطاعة لله . عَزَّوَجَلَّ . وإنا لنحن المسبحون والمنزهون له . تعالى . عن كل مالا يليق به.

وقد ذكر الإمام ابن كثير هنا جملة من الأحاديث منها أن رسول الله ﷺ قال يوما لجلسائه : «أطّت السماء وحق لها أن تئط . أى سمع لها صوت شديد . ليس فيها موضع قدم إلا عليه ملك راكع أو ساجد ، ثم قرأ : ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ : وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [2].

ثم أخبر . سبحانه . عن حال المشركين قبل أن يأتيهم رسول الله ﷺ فقال : ﴿وَإِنْ كانُوا لَيَقُولُونَ لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ. لَكُنَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ. فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

و «إن» في قوله ﴿وَإِنْ كانُوا ..﴾ هي المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير محذوف.

والقائلون هم كفار مكة ، والفاء في قوله ﴿فَكَفَرُوا بِهِ﴾ وهي الفصيحة الدالة على محذوف مقدر.

والمعنى إن حال هؤلاء الكافرين وشأنهم ، أنهم كانوا يقولون قبل مجيء الرسول ﷺ إليهم «لو أن عندنا ذكرا من الأولين» أى : لو أن عندنا كتابا من كتب الأولين كالتوراة والإنجيل. لكنا عباد الله المخلصين أى : لكنا بسبب وجود هذا الكتاب من عباد الله الذين يخلصون له العبادة والطاعة.

فجاءهم محمد ﷺ بالكتاب المبين كما تمنوا وطلبوا ، فكانت النتيجة أن كفروا به ، فسوف يعلمون سوء عاقبة هذا الكفر ، ﴿يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ، وَيَقُولُ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [3].

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٦٥.

(٢) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٨.

(٣) سورة العنكبوت الآية ٥٥.

ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة ببشارة المؤمنين بنصره ، وبتسلية النبي ﷺ عما أصابه من أعدائه ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذا نَزَلَ بِساحَتِهِمْ فَساءَ صَباحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ (١٨٢)

والمراد بكلمتنا في قوله : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا ..﴾ ما وعد الله ـ تعالى ـ به رسله وعباده الصالحين من جعل العاقبة الطيبة لهم.

ومن الآيات التي وردت في هذا المعنى قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ﴾ [(١)] وقوله ـ سبحانه ـ ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [(٢)].

أى : والله لقد سبق وعدنا لعبادنا المرسلين بالنصر والفوز ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾. على أعدائهم ﴿وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ﴾ لمن عاداهم وناوأهم.

وهذا الوعد بالنصر لا يتعارض مع هزيمتهم في بعض المواطن ـ كيوم أحد مثلا ـ لأن هذه الهزيمة إنما هي لون من الابتلاء الذي اقتضته حكمة الله ـ تعالى ـ ليتميز قوى الإيمان من ضعيفه ، أما النصر في النهاية فهو للمؤمنين وهذا ما حكاه لنا التاريخ الصحيح ، فقد تم فتح مكة ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، بعد أن جاهد النبي ﷺ وأصحابه وهزموا

---

(١) سورة غافر آية ٥١.

(٢) سورة المجادلة آية ٢١.

الكافرين ، ولم يفارق الرسول ﷺ هذه الدنيا إلا بعد أن صارت كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا هي السفلى.

ثم أمر الله ـ تعالى ـ رسوله ﷺ بالإعراض عن المشركين ، وبالصبر على أذاهم ، فقال : ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾ أى : فأعرض عنهم إلى الوقت الذي يأذن الله لك فيه بقتالهم ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ أى : وانظر إليهم وراقبهم عند ما ينزل بهم عذابنا ، فسوف يبصرون هم ذلك في دنياهم وفي آخرتهم.

والأمر بمشاهدة ذلك : إشعار بأن نصره ﷺ عليهم ، آت لا ريب فيه حتى لكأنه واقع بين يديه ، مشاهد أمامه.

والاستفهام في قوله ـ سبحانه ـ : ﴿أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ للتوبيخ والتأنيب.

أى أبلغ الجهل وانطماس البصيرة بهؤلاء المشركين ، أنهم يستعجلون عذابنا.

عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن المشركين قالوا للنبي ﷺ : يا محمد أرنا العذاب الذي تخوفنا به ، فنزلت هذه الآية.

ثم بين ـ سبحانه ـ حالهم عند ما ينزل بهم هذا العذاب الذي استعجلوا نزوله فقال ﴿فَإِذا نَزَلَ بِساحَتِهِمْ فَساءَ صَباحُ الْمُنْذَرِينَ﴾.

والساحة في الأصل تطلق على الفناء الواسع للدار والمراد بها هنا القوم الذين يكونون فيها والمخصوص بالذم محذوف.

أى : فإذا نزل العذاب بهؤلاء المشركين. فبئس الصباح صباحهم. ولن ينفعهم حينئذ ندم أو توبة ، وخص الصباح بالذكر ، لأن العذاب كان يأتيهم فيه في الغالب.

أخرج الشيخان عن أنس ، رضى الله عنه. قال : صبح رسول الله ﷺ خيبر ، فلما خرجوا بفئوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش ، رجعوا يقولون : محمد والله ، محمد والخميس ـ أى : والجيش فقال ﷺ : «الله أكبر خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين».

ثم كرر ـ سبحانه ـ تهديده ووعيده لهم على سبيل التأكيد لعلهم يعتبرون فقال : ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ. وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ أى : وأعرض عنهم حتى حين ، وأبصر ما توعدناهم به من عذاب أليم ، فسوف يبصرون هم ذلك.

﴿سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أى. تنزه وتقدس ربك ـ أيها الرسول الكريم ـ عما وصفه به الواصفون الجاهلون من صفات لا تليق بذاته.

وقوله ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ بدل من ربك : أى هو صاحب العزة والغلبة والقوة التي لا يقف أمام قوتها شيء والتي لا يملكها أحد سواه.

﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ أى : وسلام وأمان وتحية منا على المرسلين ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى : والثناء الكامل لله . تعالى . رب العالمين جميعا وخالقهم ورازقهم ، ومحييهم ومميتهم.

وبعد فهذا تفسير لسورة الصافات ، نسأل الله أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم؟

كتبه الراجي عفو ربه

د. محمد سيد طنطاوى

القاهرة . مدينة نصر

الأربعاء : ٢٠ من ذي القعدة ١٤٠٥ ه

٧ / ٨ / ١٩٨٥ م

تفسير

سورة ص

بسم الله الرّحمن الرّحيم

مقدمة

١ . سورة «ص» هي السورة الثامنة والثلاثون في ترتيب المصحف ، وكان نزولها بعد سورة «القمر» وهي من السور المكية الخالصة. ويقال لها سورة «داود».

قال الآلوسى : هي مكية . كما روى عن ابن عباس وغيره . وهي ثمان وثمانون آية في المصحف الكوفي. وست وثمانون في الحجازي والبصري والشامي ... وهي كالمتممة لسورة الصافات التي قبلها ، من حيث إنه ذكر فيها ما لم يذكر في تلك من الأنبياء ، كداود وسليمان ...» [(١)].

٢ . وقد افتتحت سورة «ص» بقسم من الله . تعالى . بالقرآن الكريم ، على صدق الرسول ﷺ ، فيما يبلغه عن ربه.

ثم حكى . سبحانه . ما قاله المشركون فيما بينهم ، لإنكار نبوة النبي ﷺ ، ولإنكار يوم القيامة وما فيه من ثواب وعقاب ، ورد عليهم بما يثبت جهلهم وغفلتهم واستكبارهم عن قبول الحق ..

قال . تعالى . : ﴿وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ. ما سَمِعْنا بِهذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ. أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا ، بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ. أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ. أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ﴾.

٣ . ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك إلى تسلية الرسول ﷺ عما لحقه منهم من أذى وكيد ، فحكت له أن أقوام الرسل السابقين قد قابلوا رسلهم بالتكذيب ، وأمرته بالصبر على جهالاتهم ، وساقت جانبا من قصة داود . عليه السلام فذكرت بعض النعم التي أنعم الله . تعالى . بها عليه ، كما ذكرت ما دار بينه وبين الخصوم الذين تسوروا عليه المحراب.

قال . تعالى . : ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتادِ.﴾ وثمود وقوم لوط

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ١٦٠.

وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب. إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب. وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق. وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب. اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب) ...

٤ ـ وبعد هذا الحديث الذي فيه شيء من التفصيل عن وجوه النعم التي أنعم بها ـ سبحانه ـ على عبده داود ، وعن لون من ألوان الامتحانات التي امتحنه ـ تعالى ـ بها ، وعن الإرشادات الحكيمة التي أرشده الله ـ عزّ وجلّ ـ إليها ...

بعد كل ذلك ساق ـ سبحانه ـ أنواعا من الأدلة على وحدانيته وقدرته ، وبين أن حكمته قد اقتضت عدم المساواة بين الأخيار والفجار.

قال ـ تعالى ـ : ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ، أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ. كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ ، وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾.

٥ ـ ثم أثنى ـ سبحانه ـ بعد ذلك على نبيه سليمان ـ عليه‌السلام ـ وبين بعض النعم التي منحها له ، كما بين موقفه مما اختبره ـ تعالى ـ به ...

قال ـ تعالى ـ : ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ وَأَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنابَ. قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ. فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ. وَالشَّياطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾.

٦ ـ ثم مدح ـ سبحانه ـ نبيه أيوب ـ عليه‌السلام ـ على صبره ، وعلى كثرة تضرعه إلى ربه ، وكيف أنه ـ تعالى ـ قد كافأه على ذلك بما يستحقه.

قال ـ تعالى ـ : ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَعَذابٍ ، ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ. وَوَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ ، وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ ، إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً ، نِعْمَ الْعَبْدُ ، إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

٧ ـ ثم أثنى ـ سبحانه ـ على أنبيائه : إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، وإسماعيل واليسع وذا الكفل ، وبين ما أعده لهم ولأمثالهم من عباده الأخيار ، كما بين ما توعد به الفجار من عذاب أليم ..

قال ـ تعالى ـ : ﴿هذا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ. جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ. مُتَّكِئِينَ فِيها يَدْعُونَ فِيها بِفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرابٍ. وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ أَتْرابٌ. هذا ما تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسابِ. إِنَّ هذا لَرِزْقُنا ما لَهُ مِنْ نَفادٍ. هذا ، وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾.

٨ ـ ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة بالحديث عن قصة آدم وإبليس وكيف أن الملائكة جميعا سجدوا لآدم إلا إبليس فإنه أبى واستكبر وقال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين. فكانت عاقبته الطرد من رحمة الله ـ تعالى ..

٩ ـ ومن هذا العرض المجمل لسورة «ص» نرى أنها قد اهتمت اهتماما واضحا ، بإقامة الأدلة على وحدانية الله ـ تعالى ـ وقدرته. وعلى صدق النبي ﷺ فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن يوم القيامة حق ، كما اهتمت بحكاية شبهات المشركين ثم الرد عليها ، كما ذكرت جانبا من قصص بعض الأنبياء ليعتبر بقصصهم كل ذي عقل سليم ، كما أنها قد اهتمت ببيان حسن عاقبة الأخيار وسوء عاقبة الأشرار ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

د. محمد سيد طنطاوى

القاهرة ـ مدينة نصر

الخميس ٢١ من ذي القعدة سنة ١٤٠٥ هـ

الموافق ٨ / ٨ / ١٩٨٥ م

قال الله . تعالى . :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنادَوْا وَلاتَ حِينَ مَناصٍ (٣) وَعَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقالَ الْكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ (٥) وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ (٦) ما سَمِعْنا بِهذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هذا إِلاَّ اخْتِلاقٌ (٧) أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ (٨) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩) أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ (١٠) جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ﴾ (١١)

سورة «ص» من السور القرآنية التي افتتحت ببعض حروف التهجي ، وقد سبق أن بينا بشيء من التفصيل آراء العلماء في هذه المسألة ، عند تفسيرنا لسورة البقرة ، وآل عمران ، والأعراف. ويونس ..

وقلنا ما خلاصته : لعل أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة قد وردت في بعض السور القرآنية على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن.

فكأن الله ـ تعالى ـ يقول لأولئك المعارضين في أن القرآن من عند الله هاكم القرآن ترونه مؤلفا من كلام من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ، ومنظوما من حروف هي من جنس الحروف الهجائية التي تنظمون منها حروفكم.

فإن كنتم في شك من كونه منزلا من عند الله فهاتوا مثله ، وادعوا من شئتم من الخلق لكي يعاونكم في ذلك ، أو في الإتيان بعشر سور من مثله ، أو بسورة واحدة من مثله.

فعجزوا وانقلبوا خاسرين. وثبت أن هذا القرآن من عند الله ـ تعالى ..

والواو في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ للقسم. والمقسم به القرآن الكريم. وجواب القسم محذوف ، لدلالة ما بعده عليه.

والذكر ، يطلق على الشرف ونباهة الشأن ، يقال فلان مذكور ، أى : صاحب شرف ونباهة. ومنه قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾.

ويطلق ويراد به التذكير على أنه مصدر ، لأن القرآن مشتمل على المواعظ والأحكام وقصص الأنبياء. وغير ذلك مما يسعد الناس في دينهم ودنياهم.

وهذان الإطلاقان ينطبقان على القرآن الكريم ، فيكون المعنى : وحق القرآن الكريم ذي الشرف العظيم ، وذي التذكير الحكيم المشتمل على ما ينفع الناس في دنياهم وآخرتهم ..

إنك ـ أيها الرسول الكريم ـ لصادق في كل ما تبلغه عن ربك ولم يصدر منك إطلاقا ما يخالف الحق الذي أمرناك بتبليغه للناس.

قال بعض العلماء ما ملخصه : اعلم أنهم اختلفوا في تعيين الشيء الذي أقسم الله ـ تعالى ـ عليه في قوله : ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾.

فقال بعضهم إن المقسم عليه مذكور ، وهو قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ أو قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ هذا لَرِزْقُنا ما لَهُ مِنْ نَفادٍ﴾ أو قوله ـ تعالى ـ : ﴿كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ ..

والحق أن القول بأن المقسم عليه مذكور ظاهر السقوط.

وقال آخرون إن المقسم عليه محذوف ، واختلفوا في تقديره ، فقال صاحب الكشاف : التقدير : «والقرآن ذي الذكر» إنه لمعجز. وقدره ابن عطية فقال : والتقدير : والقرآن ذي الذكر ليس الأمر كما يقول الكفار .. [1].

---

(١) راجع تفسير أضواء البيان ج ٧ ص ٨ الشيخ محمد الأمين الشنقيطى.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقاقٍ﴾ انتقال من القسم والمقسم به ، إلى بيان حال الكفار وما هم عليه من غرور وعناد.

والمراد بالعزة هنا : الحمية والاستكبار عن اتباع الحق ، كما في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَإِذا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهادُ﴾ (١).

وليس المراد بها القهر والغلبة كما في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٢).

وأصل الشقاق : المخالفة والمنازعة بين الخصمين حتى لكأن كل واحد منهما في شق غير الذي فيه الآخر. والمراد به هنا : مخالفة المشركين لما جاءهم به النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم.

والمعنى : وحق القرآن الكريم ذي الشرف وسمو القدر. إنك ـ أيها الرسول الكريم ـ لصادق فيما تبلغه عن ربك ، ولست كما يقول أعداؤك في شأنك. بل الحق أن هؤلاء الكافرين في حمية واستكبار عن قبول الهداية التي جئتهم بها من عند ربك ، وفي مخالفة ومعارضة لكل ما لا يتفق مع ما وجدوا عليه آباءهم من عبادة للأصنام ، ومن عكوف على عاداتهم الباطلة.

والتعبير بفي في قوله ﴿فِي عِزَّةٍ وَشِقاقٍ﴾ للإشعار بأن ما هم عليه من عناد ومن مخالفته للحق ، قد أحاط بهم من كل جوانبهم ، كما يحيط الظرف بالمظروف.

ثم خوفهم ـ سبحانه ـ بما أصاب الأمم من قبلهم ، وحذرهم من أن يكون مصيرهم كمصير المكذبين السابقين فقال : ﴿كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنادَوْا وَلاتَ حِينَ مَناصٍ﴾.

«وكم» هنا خبرية. ومعناها : الإخبار عن عدد كثير. وهي في محل نصب على أنها مفعول به لأهلكنا.

وصيغة الجمع في أهلكنا للتعظيم. و «من» في قوله ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ لابتداء الغاية ، وفي قوله : ﴿مِنْ قَرْنٍ﴾ مميزة لكم. والقرن : يطلق على الزمان الذي يعيش فيه جيل من الناس ، ومدته ـ على الراجح ـ مائة سنة والمراد به هنا أهل الزمان.

والمراد بالنداء في قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَنادَوْا﴾ الاستغاثة والضراعة إلى الله أن يكشف عنهم العذاب.

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٠٦.

(٢) سورة المنافقون الآية ٨.

و ﴿لاتَ﴾ هي لا المشبهة بليس. وهذا رأى سيبويه. فهي حرف نفى زيدت فيه التاء لتأكيد هذا النفي.

وأشهر أقوال النحويين فيها أنها تعمل عمل ليس، وأنها لا تعمل إلا في الحين خاصة، أو في لفظ الحين ونحوه من الأزمنة، كالساعة والأوان، وأنها لا بد أن يحذف اسمها أو خبرها، والأكثر حذف المرفوع منهما وإثبات المنصوب.

والحين: ظرف مبهم يتخصص بالإضافة.

وقوله: ﴿مَناصٍ﴾ مصدر ميمى بمعنى الفرار والخلاص. يقال: ناص فلان من عدوه. من باب قال. فهو ينوص نوصا ومناصا، إذا فر منه، وهرب من لقائه.

أو بمعنى النجاة والفوت. يقال: ناصه ينوصه إذا فاته ونجا منه.

والمراد بقوله. تعالى.: ﴿أَهْلَكْنا﴾ الشروع في الإهلاك بدليل قوله. تعالى. بعد ذلك ﴿فَنادَوْا﴾ إذ من المعروف أن من هلك بالفعل لا يستغيث ولا ينادى.

والمعنى: إن هؤلاء الكافرين المستكبرين عن طاعتنا وعبادتنا، قد علموا أننا أهلكنا كثيرا من السابقين أمثالهم، وأن هؤلاء السابقين عند ما رأوا أمارات العذاب ومقدماته، جأروا إلينا بالدعاء أن نكشفه عنهم، واستغاثوا استغاثة جاءت في غير وقتها، ولقد قلنا لهم عند ما استغاثوا بنا عند فوات الأوان: ﴿وَلاتَ حِينَ مَناصٍ﴾.

أى: ليس الوقت الذي استغثتم بنا فيه وقت نجاة وفرار من العقاب، بل هو وقت تنفيذ العقوبة فيكم، بعد أن تماديتم في كفركم، وأعرضتم عن دعوة الحق بدون إنابة أو ندم.

وشبيه بهذه الآية قوله. تعالى.: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ، وَكَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا..﴾ [1].

وقوله. سبحانه.: ﴿حَتَّى إِذا أَخَذْنا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذابِ إِذا هُمْ يَجْأَرُونَ. لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لا تُنْصَرُونَ﴾ [2].

ثم حكى. سبحانه. بعد ذلك جانبا من أكاذيب المشركين الناتجة عن استكبارهم وشقاقهم فقال: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ، وَقالَ الْكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ. أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً، إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ. وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ﴾..

---

(١) سورة غافر الآيتان ٨٤. ٨٥.

(٢) سورة المؤمنون الآيتان ٦٤. ٦٥.

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات روايات منها : أن جماعة من قريش اجتمعوا في نفر من مشيخة قريش ، فقال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا إلى أبي طالب ، لنكلمه في شأن ابن أخيه ... فلما دخلوا على أبي طالب قالوا له : أنت كبيرنا وسيدنا ، فأنصفنا من ابن أخيك ، فمره فليكف عن شتم آلهتنا ، وندعه وإلهه.

فقال أبو طالب للنبي ﷺ يا ابن أخى هؤلاء مشيخة قريش ، وقد سألوك أن تكف عن شتم آلهتهم ويدعوك وإلهك.

فقال ﷺ : «يا عم ، أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم؟ قال : وإلام تدعوهم؟ قال : أدعوهم أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ، ويملكون بها العجم».

فقال أبو جهل من بين القوم : ما هي وأبيك؟ لنعطينها لك وعشرة أمثالها ، فقال ﷺ : «تقولون : لا إله إلا الله».

فنفر أبو جهل وقال : سلنا غير هذا.

فقال ﷺ : «لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ، ما سألتكم غيرها».

فقاموا غضابا. وقالوا : والله لنشتمنك وإلهك الذي أرسلك بهذا. [1].

وقوله ـ تعالى ـ : (وَعَجِبُوا ...) مأخوذ من العجب ، وهو تغير في النفس من أمر لا ترتاح إليه ، وتخفى لديها أسبابه.

أى : وعجب هؤلاء الكافرون من مجيء منذر منهم ينذرهم بسوء عاقبة الشرك. ويأمرهم بعبادة الله ـ تعالى ـ وحده.

(وَقالَ) هؤلاء (الْكافِرُونَ) عند ما دعاهم الرسول ﷺ إلى الدين الحق.

(هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ) أى : قالوا : هذا الرسول ساحر لأنه يأتينا بخوارق لم نألفها ، وكذاب فيما يسنده إلى الله ـ تعالى ـ من أنه ـ سبحانه ـ أرسله إلينا.

وقال ـ سبحانه ـ : (وَقالَ الْكافِرُونَ) بالإظهار دون الإضمار ، لتسجيل الكفر والجحود عليهم. وللإيذان بأن كفرهم هو الباعث لهم على وصف الرسول ﷺ بما هو منزه عنه من السحر والكذب.

ثم أضافوا إلى هذا القول الباطل ، أقوالا أخرى لا تقل عن غيرها في البطلان والفساد. فقالوا ـ كما حكى القرآن ـ : (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً).

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٤٦.

والاستفهام للإنكار. أى : أجعل محمد ﷺ الآلهة المتعددة ، إلها واحدا. وطلب منا أن ندين له بالعبادة والطاعة؟.

﴿إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ﴾ أى : إن هذا الذي طلبه منا ، ودعانا إليه ، لشيء قد بلغ النهاية في العجب والغرابة ومجاوزة ما يقبله العقل.

و ﴿عُجابٌ﴾ أبلغ من عجيب. لأنك تقول في الرجل الذي فيه طول : هذا رجل طويل ، بينما تقول في الرجل الذي تجاوز الحد المعقول في الطول : هذا رجل طوال.

فلفظ ﴿عُجابٌ﴾ صيغة مبالغة سماعية ، وقد حكاها . سبحانه . عنهم للإشعار بأنهم كانوا يرون . لجهلهم وعنادهم . أن ما جاءهم به الرسول . ؛ . هو شيء قد تجاوز الحد في العجب والغرابة.

واسم الإشارة يعود إلى جعله ﷺ الآلهة إلها واحدا ، لأنهم يرون . لانطماس بصائرهم . أن ذلك مخالف مخالفة تامة لما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم من عبادة للأصنام.

وما كان مخالفا لما ورثوه عن آبائهم فهو . في زعمهم . متجاوز الحد في العجب.

ثم صور . سبحانه . حرصهم على صرف الناس عن دعوة الحق. تصويرا بديعا ، فقال : ﴿وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ﴾.

أى : وانطلق الأشراف من قريش عن مجلس أبي طالب ، بعد أن سمعوا من الرسول ﷺ ما أغضبهم وخيب آمالهم.

انطلقوا يقولون : أن امشوا في طريقكم التي كان عليها آباؤكم واصبروا على عبادة آلهتكم مهما هوّن محمد ﷺ من شأنها ، ومهما نهى عن عبادتها.

﴿إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ﴾ أى : إن هذا الذي يدعونا إليه محمد ﷺ من عبادة الله . تعالى . وحده وترك عبادة آلهتنا لشيء يراد من جهته هو ، وهو مصمم عليه كل التصميم ، ونحن من جانبنا يجب أن نقابل تصميمه على دعوته ، بتصميم منا على عبادة آلهتنا.

وعلى هذا المعنى تكون الإشارة هنا عائدة إلى ما يدعوهم إليه النبي ﷺ من عبادة الله وحده.

ويصح أن تكون الإشارة إلى دينهم هم ، فيكون المعنى : إن هذا الدين الذي نحن عليه لشيء يراد لنا ، وقد وجدنا عليه آباءنا ، ومادام الأمر كذلك فلن نتركه مهما كرّهنا فيه محمد ﷺ .

قال الآلوسى : قوله : ﴿إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ﴾ تعليل للأمر بالصبر ، والإشارة إلى

ما وقع وشاهدوه من أمر النبي ﷺ وتصلبه في أمر التوحيد ، ونفى ألوهية آلهتهم ..

أى : إن هذا لشيء عظيم يراد من جهته ﷺ إمضاؤه وتنفيذه. فاقطعوا أطماعكم عن استنزاله إلى إرادتكم ، واصبروا على عبادة آلهتكم. وقيل : إن هذا الأمر لشيء من نوائب الدهر يراد بنا ، فلا حيلة إلا تجرع مرارة الصبر.

وقيل : إن هذا . أى : دينكم . يطلب لينتزع منكم ويطرح ويراد إبطاله .. [1].

ثم يضيفون إلى ذلك قولهم : ﴿ما سَمِعْنا بِهذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ...﴾ أى : ما سمعنا بهذا الدين الذي يدعونا إليه محمد ﷺ في ملة العرب التي أدركنا عليها آباءنا ، أو ما سمعنا بهذا الذي يقوله محمد ﷺ في الملّة الآخرة ، وهي ملة عيسى . عليه السلام . فإن أتباعه يقولون بالتثليث ، ويقولون بأنه الدين الذي جاء به عيسى.

وعلى هذين القولين يكون قوله ﴿فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ متعلق بسمعنا.

ويصح أن يكون المعنى : ما سمعنا بهذا الذي يدعونا إليه محمد صلى‌الله‌عليه‌وسلم كائنا في الملة التي تكون في آخر الزمان ، والتي حدثنا. عنها الكهان وأهل الكتاب.

وعلى هذا الرأى يكون قوله ﴿فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ حالا من اسم الإشارة وليس متعلقا بسمعنا.

ثم أكدوا نفيهم لعدم سماعهم لما جاءهم به الرسول ﷺ بقولهم : ﴿إِنْ هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ﴾. أى : ما سمعنا شيئا مما يقوله ، وما يقوله ما هو إلا كذب وتخرص اختلقه من عند نفسه ، دون أن يسبقه إليه أحد.

يقال : اختلق فلان هذا القول ، إذا افتراه واصطنعه واخترعه من عند نفسه ، دون أن يكون له أصل من الواقع.

ثم صرحوا في نهاية المطاف بالسبب الحقيقي الذي حال بينهم وبين الإيمان ، ألا وهو الحقد والحسد ، وإنكار أن يختص الله تعالى رسوله من بينهم بالرسالة ، فقالوا . كما حكى القرآن عنهم . : ﴿أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا؟ ...﴾.

والاستفهام للإنكار والنفي. أى : كيف يدعى محمد ﷺ أنه قد أنزل عليه القرآن من بيننا ، ونحن السادة الأغنياء العظماء ، وهو دوننا في ذلك؟ إننا ننكر وننفى دعواه النبوة من بيننا.

قال صاحب الكشاف : أنكروا أن يختص بالشرف من بين أشرافهم ورؤسائهم وينزل عليه

---

(١) راجع تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ١٦٧.

الكتاب من بينهم ، كما قالوا : ﴿لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلى به صدورهم من الحسد على ما أوتى من شرف النبوة من بينهم. [1].

ولقد حكى القرآن أحقادهم هذه على النبي ﷺ في آيات كثيرة ورد عليها بما يبطلها ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَإِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ ، اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ ...﴾ [2].

ولقد صرح أبو جهل بهذا الحسد للنبي ﷺ فعند ما سأله سائل ، أتظن محمدا على حق أم على باطل؟ كان جوابه : إن محمدا لعلى حق ولكن متى كنا لبنى هاشم تبعا. أى : متى كانت أسرتنا تابعة لبنى هاشم!!.

وفي رواية أنه قال : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب ، وكنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾ إضراب عن كلام يفهم من السياق. وتسلية للرسول ﷺ عما أصابه منهم من أذى.

أى : هؤلاء الجاحدون الحاقدون لم يقطعوا برأى في شأنك ـ أيها الرسول الكريم ـ وفي شأن ما جئتهم به ، ولم يستندوا في أقوالهم إلى دليل أو ما يشبه الدليل ، وإنما هم في شك من هذا القرآن الذي أيدناك به ، بدليل أنك تراهم يصفونك تارة بالسحر ، وتارة بالكهانة ، وتارة بالشعر ، ولو عقلوا وأنصفوا لآمنوا بك وصدقوك.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ﴾ إضراب عن مجموع الكلامين السابقين المشتملين على الحسد والشك.

أى : لا تحزن ـ أيها الرسول الكريم ـ من مسالكهم الخبيثة ، وأقوالهم الفاسدة. فإنهم ما فعلوا ذلك إلا لأنهم لم يذوقوا عذابي بعد ، فإذا ذا قوة زال حسدهم وشكهم ، وتيقنوا بأنك على الحق المبين ، وهم على الباطل الذي لا يحوم حوله حق.

وفي التعبير بقوله ﴿لَمَّا﴾ إشارة إلى أن نزول العذاب بهم وتذوقهم له ، قريب الحصول.

ثم أنكر عليهم ـ سبحانه ـ بعد ذلك اعتراضهم على اختيار نبيه **صلى‌الله‌عليه‌وسلم** للرسالة ، وساق هذا الإنكار بأسلوب توبيخي تهكمى فقال ـ تعالى ـ : ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٧٤.

(٢) سورة الأنعام الآية ١٢٤.

الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾. أى : أنهم لم يملكوا خزائن رحمة ربك . أيها الرسول الكريم . حتى يعطوا منها من يشاءون ويمنعوها عمن يشاءون ، ويتخيروا للنبوة صناديدهم ويترفعوا بها عنك .. وإنما المالك لكل ذلك هو الله . تعالى . العزيز الذي لا يغلبه غالب . الوهاب ، أى : الكثير العطاء لعباده.

والمراد بالعندية في قوله ﴿عِنْدَهُمْ﴾ : الملك والتصرف. وتقديم الظرف «عند» لأنه محل الإنكار. وفي إضافة الرب . عزّوجلّ . إلى الضمير العائد إلى النبي ﷺ تشريف وتكريم له ﷺ وجيء بصفة «العزيز» للرد على ما كانوا يزعمونه لأنفسهم وآلهتهم من ترفع وتكبر.

كما جيء بصفة «الوهاب» للإشارة إلى أن النبوة هبة من الله . تعالى . لمن يختاره من عباده ، وهو . سبحانه . أعلم حيث يجعل رسالته.

وقوله . عزّوجلّ . : ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما ...﴾ تأكيد لما أفادته الآية السابقة من عدم ملكيتهم لشيء من خزائن الله . تعالى .. أى : أن هؤلاء الكافرين ليست عندهم خزائن ربك . أيها الرسول الكريم . وليسوا بمالكين شيئا . أى شيء . من هذه العوالم العلوية أو السفلية ، وإنما هم خلق صغير من خلقنا العظيم الكبير.

وقوله . سبحانه . : ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ﴾ تعجيز لهم ، وتهكم بهم ، واستخفاف بأقوالهم ومزاعمهم ، والأسباب : جمع سبب وهو كل ما يتوصل به إلى غيره من حبل أو نحوه.

والفاء جواب لشرط محذوف. والتقدير : إن كان عندهم خزائن رحمتنا ، ولهم شيء من ملك السموات والأرض وما بينهما ، فليصعدوا في الطرق التي توصلهم إلى ما نملكه حتى يستولوا عليه ، ويدبروا أمره ، وينزلوا الوحى على من يختارونه للنبوة من أشرافهم وصناديدهم.

فالجملة الكريمة قد اشتملت على نهاية التعجيز لهم ، والتهكم بهم وبأقوالهم ، حيث بين . سبحانه . أنهم أدعياء فيما يزعمون ، وأنهم يهرفون بما لا يعرفون ..

ثم بشر الله . تعالى . رسوله ﷺ بالنصر عليهم فقال : ﴿جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ﴾.

ولفظ «جند» خبر لمبتدأ محذوف. و «ما» مزيدة للتقليل والتحقير ، نحو قولك : أكلت شيئا ما. أى : شيئا قليلا ، وقيل : هي للتكثير والتهويل كقولهم : لأمر ما جدع قصير أنفه.

أى : لأمر عظيم .. وعلى كلا المعنيين فالمقصود أنهم لا وزن لهم بجانب قدرة الله ـ تعالى ..

و «هنالك» صفة لجند ، أو ظرف لمهزوم. وهو إشارة إلى المكان البعيد.

و «مهزوم» خبر ثان للمبتدأ المقدر ، وأصل الهزم : غمز الشيء اليابس حتى يتحطّم ويكسر.

يقال : تهزّمت القربة ، بمعنى يبست. وتكسرت. وهزم الجيش بمعنى غلب وكسر.

والمعنى : هؤلاء المشركون ـ أيها الرسول الكريم ـ لا تهتم بأمرهم ، ولا تكترث بجموعهم ، فهم سواء أكانوا قليلين أم كثيرين ، لا قيمة لهم بجانب قوتنا التي لا يقف أمامها شيء ، ومهما تحزبوا عليك فهم جند مهزومون ومغلوبون أمام قوة المؤمنين في مواطن متعددة.

فالآية الكريمة بشارة للمؤمنين بالنصر على أعدائهم كما قال ـ تعالى ـ : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾.

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ﴾ يريد ما هم إلا جيش من الكفار المتحزبين على رسل الله مهزوم مكسور عما قريب ، فلا تبال بما يقولون ، ولا تكترث لما به يهذون ، و «ما» مزيدة ، وفيها معنى الاستعظام ... إلا أنه على سبيل الاستهزاء بهم. و ﴿هُنالِكَ﴾ إشارة حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم ، من قولهم لمن ينتدب لأمر ليس من أهله : لست هنالك [1].

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكت أقوال المشركين ، وردت عليها ردا يكبتهم ويزهق باطلهم ، وختمت بما يبشر المؤمنين بالنصر عليهم.

ثم ساق ـ سبحانه ـ جانبا مما أصاب السابقين من دمار حين كذبوا رسلهم لكي يعتبر المشركون المعاصرون للنبي ﷺ ولكي يقلعوا عن شركهم حتى لا يصيبهم ما أصاب أمثالهم من المتقدمين عليهم ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحابُ الْأَيْكَةِ أُولئِكَ الْأَحْزابُ (١٣) إِنْ كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٧٥.

فَحَقَّ عِقابِ (١٤) وَما يَنْظُرُ هؤُلاءِ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً ما لَها مِنْ فَواقٍ (١٥) وَقالُوا رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ﴾ (١٦)

فقوله ـ تعالى ـ : ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ...﴾ استئناف مقرر لوعيد قريش بالهزيمة. ولوعد المؤمنين بالنصر. وتأنيث قوم باعتبار المعنى ، وهو أنهم أمة وطائفة.

أى : ليس قومك ـ يا محمد ـ هم أول المكذبين لرسلهم ، فقد سبقهم إلى هذا التكذيب قوم نوح ، فكانت عاقبتهم الإغراق بالطوفان.

وسبقهم ـ أيضا ـ إلى هذا التكذيب قوم عاد ، فقد كذبوا نبيهم هودا ، فكانت عاقبتهم الإهلاك بالريح العقيم. التي ما أتت على شيء إلا جعلته كالرميم.

وقوله : ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتادِ﴾ معطوف على ما قبله أى : وكذب ـ أيضا ـ فرعون رسولنا موسى ـ عليه‌السلام ـ ..

وقوله : ﴿ذُو الْأَوْتادِ﴾ صفة لفرعون. والأوتاد : جمع وتد ، وهو ما يدق في الأرض لتثبيت الشيء وتقويته.

والمراد بها هنا : المبانى الضخمة العظيمة ، أو الجنود الذين يثبتون ملكه كما تثبت الأوتاد البيت ، أو الملك الثابت ثبوت الأوتاد.

قال الآلوسى ما ملخصه : والأصل إطلاق ذي الأوتاد على البيت المشدود والمثبت بها ، فشبه هنا فرعون في ثبات ملكه .. ببيت ثابت ذي عماد وأوتاد ..

أو المراد بالأوتاد الجنود : لأنهم يقوون ملكه كما يقوى الوتد الشيء. أو المراد بها المبانى العظيمة الثابتة.

ويصح أن تكون الأوتاد على حقيقتها فقد قيل إنه كان يربط من يريد قتله بين أوتاد متعددة ، ويتركه مشدودا فيها حتى يموت .. [1].

أى : وفرعون صاحب المبانى العظيمة ، والجنود الأقوياء ، والملك الوطيد ... كذب رسولنا موسى ـ عليه‌السلام ـ ، فكانت عاقبة هذا التكذيب أن أغرقناه ومن معه جميعا من جنوده الكافرين.

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ١٧٠.

وكذب ـ أيضا ـ قوم ثمود نبيهم صالحا ، وقوم لوط نبيهم لوطا ، وأصحاب الأيكة وهم قوم شعيب ـ كذبوه كذلك ـ فكانت نتيجة هذا التكذيب الإهلاك لهؤلاء المكذبين ـ كما قال ـ تعالى ـ : ﴿فَكُلًّا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا ، وَما كانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ، وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١).

والإشارة في قوله ـ تعالى ـ : ﴿أُولئِكَ الْأَحْزابُ﴾ تعود إلى هؤلاء الأقوام المكذبين لرسلهم وسموا بالأحزاب ، لأنهم تحزبوا ضد رسلهم ، وانضم بعضهم إلى بعض في تكذيبهم ، ووقفوا جميعا موقف المحارب لهؤلاء الرسل الكرام.

وقوله ـ سبحانه ـ ﴿إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقابِ﴾ استئناف مقرر لما قبله من تكذيب هؤلاء الأقوام لرسلهم ، وبيان للأسباب التي أدت إلى عقاب المكذبين.

و «إن» هنا نافية ، ولا عمل لها لانتقاض النفي بإلا. و «إلا» أداة استثناء مفرغ من أعم الصفات أو الأحكام : وجملة «كذب الرسل» في محل رفع خبر «كل».

أى : ليس لهؤلاء الأقوام من صفات سوى تكذيب الرسل ، فكانت نتيجة هذا التكذيب أن حل بهم عقابي وثبت عليهم عذابي. الذي دمرهم تدميرا.

والإخبار عن كل حزب من هذه الأحزاب بأنه كذب الرسل ، إما لأن تكذيب كل حزب لرسوله يعتبر من باب التكذيب لجميع الرسل لأن دعوتهم واحدة ، وإما من قبيل مقابلة الجمع بالجمع ، والمقصود تكذيب كل حزب لرسوله.

وقد جاء تكذيبهم في الآية السابقة بالجملة الفعلية «كذبت قبلهم ...» وجاء في هذه الآية بالجملة الاسمية : لبيان إصرارهم على هذا التكذيب ، ومداومتهم عليه ، وإعراضهم عن دعوة الرسل لهم إعراضا تاما.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَما يَنْظُرُ هؤُلاءِ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً ما لَها مِنْ فَواقٍ﴾. بيان للعذاب المعد للمشركين المعاصرين للنبي ﷺ بعد بيان العقاب الذي حل بالسابقين.

والمراد بالصيحة هنا : النفخة الثانية التي ينفخها إسرافيل في الصور ، فيقوم الخلائق من قبورهم للحساب والجزاء.

وقيل المراد بها النفخة الأولى ، وضعف هذا القول بأنهم لن يكونوا موجودين وقتها حتى يصعقوا بها ..

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٠.

وينظرون هنا بمعنى ينتظرون. وجعلهم . سبحانه . منتظرين للعقاب مع أنهم لم ينتظروه على سبيل الحقيقة للإشعار بتحقق وقوعه ، وأنهم بصدد لقائه ، فهم لذلك في حكم المنتظرين له.

أى : وما ينتظر هؤلاء المشركون الذين هم أمثال المهلكين من قبلهم ، ﴿إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً﴾ أى : نفخة واحدة ينفخها إسرافيل ﴿فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ ، وهذه النفخة ﴿ما لَها مِنْ فَواقٍ﴾ أى : ليس لها من توقف وانتظار حتى ولو بمقدار فواق ناقة وهو الزمن الذي يكون بين الحلبتين ، أو الزمن الذي يكون فيه رجوع اللبن في الضرع بعد الحلب.

والمقصود بيان أن هذه الصيحة سريعة الوقوع ، وأنها لن تتأخر عن وقتها ، وأنها صيحة واحدة فقط يتم بعدها كل شيء يتعلق بالبعث والجزاء.

قال الجمل في حاشيته ما ملخصه : قوله : ﴿ما لَها مِنْ فَواقٍ﴾ يجوز أن يكون قوله ﴿لَها﴾ رافعا لقوله : ﴿مِنْ فَواقٍ﴾ على الفاعلية لاعتماده على النفي.

وأن يكون جملة من مبتدأ وخبر ، وعلى التقديرين فالجملة المنفية صفة لصيحة ، ومن مزيدة ..

والفواق . بفتح الفاء وضمها . الزمان الذي بين حلبتى الحالب ورضعتى الراضع . والمعنى : ما لها من توقف قدر فواق ناقة. وفي الحديث : «العيادة قدر فواق ناقة» .. [1].

ثم ختم . سبحانه . هذه الآيات الكريمة ، ببيان ما جبل عليه هؤلاء المشركون من جهالات وسفاهات ، حيث تعجلوا العقاب قبل وقوعه بهم ، فقال . تعالى . : ﴿وَقالُوا رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ﴾.

والقطّ : النصيب والقطعة من الشيء. مأخوذ من قط الشيء إذا قطعه وفصله عن غيره. فهم قد أطلقوا القطعة من العذاب على عذابهم ، باعتبار أنها مقتطعة من العذاب الكلى المعد لهم ولغيرهم.

أى : وقال هؤلاء المشركون الجاهلون يا ربنا ﴿عَجِّلْ لَنا قِطَّنا﴾ أى عجل لنا نصيبنا من العذاب الذي توعدتنا به ، ولا تؤخره إلى يوم الحساب.

وتصدير دعائهم بنداء الله . تعالى . بصفة الربوبية ، يشعر بشدة استهزائهم بهذا العذاب الذي توعدهم الله . تعالى . به على لسان رسوله ﷺ .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٥٦٤.

ونسب ـ سبحانه ـ القول إليهم جميعا مع أن القائل هو النضر بن الحارث ، أو أبو جهل .. لأنهم قد رضوا بهذا القول ، ولم يعترضوا على قائله.

وقيل المراد بقوله ـ تعالى ـ : ﴿عَجِّلْ لَنا قِطَّنا ..﴾ أى : صحائف أعمالنا لننظر فيها قبل يوم الحساب.

وقيل المراد به : نصيبهم من الجنة أى : عجل لنا نصيبنا من الجنة التي وعد رسولك بها أتباعه ، وأعطنا هذا النصيب في الدنيا قبل يوم الحساب لأننا لا نؤمن بوقوعه.

وعلى جميع الأقوال ، فالمراد بيان أنهم قوم قد بلغ بهم التطاول والغرور منتهاه ، حيث استهزءوا بيوم الحساب ، وطلبوا تعجيل نزول العذاب بهم في الدنيا ، بعد أن سمعوا من الرسول صلى‌الله‌عليه‌وسلم أن عقوبتهم مؤجلة إلى الآخرة ..

قال ـ تعالى ـ : ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ، وَما كانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [1].

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ ، وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [2].

ثم واصلت السورة الكريمة تسليتها للرسول صلى‌الله‌عليه‌وسلم حيث أمرته بالصبر ، وذكرت له ـ بشيء من التفصيل ـ قصص بعض الأنبياء ـ عليهم‌السلام ـ وبدأت بقصة داود ـ عليه‌السلام ـ الذي آتاه الله الملك والنبوة قال ـ تعالى ـ :

﴿اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْراقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنا مُلْكَهُ وَآتَيْناهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطابِ (٢٠) وَهَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلى داوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قالُوا لا تَخَفْ

---

(١) سورة الأنفال الآية ٢٣.

(٢) سورة الحج الآية ٤٧.

خَصْمانِ بَغى بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنا إِلى سَواءِ الصِّراطِ (٢٢) إِنَّ هذا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ فَقالَ أَكْفِلْنِيها وَعَزَّنِي فِي الْخِطابِ (٢٣) قالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَقَلِيلٌ ما هُمْ وَظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ راكِعاً وَأَنابَ (٢٤) فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥) يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ﴾ (٢٦)

والخطاب في قوله ـ تعالى ـ : ﴿اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ ...﴾ للنبي ﷺ.

أى : اصبر ـ أيها الرسول الكريم ـ على ما قاله أعداؤك فيك وفي دعوتك لقد قالوا عنك إنك ساحر ومجنون وكاهن وشاعر .. وقالوا عن القرآن الكريم : إنه أساطير الأولين .. وقالوا في شأن دعوتك إياهم إلى وحدانية الله ـ تعالى ـ ﴿ما سَمِعْنا بِهذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ﴾ ..

وقالوا غير ذلك مما يدل على جهلهم وجحودهم للحق ، وعليك ـ أيها الرسول الكريم ـ أن تصبر على ما صدر منهم من أباطيل ، فإن الصبر مفتاح الفرج ، وهو الطريق الذي سلكه كل نبي من قبلك ..

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ﴾ بصيغة المضارع ، لاستحضار الصورة الماضية. وللإشعار بأن ما قالوه في الماضي سيجددونه في الحاضر وفي المستقبل فعليه أن بعد

نفسه لاستقبال هذه الأقوال الباطلة بصبر وسعة صدر حتى يحكم الله ـ تعالى ـ بحكمه العادل ، بينه وبينهم.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ معطوف على جملة «اصبر» ..

وداود ـ عليه‌السلام ـ : هو ابن يسى من سبط «يهوذا» بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم وكانت ولادة داود في حوالى القرن الحادي عشر قبل الميلاد. وقد منحه الله ـ تعالى ـ النبوة والملك.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ذَا الْأَيْدِ﴾ صفة لداود ، والأيد : القوة. يقال : آد الرجل يئيد أيدا وإيادا ، إذا قوى واشتد عوده ، فهو أيّد. ومنه قولهم في الدعاء : أيدك الله. أى : قواك و ﴿أَوَّابٌ﴾ صيغة مبالغة من آب إذا رجع.

أى : اصبر ـ أيها الرسول الكريم ـ على أذى قومك حتى يحكم الله بينك وبينهم واذكر ـ لتزداد ثباتا وثقة ـ قصة وحال عبدنا داود ، صاحب القوة الشديدة في عبادتنا وطاعتنا وفي دحر أعدائنا .. ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أى : كثير الرجوع إلى ما يرضينا.

ثم بين ـ سبحانه ـ بعض مظاهر فضله ونعمه على عبده داود ـ عليه‌السلام ـ فقال : ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ ، يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْراقِ ...﴾.

والعشى : الوقت الذي يكون من الزوال إلى الغروب أو إلى الصباح. والإشراق : وقت إشراق الشمس ، أى : سطوعها وصفاء ضوئها ، قالوا : وهو وقت الضحى ..

فالإشراق غير الشروق ، لأن الشروق هو وقت طلوع الشمس. وهو يسبق الإشراق أى : إن من مظاهر فضلنا على عبدنا داود ، أننا سخرنا وذللنا الجبال معه ، بأن جعلناها بقدرتنا تقتدى به فتسبح بتسبيحه في أوقات العشى والإشراق.

وقال ـ سبحانه ـ ﴿مَعَهُ﴾ للإشعار بأن تسبيحها كان سبيل الاقتداء به في ذلك.

أى : أنها إذا سمعته يسبح الله ـ تعالى ـ ويقدسه وينزهه ، رددت معه ما يقوله.

وهذا التسبيح من الجبال لله ـ تعالى ـ إنما هو على سبيل الحقيقة ولكن بكيفية لا يعلمها إلا هو ـ عزوجل ـ بدليل قوله ـ سبحانه ـ : ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ (١).

---

(١) سورة الإسراء الآية ٤٤.

والقول بأن تسبيح الجبال كان بلسان الحال ضعيف لأمور منها : المخالفة لظاهر ما تدل عليه الآية من أن هناك تسبيحا حقيقيا بلسان المقال ، ومنها : أن تقييد التسبيح بكونه بالعشي والإشراق. وبكونه مع داود ، يدل على أنه تسبيح بلسان المقال ، إذ التسبيح بلسان الحال موجود منها في كل وقت ، ولا يختص بكونه في هذين الوقتين أو مع داود.

وخص ـ سبحانه ـ وقتى العشى والإشراق بالذكر. للإشارة إلى مزيد شرفهما ، وسمو درجة العبادة فيهما.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ...﴾ معطوف على الجبال وكلمة محشورة : بمعنى مجموعة. وهي حال من الطير. والعامل قوله ﴿سَخَّرْنَا﴾.

أى : إنا سخرنا الجبال لتسبح مع داود عند تسبيحه لنا ، كما سخرنا الطير وجمعناها لتردد معه التسبيح والتقديس لنا.

والتعبير بقوله ﴿مَحْشُورَةً﴾ يشير إلى أن الطير قد حبست وجمعت لغرض التسبيح معه ، حتى لكأنها تحلق فوقه ولا تكاد تفارقه من شدة حرصها على تسبيح الله ـ تعالى ـ وتقديسه.

وجملة «كل له أواب» مقررة لمضمون ما قبلها من تسبيح الجبال والطير.

واللام في «له» للتعليل ، والضمير يعود إلى داود ـ عليه‌السلام ـ ..

أى : كل من الجبال والطير. من أجل تسبيح داود ، كان كثير الرجوع إلى التسبيح. ويصح أن يكون الضمير يعود إلى الله ـ تعالى ـ فيكون المعنى : كل من داود والجبال والطير ، كان كثير التسبيح والتقديس والرجوع إلى الله ـ تعالى ـ بما يرضيه.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ أى : قوينا ملك داود ، عن طريق كثرة الجند التابعين له ، وعن طريق ما منحناه من هيبة ونصرة وقوة ..

﴿وَآتَيْناهُ الْحِكْمَةَ﴾ أى : النبوة ، وسعة العلم ، وصالح العمل ، وحسن المنطق.

﴿وَفَصْلَ الْخِطابِ﴾ أى : وآتيناه أيضا الكلام البليغ الفاصل بين الحق والباطل ، وبين الصواب والخطأ ، ووفقناه للحكم بين الناس بطريقة مصحوبة بالعدل ، وبالحزم الذي لا يشوبه تردد أو تراجع.

ثم ساق ـ سبحانه ـ ما يشهد لعبده داود بذلك فقال : ﴿وَهَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ﴾.

والاستفهام للتعجيب والتشويق لما يقال بعده ، لكونه أمرا غريبا تتطلع إلى معرفته النفس.

والنبأ : الخبر الذي له أهمية في النفوس ..

والخصم : أى المتخاصمين أو الخصماء. وهو في الأصل مصدر خصمه أى : غلبه في المخاصمة والمجادلة والمنازعة ، ولكونه في الأصل مصدرا صح إطلاقه على المفرد والمثنى والجمع ، والمذكر والمؤنث .. قالوا : وهو مأخوذ من تعلق كل واحد من المتنازعين بخصم الآخر.

أى : بجانبه ..

والظرف في قوله : ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ﴾ متعلق بمحذوف. والتسور : اعتلاء السور ، والصعود فوقه ، إذ صيغة التفعل تفيد العلو والتصعد. كما يقال تسنم فلان الجمل ، إذ علا فوق سنامه.

والمحراب : المكان الذي كان يجلس فيه داود ـ عليه‌السلام ـ للتعبد وذكر الله ـ تعالى ..

والمعنى : وهل وصل إلى علمك ـ أيها الرسول الكريم ـ ذلك النبأ العجيب ، ألا وهو نبأ أولئك الخصوم ، الذين تسلقوا على داود غرفته ، وقت أن كان جالسا فيها لعبادة ربه ، دون إذن منه ، ودون علم منه بقدومهم ..

إن كان هذا النبأ العجيب لم يصل إلى علمك ، فها نحن نقصه عليك.

وقوله : ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلى داوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ...﴾ بدل مما قبله. والفزع : انقباض في النفس يحدث للإنسان عند توقع مكروه.

أى : أن هؤلاء الخصوم بعد أن تسوروا المحراب ، دخلوا على داود ، فخاف منهم ، لأنهم أتوه من غير الطريق المعتاد للإتيان وهو الباب ، ولأنهم أتوه في غير الوقت الذي حدده للقاء الناس وللحكم بينهم ، وإنما أتوه في وقت عبادته.

ومن شأن النفس البشرية أن تفزع عند ما تفاجأ بحالة كهذه الحالة.

قال القرطبي : فإن قيل : لم فزع داود وهو نبي ، وقد قويت نفسه بالنبوة واطمأنت بالوحي ، ووثقت بما آتاه الله من المنزلة ، وأظهر على يديه من الآيات ، وكان من الشجاعة في غاية المكانة؟

قيل له : ذلك سبيل الأنبياء قبله ، لم يأمنوا القتل والأذية ، ومنهما كان يخاف.

ألا ترى إلى موسى وهارون ـ عليهما‌السلام ـ كيف قالا : ﴿إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَنْ يَطْغى﴾ ـ أى : فرعون ـ ، فقال الله لهما : ﴿لا تَخافا إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرى ..﴾ (١).

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ١٧٠.

ثم بين . سبحانه . ما قاله أولئك الخصوم لداود عند ما شاهدوا عليه أمارات الوجل والفزع ، فقال : ﴿قالُوا لا تَخَفْ. خَصْمانِ بَغى بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ ، فَاحْكُمْ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ ، وَاهْدِنا إِلى سَواءِ الصِّراطِ﴾ ..

والبغي : الجور والظلم ... وأصله من بغى الجرح إذا ترامى إليه الفساد.

والشطط : مجاوزة الحد في كل شيء. يقال : شط فلان على فلان في الحكم واشتط .. إذا ظلم وتجاوز الحق إلى الباطل.

وقوله : ﴿خَصْمانِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف أى : نحن خصمان. والجملة استئناف معلل للنهى في قولهم : «لا تخف». أى : قالوا لداود : لا تخف ، نحن خصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحكم الحق ، ولا تتجاوزه إلى غيره ، ﴿وَاهْدِنا إِلى سَواءِ الصِّراطِ﴾ أى : وأرشدنا إلى الطريق الوسط ، وهو طريق الحق والعدل.

وإضافة سواء الصراط ، من إضافة الصفة الى الموصوف.

ثم أخذا في شرح قضيتهما فقال أحدهما : «إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة ، فقال أكفلنيها وعزنى في الخطاب».

والمراد بالأخوة هنا : الأخوة في الدين أو في النسب ، أو فيهما وفي غيرهما كالصحبة والشركة.

والنعجة : الأنثى من الضأن. وتطلق على أنثى البقر.

وقوله : ﴿أَكْفِلْنِيها﴾ أى : ملكني إياها ، وتنازل لي عنها ، بحيث تكون تحت كفالتى وملكيتى كبقية النعاج التي عندي ، ليتم عددها مائة.

وقوله : ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطابِ﴾ أى : غلبني في المحاجة والمخاطبة لأنه أفصح وأقوى منى .. يقال : فلان عز فلانا في الخطاب ، إذا غلبه. ومنه قولهم في المثل : من عزّ بزّ. أى : من غلب غيره سلبه حقه. أى : قال أحدهما لداود . عليه‌السلام . : إن هذا الذي يجلس معى للتحاكم أمامك أخى. وهذا الأخ له تسع وتسعون نعجة ، أما أنا فليس لي سوى نعجة واحدة ، فطمع في نعجتى وقال لي : «أكفلنيها» أى : ملكنيها وتنازل عنها «وعزنى في الخطاب».

أى : وغلبني في مخاطبته لي ، لأنه أقوى وأفصح منى.

وأمام هذه القضية الواضحة المعالم ، وأمام سكوت الأخ المدعى عليه أمام أخيه المدعى ،

وعدم اعتراضه على قوله .. أمام كل ذلك. لم يلبث أن قال داود في حكمه : ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ ..﴾.

واللام في قوله : ﴿لَقَدْ ...﴾ جواب لقسم محذوف.

وإضافة «سؤال» إلى «نعجتك» من إضافة المصدر إلى مفعوله ، والفاعل محذوف.

أى : بسؤاله ، كما في قوله ـ تعالى ـ : ﴿لا يَسْأَمُ الْإِنْسانُ مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ﴾ أى : من دعائه.

وقوله ﴿نِعاجِهِ﴾ متعلق بسؤال على تضمينه معنى الضم.

أى : قال داود ـ عليه‌السلام ـ بعد فراغ المدعى من كلامه ، وبعد إقرار المدعى عليه بصدق أخيه فيما ادعاه ـ والله إن كان ما تقوله حقا ـ أيها المدعى ـ فإن أخاك في هذه الحالة يكون قد ظلمك بسبب طلبه منك أن تتنازل له عن نعجتك لكي يضمها إلى نعاجه الكثيرة.

وإنما قلنا إن داود ـ عليه‌السلام ـ قد قال ذلك بعد إقرار المدعى عليه بصحة كلام المدعى ، لأنه من المعروف أن القاضي لا يحكم إلا بعد سماع حجة الخصوم أو الخصمين حتى يتمكن من الحكم بالعدل.

ولم يصرح القرآن بأن داود ـ عليه‌السلام ـ قد قال حكمه بعد سماع كلام المدعى عليه ، لأنه مقرر ومعروف في كل الشرائع ، وحذف ما هو مقرر ومعلوم جائز عند كل ذي عقل سليم.

ثم أراد داود ـ عليه‌السلام ـ وهو الذي آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب ـ أراد أن يهون المسألة عن نفس المشتكى ، وأن يخفف من وقع ما قاله أخوه الغنى له ، وما فعله معه ، فقال : ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَقَلِيلٌ ما هُمْ ...﴾.

أى : قال داود للمشتكى ـ على سبيل التسلية له ـ : وإن كثيرا من الخلطاء ، أى الشركاء ـ جمع خليط ، وهو من يخلط ماله بمال غيره.

﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ﴾ أى : ليعتدى بعضهم على بعض ، ويطمع بعضهم في مال الآخر ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ فإنهم لا يفعلون ذلك لقوة إيمانهم ، ولبعدهم عن كل ما لا يرضى خالقهم. فالجملة الكريمة منصوبة المحل على الاستثناء ، لأن الكلام قبلها تام موجب.

وقوله : ﴿وَقَلِيلٌ ما هُمْ﴾ بيان لقلة عدد المؤمنين الصادقين الذين يعدلون في أحكامهم.

ولفظ «قليل» خبر مقدم و «ما» مزيدة للإبهام وللتعجب من قلتهم. و «هم» مبتدأ مؤخر.

فكأنه ـ سبحانه ـ يقول : ما أقل هؤلاء المؤمنين الذين يعملون الصالحات ويحرصون على إعطاء كل ذي حق حقه ، والجملة الكريمة اعتراض تذييلى.

وبهذا نرى أن داود ـ عليه السلام ـ قد قضى بين الخصمين ، بما يحق الحق ويبطل الباطل.

ثم بين ـ سبحانه ـ ما حاك بنفس داود ـ عليه السلام ـ بعد أن دخل عليه الخصمان ، وبعد أن حكم بينهما بالحكم السابق فقال : ﴿وَظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ ، فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ راكِعاً وَأَنابَ﴾.

والظن معناه : ترجيح أحد الأمرين على الآخر.

وفتناه : بمعنى امتحناه واختبرناه وابتليناه ، مأخوذ من الفتن بمعنى الابتلاء والاختبار.

أى : وظن داود ـ عليه السلام ـ أن دخول الخصمين عليه بهذه الطريقة ، إنما هو لأجل الاعتداء عليه. وأن ذلك لون من ابتلاء الله ـ تعالى ـ له ، وامتحانه لقوة إيمانه ، ولكن لما لم يتحقق هذا الظن ، وإنما الذي تحقق هو القضاء بينهما بالعدل ، استغفر ربه من ذلك الظن ، «وخر راكعا» أى : ساجدا لله ـ تعالى ـ وعبر عنه بالركوع لأنه في كل منهما انحناء وخضوع لله ـ عزّ وجلّ ـ «وأناب» أى : ورجع داود إلى الله ـ تعالى ـ بالتوبة وبالمداومة على العبادة والطاعة.

واسم الإشارة في قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ ...﴾ يعود إلى الظن الذي استغفر منه ربه ، وهو ظنه بأن حضور الخصمين إليه بهذه الطريقة غير المألوفة ، القصد منها الاعتداء عليه ، فلما ظهر له أنهما حضرا إليه في خصومة بينهما ليحكم فيها ، استغفر ربه من ذلك الظن السابق ، فغفر الله ـ تعالى ـ له.

فقوله : ـ تعالى ـ : ﴿فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ﴾ أى : فغفرنا له ذلك الظن الذي استغفر منه .. ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى﴾ أى : لقربة منا ومكانة سامية ﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أى : وحسن مرجع في الآخرة وهو الجنة.

ثم ختم ـ سبحانه ـ هذه القصة ، بتلك التوجيهات الحكيمة ، والآداب القويمة ، التي وجهها ـ سبحانه ـ إلى كل حاكم في شخص داود ـ عليه السلام ـ فقال : ﴿يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ..﴾. والخليفة : هو من يخلف غيره وينوب منابه. فهو فعيل بمعنى

فاعل. والتاء فيه للمبالغة. أى : يا داود إنا جعلناك ـ بفضلنا ومنتنا ـ خليفة ونائبا عنا في الأرض ، لتتولى سياسة الناس ، ولترشدهم إلى الصراط المستقيم.

والجملة الكريمة مقولة لقول محذوف معطوفة على ما سبقتها. أى : فغفرنا له ذلك وقلنا له يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض. ويصح أن تكون مستأنفة لبيان مظاهر الزلفى والمكانة الحسنة التي وهبها ـ سبحانه ـ لداود؟ حيث جعله خليفة في الأرض.

والفاء في قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى ...﴾ للتفريع ، أو هي جواب لشرط مقدر. والهوى : ميل النفس إلى رغباتها بدون تحر للعدل والصواب.

أى : إذا كان الأمر كما أخبرناك فاحكم ـ يا داود ـ بين الناس بالحكم الحق الذي أرشدك الله ـ تعالى ـ إليه ، وواظب على ذلك في جميع الأزمان والأحوال : ولا تتبع هوى النفس وشهواتها ، فإن النفس أمارة بالسوء.

وقوله ـ سبحانه ـ ﴿فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ...﴾ بيان للمصير السيئ الذي يؤدى إليه اتباع الهوى في الأقوال والأحكام.

وقوله ﴿فَيُضِلَّكَ﴾ منصوب بأن المضمرة بعد فاء السببية ، على أنه جواب للنهى السابق. أى : ولا تتبع الهوى ، فإن اتباعك له ، يؤدى بك إلى الضلال عن طريق الحق ، وعن مخالفة شرع الله ـ تعالى ـ ودينه.

ثم بين ـ سبحانه ـ عاقبة الذين يضلون عن سبيله فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ﴾.

أى : إن الذين يضلون عن دين الله وعن طريقه وشريعته ، بسبب اتباعهم للهوى ، لهم عذاب شديد لا يعلم مقداره إلا الله ـ تعالى ـ لأنهم تركوا الاستعداد ليوم الحساب ، وما فيه من ثواب وعقاب.

هذا ، ومن الأحكام والآداب التي أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتى :

١ ـ سمو منزلة داود ـ عليه‌السلام ـ عند ربه ، فقد افتتحت هذه الآيات ، بأن أمر الله ـ تعالى ـ رسوله صلى‌الله‌عليه‌وسلم أن يتذكر ما حدث لأخيه داود. ليكون هذا التذكير تسلية له عما أصابه من المشركين وعونا له على الثبات والصبر.

ثم وصف ـ سبحانه ـ عبده داود بأنه كان قويا في دينه ، ورجاعا إلى ما يرضى ربه ، وأنه ـ سبحانه ـ قد وهبه نعما عظيمة ، وآتاه الحكمة وفصل الخطاب.

ثم ختمت هذه الآيات ـ أيضا ـ بالثناء على داود ـ عليه‌السلام ـ حيث قال

ـ سبحانه ـ : ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾. وببيان أنه ـ تعالى ـ قد جعله خليفة في الأرض.

ومن الأحاديث التي وردت في فضله ـ عليه السلام ـ ما أخرجه البخاري في تاريخه أن رسول الله ﷺ كان إذا ذكر داود ، وحدث عنه قال : «كان أعبد البشر».

وأخرجه الديلمي عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ «لا ينبغي لأحد أن يقول إني أعبد من داود».

٢ ـ أن قصة الخصمين اللذين تسورا على داود المحراب ، قصة حقيقية ، وأن الخصومة كانت بين اثنين من الناس في شأن غنم لهما ، وأنهما حين دخلا عليه بتلك الطريقة الغريبة التي حكاها القرآن الكريم ، فزع منها داود ـ عليه السلام ـ وظن أنهما يريدان الاعتداء عليه ، وأن الله ـ تعالى ـ يريد امتحانه وثباته أمام أمثال هذه الأحداث.

فلما تبين لداود بعد ذلك أن الخصمين لا يريدان الاعتداء عليه ، وإنما يريدان التحاكم إليه في مسألة معينة ، استغفر ربه من ذلك الظن السابق ـ أى ظن الاعتداء عليه فغفر الله ـ تعالى ـ له ..

والذي يتدبر الآيات الكريمة يراها واضحة وضوحا جليا في تأييد هذا المعنى.

قال أبو حيان ما ملخصه ـ بعد أن ذكر جملة من الآراء ـ : والذي أذهب إليه ما دل عليه ظاهر الآية من أن المتسورين للمحراب كانوا من الإنس ، دخلوا عليه من غير المدخل ، وفي غير وقت جلوسه للحكم وأنه فزع منهم ظانا أنهم يغتالونه ، إذ كان منفردا في محرابه لعبادة ربه ، فلما اتضح له أنهم جاءوا في حكومته ، وبرز منهم اثنان للتحاكم ... وأن ما ظنه غير واقع ، استغفر من ذلك الظن ، حيث اختلف ولم يقع مظنونه ، وخر ساجدا منيبا إلى الله ـ تعالى ـ فغفر الله له ذلك الظن ، ولذلك أشار بقوله : ﴿فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ﴾ ولم يتقدم سوى قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ﴾ ويعلم قطعا أن الأنبياء معصومون من الخطايا ، ولا يمكن وقوعهم في شيء منها ، ضرورة أننا لو جوزنا عليهم شيئا من ذلك لبطلت الشرائع ، ولم نثق بشيء مما يذكرون أنه أوحى الله به إليهم ، فما حكى الله ـ تعالى ـ في كتابه. يمر على ما أراده ـ تعالى ـ ، وما حكى القصاص مما فيه غض من منصب النبوة ، طرحناه .. [1].

٢ ـ ومع أن ما ذكرناه سابقا ، وما نقلناه عن الإمام أبي حيان ، هو المعنى الظاهر من الآيات ، وهو الذي تطمئن إليه النفس ، لأنه يتناسب مع مكانة داود ـ عليه السلام ـ ، ومع ثناء الله ـ تعالى ـ عليه وتكريمه له.

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ج ٧ ص ٣٩٣.

أقول مع كل ذلك ، إلا أننا وجدنا كثيرا من المفسرين عند حديثهم عن قصة الخصوم الذين تسوروا على داود المحراب ، يذكرون قصصا في نهاية النكارة ، وأقوالا في غاية البطلان والفساد.

فمثلا نرى ابن جرير وغيره يذكرون قصة مكذوبة ملخصها : «أن داود . عليه السلام . كان يصلى في محرابه .. ثم تطلع من نافذة المكان الذي كان يصلى فيه ، فرأى امرأة جميلة فأرسل إليها فجاءته ، فسألها عن زوجها فأخبرته بأن زوجها ، اسمه «أوريا» وأنه خرج مع الجيش الذي يحارب الأعداء .. فأمر داود . عليه السلام . قائد الجيش أن يجعله في المقدمة لكي يكون عرضة للقتل .. وبعد قتله تزوج داود بتلك المرأة .. [1].

ونرى صاحب الكشاف بعد أن يذكر هذه القصة ، ثم يعلق عليها بقوله : «فهذا ونحوه مما يقبح أن يحدّث به عن بعض المتسمين بالصلاح من أبناء المسلمين ، فضلا عن بعض أعلام الأنبياء ..» نراه يذكر معها قصصا أخرى ملخصها : أن داود . عليه السلام . لم يعمل على قتل «أوريا» وإنما سأله أن يتنازل له عن امرأته ، فانصاع لأمره وتنازل له عنها .. أو أنه خطبها بعد أن خطبها «أوريا». فآثر أهلها داود على «أوريا».

قال صاحب الكشاف : كان أهل زمان داود . عليه السلام . يسأل بعضهم بعضا أن ينزل له عن امرأته ، فيتزوجها إذا أعجبته ، وكان لهم عادة في المواساة بذلك قد اعتادوها .. فاتفق أن عين داود وقعت على امرأة رجل يقال له «أوريا». فأحبها ، فسأله النزول عنها ، فاستحيا أن يرده ، ففعل ، فتزوجها ، وهي أم سليمان . عليه السلام . .. وقيل : خطبها «أوريا» ثم خطبها داود فآثر أهلها داود على أوريا .. [2].

والذي نراه أن هذه الأقوال وما يشبهها عارية عن الصحة ، وينكرها النقل والعقل ، ولا يليق بمؤمن أن يقبل شيئا منها ..

ينكرها النقل : لأنها لم تثبت من طريق يعتد به ، بل الثابت أنها مكذوبة.

قال ابن كثير : قد ذكر المفسرون هاهنا قصة ، أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه ، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثا لا يصح سنده ، لأنه من رواية يزيد الرقاشي ، عن أنس . ويزيد وإن كان من الصالحين . لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة .. [3].

---

(١) راجع تفسير ابن جرير ج ٢٣ ص ٩٣ ، وتفسير القرطبي ج ١٥ ص ١٦١.

(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٨٠.

(٣) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٥١.

وقال السيوطي : القصة التي يحكونها في شأن المرأة وأنها أعجبته ، وأنه أرسل زوجها مع البعث حتى قتل ، أخرجها ابن أبى حاتم من حديث أنس مرفوعا ، وفي إسناده ابن لهيعة ، وحاله معروف . عن ابن صخر ، عن زيد الرقاشي ، وهو ضعيف ..

وقال البقاعي : وتلك القصة وأمثالها من كذب اليهود . وقد أخبرنى بعض من أسلم منهم أنهم يتعمدون ذلك في حق داود . عليه السلام . لأن عيسى . عليه السلام . من ذريته ، ليجدوا سبيلا إلى الطعن فيه (١).

إذا فهذه القصص وتلك الأقوال غير صحيحة من ناحية النقل ، لأن رواتها معروفون بالضعف. وبالنقل عن الإسرائيليات.

ويروى أن الإمام عليا . رضى الله عنه . قال : «من حدث بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة ، وهو حد الفرية على الأنبياء» (٢).

وهي غير صحيحة من ناحية العقل ، لأنه ليس من المعقول أن يمدح الله . تعالى . نبيه داود هذا المدح في أول الآيات وفي آخرها كما سبق أن أشرنا ، ثم نرى بعد ذلك من يتهمه بأنه أعجب بامرأة ، ثم تزوجها بعد أن احتال لقتل زوجها ، بغير حق. أو طلب منه التنازل له عنها ، أو خطبها على خطبته.

إن هذه الأفعال يتنزه عنها كثير من الناس الذين ليسوا بأنبياء ، فكيف يفعلها واحد من أعلام الأنبياء. هو داود . عليه السلام .. الذي مدحه الله . تعالى . بالقوة في دينه.

وبكثرة الرجوع إلى ما يرضى الله . تعالى . ، وبأنه . سبحانه . آتاه الحكمة وفصل الخطاب. وبأن له عند ربه «زلفى وحسن مآب».

والخلاصة : أن كل ما قيل عند تفسير هذه الآيات ، مما يتصل بزواج داود بتلك المرأة أو بزوجها لا أساس له من الصحة. لأنه لم يقم عليه دليل أو ما يشبه الدليل. بل قام الدليل على عدم صحته إطلاقا. لأنه يتنافى مع عصمة الأنبياء. الذين صانهم الله . تعالى . من ارتكاب ما يخدش الشرف والمروءة قبل النبوة وبعدها.

قال الإمام ابن حزم ما ملخصه : «ما حكاه الله . تعالى . عن داود قول صادق صحيح. لا يدل على شيء مما قاله المستهزئون الكاذبون المتعلقون بخرافات ولّدها اليهود.

وإنما كان ذلك الخصم قوما من بنى آدم بلا شك. مختصمين في نعاج من الغنم.

---

(١) راجع تفسير القاسمى ج ١٤ ص ٥٠٨٨.

(٢) راجع تفسير الكشاف ج ٤ ص ٨١.

ومن قال إنهم كانوا ملائكة معرضين بأمر النساء. فقد كذب على الله ـ تعالى ـ ما لم يقل ، وزاد في القرآن ما ليس فيه .. لأن الله ـ تعالى ـ يقول : ﴿وَهَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ﴾ فقال هو : لم يكونوا خصمين. ولا بغى بعضهم على بعض. ولا كان لأحدهما تسع وتسعون نعجة. ولا كان للآخر نعجة واحدة ولا قال له : ﴿أَكْفِلْنِيها ...﴾ [1].

٤ ـ هذا : وهناك أقوال أخرى ذكرها المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات. منها : أن استغفار داود ـ عليه‌السلام ـ إنما كان سببه أنه قضى لأحد الخصمين قبل أن يسمع حجة الآخر.

قال الإمام الرازي ما ملخصه : لم لا يجوز أن يقال إن تلك الزلة التي جعلت داود يستغفر ربه ـ إنما حصلت لأنه قضى لأحد الخصمين ، قبل أن يسمع كلام الخصم الآخر ، فإنه لما قال له : «لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ..» فحكم عليه بكونه ظالما بمجرد دعوى الخصم بغير بينة لكون هذا الخصم مخالفا للصواب ، فعند هذا اشتغل داود بالاستغفار والتوبة ، إلا أن هذا من باب ترك الأولى والأفضل [2].

والذي نراه أن هذا القول بعيد عن الصواب ، ولا يتناسب مع منزلة داود ـ عليه‌السلام ـ الذي آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب ، وذلك لأن من أصول القضاء وأولياته ، أن لا يحكم القاضي بين الخصمين أو الخصوم إلا بعد سماع حججهم جميعا ، فكيف يقال بعد ذلك أن داود قضى لأحد الخصمين قبل أن يستمع إلى كلام الآخر.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف سارع داود إلى تصديق أحد الخصمين ، حتى ظلم الآخر قبل استماع كلامه؟.

قلت : ما قال داود ذلك إلا بعد اعتراف صاحبه ، ولكنه لم يحك في القرآن لأنه معلوم. ويروى أنه قال : أريد أخذها منه وأكمل نعاجى مائة فقال داود : إن رمت ذلك ضربنا منك هذا وهذا. وأشار إلى طرف الأنف والجبهة .. [3].

ومنهم من يرى ، أن استغفار داود ـ عليه‌السلام ـ كان سببه : أن قوما من الأعداء أرادوا قتله ، فتسوروا عليه المحراب ، فلما دخلوا عليه لقصد قتله وجدوا عنده أقواما. فلم يستطيعوا تنفيذ ما قصدوه ، وتصنعوا هذه الخصومة فعلم داود قصدهم ، وعزم على الانتقام

---

(١) راجع تفسير القاسمى ج ١٤ ص ٥٠٨٩.

(٢) راجع تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ١٨٢.

(٣) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٨٧.

منهم ، ثم عفا عنهم ، واستغفر ربه مما كان قد عزم عليه ، لأنه كان يرى أن الأليق به العفو لا الانتقام [1].

وهذا القول ـ وإن كان لا بأس به من حيث المعنى ـ إلا أن الرأى الذي سقناه سابقا ، والذي ذهب إليه الإمام أبو حيان ، أرجح وأقرب إلى ما هو ظاهر من معنى الآيات.

وملخصه : أن الخصومة حقيقية بين اثنين من البشر ، واستغفار داود ـ عليه السلام ـ سببه أنه ظن أنهم جاءوا لاغتياله ولإيذائه ، وأن هذا ابتلاء من الله ـ تعالى ـ ابتلاه به ، ثم تبين له بعد ذلك أنهم ما جاءوا للاعتداء عليه وإنما جاءوا ليقضى بينهم في خصومة ، فاستغفر ربه من ذلك الظن. فغفر الله ـ تعالى ـ له.

ولعلنا بهذا البيان نكون قد وفقنا للصواب ، في تفسير هذه الآيات الكريمة ، التي ذكر بعض المفسرين عند تفسيرها أقوالا وقصصا لا يؤيدها عقل أو نقل ، ولا يليق بمسلم أن يصدقها ، لأنها تتنافى مع عصمة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ الذين اختارهم الله ـ تعالى ـ لتبليغ دعوته ، وحمل رسالته. وإرشاد الناس إلى إخلاص العبادة له ـ سبحانه ـ وإلى مكارم الأخلاق ، وحميد الخصال.

ثم بين ـ سبحانه ـ أنه لم يخلق السموات والأرض عبثا ، وأن حكمته اقتضت عدم المساواة بين الأخيار والأشرار ، وأن هذا القرآن قد أنزله ـ سبحانه ـ لتدبير آياته ، والعمل بتوجيهاته فقال ـ تعالى ـ :

﴿وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلاً ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ (٢٩)

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ١٨٦.

والمراد بالباطل في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وما بَيْنَهُما باطِلاً ...﴾ العبث واللهو واللعب وما يخالف الحق ، والجملة الكريمة مستأنفة لتقرير أن يوم القيامة حق ، وأن كفر الكافرين به ضلال وجهل. وقوله ﴿باطِلاً﴾ صفة لمصدر محذوف ، أو مفعول لأجله. أى : وما خلقنا ـ بقدرتنا التي لا يعجزها شيء ـ السموات والأرض وما بينهما من مخلوقات لا يعلمها إلا الله ـ تعالى ـ ... ما خلقنا ذلك خلقا باطلا لا حكمة فيه ، أو ما خلقناه من أجل متابعة الهوى وترك العدل والصواب.

وإنما خلقنا هذا الكون خلقا مشتملا على الحكم الباهرة ، وعلى المصالح الجمة والأسرار البليغة ، والمنافع التي لا يحصيها العد ، والهيئات والكيفيات التي تهدى من يتفكر فيها إلى اتباع الحق والرشاد.

واسم الإشارة في قوله ـ سبحانه ـ : ﴿ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ...﴾ يعود إلى ما نفاه ـ سبحانه ـ من خلقه للسموات والأرض وما بينهما على سبيل اللهو والعبث.

أى : نحن ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا خلقا مشتملا على الحكم الباهرة .. ولكن الذين كفروا هم الذين يظنون ويعتقدون أننا خلقنا هذه الكائنات من أجل الباطل واللهو واللعب .. وسبب هذا الظن والاعتقاد الفاسد منهم ، كفرهم بالحق ، وجحودهم ليوم القيامة وما فيه من حساب وثواب وعقاب ، وإعراضهم عما جاءهم به الرسول ﷺ من هدايات وإرشادات.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ بيان للعاقبة السيئة التي حلت بهم بسبب هذا الظن الفاسد .. فالفاء : للتفريع على ظنهم الباطل والويل : الهلاك والدمار.

و ﴿مِنَ﴾ ابتدائية أو بيانية أو تعليلية.

أى : القول بأن خلق هذا الكون خال من الحكمة ، هو ظن واعتقاد الذين كفروا وحدهم ، ومادام هذا مظنونهم ومعتقدهم فهلاك لهم كائن من النار التي نسلطها عليهم فتحرق أجسادهم ، وتجعلهم يذوقون العذاب المهين.

وقال ـ سبحانه ـ ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ...﴾ بالإظهار في مقام الإضمار ، للإشعار بعلية صلة الموصول للحكم أى : أن هذا الويل والهلاك كائن لهم بسبب كفرهم.

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ولم يقل للذين ظنوا للإشارة إلى أن ظنهم القبيح هذا ، ما هو إلا نتيجة كفرهم وجحودهم للحق.

ثم بين ـ سبحانه ـ أن حكمته قد اقتضت استحالة المساواة بين الأخيار والفجار ، فقال

ـ تعالى ـ : ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ، أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾.

و «أم» في الآية الكريمة منقطعة بمعنى بل الإضرابية ، والهمزة للاستفهام الإنكارى.

والإضراب هنا انتقالي من تقرير أن هذا الكون لم يخلقه الله ـ تعالى ـ عبثا إلى تقرير استحالة المساواة بين المؤمنين والكافرين.

والمعنى : وكما أننا لم نخلق هذا الكون عبثا ، كذلك اقتضت حكمتنا وعدالتنا .. استحالة المساواة ـ أيضا ـ بين المتقين والفجار.

وذلك لأن المؤمنين المتقين ، قد قدموا لنا في دنياهم ما يرضينا ، فكافأناهم على ذلك بما يرضيهم ، ويسعدهم ويشرح صدورهم ، ويجعلهم يوم القيامة خالدين في جنات النعيم.

أما المفسدون الفجار ، فقد قدموا في دنياهم ما يغضبنا ويسخطنا عليهم ، فجازيناهم على ذلك بما يستحقون من عذاب السعير.

وربك ـ أيها العاقل ـ «لا يضيع أجر من أحسن عملا» «ولا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون».

فالمقصود بالآية الكريمة إعلان استحالة التسوية في الآخرة بين المؤمنين والكافرين ، لأن التسوية بينهما ظلم ، وهو محال عليه ـ تعالى ـ ، وما كان البعث والجزاء والثواب والعقاب يوم القيامة إلا ليجزي ـ سبحانه ـ الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى.

ومن الآيات التي تشبه في معناها هذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، سَواءً مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ ، ساءَ ما يَحْكُمُونَ﴾ (١).

ثم مدح ـ سبحانه ـ القرآن الكريم الذي أنزله على رسوله ﷺ وبين حكمة إنزاله ، فقال : ﴿كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾.

وقوله : ﴿كِتابٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف. والمقصود به القرآن الكريم.

أى : هذا كتاب ﴿أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ﴾ بقدرتنا ورحمتنا ـ أيها الرسول الكريم ، ومن صفاته أنه ﴿مُبارَكٌ﴾ أى : كثير الخيرات والبركات ..

وجعلناه كذلك ﴿لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ﴾ أى ليتفكروا فيما اشتملت عليه آياته من أحكام

---

(١) سورة الجاثية الآية ٢١.

حكيمة ، وآداب قويمة ، وتوجيهات جامعة لما يسعدهم في دنياهم وآخرتهم ..

﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ أى : وليتعظ أصحاب العقول السليمة بما جاء فيه من قصص وعبر عن السابقين ، كما قال ـ سبحانه ـ : ﴿لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى ، وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [1].

ثم ذكر ـ سبحانه ـ جانبا من قصة سليمان ـ عليه‌السلام ـ فمدحه لكثرة رجوعه إلى الله ، وذكر بعض النعم التي منحها إياه ، كما ذكر اختباره له. وكيف أن سليمان ـ عليه‌السلام ـ طلب من ربه المغفرة والملك ، فأعطاه ـ سبحانه ـ ما طلبه. قال ـ تعالى ـ :

﴿وَوَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِناتُ الْجِيادُ (٣١) فَقالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ (٣٢) رُدُّوها عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْناقِ (٣٣) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ وَأَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنابَ (٣٤) قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ (٣٦) وَالشَّياطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ (٣٨) هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ (٤٠)

في هذه الآيات الكريمة مسألتان ذكر بعض المفسرين فيهما كلاما غير مقبول.

أما المسألة الأولى فهي مسألة : عرض الخيل على سيدنا سليمان والمقصود به.

---

(١) سورة يوسف آية ١١١.

وأما المسألة الثانية فهي مسألة المقصود بقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ ..﴾

وسنسير في تفسير هذه الآيات على الرأى الذي تطمئن إلى صحته نفوسنا ، ثم نذكر بعده بعض الأقوال التي قيلت في هذا الشأن ، ونرد على ما يستحق الرد منه ، فنقول ـ وبالله التوفيق ـ :

المخصوص بالمدح في قوله ـ تعالى ـ : ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ محذوف ، والمقصود به سليمان ـ عليه‌السلام ـ أى : ووهبنا ـ بفضلنا وإحساننا ـ لعبدنا داود ابنه سليمان ـ عليهما‌السلام ـ ونعم العبد سليمان في دينه وفي خلقه وفي شكره لخالقه ـ تعالى ـ.

وجملة «إنه أواب» تعليل لهذا المدح من الله ـ تعالى ـ لسليمان ـ عليه‌السلام ـ أى : إنه رجاع إلى ما يرضى الله ـ تعالى ـ مأخوذ من آب الرجل إلى داره ، إذا رجع إليها.

و «إذ» في قوله : ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِناتُ الْجِيادُ﴾ منصوب بفعل تقديره : اذكر ، و «عليه» متعلق بعرض و «العشى» يطلق على الزمان الكائن من زوال الشمس إلى آخر النهار. وقيل إلى مطلع الفجر.

والصافنات : جمع صافن ، والصافن من الخيل : الذي يقف على ثلاثة أرجل ويرفع الرابعة فيقف على مقدم حافرها.

والجياد : جمع جواد ، وهو الفرس السريع العدو ، الجيد الركض ، سواء أكان ذكرا أم أنثى ، يقال : جاد الفرس يجود جودة فهو جواد ، إذا كان سريع الجري ، فاره المظهر ..

أى : اذكر ـ أيها العاقل ـ ما كان من سليمان ـ عليه‌السلام ـ وقت أن عرض عليه بالعشي الخيول الجميلة الشكل. السريعة العدو ..

قال صاحب الكشاف : فإن قلت. ما معنى وصفها بالصفون؟ قلت : الصفون لا يكاد يوجد في الهجن ، وإنما هو في ـ الخيل ـ العراب الخلص وقيل : وصفها بالصفون والجودة ، ليجمع لها بين الوصفين المحمودين : واقفة وجارية ، يعنى إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها ، وإذا جرت كانت سراعا خفافا في جريها .. [1].

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما قاله سليمان ـ عليه‌السلام ـ خلال استعراضه للخيول الصافنات الجياد على سبيل الشكر لربه ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿فَقالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ﴾.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٩١.

والخير : يطلق كثيرا على المال الوفير ، كما في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾. والمراد به هنا : الخيل الصافنة الجيدة ، والعرب تسمى الخيل خيرا ، لتعلق الخير بها ، روى البخاري عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة».

و ﴿عَنْ﴾ هنا تعليلية. والمراد ب ﴿ذِكْرِ رَبِّي﴾ طاعته وعبادته والضمير في قوله ﴿حَتَّى تَوارَتْ﴾ يعود إلى الخيل الصافنات الجياد ، والمراد بالحجاب : ظلام الليل الذي يحجب الرؤية.

والمعنى : فقال سليمان وهو يستعرض الخيل أو بعد استعراضه لها : إنى أحببت استعراض الصافنات الجياد ، وأحببت تدريبها وإعدادها للجهاد ، من أجل ذكر ربي وطاعته وإعلاء كلمته ، ونصرة دينه ، وقد بقيت حريصا على استعراضها وإعدادها للقتال في سبيل الله ، حتى توارت واختفت عن نظري بسبب حلول الظلام الذي يحجب الرؤية ﴿رُدُّوها عَلَيَ﴾ أى : قال سليمان لجنده ردوا الصافنات الجياد علىّ مرة أخرى ، لأزداد معرفة بها ، وفهما لأحوالها ..

والفاء في قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْناقِ﴾ فصيحة تدل على كلام محذوف يفهم من السياق. و «طفق» فعل من أفعال الشروع يرفع الاسم وينصب الخبر ، واسمه ضمير يعود على سليمان. و «مسحا» مفعول مطلق لفعل محذوف. والسوق والأعناق : جمع ساق وعنق.

أى : قال سليمان لجنده : ردوا الصافنات الجياد علىّ ، فردوها عليه ، فأخذ في مسح سيقانها وأعناقها إعجابا بها ، وسرورا بما هي عليه من قوة هو في حاجة إليها للجهاد في سبيل الله ـ تعالى ـ.

هذا هو التفسير الذي تطمئن إليه نفوسنا لهذه الآيات ، لخلوه من كل ما يتنافى مع سمو منزلة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ.

ولكن كثيرا من المفسرين نهجوا نهجا آخر ، معتمدين على قصة ملخصها : أن سليمان ـ عليه السلام ـ جلس يوما يستعرض خيلا له ، حتى غابت الشمس دون أن يصلى العصر ، فحزن لذلك وأمر بإحضار الخيل التي شغله استعراضها عن الصلاة ، فأخذ في ضرب سوقها وأعناقها بالسيف ، قربة لله ـ تعالى ـ.

فهم يرون أن الضمير في قوله ـ تعالى ـ ﴿حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ﴾ يعود إلى الشمس. أى : حتى استترت الشمس بما يحجبها عن الأبصار.

وأن المراد بقوله ـ تعالى ـ ﴿فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْناقِ﴾ الشروع في ضرب

سوق الخيل وأعناقها بالسيف لأنها شغلته عن صلاة العصر.

قال الجمل : ﴿فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ أى : جعل يضرب سوقها وأعناقها بالسيف. هذا قول ابن عباس وأكثر المفسرين (١).

ولم يرتض الإمام الرازي . رحمه الله . هذا التفسير الذي عليه أكثر المفسرين ، وإنما ارتضى أن الضمير في ﴿تَوارَتْ﴾ يعود إلى الصافنات الجياد وأن المقصود بقوله . تعالى . : ﴿فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ الإعجاب بها والمسح عليها بيده حبّا لها ..

فقد قال ما ملخصه : إن رباط الخيل كان مندوبا إليه في دينهم ، كما أنه كذلك في دين الإسلام ، ثم إن سليمان . عليه السلام . احتاج إلى الغزو. فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها. وذكر أنى لا أحبها لأجل الدنيا وإنما أحبها لأمر الله ، وطلب تقوية دينه. وهو المراد من قوله : ﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾. ثم إنه . عليه السلام . أمر بإعدائها وتسييرها حتى توارت بالحجاب أى : غابت عن بصره.

ثم أمر الرائضين بأن يردوا تلك الخيل إليه ، فلما عادت طفق يمسح سوقها وأعناقها.

والغرض من ذلك : التشريف لها لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدو ... وإظهار أنه خبير بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها ، حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض .. (٢).

وقال بعض العلماء نقلا عن ابن حزم : تأويل الآية على أنه قتل الخيل إذ اشتغل بها عن الصلاة ، خرافة موضوعة .. قد جمعت أفانين من القول ؛ لأن فيها معاقبة خيل لا ذنب لها والتمثيل بها. وإتلاف مال منتفع به بلا معنى. ونسبة تضييع الصلاة إلى نبي مرسل. ثم يعاقب الخيل على ذنبه لا على ذنبها ..

وإنما معنى الآية أنه أخبر أنه أحب حب الخير ، من أجل ذكر ربه حتى توارت الشمس أو تلك الصافنات بحجابها.

ثم أمر بردها. فطفق مسحا بسوقها وأعناقها بيده ، برابها ، وإكراما لها ، هذا هو ظاهر الآية الذي لا يحتمل غيره ، وليس فيها إشارة أصلا إلى ما ذكروه من قتل الخيل ، وتعطيل الصلاة .. (٣).

---

(١) راجع حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٥٧٣ وغيرها من كتب التفسير.

(٢) راجع تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ١٩٢ فقد أفاض وأجاد في تفسيره للآيات.

(٣) راجع تفسير القاسمى ج ١٤ ص ٥١٠١.

والحق أن ما ذهب إليه كثير من المفسرين من أن سليمان - عليه السلام - شغل باستعراض الخيل عن صلاة العصر، وأنه أمر بضرب سوقها وأعناقها .. لا دليل عليه لا من النقل الصحيح ولا من العقل السليم ..

وأن التفسير المقبول للآية هو ما ذكره الإمام الرازي والإمام ابن حزم، وما سبق أن ذكرناه من أن المقصود بقوله - تعالى -: ﴿فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْناقِ﴾ إنما هو تكريمها ..

وأن الضمير في قوله: ﴿حَتَّى تَوارَتْ﴾ يعود إلى الصافنات لأنه أقرب مذكور.

ثم تحدثت الآيات الكريمة بعد ذلك عن فتنة سليمان - عليه السلام - فقال - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ وَأَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنابَ ..﴾.

وقوله: ﴿فَتَنَّا﴾ من الفتن بمعنى الابتلاء والاختبار والامتحان. تقول: فتنت الذهب بالنار، أى: اختبرته لتعلم جودته ..

قال الآلوسى: وأظهر ما قيل في فتنة سليمان - عليه السلام - أنه قال: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة. تأتى كل واحدة بفارس يجاهد في سبيل الله - تعالى - ولم يقل إن شاء الله. فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة وجاءت بشق رجل.

وقد روى ذلك الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة مرفوعا، وفيه: «فو الذي نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فرسانا».

ولكن الذي في صحيح البخاري أربعين بدل سبعين. وأن الملك قال له: قل إن شاء الله، فلم يقل - أى فلم يقل ذلك على سبيل النسيان ..

والمراد بالجسد ذلك الشق الذي ولدته له. ومعنى إلقائه على كرسيه: وضع القابلة له عليه ليراه [1].

وقد ذكروا أن سليمان: إنما قال: «تحمل كل امرأة فارسا يجاهد في سبيل الله» على سبيل التمني للخير، وطلب الذرية الصالحة المجاهدة في سبيل الله.

ومعنى «فلم يقل» أى: بلسانه على سبيل النسيان، والنسيان معفو عنه، إلا أن سليمان - عليه السلام - لسمو منزلته اعتبر ذلك ذنبا يستحق الاستغفار منه، فقال بعد ذلك «رب اغفر لي ...».

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ١٩٨.

وقوله : «لأطوفن الليلة ...» كناية عن الجماع. قالوا : ولعل المقصود. طوافه عليهن ابتداء من تلك الليلة ، ولا مانع من أن يستغرق طوافه بهن عدة ليال.

وقد استنبط العلماء من هذا الحديث أن فتنة سليمان ، هي تركه تعليق ما طلبه على مشيئة الله ، وأن عقابه على ذلك كان عدم تحقق ما طلبه.

وهذا الرأى في تقديرنا هو الرأى الصواب في تفسير الآية الكريمة لأنه مستند إلى حديث صحيح ثابت في الصحيحين وفي غيرهما ، ولأنه يتناسب مع عصمة الأنبياء وسمو منزلتهم ، فإن النسيان الذي لا يترتب عليه ترك شيء من التكاليف التي كلفهم الله ـ تعالى ـ بها جائز عليهم.

وقد ذكرنا عند تفسيرنا لقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ﴾ أن الوحى مكث فترة لم ينزل على رسول الله ﷺ لأنه نسى أن يقول ـ عند ما سأله المشركون عن بعض الأشياء إن شاء الله ، وقال سأجيبكم على ما سألتمونى عنه غدا. (١).

ومن العلماء من آثر عدم تعيين الفتنة التي اختبر الله ـ تعالى ـ بها سيدنا سليمان ـ عليه‌السلام ـ ، بتركه المشيئة ، فقال بعد أن ذكر الحديث السابق : وجائز أن تكون هذه الفتنة التي تشير إليها الآيات هنا وأن يكون الجسد هو هذا الوليد الشق ، ولكن هذا مجرد احتمال.

ثم قال : وكل ما نخرج به هو أنه كان هناك ابتلاء من الله وفتنة لنبي الله سليمان ـ عليه‌السلام ـ في شأن يتعلق بتصرفاته في الملك والسلطان ، كما يبتلى الله أنبياءه ليوجههم ويرشدهم. ويبعد خطاهم عن الزلل ، وأن سليمان أناب إلى ربه ورجع. وطلب المغفرة ، واتجه إلى الله بالرجاء والدعاء .. (٢).

ونرى أنه رأى لا بأس به ، وإن كنا نؤثر عليه الرأى السابق لاستناده في استنباط المراد من الفتنة هنا إلى الحديث الصحيح.

هذا. وهناك أقوال أخرى ذكروها في المقصود بفتنة سليمان وبالجسد الذي ألقاه الله على كرسي سليمان ، وهي أقوال ساقطة ، تتنافى مع عصمة الأنبياء ـ عليهم‌السلام ـ ..

ومن هذه الأقوال قول بعضهم : إن الجسد الذي ألقى على كرسي سليمان ، عبارة عن شيطان تمثل له في صورة إنسان ، ثم أخذ من سليمان خاتمه الذي كان يصرف به ملكه. وقعد

---

(١) راجع تفسيرنا لسورة الكهف ص ٤٩٨.

(٢) راجع تفسير في ظلال القرآن ج ٢٣ ص ١٠٠.

ذلك الشيطان على كرسي سليمان ، ولم يعد لسليمان ملكه إلا بعد أن عثر على خاتمه.

وقول بعضهم : إن سبب فتنة سليمان . عليه السلام . هو سجود إحدى زوجاته لتمثال أبيها الذي قتله سليمان في إحدى الحروب ، وقد بقيت على هذه الحال هي وجواريها أربعين ليلة ، دون أن تعلم سليمان بذلك.

وقول بعضهم : إن سبب فتنة سليمان أنه ولد له ولد فخاف عليه من الشياطين ، فأمر السحاب بحفظه وتغذيته. ولكن هذا الولد وقع ميتا على كرسي سليمان ، فاستغفر سليمان ربه لأنه لم يعتمد عليه في حفظ ابنه. إلى غير ذلك من الأقوال الساقطة الباطلة ، التي تتنافى مع عصمة الأنبياء . عليهم الصلاة والسلام .. وتتنافى . أيضا . مع كل عقل سليم ، ولا مستند لها إلا النقل عن الإسرائيليات وعن القصاص الذين يأتون بقصص ما أنزل الله بها من سلطان [1].

قال أبو حيان . رحمه الله . : نقل المفسرون في هذه الفتنة وفي إلقاء الجسد أقوالا يجب براءة الأنبياء منها ، يوقف عليها في كتبهم ، وهي مما لا يحل نقلها ، وهي إما من أوضاع اليهود ، أو الزنادقة ، ولم يبين الله . تعالى . الفتنة ما هي ، ولا الجسد الذي ألقاه على كرسي سليمان.

وأقرب ما قيل فيه ، أن المراد بالفتنة كونه لم يستثن في الحديث الذي قال فيه : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة .. والجسد الملقى هو المولود شق رجل .. [2].

وقوله . سبحانه . : ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ...﴾ بيان لما قاله سليمان . عليه السلام . بعد الابتلاء والاختبار من الله . تعالى . له.

أى : قال سليمان . عليه السلام . يا رب اغفر لي ما فرط منى من ذنوب وزلات ..

﴿وَهَبْ لِي مُلْكاً﴾ عظيما ﴿لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ أى : لا يحصل مثله لأحد من الناس من بعدي ﴿إِنَّكَ أَنْتَ﴾ يا إلهى ﴿الْوَهَّابُ﴾ أى : الكثير العطاء لمن تريد عطاءه.

وقدم سليمان . عليه السلام . طلب المغفرة على طلب الملك ، للإشارة إلى أنها هي الأهم عنده.

قال الإمام الرازي . رحمه الله . : دلت هذه الآية على أنه يجب تقديم مهم الدين على مهم الدنيا ، لأن سليمان طلب المغفرة أولا ، ثم بعدها طلب المملكة ، وأيضا الآية تدل على أن

---

(١) راجع تفسير ابن جرير ج ٢٣ ص ١٠١. والآلوسى ج ٢٣ ص ٢٠٠ وغيرهما.

(٢) راجع تفسير البحر المحيط لأبى حيان ج ٧ ص ٣٩٧.

طلب المغفرة من الله ـ تعالى ـ سبب لانفتاح أبواب الخيرات في الدنيا ، لأن سليمان طلب المغفرة أولا ، ثم توسل به إلى طلب المملكة [1].

ولا يقال كيف طلب سليمان ـ عليه السلام ـ الدنيا والملك مع حقارتهما إلى جانب الآخرة وما فيها من نعيم دائم ؛ لأن سليمان ـ عليه السلام ـ ما طلب ذلك إلا من أجل خدمة دينه وإعلاء كلمة الله في الأرض ، والتمكن من أداء الحقوق لأصحابها ، ونشر العدالة بين الناس ، وإنصاف المظلوم ، وإعانة المحتاج. وتنفيذ شرع الله ـ تعالى ـ على الوجه الأكمل.

فهو ـ عليه السلام ـ لم يطلب الملك للظلم أو البغي .. وإنما طلبه للتقوى به على تنفيذ شريعة الله ـ تعالى ـ في الأرض.

ولقد وضح الإمام القرطبي هذا المعنى فقال : كيف أقدم سليمان على طلب الدنيا ، مع ذمها من الله ـ تعالى ـ ...؟

فالجواب : أن ذلك محمول عند العلماء على أداء حقوق الله ـ تعالى ـ وسياسة ملكه ، وترتيب منازل خلقه ، وإقامة حدوده. والمحافظة على رسومه وتعظيم شعائره ، وظهور عبادته ، ولزوم طاعته ... وحوشي سليمان ـ عليه السلام ـ أن يكون سؤاله طلبا لنفس الدنيا. لأنه هو والأنبياء ، أزهد خلق الله فيها ، وإنما سأل مملكتها لله. كما سأل نوح دمارها وهلاكها لله ، فكانا محمودين مجابين إلى ذلك.

ومعنى قوله ﴿لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ أى : أن يسأله. فكأنه سأل منع السؤال بعده ، حتى لا يتعلق به أمل أحد ، ولم يسأل منع الإجابة .. [2].

والفاء في قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ﴾ للتفريع على ما تقدم من طلب سليمان من ربه أن يهبه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده. والتسخير : التذليل والانقياد. أى : دعانا ـ سليمان ـ عليه السلام ـ والتمس منا أن نعطيه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده ، فاستجبنا له دعاءه. وذللنا له الريح ، وجعلناها منقادة لأمره بحيث تجرى بإذنه رخية لينة ، إلى حيث يريدها أن تجرى.

وقوله : ﴿تَجْرِي﴾ حال من الريح. وقوله ﴿بِأَمْرِهِ﴾ من إضافة المصدر لفاعله. أى : بأمره إياها. ولا تنافى بين هذه الآية وبين قوله ـ تعالى ـ في آية أخرى : ﴿وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها ...﴾ [3] لأن المقصود من الآيتين بيان أن

---

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ١٩٦.

(٢) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٣٠٤.

(٣) سورة الأنبياء الآية ٨١.

الريح تجرى بأمر سليمان ، فهي تارة تكون لينة وتارة تكون عاصفة ، وفي كلتا الحالتين هي تسير بأمره ورغبته.

وقوله : ﴿وَالشَّياطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ معطوف على الريح أي : سخرنا له الريح تجرى بأمره .. وسخرنا له الشياطين. بأن جعلناهم منقادين لطاعته ، فمنهم من يقوم ببناء المبانى العظيمة التي يطلبها سليمان منهم. ومنهم الغواصون الذين يغوصون في البحار ليستخرجوا له منها اللؤلؤ والمرجان ، وغير ذلك من الكنوز التي اشتملت عليها البحار.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ﴾ معطوف على كل بناء ، داخل معه في حكم البدل من الشياطين.

أى : أن الشياطين المسخرين لسليمان كان منهم البناءون ، وكان منهم الغواصون ، وكان منهم المقيدون بالسلاسل والأغلال ، لتمردهم وكثرة شرورهم.

فمعنى «مقرنين» : مقرونا بعضهم ببعض بالأغلال والقيود. والأصفاد : جمع صفد وهو ما يوثق به الأسير من قيد وغلّ.

ثم بين ـ سبحانه ـ أنه أباح لسليمان ـ عليه‌السلام ـ أن يتصرف في هذا الملك الواسع كما يشاء فقال : ﴿هذا عَطاؤُنا﴾ أى : منحنا هذا الملك العظيم لعبدنا سليمان ـ عليه‌السلام ـ وقلنا له : هذا عطاؤنا لك ﴿فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾ أى : فأعط من شئت منه. وأمسك عمن شئت. فأنت غير محاسب منا لا على العطاء ولا على المنع.

ثم بين ـ سبحانه ـ ما أعده لسليمان ـ عليه‌السلام ـ في الآخرة ، فقال : ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا﴾ أى في الآخرة ﴿لَزُلْفى﴾ لقربى وكرامة ﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أى : وحسن مرجع إلينا يوم القيامة.

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن أيوب ـ عليه‌السلام ـ فذكرت نداءه لربه ، واستجابة الله ـ تعالى ـ له وما وهبه من نعم جزاء صبره ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَعَذابٍ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ (٤٢) وَوَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (٤٣)

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٤٤)

قال الإمام الرازي : اعلم أن قصة أيوب هي القصة الثالثة من القصص المذكورة في هذه السورة ، واعلم أن داود وسليمان كانا ممن أفاض الله عليه أصناف الآلاء والنعماء ، وأيوب كان ممن خصه الله بأنواع البلاء ، والمقصود من جميع هذه القصص الاعتبار.

فكأن الله ـ تعالى ـ يقول لنبيه ﷺ : اصبر على سفاهة قومك ، فإنه ما كان في الدنيا أكثر نعمة ومالا من داود وسليمان ، وما كان أكثر بلاء ومحنة من أيوب ، فتأمل في أحوال هؤلاء لتعرف أن أحوال الدنيا لا تنظم لأحد ، وأن العاقل لا بد له من الصبر على المكاره ..[1].

وأيوب ـ عليه‌السلام ـ هو ابن أموص بن برزاح ، وينتهى نسبه إلى إسحاق بن ابراهيم ـ عليهما‌السلام ـ وكانت بعثته على الراجح بين موسى ويوسف ـ عليهما‌السلام ..

وكان صاحب أموال كثيرة ، وله أولاد .. فابتلى في ماله وولده وجسده ، وصبر على كل ذلك صبرا جميلا ، فكافأه الله ـ تعالى ـ على صبره ، بأن أجاب دعاءه ، وآتاه أهله ومثلهم معهم ..

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ ...﴾ معطوف على قوله ـ تعالى ـ قبل ذلك : ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ...﴾.

و «النّصب» ـ بضم فسكون ـ وقرأ حفص ونافع ـ بضم النون والصاد : ـ التعب والمشقة مأخوذ من قولهم أنصبنى الأمر ، إذا شق عليه وأتعبه. والعذاب : الآلام الشديدة التي يحس بها الإنسان في بدنه. أى : واذكر ـ أيها الرسول الكريم ـ حال أخيك أيوب ـ عليه‌السلام ـ حين دعا ربه ـ تعالى ـ فقال : يا رب أنت تعلم أنى مسنى الشيطان بالهموم الشديدة ، وبالآلام المبرحة التي حلت بجسدي فجعلتني في نهاية التعب والمرض.

وجمع ـ سبحانه ـ في بيان ما أصابه بين لفظي النصب والعذاب ، للإشارة إلى أنه قد أصيب بنوعين من المكروه : الغم الشديد بسبب زوال الخيرات التي كانت بين يديه ، وهو

---

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ١٩٨.

ما يشير إليه لفظ «النصب» والألم الكثير الذي حل بجسده بسبب الأمراض والأسقام ، والعلل ، وهو ما يشير إليه لفظ «العذاب» ..

ونسب ما مسه من نصب وعذاب إلى الشيطان تأدبا منه مع ربه ـ عَزَّجَلَّ ـ حيث أبى أن ينسب الشر إليه ـ سبحانه ـ ، وإن كان الكل من خلق الله ـ تعالى ..

وفي هذا النداء من أيوب لربه ، أسمى ألوان الأدب والإجلال ، إذ اكتفى في تضرعه بشرح حاله دون أن يزيد على ذلك ، ودون أن يقترح على خالقه ـ عَزَّجَلَّ ـ شيئا معينا ، أو يطلب شيئا معينا.

قال صاحب الكشاف : ألطف أيوب ـ عليه السلام ـ في السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة .. ولم يصرح بالمطلوب.

ويحكى أن عجوزا تعرضت لسليمان بن عبد الملك فقالت له : يا أمير المؤمنين ، مشت جرذان ـ أي فئران ـ بيتي على العصا!! فقال لها : ألطفت في السؤال ، لا جرم لأجعلنها تثب وثب الفهود ، وملأ بيتها حبا [1] ..

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ في سورة الأنبياء : ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

وقد ذكر بعض المفسرين هنا قصصا وأقوالا في غاية السقوط والفساد ، حيث ذكروا أن أيوب ـ عليه السلام ـ مرض زمنا طويلا ، وأن الديدان تناثرت من جسده ، وأن لحمه قد تمزق [2].

وهذه كلها أقوال باطلة ، لأن الله ـ تعالى ـ عصم أنبياءه من الأمراض المنفرة ، التي تؤدى إلى ابتعاد الناس عنهم ، سواء أكانت أمراضا جسدية أم عصبية أم نفسية ..

والذي يجب اعتقاده أن الله ـ تعالى ـ قد ابتلى عبده أيوب ببعض الأمراض التي لا تتنافى مع منصب النبوة ، وقد صبر أيوب على ذلك حتى ضرب به المثل في الصبر ، فكانت عاقبة صبره أن رفع الله ـ تعالى ـ عنه الضر والبلاء ، وأعطاه من فضله الكثير من نعمه.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ﴾ حكاية لما قيل له بعد ندائه لربه ، أو مقول لقول محذوف معطوف على قوله ﴿نادى﴾.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٣٠.

(٢) راجع على سبيل المثال تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ٣٠٦ ، والقرطبي ج ١٥ ص ٢٠٨.

وقوله : ﴿ارْكُضْ﴾ بمعنى الدفع والتحريك للشيء. يقال : ركض فلان الدابة برجله إذا دفعها وحركها بها.

والمغتسل : اسم للمكان الذي يغتسل فيه ، والمراد به هنا : الماء الذي يغتسل به.

وقوله : ﴿هذا مُغْتَسَلٌ﴾ مقول لقول محذوف.

والمعنى : لقد نادانا عبدنا أيوب بعد أن أصابه من الضر ما أصابه ، والتمس منا الرحمة والشفاء مما نزل به من مرض ، فاستجبنا له دعاءه ، وأرشدناه الى الدواء ، بأن قلنا له : «اركض برجلك» أى : اضرب بها الأرض ، فضربها فنبعت من تحت رجله عين الماء ، فقلنا له : هذا الماء النابع من العين إذا اغتسلت به وشربت منه ، برئت من الأمراض ، ففعل ما أمرناه به ، فبرئ بإذننا من كل داء.

ثم بين ـ سبحانه ـ أنه بفضله وكرمه لم يكتف بمنح أيوب الشفاء من مرضه ، بل أضاف إلى ذلك أن وهب له الأهل والولد فقال ـ تعالى ـ : ﴿وَوَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ ، رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ﴾.

والآية الكريمة معطوفة على كلام مقدر يفهم من السياق أى : استجاب أيوب لتوجيهنا ، فاغتسل وشرب من الماء ، فكشفنا عنه ما نزل به من بلاء ، وعاد أيوب معافى ، ولم نكتف بذلك بل وهبنا له أهله. ووهبنا له ﴿مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ أى : بأن رزقناه بعد الشفاء أولادا كعدد الأولاد الذين كانوا معه قبل شفائه من مرضه ، فصار عددهم مضاعفا.

وذلك كله ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ أى من أجل رحمتنا به ﴿وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ﴾ أى : ومن أجل أن يتذكر ذلك أصحاب العقول السليمة ، فيصبروا على الشدائد كما صبر أيوب ، ويلجئوا إلى الله ـ تعالى ـ كما لجأ ، فينالوا منا الرحمة والعطاء الجزيل.

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ﴿وَوَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ﴾ الجمهور على أنه ـ تعالى ـ أحيا له من مات من أهله ، وعافى المرضى ، وجمع له من تشتت منهم ، وقيل ـ وإليه أميل ـ وهبه من كان حيا منهم ، وعافاه من الأسقام ، وأرغد لهم العيش فتناسلوا حتى بلغ عددهم عدد من مضى ، ومثلهم معهم ، فكان له ضعف ما كان ، والظاهر أن هذه الهبة كانت في الدنيا (١).

ثم بين ـ سبحانه ـ منة أخرى من المنن التي من بها على عبده أيوب فقال : ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ ، إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ٢٠٧.

والجملة الكريمة معطوفة على قوله قبل ذلك : ﴿ارْكُضْ﴾ أو على ﴿وَهَبْنا﴾ بتقدير : وقلنا له.

والضغث في اللغة : القبضة من الحشيش اختلط فيها الرطب باليابس. وقيل : هي قبضة من عيدان مختلفة يجمعها أصل واحد.

والحنث : يطلق على الإثم وعلى الخلف في اليمين.

والآية الكريمة تفيد أن أيوب ـ عليه‌السلام ـ قد حلف أن يضرب شيئا وأن عدم الضرب يؤدى إلى حنثه في يمينه ، أى : إلى عدم وفائه فيما حلف عليه ، فنهاه الله ـ تعالى ـ عن الحنث في يمينه ، وأوجد له المخرج الذي يترتب عليه البر في يمينه دون أن يتأذى المضروب بأى أذى يؤلمه.

وقد ذكروا فيمن وقع عليه الضرب وسبب هذا الضرب ، روايات لعل أقربها إلى الصواب ، أن أيوب أرسل امرأته في حاجة له فأبطأت عليه ، فأقسم أنه إذا برىء من مرضه ليضربنها مائة ضربة ، وبعد شفائه رخص له ربه أن يأخذ حزمة صغيرة ـ وهي المعبر عنها بالضغث ـ وبها مائة عود ، ثم يضرب بها مرة واحدة ، وبذلك يكون قد جمع بين الوفاء بيمينه ، وبين الرحمة بزوجته التي كانت تحسن خدمته خلال مرضه ، وتقوم بواجبها نحوه خير قيام.

والمعنى : وهبنا له بفضلنا ورحمتنا أهله ومثلهم معهم ، وقلنا له بعد شفائه خذ بيدك حزمة صغيرة من الحشيش فيها مائة عود ، فاضرب بها من حلفت أن تضربه مائة ضربة ، وبذلك تكون غير حانث في يمينك.

هذا وقد تكلم العلماء عن هذه الرخصة. أهي خاصة بأيوب ، أم هي عامة للناس؟.

فقال بعضهم : إذا حلف الشخص أن يضرب فلانا مائة جلدة ، أو أن يضربه ضربا غير شديد ، فيكفيه مثل هذا الضرب المذكور الذي جاء في الآية ؛ لأن شرع من قبلنا شرع لنا.

وقال آخرون : هذه الرخصة خاصة بأيوب ـ عليه‌السلام ـ ولا تنسحب إلى غيره ، لأن الخطاب إليه وحده. ولأن الله ـ تعالى ـ لم يبين لنا في الآية كيفية اليمين ، ولا من يقع عليه الضرب [1].

ثم بين ـ سبحانه ـ أنه جعل لعبده أيوب هذا المخرج لصبره وكثرة رجوعه إلى ما يرضيه ـ تعالى ـ فقال : ﴿إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

---

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٢١٢. وتفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ٢٠٨.

أى : إنا وجدنا عبدنا أيوب صابرا على ما أصبناه به من بلاء ، ونعم العبد هو. إنه كثير الرجوع إلينا في كل أحواله.

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد ساقت لنا جانبا من فضائل أيوب ـ عليه السلام ـ ومن النعم التي أنعم الله ـ تعالى ـ بها عليه جزاء صبره وطاعته لربه.

وبعد أن عرض ـ سبحانه ـ قصص داود وسليمان وأيوب بشيء من التفصيل. أتبع ذلك بالحديث عن عدد من الأنبياء على سبيل الإجمال ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿وَاذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ (٤٧) وَاذْكُرْ إِسْماعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيارِ﴾ (٤٨)

أى : واذكر ـ أيها الرسول الكريم ـ حال عبادنا إبراهيم وإسحاق ، ويعقوب. أصحاب القوة في الطاعة ، وأصحاب البصيرة المشرقة الواعية في أمور الدين.

فالأيدى مجاز مرسل عن القوة ، والأبصار جمع بصر بمعنى بصيرة على سبيل المجاز ـ أيضا ـ ويصح أن يكون المراد بقوله : ﴿أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصارِ﴾ أى : أصحاب الأعمال الجليلة ، والعلوم الشريفة ، فيكون ذكر الأيدى من باب ذكر السبب وإرادة المسبب ، والأبصار بمعنى البصائر ، لأن عن طريقها تكون العلوم النافعة.

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصارِ﴾ يريد : أولى الأعمال والفكر ، كأن الذين لا يعملون أعمال الآخرة ، ولا يجاهدون في الله ، ولا يفكرون أفكار ذوى الديانات ، ولا يستبصرون ، كأن هؤلاء في حكم الزمنى ـ أى المرضى ـ الذين لا يقدرون على إعمال جوارحهم. والمسلوبى العقول الذين لا استبصار بهم. وفيه تعريض بكل من لم يكن من عمال الله ، ولا من المستبصرين في دين الله ، وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمل ، مع كونهم متمكنين منهما [1] ..

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٩٩.

ثم بين ـ سبحانه ـ أسباب وصفهم بتلك الأوصاف الكريمة ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ...﴾.

ومعنى : ﴿أَخْلَصْناهُمْ﴾ خالصين لطاعتنا وعبادتنا. والباء في قوله ﴿بِخالِصَةٍ﴾ للسببية. وخالصة اسم فاعل. والتنوين فيها للتفخيم ، وهي صفة لمحذوف.

و ﴿ذِكْرَى الدَّارِ﴾ بيان لها بعد إبهامها للتفخيم. أو محلها النصب بإضمار أعنى .. أو الرفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف أى : هي.

و ﴿ذِكْرى﴾ مصدر مضاف لمفعوله ، وتعريف الدار للعهد. أى : الدار الآخرة.

والمعنى : إنا جعلنا هؤلاء العباد ـ وهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب ـ خالصين لطاعتنا وعبادتنا ، متبعين لأوامرنا ونواهينا ، لا تصافهم بخصلة خالصة من كل ما لا يرضينا ، وهي تذكرهم للدار الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب.

وقرأ نافع ﴿بِخالِصَةٍ﴾ بدون تنوين على الإضافة لذكرى. من إضافة الصفة إلى الموصوف. أو المصدر لفاعله إن جعلت خالصة مصدرا كالعاقبة.

أى : أخلصناهم بأن خلصت لهم ذكرى الدار.

ثم أثنى عليهم ـ سبحانه ـ بثناء آخر فقال : ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ﴾.

أى : وإن هؤلاء العباد ، لهم عندنا ممن اصطفيناهم لحمل رسالتنا ، واخترناهم لتبليغ دعوتنا. ومن العباد الأخيار. أى : الذين يفضلون على غيرهم في المناقب الحميدة ، والصفات الكريمة. جمع خير ـ بإسكان الياء ـ أفعل تفضيل.

ثم أثنى ـ سبحانه ـ على عدد آخر من عباده الصالحين فقال : ﴿وَاذْكُرْ إِسْماعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيارِ﴾.

وإسماعيل هو ابن إبراهيم ـ عليهما‌السلام ـ ، ولم يذكر فيما سبق مع أبيه ومع أخيه إسحاق ، ومع ابن أخيه يعقوب ، اعتناء بشأنه ، وللإشارة إلى عراقته في الصبر وفي تحمل الشدائد.

واليسع : هو ابن شافاط أو أخطوب : قيل استخلفه إلياس من بعده على بنى إسرائيل ، ثم منحه الله ـ تعالى ـ النبوة. وكانت وفاته في حوالى سنة ٨٤٠ ق. م ودفن بالسامرة.

وذا الكفل : هو ابن أيوب. بعثه الله ـ تعالى ـ بعد أبيه ، وكان مقيما بالشام. والأكثرون على أنه نبي لذكره معهم.

وقيل هو رجل صالح من بنى إسرائيل. ولم يكن نبيا ، وسمى بذلك لأنه تكفل لأحد أنبيائهم بالقيام بالطاعات فوفى بذلك.

والتنوين في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيارِ﴾ عوض عن المضاف إليه. أى : وكل هؤلاء العباد الذين ذكرناهم ، من أهل الخير والفضل والصلاح والصبر على الأذى.

ثم عقبت السورة الكريمة على ذلك ، بعقد مقارنة بين عاقبة المؤمنين الصادقين ، وعاقبة الكافرين الجاحدين ، وذكرت جانبا مما يدور بين أهل النار من مجادلات .. فقال ـ تعالى ـ :

﴿هذا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ (٥٠) مُتَّكِئِينَ فِيها يَدْعُونَ فِيها بِفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرابٍ (٥١) وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ أَتْرابٌ (٥٢) هذا ما تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسابِ (٥٣) إِنَّ هذا لَرِزْقُنا ما لَهُ مِنْ نَفادٍ (٥٤) هذا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمِهادُ (٥٦) هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْواجٌ (٥٨) هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صالُوا النَّارِ (٥٩) قالُوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنا فَبِئْسَ الْقَرارُ (٦٠) قالُوا رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هذا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ (٦١) وَقالُوا ما لَنا لا نَرى رِجالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ (٦٢) أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ (٦٣) إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ (٦٤)

قال الآلوسى : «هذا» إشارة إلى ما تقدم من الآيات الناطقة بمحاسنهم «ذكر» أى : شرف لهم ... والمراد أن في ذكر قصصهم ... شرف عظيم لهم.

أو المعنى : هذا المذكور من الآيات نوع من الذكر الذي هو القرآن ، وذكر ذلك للانتقال من نوع من الكلام إلى آخر ، كما يقول الجاحظ في كتبه : فهذا باب ، ثم يشرع في باب آخر.

ويقول الكاتب إذا فرغ من فصل من كتابه وأراد الشروع في آخر : هذا ، وكان كيت وكيت ، ويحذف على ما قيل الخبر في مثل ذلك كثيرا ، وعليه (هذا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ..)[1].

وقوله ـ تعالى ـ : (وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ) بيان لما أعده لهم ـ سبحانه ـ في الآخرة من عطاء جزيل ، وثواب عظيم.

والمآب : اسم مكان من آب فلان يؤوب إذا رجع ، والمراد بالمتقين : كل من تحققت فيه صفة التقوى والخوف من الله ـ تعالى ـ وعلى رأسهم الأنبياء الذين اصطفاهم الله ـ تعالى ـ واختارهم لتبليغ رسالته. أى : وإن للمتقين في الآخرة لمنزل كريم يرجعون إليه في الآخرة. فيجدون فيه ما لا عين رأت. ولا أذن سمعت. ولا خطر على قلب بشر.

واسم الإشارة في قوله ـ تعالى ـ : (هذا ذِكْرٌ) يعود إلى ما ذكره ـ سبحانه ـ في الآيات السابقة ، عن هؤلاء الأنبياء من ثناء وتكريم. والذكر : الشرف والفضل.

أى : هذا الذي ذكرناه عن هؤلاء الأنبياء شرف لهم ، وذكر جميل يذكرون به إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ثم فصل ـ سبحانه ـ ما أعده لهم في الآخرة من تكريم فقال : (جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ).

والعدن في اللغة : الإقامة الدائمة في المكان. يقال : عدن فلان بمكان كذا ، إذا أقام به إقامة دائمة. وجنات : بدل اشتمال من قوله : (لَحُسْنَ مَآبٍ).

أى : هؤلاء المتقون أكرمناهم في الدنيا بالذكر الحسن. ونكرمهم في الآخرة بأن ندخلهم جنات عظيمة دخولا دائما مؤبدا ، وقد فتحت أبوابها على سبيل التكريم لهم. والحفاوة بمقدمهم.

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ٢١٢.

﴿مُتَّكِئِينَ فِيها ..﴾ أى : في تلك الجنات. وانتصب لفظ «متكئين» على الحال من ضمير «لهم» والعامل فيه قوله ﴿مُفَتَّحَةً﴾.

وقوله : ﴿يَدْعُونَ فِيها بِفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرابٍ﴾ استئناف لبيان حالهم في الجنات ، أو حال ـ أيضا ـ من ضمير «لهم».

أى : أن المتقين لهم جنات عظيمة. فاتحة لهم أبوابها على سبيل التكريم ويجلسون فيها جلسة الآمن المطمئن المنعم ، حيث يتكئون ويستندون على الأرائك ، ويطلبون أنواعا كثيرة من الفاكهة اللذيذة ، ومن الشراب الطيب ، فيلبي طلبهم في الحال.

ثم يضاف إلى هذه الفاكهة والشراب ، ما بينه ـ سبحانه ـ في قوله : ﴿وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ أَتْرابٌ﴾. أى : وعندهم فضلا عن كل ما تقدم نساء ذوات حياء ، قد قصرن أعينهن على أرواحهن فلا يتطلعن إلى غيرهم. لشدة محبتهن لهم. وهن متساويات في السن والجمال والأخلاق الكريمة.

فمعنى أتراب : أنهن متساويات في السن والجمال والشباب. مأخوذ من التراب. لأن التراب يمسهن في وقت واحد لاتحاد مولدهن : أو من الترائب وهي عظام الصدر المتماثلة.

ثم بين ـ سبحانه ـ أن هذا العطاء العظيم مقابل عملهم الصالح في الدنيا فقال : ﴿هذا ما تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسابِ﴾.

واللام في قوله ﴿لِيَوْمِ﴾ للتعليل. أى : هذا الذي ذكرناه لكم من نعيم الجنات. هو جزاء إيمانكم وعملكم الصالح من أجل يوم الحساب.

ثم ختم ـ سبحانه ـ جزاءهم ببيان أنه جزاء خالد لا ينقطع ولا ينقص فقال : ﴿إِنَّ هذا لَرِزْقُنا ما لَهُ مِنْ نَفادٍ﴾.

أى : إن هذا الذي ذكرناه لكم ـ أيها المتقون ـ من الجنات وما اشتملت عليه من نعيم ، هو رزقنا الدائم لكم. وليس له من نفاذ أو انقطاع أو انتقاص. يقال نفد الشيء نفادا ونفدا ، إذا فنى وهلك وذهب.

ومن الآيات التي وردت في هذا المعنى قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (١). أى غير مقطوع.

وبعد هذا الحديث الذي يشرح الصدور عن المؤمنين وحسن عاقبتهم. جاء الحديث عن

---

(١) سورة فصلت الآية ٨.

الكافرين وسوء مصيرهم. كما هي عادة القرآن الكريم في قرن الترغيب بالترهيب فقال ـ تعالى ـ : ﴿هذا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾.

واسم الإشارة خبر لمبتدأ محذوف. أى الأمر هذا ، أو مبتدأ محذوف الخبر أى : هذا للمؤمنين.

وجملة «وإن للطاغين لشر مآب» معطوفة على جملة «هذا» على التقديرين.

أى : الأمر كما ذكرنا لك ـ أيها الرسول الكريم ـ بالنسبة للمتقين ، أما الطاغون الذين تجاوزوا الحدود في الكفر والجحود والإعراض عن الحق ، فإن مرجعهم إلينا سيكون شر مرجع ، بسبب إصرارهم على كفرهم.

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمِهادُ﴾ أى : إذا كان المتقون يدخلون الجنات التي فتحت لهم أبوابها ، فإن الطاغين تستقبلهم جهنم بسعيرها ولهيبها فيلقون فيها ويفترشون نارها ، وبئست هي فراشا ومهادا.

﴿هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ واسم الإشارة هنا مرفوع على الابتداء ، وخبره قوله ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ ، وما بينهما اعتراض.

والحميم : الماء الذي بلغ النهاية في الحرارة. والغساق : صديد يسيل من أجساد أهل النار. مأخوذ من قولهم غسق الجرح ـ كضرب وسمع ـ غسقانا إذا سال منه الصديد وما يشبهه. أى : هذا هو عذابنا الذي أعددناه لهم ، يتمثل في ماء بلغ الغاية في الحرارة ، وفي قيح وصديد يسيلان من أجسادهم ، فليذوقوا كل ذلك جزاء كفرهم وجحودهم.

﴿وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْواجٌ﴾ أى : ليس عذابهم مقصورا على الحميم والغساق بل لهم أنواع أخرى من العذاب ، تشبه في شكلها وفي فظاعتها وفي شدتها ، الحميم والغساق.

فقوله ﴿وَآخَرُ﴾ مبتدأ ، وقوله ﴿مِنْ شَكْلِهِ﴾ صفته ، وقوله : ﴿أَزْواجٌ﴾ خبره.

والآية الكريمة معطوفة على الآية التي قبلها.

ثم حكى ـ سبحانه ـ بعد ذلك ما يقوله أهل النار بعضهم لبعض على سبيل الندم والتحسر والتقريع. فقال : ﴿هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ ، لا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صالُوا النَّارِ﴾.

والفوج : الجمع الكثير من الناس ، والاقتحام : ركوب الشدة والدخول فيها. يقال : قحم فلان نفسه في الأمر ، إذا رمى نفسه فيه من غير روية.

أى : قال الكفار بعضهم لبعض بعد أن رأوا غيرهم يلقى في النار معهم ، أو قالت الملائكة لهم على سبيل التقريع والتأنيب : ﴿هذا فَوْجٌ﴾ أى جمع كثير من أتباعكم وإخوانكم في

الضلال. ﴿مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ﴾ أى داخل معكم النار وعلى غير اختيار منه. وإنما يساق إليها سوقا في ذلة ومهانة.

وهنا يقول زعماء الكفر : ﴿لا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صالُوا النَّارِ﴾ أى : لا مرحبا ولا أهلا بهؤلاء الداخلين في النار معنا ، لأنهم سيصلون سعيرها مثلنا ، ولن يستطيعوا أن يدفعوا شيئا من حرها عنا ...

فقوله ﴿مَرْحَباً﴾ مفعول به لفعل محذوف وجوبا ، والتقدير : أتوا معنا لا مرحبا بهم. والجملة دعائية لا محل لها من الإعراب أى : لا أتوا مكانا رحبا بل ضيقا ، وهنا يحكى القرآن رد الفوج المقتحم للنار معهم فيقول : ﴿قالُوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ ..﴾.

أى : قال الداخلون في النار وهم الأتباع لرؤسائهم : بل أنتم الذين لا مرحبا بكم ، وإنما الضيق والهلاك لكم.

﴿أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنا فَبِئْسَ الْقَرارُ﴾ أى : لا مرحبا بكم لأنكم أنتم أيها الزعماء الذين تسببتم لنا دخول النار معكم ، إذ دعوتمونا في الدنيا إلى الكفر فاتبعناكم ، فبئس القرار والمنزل لنا ولكم جهنم.

فالجملة الكريمة تعليل لأحقية الرؤساء بدخول النار ، ويقولها الأتباع على سبيل التشفي منهم. ثم يضيفون إلى ذلك قولهم : ﴿رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هذا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ﴾.

أى : يا ربنا من كان سببا في نزول هذا العذاب بنا ، فزده عذابا مضاعفا في النار ، لأننا لو لا هؤلاء الرؤساء وإضلالهم لنا ، لما صرنا إلى هذا المصير الأليم.

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ حكاية عنهم : ﴿وَقالُوا رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا. رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً﴾ (1).

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما يقوله أئمة الكفر ، عند ما يدورون بأعينهم في النار ، فلا يرون المؤمنين الذين كانوا يستهزئون بهم في الدنيا فقال : ﴿وَقالُوا ما لَنا لا نَرى رِجالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ ..﴾. أى : وقال رؤساء الكفر على سبيل التحسر والتعجب وهم ملقون في النار ما لنا لا نرى معنا في جهنم رجالا من فقراء المؤمنين ، كنا نعدهم في الدنيا من الأراذل الأخساء ، لسوء حالهم ، وقلة ذات يدهم.

قال القرطبي : قال ابن عباس : يريدون أصحاب محمد صلى‌الله‌عليه‌وسلم يقول أبو جهل : أين

---

(1) سورة الأحزاب الآيتان ٦٧ ، ٦٨

بلال؟ أين صهيب؟ أين عمار؟ أولئك في الفردوس ، وا عجبا لأبي جهل! مسكين أسلم ابنه عكرمة ، وابنته جويرية ، وأسلمت أمه ، وأسلم أخوه. وكفر هو. قال :

ونورا أضاء الأرض شرقا ومغربا ... وموضع رجلي منه أسود مظلم [1]

ثم حكى القرآن ما سأله هؤلاء المشركون لأنفسهم عند ما تلفتوا في النار ، فلم يجدوا أحدا من المؤمنين الذين كانوا يصفونهم بأنهم من الأشرار فقال : ﴿أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا ، أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ﴾.

أى : إنهم بعد أن دخلوا النار أخذوا يدورون بأعينهم فيها فلم يروا المؤمنين الذين كانوا يستهزئون بهم في الدنيا ، فقالوا فيما بينهم : ما بالنا لا نرى الرجال الذين كنا نسخر منهم في الدنيا ، ألم يدخلوا معنا النار؟ أم دخلوها ولكن أبصارنا لا تراهم وزاغت عنهم؟.

فهم يتحسرون على أحوالهم البائسة بعد أن وجدوا أنفسهم في النار ، وليس معهم من كانوا يسخرون منهم في الدنيا وهم فقراء المؤمنين.

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا﴾ قرئ بلفظ الإخبار على أنه صفة لقوله ﴿رِجالاً﴾ مثل قوله ﴿كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ﴾. وقرئ بهمزة الاستفهام على أنه إنكار على أنفسهم وتأنيب لها في الاستسخار منهم.

وقوله : ﴿أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ﴾ له وجهان من الاتصال : أحدهما : أن يتصل بقوله : ﴿ما لَنا﴾. أى : ما لنا لا نراهم في النار؟ كأنهم ليسوا فيها ، بل أزاغت عنهم أبصارنا فلا نراهم وهم فيها؟ قسموا أمرهم بين أن يكونوا من أهل الجنة وبين أن يكونوا من أهل النار إلا أنهم خفى عليهم مكانهم.

الوجه الثاني : أن يتصل بقوله : ﴿أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا ...﴾ على معنى أى الفعلين فعلنا بهم : الاستسخار منهم ، أم الازدراء بهم والتحقير ، وأن أبصارنا كانت تعلو عنهم وتقتحمهم ، على معنى إنكار الأمرين جميعا على أنفسهم ...» [2].

واسم الإشارة في قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ يعود إلى التخاصم الذي حكى عنهم.

وقوله : ﴿لَحَقٌّ﴾ خبر إن. وقوله : ﴿تَخاصُمُ﴾ خبر لمبتدأ محذوف ، والجملة بيان لاسم الإشارة ، وفي الإبهام أولا والتبيين ثانيا مزيد تقرير له.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٢٢٤.

(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٠٢.

أى : إن ذلك الذي قصصناه عليك ـ أيها الرسول الكريم ـ من تخاصم أهل النار فيما بينهم وتلاعنهم .. حق لا شك فيه ، وثابت ثبوتا لا يختلف عليه عاقلان.

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ساقت بأبلغ بيان ما أعده الله ـ تعالى ـ للمتقين من ثواب ، وما أعده للطاغين من عقاب.

ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة ، بتلقين رسوله ﷺ الرد الذي يرد به على المشركين المعترضين على دعوته ، وببيان موقف إبليس من أمر الله ـ تعالى ـ له بالسجود لآدم ، وببيان ما أعده ـ سبحانه ـ لإبليس وجنده من عذاب. فقال ـ تعالى ـ :

﴿قُلْ إِنَّما أَنَا مُنْذِرٌ وَما مِنْ إِلهٍ إِلاَّ اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) ما كانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِنْ يُوحى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٧٠) إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكانَ مِنَ الْكافِرِينَ (٧٤) قالَ يا إِبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ (٧٥) قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦) قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠) إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)

قالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ (٨٨)

والمعنى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء المشركين : إنما وظيفتي الإنذار والتخويف لكم من عذاب شديد ، إذا بقيتم على كفركم ، وأعرضتم عن دعوتي.

واقتصر على الإنذار مع أنه مبشر ـ أيضا ـ لأنه المناسب لردهم عن شركهم ، وعن وصفهم له تارة بأنه ساحر ، وأخرى بأنه كاهن .. إلخ.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَما مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ. رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ نفى لكل شريك مع الله ـ تعالى ـ في ذاته ، أو صفاته ، أو في خلقه لهذا الكون. أى : ليس هناك من إله سوى الله ـ تعالى ـ في هذا الكون ، وهو ـ سبحانه ـ الواحد الأحد ، القاهر فوق عباده ، الموجد للسموات والأرض وما بينهما ، الغالب لكل شيء ، الكثير المغفرة لمن يشاء من عباده.

فأنت ترى أنه ـ سبحانه ـ قد وصف ذاته في هاتين الآيتين بخمس صفات ؛ تليق بذاته وببيان أن الشرك به ـ سبحانه ـ في العبادة أو الطاعة ظلم عظيم وجهل فاضح.

ثم أمر ـ سبحانه ـ رسوله صلى‌الله‌عليه‌وسلم أن يبين لهم أن ما جاءهم به من عند ربه أمر عظيم ، لا يليق بعاقل أن يعرض عنه فقال : ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ. أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾.

أى : قل ـ يا محمد ـ لهؤلاء المشركين : إن ما جئتكم به من عند ربي من قرآن كريم ، ومن هدايات بها تسعدون في دنياكم وآخرتكم ، هو خبر عظيم ، يجب أن تلقوا إليه أسماعكم ، وأن تهيئوا نفوسكم لقبوله .. ولكنكم قابلتموه بالإعراض والصدود ، لفرط غفلتكم ، وشدة جهالتكم ، وتماديكم في كفركم.

فالآية الأولى دعوة هامة لهم لكي يقلعوا عن شركهم ، والآية الثانية توبيخ لهم على عنادهم حيث تركوا ما ينفعهم ، وعكفوا على ما يضرهم.

ثم نفى صلى‌الله‌عليه‌وسلم عن نفسه أن يكون عنده علم بشيء من أخبار الملأ الأعلى ، إلا عن طريق الوحى فقال ـ كما حكى القرآن عنه : ﴿ما كانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى إِذْ

﴿يَخْتَصِمُونَ﴾. والمراد بالملإ الأعلى : عالم السموات وما فيه من ملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون.

قال القرطبي : الملأ الأعلى هم الملائكة في قول ابن عباس والسدى. اختصموا في أمر آدم حين خلق ، فقالوا : ﴿أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ ..﴾ وقال إبليس : ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾.

وفي هذا بيان أن محمدا ﷺ أخبر عن قصة آدم وغيره وذلك لا يتصور إلا بتأييد إلهى ...» [1].

وقال ابن كثير : وقوله : ﴿ما كانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أى : لو لا الوحى من أين كنت أدرى باختلاف الملأ الأعلى. يعنى في شأن آدم ، وامتناع إبليس من السجود له ، ومحاجته ربه في تفضيله عليه ..؟» [2]. فالآية تنفى عن الرسول ﷺ علم شيء من أخبار الملأ الأعلى إلا عن طريق الوحى.

وجملة «إن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين» معترضة بين إيراد اختصامهم على سبيل الإجمال ، ثم إيراده في الآيات الآتية بعد ذلك على سبيل التفصيل.

و «إن» نافية. ونائب فاعل «يوحى» ضمير تقديره هو يعود على المفهوم مما سبق. وهو شأن الملأ الأعلى ، و «أنما» بفتح الهمزة على تقدير لام التعليل.

أى : ليس لي من علم بما يدور في الملأ الأعلى إلا عن طريق الوحى ، وهذا الوحى لا ينزل على إلا من أجل أنى رسول من عند الله ـ تعالى ـ أنذركم بما يكلفني به إنذارا واضحا بينا.

ثم فصل ـ سبحانه ـ هذا التخاصم الذي أشار إليه ـ سبحانه ـ قبل ذلك في قوله : ﴿ما كانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ ، فقال : ﴿إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ. فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ﴾.

و «إذ» في قوله ﴿إِذْ قالَ رَبُّكَ ...﴾ بدل من قوله ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ ، لاشتمال ما في حيزها على تفصيل تلك الخصومة. وقيل : هي منصوبة بتقدير اذكر.

قالوا : والمراد بالملائكة هنا ، ما يشمل إبليس ، بدليل أن الأمر بالسجود لآدم كان للجميع ، وأنهم جميعا امتثلوا لأمر الله ـ تعالى ـ ما عدا إبليس.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٢٢٦.

(٢) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٧٠.

والمراد بالبشر : آدم ـ عليه السلام ـ مأخوذ من مباشرته للأرض ، أو من كونه ظاهر البشرة ، أى الجلد والهيئة. أى : لم يكن لي من علم بالملإ الأعلى وقت اختصامهم ، حين قال الله ـ تعالى ـ للملائكة ومعهم إبليس : ﴿إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ﴾ هو آدم ـ عليه السلام ـ .. فإذا صورته على صورة البشر ، وأفضت عليه ما به الحياة من الروح التي هي من أمرى ـ ولا علم لأحد بها سواي ، فاسجدوا له سجود تحية وتكريم.

ولا تعارض بين وصف آدم هنا بأنه خلق من طين ، وبين وصفه في آيات أخرى بأنه خلق من تراب ، أو من صلصال من حمأ مسنون ، فإن المادة التي خلق منها آدم وإن كانت واحدة ، إلا أنها مرت بمراحل متعددة ، وكل آية تتحدث عن مرحلة معينة.

وأضاف ـ سبحانه ـ الروح إلى ذاته ، للإشعار بأن هذه الروح لا يملكها إلا هو ـ تعالى ـ ، وأن مرد كنهها وكيفية هذا النفخ ، مما استأثر ـ سبحانه ـ به ، ولا سبيل لأحد إلى معرفته ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [1].

والفاء في قوله : ﴿فَقَعُوا لَهُ ...﴾ جواب إذا. والمراد بالوقوع : السقوط أى : فاسقطوا وخروا له حالة كونكم ساجدين له بأمرى وإذنى ، على سبيل التحية له ، لأن السجود بمعنى العبادة لا يكون لغير الله ـ تعالى ـ ..

ثم بين ـ سبحانه ـ ما كان بعد ذلك فقال : ﴿فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكانَ مِنَ الْكافِرِينَ﴾.

أى : امتثل الملائكة لأمر الله ـ تعالى ـ فسجدوا جميعا لآدم في وقت واحد ، إلا إبليس فإنه أبى الامتثال لأمر ربه ، واستكبر عن طاعته ، وصار بسبب ذلك من الكافرين الجاحدين لأمر الله ـ تعالى ـ ..

قال صاحب الكشاف : ولفظ «كل» للإحاطة و «أجمعون» : للاجتماع ، فأفادا معا أنهم سجدوا عن آخرهم ، ما بقي منهم ملك إلا سجد ، وأنهم سجدوا جميعا في وقت واحد ، غير متفرقين في أوقات.

فإن قلت : كيف ساغ السجود لغير الله؟ قلت : الذي لا يسوغ هو السجود لغير الله على

(١) سورة الإسراء الآية ٨٥.

وجه العبادة فأما على وجه التكرمة والتبجيل ، فلا يأباه العقل ، إلا أن يعلم الله تعالى فيه مفسدة فينهى عنه [1].

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما قاله لإبليس حين عصى أمره فقال : ﴿قالَ يا إِبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ...﴾.

ومذهب السلف في مثل هذا التعبير ، أن اليد ـ مفردة أو غير مفردة ـ إذا وصف الله تعالى بها ذاته ، فهي ثابتة له ، على الوجه الذي يليق بكماله ، مع تنزهه ـ سبحانه ـ عن مشابهته للحوادث.

ومذهب الخلف : تأويل اليد بالقدرة أو النعمة. والتثنية في يدي ، للتأكيد الدال على مزيد القدرة في خلقه. أى : قال الله ـ تعالى ـ لإبليس على سبيل التأنيب والتقريع : يا إبليس ما الذي منعك من السجود لآدم الذي خلقته بيدي؟

﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ﴾. أى : أمنعك من السجود لآدم تكبرك من غير موجب لهذا التكبر ، أم كنت ممن علا على غيره بدون حق؟ والاستفهام للتوبيخ والإنكار.

﴿قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ أى : قال إبليس في الجواب على ربه ـ تعالى ـ : أنا خير من آدم.

﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ فهو ـ لعنه الله ـ يرى أن النار أفضل من الطين ، ولا يصح سجود الفاضل للمفضول.

ولا شك أن هذا التعليل من إبليس في نهاية سوء الأدب ، لأنه بعدم سجوده قد عصى رب العالمين ، وفضلا عن ذلك فإن هذه العلة لا تقتضي صحة المدعى ، لأن النار ليست خيرا من الطين حتى يكون المخلوق منها أفضل ، إذ النار يطفئها الطين ..

وقد رد ـ سبحانه ـ على هذا التطاول من إبليس بقوله : ﴿فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ. وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلى يَوْمِ الدِّينِ﴾.

والفاء في قوله ﴿فَاخْرُجْ﴾ لترتيب الأمر بالطرد على ما حدث منه. والضمير في «منها» يعود إلى السماء ، أو إلى الجنة ، لأنه كان فيهما.

أى : قال ـ تعالى ـ لإبليس على سبيل الزجر : مادمت يا إبليس قد عصيت أمرى ، فاخرج من الجنة ومن كل مكان فيه تكريم لك ، فإنك رجيم ، أى : مطرود من رحمتي. وإن عليك لعنتي وغضبى إلى يوم القيامة ، فإذا ما جاء هذا اليوم ازدادت لعنتي عليك.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٠٥.

﴿قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾ أى : فأمهلني ﴿إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أى : فأخرنى ولا تمتنى إلى يوم البعث ، لأتمكن من إغواء ذرية آدم.

﴿قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ. إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ أى : قال ـ سبحانه ـ قد أجبت لك ما تقتضيه حكمتى ، وهو أنى سأؤخر إهلاكك إلى الوقت الذي حددته لفناء الخلائق وهو وقت النفخة الأولى ، لا إلى وقت البعث الذي طلبه إبليس.

﴿قالَ﴾ أى : إبليس ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ أى : فبحق سلطانك وقهرك ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أى : لأغوين بنى آدم جميعا بالمعاصي ، ولأضلنهم ولأمنينهم ﴿إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ فلا يتأثرون بإغوائى ، لأنى لا قدرة لي عليهم.

﴿قالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ. لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وقوله ﴿فَالْحَقُّ﴾ مبتدأ محذوف الخبر أى : فالحق قسمي لأملأن .. وقوله : ﴿وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ لفظ الحق منصوب هنا على أنه مفعول لأقول ، قدم عليه لإفادة الحصر.

والجملة من الفاعل والمفعول معترضة بين القسم والمقسم عليه لتقرير مضمون الجملة القسمية. أى : قال الله ـ تعالى ـ في رده على إبليس : فالحق قسمي ويميني ـ ولا أقول إلا الحق ـ لأملأن جهنم من جنسك يا إبليس ، وممن تبعك من الناس جميعا ، لأن هذا جزاء من عصاني.

ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة ، بأمر رسوله صلى‌الله‌عليه‌وسلم أن يبين للناس ، أنه لا يريد من وراء دعوته عرضا زائلا من أعراض الدنيا فقال ﴿قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ. إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ. وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾.

أى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء المشركين وغيرهم : إنى لا أسألكم أجرا على تبليغكم ما أمرنى الله بتبليغه إليكم ، وما أنا من الذين يتكلفون ويتصنعون القول أو الفعل الذي لا يحسنونه ، بل أنا رسول من عند الله وصادق فيما أبلغه عنه.

وما هذا القرآن الذي جئتكم به من عند ربي ، إلا وعظ بليغ للثقلين ، وشرف عظيم لهما في اتباع أوامره ونواهيه.

لتعلمن ـ أيها الناس ـ صدق ما أخبركم به من وعد ومن وعيد بعد وقت محدد في علم الله ـ تعالى ـ..

وبعد : فهذا تفسير لسورة «ص» نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم؟.

كتبه الراجي عفو ربه

محمد سيد طنطاوى

القاهرة ـ مدينة نصر ـ

صباح الثلاثاء ٤ من ذي الحجة سنة ١٤٠٥ ه‍ الموافق ٢٠ / ٨ / ١٩٨٥ م

تفسير

سورة الزّمر

بسم الله الرّحمن الرّحيم

مقدّمة

١ ـ سورة «الزمر» هي السورة التاسعة والثلاثون في ترتيب المصحف أما ترتيبها في النزول فهي السورة الثامنة والخمسون من السور المكية ، وكان نزولها بعد سورة سبأ.

وقد ذكر صاحب الإتقان أنها تسمى ـ أيضا ـ سورة «الغرف» ، لقوله ـ تعالى ـ : ﴿لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ﴾.

٢ ـ ويرى المحققون أن السورة بكاملها مكية.

قال الآلوسى : عن ابن عباس أنها نزلت بمكة ولم يستثن ، وأخرج النحاس عنه أنه قال : نزلت سورة الزمر بمكة سوى ثلاث آيات نزلت بالمدينة في وحشي قاتل حمزة ، وهي قوله ـ تعالى ـ : ﴿قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ﴾.

٣ ـ وآياتها خمس وسبعون آية في المصحف الكوفي ، وثلاث وسبعون في المصحف الشامي ، واثنتان وسبعون في غيرهما [١].

٤ ـ وتبدأ السورة الكريمة بالثناء على الله ـ تعالى ـ الذي أنزل القرآن بالحق على نبيه محمد ﷺ والذي خلق السموات والأرض بالحق والذي خلق الناس جميعا من نفس واحدة ، قال ـ تعالى ـ : ﴿تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ، إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ ، فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ. أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ ..﴾.

٥ ـ ثم تنتقل السورة إلى الحديث عن حالة الإنسان عند ما ينزل به الضر ، وعن الجزاء الحسن الذي أعده ـ سبحانه ـ للصابرين ، وعن العقاب الأليم الذي أعده للخاسرين.

﴿قُلْ يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ ، وَأَرْضُ اللهِ واسِعَةٌ إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ. قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ. وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ. قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. قُلِ اللهَ

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ٢٣٢.

أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي. فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ، قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ، أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ﴾.

٦ . ثم بين . سبحانه . مظاهر قدرته في هذا الكون عن طريق إنزاله الماء من السماء ، وعن طريق إنزاله أحسن الحديث. كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم.

قال . تعالى . : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ ، ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ﴾.

٧ . ثم دعا . سبحانه . الناس بعد ذلك إلى تدبر آيات القرآن ، المشتمل على الهدايات والإرشادات والأمثال ، وإلى اتباع الرسول ﷺ الذي جاءهم بالصدق ، لأن هذا الاتباع يؤدى إلى تكفير سيئاتهم ، ورفع درجاتهم عند ربهم.

قال . تعالى . : ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ. قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

٨ . وبعد أن عادت السورة الكريمة إلى الحديث عن مظاهر قدرة الله . تعالى . في قبضه للأرواح ، وفي كشفه الضر عن خلقه .. أتبعت ذلك بمحاجة المشركين ، وببيان ما هم عليه من ضلال ، وبيان أحوالهم عند ما يذكر الله . تعالى . وحده ، وببيان سوء عاقبتهم.

قال . تعالى . : ﴿وَإِذا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ، وَإِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ. قُلِ اللهُمَّ فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ عالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فِي ما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

٩ . ثم ساق . سبحانه . لعباده ما يدل على سعة رحمته بهم ، ودعاهم إلى الإنابة إليه ، من قبل أن يأتى اليوم الذي لا ينفع فيه الندم.

قال . تعالى . : ﴿قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ﴾.

١٠ . ثم تحدثت السورة في أواخرها عن أحوال السعداء والأشقياء يوم القيامة ، وعن أهوال هذا اليوم.

قال . تعالى . : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ ، ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ﴾.

وختمت ببيان ما أعده . سبحانه . للكافرين من شديد العقاب ، وما أعده للمتقين من كريم الثواب.

قال . تعالى . : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً ، حَتَّى إِذا جاؤُها وَفُتِحَتْ أَبْوابُها وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ. وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ ، وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ ، فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ. وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾.

١١ . هذا ، والمتأمل في سورة «الزمر» بعد هذا العرض المجمل لها. يراها قد اشتملت على مقاصد متنوعة من أهمها ما يأتى :

(أ) إقامة الأدلة المتعددة على وحدانية الله . تعالى . وعلى وجوب إخلاص العبادة له ، تارة عن طريق خلق السموات والأرض ، وتكوين الليل والنهار ، وتسخير الشمس والقمر ، وخلق الناس جميعا من نفس واحدة ... وتارة عن طريق لجوء المشركين إليه وحده عند الشدائد ، وتارة عن طريق توفى الأنفس حين موتها ، وتارة عن طريق ضرب الأمثال ، كما في قوله . تعالى . : ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ ، هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً. الْحَمْدُ لِلَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾.

(ب) تذكير الناس بأهوال الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب. وبعث ونشور ، وفرح يعلو وجوه المتقين ، وكآبة تجلل وجوه الكافرين.

نرى ذلك في مثل قوله . تعالى . : ﴿وَيَوْمَ الْقِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ. وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفازَتِهِمْ ، لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وفي مثل قوله . تعالى . : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ ، ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ. وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها وَوُضِعَ الْكِتابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَداءِ ، وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ. وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُونَ﴾.

(ج) تلقين الرسول ﷺ الحجج والإجابات التي يرد بها على شبهات المشركين ، وعلى دعاواهم الباطلة ، فقد تكرر لفظ «قل» في هذه السورة كثيرا ، ومن ذلك قوله . تعالى . :

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ ... ﴿... قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ ...﴾.

﴿قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ﴾. ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ﴾.

﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

(د) الإكثار من المقارنة بين عاقبة الأخيار وعاقبة الأشرار ، بأسلوب يغلب عليه طابع الاستفهام الإنكارى ، الذي حذف فيه الخبر للعلم به من سياق الكلام.

ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَقائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ﴾.

وقوله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ ، وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

هذه بعض المقاصد التي اشتملت عليها السورة الكريمة ، وهناك مقاصد أخرى يدركها القارئ لهذه السورة الكريمة بتدبر وتفكر.

نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا وأنس نفوسنا. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه الراجي عفو ربه

د. محمد سيد طنطاوى

القاهرة ـ مدينة نصر

صباح الجمعة ٢٨ من ذي الحجة سنة ١٤٠٥ هـ

١٣ / ٩ / ١٩٨٥ م

التفسير

قال الله . تعالى . :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (٢) أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ما نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللهِ زُلْفى إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي ما هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَوْ أَرادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاصْطَفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ سُبْحانَهُ هُوَ اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٤)

افتتحت سورة «الزمر» بالثناء على القرآن الكريم ، وببيان مصدره ، قال . تعالى . : ﴿تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

أى : هذا الكتاب وهو القرآن الكريم. قد نزل عليك . يا محمد . من لدن الله . تعالى . ﴿لْعَزِيزِ﴾ أى : الغالب على كل شيء ﴿الْحَكِيمِ﴾ في كل تصرفاته وأفعاله ، وليس هذا القرآن قولا مفترى كما زعم الجاحدون الذين انطمست بصائرهم ، واستحبوا العمى على الهدى.

والذي يتتبع آيات القرآن الكريم ، يرى أن الله . تعالى . إذا ذكر تنزيله لكتابه أتبع ذلك ببعض أسمائه الحسنى ، المتضمنة لصفاته الجليلة.

ففي أول سورة غافر نجد قوله . تعالى . : ﴿حم ، تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

وفي أول سورة الجاثية نجد قوله ـ تعالى ـ : ﴿حم. تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

وفي أول سورة الأحقاف نجد مثل هذا الافتتاح.

وفي أول سورة فصلت نجد قوله ـ تعالى ـ : ﴿حم. تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾.

وفي صدر سورة «يس» نجد قوله ـ سبحانه ـ : ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ. لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ ..﴾.

ولا يخفى أن ذكره ـ سبحانه ـ لبعض أسمائه الحسنى ، بعد ذكره لتنزيل هذا القرآن على قلب رسوله ﷺ فيه ما فيه من الثناء على القرآن الكريم ، ومن بيان أنه قد نزل من عند الله ـ تعالى ـ وحده ، الذي له الخلق والأمر. تبارك الله رب العالمين.

ثم ساق ـ سبحانه ـ بعد ذلك ما يدعو الناس إلى قبول هذا الكتاب ، وإلى العمل بهداياته ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ ...﴾.

أى : هذا الكتاب هو تنزيل من عند الله ـ تعالى ـ الغالب على كل شيء. والحكيم في أقواله وأفعاله. وقد أنزله ـ سبحانه ـ عليك ـ يا محمد ـ تنزيلا ملتبسا بالحق الذي لا يحوم حوله باطل ، أو ما يشبه الباطل ، وذلك يوجب قبوله والعمل بكل ما فيه.

قال الآلوسى : قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِ﴾ بيان لكونه نازلا بالحق ، وتوطئة لما يذكر بعد ... أو شروع في بيان المنزل إليه ، وما يجب عليه إثر بيان شأن المنزل ... والباء متعلقة بالإنزال ، وهي للسببية ، أى : أنزلناه بسبب الحق. أى : إثباته وإظهاره. أو بمحذوف وقع حالا من المفعول وهي للملابسة. أى : أنزلناه ملتبسا بالحق والصواب.

والمراد أن كل ما فيه موجب للعمل والقبول حتما [1].

والفاء في قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها. والعبادة : أقصى درجات التذلل والخضوع للمعبود ـ عزوجل ـ. والإخلاص معناه : أن يقصد المسلم بعبادته وقوله وعمله وجه الله ـ تعالى ـ.

أى : أنزلنا إليك ـ أيها الرسول الكريم ـ هذا الكتاب بالحق الذي لا يشوبه باطل ، وما دام الأمر كذلك فعليك أن تخلص لربك عبادتك وطاعتك ودينك إخلاصا تاما ، لا يحوم حوله

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ٢٣٣.

رياء أو تفاخر ، أو غير ذلك مما يتنافى مع إخلاص الخضوع لله ـ تعالى ـ وحده.

قال الشوكاني : وفي الآية دليل على وجوب النية ، وإخلاصها من الشوائب لأن الإخلاص من الأمور القلبية التي لا تكون إلا بأعمال القلب ، وقد جاءت السنة الصحيحة أن ملاك الأمر في الأقوال والأفعال النية ، كما في حديث : «إنما الأعمال بالنيات» وحديث : «لا قول ولا عمل إلا بنية» (١).

وجملة (أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ) مؤكدة ومقررة لمضمون ما قبلها من وجوب إفراد العبادة والطاعة لله ـ تعالى ـ : وزادها تأكيدا وتقريرا لما قبلها تصديرها بأداة الاستفتاح (أَلا) واشتمالها على أسلوب القصر.

أى : ألا إن لله ـ تعالى ـ وحده ـ وليس لأحد سواه ـ الدين الخالص من شوائب الشرك والرياء. والعبادة لوجهه وحده ، والخضوع لقدرته التي لا يعجزها شيء.

ثم بين ـ سبحانه ـ ما عليه المشركون من ضلال فقال : (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللهِ زُلْفى ، إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ...)

فالمراد بالموصول المشركون ، ومحله الرفع على الابتداء ، وخبره قوله ـ تعالى ـ بعد ذلك : (إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ) وجملة (ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللهِ زُلْفى) في محل نصب على الحال بتقدير القول ، والاستثناء مفرغ من أعم العلل. والزلفى : اسم أقيم مقام المصدر الذي يتلاقى معه في المعنى ، والمأخوذ من قوله (لِيُقَرِّبُونا).

أى : لله ـ تعالى ـ وحده الدين الخالص ، والمشركون الذين اتخذوا معبودات باطلة ليعبدوها من دون الله ، كانوا يقولون في الرد على من ينهاهم عن ذلك : إننا ما نعبد هذه المعبودات إلا من أجل أن نتوسل بها ، لكي تقربنا إلى الله قربى ، ولتكون شفيعة لنا عنده حتى يرفع عنا البلاء والمحن.

(إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ) أى : بين هؤلاء المشركين وبين غيرهم من المؤمنين الذين أخلصوا لله ـ تعالى ـ العبادة والطاعة (فِي ما هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) من أمر التوحيد والشرك ، بأن يجازى المؤمنين بحسن الثواب ، ويجازى الكافرين بسوء العقاب.

(إِنَّ اللهَ) ـ تعالى ـ (لا يَهْدِي) أى : لا يوفق للاهتداء للحق (مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفَّارٌ).

(١) تفسير فتح القدير ج ٤ ص ٤٤٨.

أى : من كان دائم الكذب على دين الله ، شديد الجحود لآيات الله وبراهينه الدالة على وحدانيته ، وعلى أنه لا رب لهذا الكون سواه.

ثم أبطل ـ سبحانه ـ كل تصور للشرك والشركاء ، بأن نزه ـ تعالى ـ ذاته عن اتخاذ الولد فقال : ﴿لَوْ أَرادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ ، سُبْحانَهُ هُوَ اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

أى : لو أراد الله ـ تعالى ـ على سبيل الفرض والتقدير ـ أن يتخذ ولدا ، لاختار من خلقه ما يريده هو ، لا ما يريده الضالون ، لكنه ـ سبحانه ـ لم يختر أحدا ليكون ولدا له ، فدل ذلك على بطلان زعم الزاعمين بأن الملائكة بنات الله ، أو بأن عزيرا ابن الله ، أو بأن المسيح ابن الله.

﴿سُبْحانَهُ هُوَ اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أى : تنزه ـ عزوجل ـ عن كل شيء من ذلك ، فإنه هو الله الواحد في ذاته وفي صفاته ، القهار لكل مخلوقاته.

قال الإمام ابن كثير : بيّن ـ تعالى ـ في هذه الآية أنه لا ولد له كما يزعمه جهلة المشركين في الملائكة ، والمعاندون من اليهود والنصارى في العزيز وعيسى فقال : ﴿لَوْ أَرادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ﴾ أى. لكان الأمر على خلاف ما يزعمون.

وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه ، بل هو محال ، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه ، كما قال : ﴿لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ﴾ وكما قال : ﴿قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ﴾.

كل هذا من باب الشرط ، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لقصد المتكلم (١).

وقال بعض العلماء ما ملخصه : إرادة اتخاذ الولد هنا ممتنعة ، لأن الإرادة لا تتعلق إلا بالممكنات ، واتخاذ الولد محال ، كما ثبت بالبرهان القطعي فتستحيل إرادته. وجعلها في الآية شرطا وتعليق الجواب عليها ، لا يقتضى إمكانها فضلا عن وقوعها ، وقد عرف في فصيح الكلام : تعليق المحال على المحال جوازا ووقوعا.

على أن الوالدية تقتضي التجانس بين الوالد والولد. إذ هو قطعة منه. وقد ثبت أن كل ما عداه ـ سبحانه ـ مخلوق له. فيلزم بموجب التجانس أن يكون المخلوق من جنس الخالق ، وهو يستلزم حدوث الخالق ، أو قدم المخلوق ، وكلاهما محال (٢).

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٧٥.

(٢) صفوة البيان ج ٢ ص ٢٤٩ لفضيلة الشيخ محمد حسنين مخلوف.

ثم أقام ـ سبحانه ـ المزيد من الأدلة على وحدانيته وقدرته ، عن طريق التأمل في ملكوت السموات والأرض ، وفي ظاهرة الليل والنهار ، وفي تسخير الشمس والقمر ، وفي خلق بني آدم من نفس واحدة ... فقال ـ تعالى ـ :

﴿خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَيُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥) خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٦) إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ (٧)

فقوله ـ تعالى ـ : ﴿خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِ﴾ تفصيل لبعض أفعاله الدالة على وحدانيته ـ سبحانه ـ وقدرته.

أى : الله وحده هو الذي أوجد هذه السموات وتلك الأرض ، إيجادا ملتبسا بالحق والحكمة والمصلحة التي تعود عليكم ـ أيها الناس ـ بالخير والمنفعة ومن كان شأنه كذلك ، استحال أن يكون له شريك أو ولد.

ثم ساق ـ سبحانه ـ دليلا ثانيا على وحدانيته فقال : ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ ، وَيُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾.

والتكوير في اللغة : طرح الشيء بعضه على بعض. يقال : كور فلان المتاع ، إذا ألقى بعضه على بعض ، ومنه كور العمامة. أى : انضمام بعض أجزائها على بعض.

والمقصود أن الليل والنهار كلاهما يكر على الآخر فيذهبه ويحل محله ، بطريقة متناسقة محكمة لا اختلال معها ولا اضطراب.

قال صاحب الكشاف : «والتكوير : اللف واللى. يقال : كار العمامة على رأسه وكوّرها.

وفيه أوجه ، منها : أن الليل والنهار خلفة يذهب هذا ويأتى مكانه هذا ، وإذا غشى مكانه ، فكأنما ألبسه ولف عليه ، كما يلف اللباس على اللابس.

ومنها : أن كل واحد منهما يغيب الآخر إذا طرأ عليه ، فشبه في تغييبه إياه بشيء ظاهر لف عليه ما غيبه عن مطامح الأبصار.

ومنها : أن هذا يكر على هذا كرورا متتابعا ، فشبه ذلك بتتابع أكوار العمامة بعضها على إثر بعض» (١).

قال بعض العلماء ما ملخصه : «والتعبير بقوله «يكور ..» تعبير عجيب ، يقسر الناظر فيه قسرا على الالتفات إلى ما كشف حديثا عن كروية الأرض فهو يصور حقيقة مادية ملحوظة على وجه الأرض ، فالأرض الكروية تدور حول نفسها في مواجهة الشمس ، فالجزء الذي يواجه الشمس من سطحها المكور يغمره الضوء ويكون نهارا. ولكن هذا الجزء لا يثبت لأن الأرض تدور. وكلما تحركت بدأ الليل يغمر السطح الذي كان عليه النهار. وهذا السطح مكور ، فالنهار كان عليه مكورا ، والليل يتبعه مكورا كذلك ، وبعد فترة يبدأ النهار من الناحية الأخرى يتكور على الليل ، وهكذا في حركة دائبة «يكور ـ سبحانه ـ الليل على النهار ويكور النهار على الليل».

واللفظ يرسم الشكل ، ويحدد الوضع ، ويعين نوع طبيعة الأرض وحركتها. وكروية الأرض ودورانها ، يفسران هذا التعبير تفسيرا أدق من أى تفسير آخر لا يستصحب هذه النظرية» (٢).

ثم ذكر ـ سبحانه ـ دليلا ثالثا على وحدانيته وقدرته فقال : ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١١٣.

(٢) في ظلال القرآن ج ٢٣ ص ١٢٢.

والتسخير : التذليل والانقياد والطاعة التامة. أى : وجعل ـ سبحانه ـ الشمس والقمر منقادين لأمره انقيادا تاما وكلاهما يجرى في مداره إلى الوقت المحدد في علم الله ـ تعالى ـ لنهاية دورانه ، وانقطاع حركته.

وهما في جريانهما يسيران بنظام محكم دقيق غاية الدقة ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ، وَلَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ. وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله ﴿أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾.

وفي تصدير الجملة الكريمة بأداة الاستفتاح ﴿أَلا﴾ إشارة إلى كمال الاعتناء بمضمونها ، وإلى وجوب التدبر فيما اشتملت عليه.

أى : ألا إن الله ـ تعالى ـ : وحده هو الخالق لكل تلك المخلوقات ، وهو وحده المتصرف فيها ، والمهيمن عليها ، وهو وحده ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب على كل ما سواه ، الكثير المغفرة لذنوب عباده التائبين إليه توبة نصوحا.

ثم ساق ـ سبحانه ـ أدلة أخرى على وحدانيته فقال : ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها﴾.

أى خلقكم ـ سبحانه ـ من نفس واحدة هي نفس أبيكم آدم ثم خلق من هذه النفس الواحدة ، زوجها وهي أمكم حواء.

قال الشوكانى : والتعبير بالجعل دون الخلق مع العطف بثم. للدلالة على أن خلق حواء من ضلع آدم ، أدخل في كونه آية باهرة دالة على كمال القدرة ؛ لأن خلق آدم هو على عادة الله المستمرة في خلقه ، وخلق حواء على الصفة المذكورة لم تجربه عادة لكونه ـ تعالى ـ لم يخلق أنثى من ضلع رجل غيرها [1].

وقال الجمل : فإن قلت كيف عطف بثم مع أن خلق حواء من آدم سابق على خلقنا منه؟ أجيب بأن ثم هنا للترتيب في الإخبار لا في الإيجاد. أو المعطوف متعلق بمعنى واحدة ، فثم عاطفة عليه لا على خلقكم ، فمعناه : خلقكم من نفس واحدة أفردت بالإيجاد ، ثم شفعت بزوجة. أو هو معطوف على خلقكم ، لكن المراد بخلقهم ، خلقهم يوم أخذ الميثاق دفعة لا على هذا الخلق ، الذي هم فيه الآن بالتوالد والتناسل [2].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ﴾ بيان لبعض آخر من

---

(١) تفسير فتح القدير ج ٤ ص ٤٥٠.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٥٩٠.

أفعاله ـ تعالى ـ الدالة على وحدانيته وقدرته. والجملة الكريمة معطوفة على ما قبلها وهي قوله : ﴿خَلَقَكُمْ﴾.

أى : وأنزل لكم من كل من الإبل والبقر والغنم والمعز زوجين : ذكرا وأنثى يتم بهما التناسل وبقاء النوع.

قالوا : وعبر ـ سبحانه ـ عن الخلق بالإنزال ، لما يروى أنه ـ تعالى ـ خلق هذه الأنواع في الجنة ثم أنزلها. فيكون الإنزال على سبيل الحقيقة.

أو أن الكلام على سبيل المجاز ، لأن هذه الأنعام لا تعيش إلا عن طريق ما تأكله من نبات ، والنبات لا يخرج إلا بالماء النازل من السماء فكأن الأنعام نازلة من السماء ، لأن سبب سببها منزل منها .. أو أن «أنزل» هنا بمعنى أنشأ وأوجد. أو لأن الخلق إنما يكون بأمر من السماء.

وقوله ـ تعالى ـ ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ﴾ بيان لكيفية خلق ما خلقه الله من الأناسى والأنعام بتلك الطريقة العجيبة.

أى أنه ـ تعالى ـ يخلقكم ـ أيها الناس ـ بقدرته في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق ، بأن يحولكم من نطفة إلى علقة إلى مضغة ، إلى عظام مكسوة باللحم ، ثم يحولكم بعد ذلك إلى خلق آخر ، وهذه المراحل كلها تتم وأنتم في ظلمات بطون أمهاتكم ، وظلمات الأرحام التي بداخل البطون وظلمات الغشاء الذي بداخل الأرحام والبطون ، وذلك كله من أقوى الأدلة على قدرة الله ـ تعالى ـ ورعايته لخلقه.

وصدق الله إذ يقول : ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ. فَجَعَلْناهُ فِي قَرارٍ مَكِينٍ. إِلى قَدَرٍ مَعْلُومٍ. فَقَدَرْنا فَنِعْمَ الْقادِرُونَ﴾ (١).

واسم الإشارة في قوله ـ تعالى ـ ﴿ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ يعود إليه ـ سبحانه ـ باعتبار أفعاله السابقة. وتصرفون : من الصرف بمعنى الابتعاد عن الشيء إلى غيره.

أى : ذلكم العظيم الشأن الذي ذكرنا لكم بعض مظاهر قدرته ، هو الله ربكم الذي له ملك كل شيء ، والذي لا معبود بحق سواه ، فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره؟ وكيف تزعمون أن له شريكا أو ولدا ... مع توفر الأدلة على بطلان ذلك.

والمتأمل في هاتين الآيتين يراهما قد ذكرتا ألوانا من البراهين على وحدانية الله ـ تعالى ـ وقدرته ، كخلق السموات والأرض بالحق ، وتكوير الليل على النهار ، والنهار على الليل ، وتسخير الشمس والقمر لمنافع الناس ، وخلق الناس جميعا من نفس واحدة ، ورعايتهم بلطفه

---

(١) سورة المرسلات الآيات من ٢٠ ـ ٢٣.

وإحسانه في مراحل حياتهم ، وإيجاد الأنعام التي تنفعهم في شئونهم المختلفة.

ثم بين ـ سبحانه ـ أنه غني عن خلقه ، وأنهم هم الفقراء إليه فقال : ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ ، وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ ، وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾.

أى : إن تكفروا ـ أيها الناس ـ بعد أن سقنا لكم من الأدلة ما سقنا على صحة الإيمان وفساد الكفر ، فإن الله ـ تعالى ـ غنى عنكم وعن إيمانكم وعبادتكم وعن الخلق أجمعين.

ومع ذلك فإنه ـ سبحانه ـ لرحمته بكم ، لا يرضى لعباده الكفر ، أى : لا يحبه منهم ولا يحمده لهم ، ولا يجازى الكافر المجازاة التي يجازى بها المؤمن فإن المؤمن له جنات النعيم ، أما الكافر فله نار الجحيم.

وإن تشكروا الله على نعمه ـ أيها الناس ـ بأن تخلصوا له العبادة والطاعة وتستعملوا نعمه فيما خلقت له ، يرض لكم هذا الشكر ، ويكافئكم عليه مكافأة جزيلة. بأن يزيدكم من نعمه وإحسانه وخيره.

﴿وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾ أى : ولا تحمل نفس يوم القيامة حمل أخرى ، وإنما كل نفس تجازى على حسب أعمالها في الدنيا.

﴿ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾ أى : فيخبركم ﴿بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في دنياكم ، ويجازى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى.

﴿إِنَّهُ﴾ ـ سبحانه ـ ﴿عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ أى : عليم بما تخفيه الصدور من أسرار ، وبما تضمره القلوب من أقوال وأفعال ... لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

قال الجمل في حاشيته : قوله : ﴿وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ﴾ معنى عدم الرضا به ، لا يفعل فعل الراضي ، بأن يأذن فيه ويقر عليه ، ويثيب فاعله ويمدحه ، بل يفعل فعل الساخط بأن ينهى عنه ، ويذم عليه ، ويعاقب مرتكبه وإن كان بإرادته ، إذ لا يخرج شيء عنها.

أو المعنى : ولا يرضى لعباده المؤمنين الكفر ، وهم الذين قال الله ـ تعالى ـ في شأنهم : ﴿إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ﴾ فيكون الكلام عاما في اللفظ خاصا في المعنى ، كقوله ـ تعالى ـ : ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللهِ﴾ أى بعض العباد [1].

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٥٩١.

وبذلك ترى هذه الآية الكريمة قد أقامت الأدلة المتعددة على وحدانية الله ـ تعالى ـ وعلى كمال قدرته، وعلى أن من شكر الله ـ تعالى ـ على نعمه، فإن عاقبة هذا الشكر تعود على الشاكر بالخير الجزيل، أما من جحد نعم الله ـ تعالى ـ وأشرك معه في العبادة غيره، فإن عاقبة هذا الجحود، تعود على الجاحد بالشر الوبيل، وبالشقاء في الدنيا والآخرة.

وبعد أن أقام ـ سبحانه ـ الأدلة المتعددة على وحدانيته وكمال قدرته، أتبع ذلك بالحديث عن طبيعة الإنسان في حالتي السراء والضراء، ونفى ـ سبحانه ـ المساواة بين المؤمنين والكافرين، والعلماء والجهلاء فقال ـ تعالى ـ:

﴿وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ (٨) أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَقائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ (٩)

والمراد بالإنسان هنا: الكافر، بدليل قوله ـ تعالى ـ ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾.

والمراد بالضر: ما يصيب الإنسان من مصائب في نفسه أو ماله أو أهله.

أى: وإذا نزل بالإنسان ضر من مرض أو غيره من المكاره ﴿دَعا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ﴾ أي: أسرع إلى الله ـ تعالى ـ بالدعاء والإنابة والتضرع، وترك الآلهة التي كان يدعوها في حالة الرخاء.

كما قال ـ تعالى ـ: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شاءَ وَتَنْسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ﴾.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ ..﴾ بيان لحالة هذا الإنسان بعد أن كشف الله ـ تعالى ـ عنه الضر.

وخوله من التخويل بمعنى الإعطاء مرة بعد أخرى ، ومنه الحديث الشريف : كان رسول الله ﷺ يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة علينا أى : يتعهدنا بها وقتا بعد وقت.

و «ما» في قوله ﴿نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾ موصولة مرادا بها الضر ، أو مرادا بها الباري ـ عزّ وجلّ ـ..

أى : هذا هو حال ذلك الإنسان عند نزول الضّرّ به ، فإذا ما كشفنا عنه ضره ، وأعطيناه نعما عظيمة على سبيل التفضل منا .. نسى الضر الذي كان يتضرع إلينا من قبل لنزيله عنه ، أو نسى الخالق ـ عزّ وجلّ ـ الذي كشف عنه بقدرته ذلك الضر.

ولم يكتف بهذا النسيان ، بل جعل لله ـ تعالى ـ أندادا أى : أمثالا وأشباها ونظائر يعبدها من دونه.

واللام في قوله ـ تعالى ـ : ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ للتعليل. أى فعل ما فعل من جعله شركاء لله ـ تعالى ـ في العبادة ، ليضل الناس بذلك الفعل عن سبيل الله وعن دينه الذي ارتضاه لعباده.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿لِيُضِلَ﴾ بفتح الياء. أى : ليزداد ضلالا على ضلاله.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ﴾ ، بيان لسوء عاقبة هذا الإنسان المشرك.

أى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهذا الإنسان الذي جعل لله شركاء في العبادة ... قل له تمتع بكفرك تمتعا قليلا ، أو زمانا قليلا إنك من أصحاب النار الملازمين لها ، والخالدين فيها.

ثم نفى ـ سبحانه ـ المساواة بين هذا الإنسان المشرك وبين الإنسان الملازم لطاعة ربه فقال : ﴿أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَقائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ..﴾.

وكلمة «أمّن» أصلها «أم» التي بمعنى بل وهمزة الاستفهام. و «من» التي هي اسم موصول وهي هنا مبتدأ وخبره محذوف. والقانت : من القنوت بمعنى ملازمة الطاعة والمواظبة عليها بخشوع وإخلاص.

وآناء الليل : ساعاته : والاستفهام للإنكار والنفي.

أى : بل أمن هو قائم ساعات الليل لعبادة الله ـ ساجدا وقائما يحذر عذاب الآخرة ، ويرجو رحمة ربه ، كمن هو جاعل لله ـ تعالى ـ شركاء في العبادة؟

مما لا شك أنهما لا يستويان في عرف أى عاقل ، وفي نظر أى ناظر.

ويصح أن تكون «أم» متصلة. وقد حذف معادلها ثقة بدلالة الكلام عليه ، فيكون المعنى :

أهذا الكافر الذي جعل لله أندادا ليضل عن سبيله أحسن حالا ، أم الذي هو ملازم للطاعات آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه؟

ووصف القنوت بأنه في آناء الليل ، لأن العبادة في تلك الأوقات أقرب إلى القبول وقدم السجود على القيام ، لأن السجود أدخل في معنى العبادة.

قال الآلوسى ما ملخصه : وقد ذكروا أن هذه الآية نزلت في عثمان بن عفان ، وقيل في عمار بن ياسر .. والظاهر أن المراد المتصف بذلك من غير تعيين ، ولا يمنع من ذلك نزولها فيمن علمت ، وفيها دليل على فضل الخوف والرجاء.

وقد أخرج الترمذي والنسائي وابن ماجة عن أنس قال : دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو في الموت ، فقال له : كيف تجدك؟

قال : أرجو وأخاف. فقال ﷺ : «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الذي يرجو ، وآمنه الذي يخاف» (١).

ثم نفى ـ سبحانه ـ أيضا المساواة بين العالم والجاهل فقال : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾.

أى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء المشركين الذين جعلوا لله أندادا : إنه لا يستوي عند الله ـ تعالى ـ المشرك والمؤمن ، ولا يستوي عنده ـ أيضا ـ الذين يعلمون الحق ، ويعملون بمقتضى علمهم ، والذين لا يعلمونه ويعملون بمقتضى جهلهم وضلالهم ، ويعرضون عن كل من يدعوهم إلى الحق وإلى الصراط المستقيم.

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله : ﴿إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ أى : إنما يعتبر ويتعظ بهذه التوجيهات والإرشادات ، أصحاب العقول السليمة والمدارك القويمة. ثم أمر الله ـ تعالى ـ رسوله ﷺ أن يذكر المؤمنين بأن يواظبوا على إخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ وأن يهاجروا إلى الأرض التي يتمكنون فيها من نشر دينه وإعلاء كلمته ، وأن ينذر المشركين بسوء المصير إذا ما استمروا في كفرهم وضلالهم .. فقال ـ تعالى ـ :

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ٢٤٧.

﴿قُلْ يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللهِ واسِعَةٌ إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ (١٠) قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبادَهُ يا عِبادِ فَاتَّقُونِ﴾ (١٦)

والمعنى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لعبادي المؤمنين الصادقين : داوموا على الخوف من ربكم ، وعلى صيانة أنفسكم من كل ما يغضبه.

وفي التعبير بقوله ـ تعالى ـ : ﴿قُلْ يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ دون قوله : قل لعبادي الذين آمنوا .. تكريم وتشريف لهم ، لأنه ـ سبحانه ـ أمر رسوله ﷺ أن يناديهم بهذا النداء الذي فيه ما فيه من التكريم لهم ، حيث أضافهم إلى ذاته ـ تعالى ـ وجعل وظيفة الرسول ﷺ إنما هي التبليغ عنه ـ عزوجل ـ ..

قال الآلوسى : قوله ـ تعالى ـ : ﴿قُلْ يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ : أمر رسول الله ﷺ أن يذكر المؤمنين ويحملهم على التقوى والطاعة ، إثر تخصيص التذكر بأولى الألباب ، وفيه إيذان بأنهم هم.

أى : قل لهم قولي هذا بعينه ، وفيه تشريف لهم بإضافتهم إلى ضمير الجلالة ومزيد اعتناء بشأن المأمور به ، فإن نقل عين أمر الله ـ تعالى ـ أدخل في إيجاب الامتثال به [1].

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ٢٤٨.

وجملة ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ﴾ تعليل لوجوب الامتثال لما أمروا به من تقوى الله ـ تعالى ـ والاستجابة لإرشاداته.

وقوله : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم ، وقوله ﴿فِي هذِهِ الدُّنْيا﴾ متعلق بقوله : أحسنوا ، وقوله ﴿حَسَنَةٌ﴾ مبتدأ مؤخر.

أى : للذين أحسنوا في هذه الدنيا أقوالهم وأعمالهم .. حسنة عظيمة في الآخرة ، ألا وهي جنة عرضها السموات والأرض.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَأَرْضُ اللهِ واسِعَةٌ﴾ جملة معترضة لإزاحة ما عسى أن يتعللوا به من أعذار ، إذا ما حملهم البقاء في أوطانهم على التفريط في أداء حقوق الله.

قال صاحب الكشاف : ومعنى : ﴿وَأَرْضُ اللهِ واسِعَةٌ﴾ أن لا عذر للمفرطين في الإحسان ألبتة ، حتى إن اعتلوا بأوطانهم وبلادهم ، وأنهم لا يتمكنون فيها من التوفر على الإحسان ، وصرف الهمم إليه قيل لهم : فإن أرض الله واسعة ، وبلاده كثيرة ، فلا تجتمعوا مع العجز ، وتحولوا إلى بلاد أخر ، واقتدوا بالأنبياء والصالحين في مهاجرتهم إلى غير بلادهم ليزدادوا إحسانا إلى إحسانهم ، وطاعة إلى طاعتهم (١).

ومن الآيات التي وردت في هذا المعنى قوله ـ تعالى ـ : ﴿يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ. كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ﴾.

ثم بين ـ سبحانه ـ حسن عاقبة الصابرين فقال : ﴿إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾ أى : إنما يوفى الصابرون على مفارقة الأوطان ، وعلى تحمل الشدائد والمصائب في سبيل إعلاء كلمة الله ... يوفون أجرهم العظيم على كل ذلك بغير حساب من الحاسبين. لأنهم لا يستطيعون معرفة ما أعده ـ سبحانه ـ لهؤلاء الصابرين من عطاء جزيل ، ومن ثواب عظيم ، وإنما الذي يعرف ذلك هو الله ـ تعالى ـ وحده.

قال الإمام الشوكاني : أى : يوفيهم الله أجرهم في مقابلة صبرهم بما لا يقدر على حصره حاصر ، ولا يستطيع حسبانه حاسب.

والحاصل أن الآية تدل على أن ثواب الصابرين وأجرهم لا نهاية له ، لأن كل شيء يدخل تحت الحساب فهو متناه ، وما كان لا يدخل تحت الحساب فهو غير متناه. وهي فضيلة عظيمة ومثوبة جليلة ، تقتضي أن على كل راغب في ثواب الله ، وطامع فيما عنده من الخير ، أن يتوفر

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١١٧.

على الصبر ، ويزم نفسه بزمامه ، ويقيدها بقيده ، فإن الجزع لا يرد قضاء قد نزل ، ولا يجلب خيرا قد سلب ، ولا يدفع مكروها قد وقع .. [(١)].

ثم أمر . سبحانه . رسوله ﷺ أن يبين للناس ما أمره به خالقه فقال : ﴿إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾.

أى : قل لهم يا محمد إني أمرت من قبل الله . عز وجل . أن أعبده عبادة خالصة لا مجال معها للشرك أو الرياء ، أو غير ذلك مما يتنافى مع الطاعة التامة لخالقي . سبحانه ..

﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أى : أمرني ربي بأن أخلص له العبادة إخلاصا تاما وكاملا ، لكي أكون على رأس المسلمين وجوههم له ، حتى يقتدى بي الناس في إخلاصى وطاعتي له . عز وجل ..

قال . تعالى . : ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ ، لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾.

وقوله . سبحانه . : ﴿قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ بيان لسوء عاقبة الشرك والمشركين.

أى : وقل لهم . أيها الرسول الكريم . إني أخاف إن عصيت ربي ، فلم أخلص له العبادة والطاعة ، عذاب يوم عظيم الأهوال : شديد الحساب ، وهو يوم القيامة ، ولذلك فأنا لشدة خوفي من عذاب خالقي ، أكثرهم إخلاصا له . عز وجل . وامتثالا لأمره ، ومحافظة على طاعته.

﴿قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي﴾ أى. وقل لهم . أيضا . : الله . تعالى . وحده هو الذي أعبده عبادة لا يحوم حولها شرك ، ولا يخالطها شيء من الرياء أو التكلف.

فأنت ترى أن الله . تعالى . قد أمر نبيه ﷺ أن يعلن للناس بأساليب متنوعة ، أنه لن يتراجع عن طاعته التامة لربه ، وأن عليهم أن يتأسوا به في ذلك.

قال الجمل : أمر الله . تعالى . رسوله ﷺ أولا : بأن يخبرهم بأنه مأمور بالعبادة والإخلاص فيها. وثانيا : بأن يخبرهم بأنه مأمور بأن يكون أول من أطاع وانقاد وأسلم. وثالثا : بأن يخبرهم بخوفه من العذاب على تقدير العصيان. ورابعا : بأن يخبرهم بأنه امتثل الأمر وانقاد وعبد الله . تعالى . وأخلص له الدين على أبلغ وجه وآكده ، إظهارا لتصلبه في

---

(١) تفسير فتح القدير ج ٤ ص ٤٥٤.

الدين ، وحسما لأطماعهم الفارغة ، وتمهيدا لتهديدهم بقوله : ﴿فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ...﴾ [1].

فالأمر في قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ...﴾ للتهديد والتقريع والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها.

والمعنى. إذا كان الأمر كما ذكرت لكم ـ أيها المشركون ـ من أنى أول المسلمين وجوههم لله ـ تعالى ـ وحده ، فاعبدوا ما شئتم أن تعبدوه من دونه ـ عزّ وجلّ ـ فسترون عما قريب سوء عاقبة شرككم وجحودكم لنعم الله ـ تعالى ـ.

وقوله : ﴿قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ بيان لسوء عاقبة من أعرض عن دعوة الحق ، وقوله : ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا ..﴾ خبر إن.

أى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين : ليس الخاسرون هم الذين أخلصوا عبادتهم لله ـ تعالى ـ وحده ـ كما زعمتم ـ وإنما الخاسرون هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، بسبب إلقائهم في النار ، وحرمانهم من النعيم الذين أعده الله ـ تعالى ـ لعباده المؤمنين.

وقال ـ سبحانه ـ خسروا أنفسهم وأهليهم للإشعار بأن هؤلاء المشركين لم يخسروا أنفسهم فقط بسبب دخلوهم النار ، وإنما خسروا فوق ذلك أهليهم لأنهم حيل بينهم وبين أهليهم ، لأن أهليهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم ، وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهابا لا رجوع بعده.

وجملة : ﴿أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ﴾ مستأنفة لتأكيد ما قبلها ، وتصديرها بحرف التنبيه ، للإشعار بأن هذا الخسران الذي حل بهم قد بلغ الغاية والنهاية في بابه.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ...﴾ تفصيل لهذا الخسران بعد تهويله عن طريق الإبهام والإجمال.

والظلل : جمع ظلة ، وأصلها السحابة التي تظل ما تحتها ، والمراد بها هنا طبقات النار التي تكون من فوقهم ومن تحتهم. وأطلق عليها هذا الاسم من باب التهكم بهم ، إذ الأصل في الظلل أنها تقى من الحر ، بينما الظلل التي فوق المشركين وتحتهم محرقة.

أى : لهؤلاء المشركين طبقات من النار من فوقهم ، وطبقات أخرى من النار من تحتهم ، فهم محاطون بها من كل جانب ، ولا يستطيعون التفلت منها.

---

(١) حاشية الجمل ج ٣ ص ٥٩٤.

قال الجمل في حاشيته : «فإن قلت : الظلة ما فوق الإنسان فكيف سمى ما تحته بالظلة؟.

قلت : فيه وجوه : الأول : أنه من باب إطلاق اسم أحد الضدين على الآخر. الثاني : أن الذي تحته من النار يكون ظلة لآخر تحته في النار لأنها دركات. الثالث : أن الظلة التحتانية إذا كانت مشابهة الفوقانية في الإيذاء والحرارة ، سميت باسمها لأجل المماثلة والمشابهة» [1].

واسم الإشارة في قوله : ﴿ذلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبادَهُ ...﴾ يعود إلى العذاب الشديد الذي أعده . سبحانه . لأولئك المشركين.

أى : ذلك العذاب الشديد يخوف الله . تعالى . به عباده ، حتى يحذروا ما يوصل إليه ، ويجتنبوا كل قول أو فعل من شأنه أن يفضى إلى النار.

وقوله . تعالى . : ﴿يا عِبادِ فَاتَّقُونِ﴾ نداء منه . تعالى . للناس يدل على رحمته بهم ، وفضله عليهم ، أى : عليكم يا عبادي أن تلتزموا طاعتي ، وتجتنبوا معصيتي ، لكي تنالوا رضائى وجنتي ، وتبتعدوا عن سخطى وناري.

وإلى هنا نرى هذه الآيات الكريمة قد بشرت الصابرين بالعطاء الذي لا يعلم مقدار فضله إلا الله . تعالى . ، وأمرت بإخلاص العبادة لله . سبحانه . بأساليب متنوعة ، وحذرت المشركين من سوء المصير إذا ما استمروا في شركهم وكفرهم.

وبعد أن بين . سبحانه . ما أعده للخاسرين من عذاب أليم ، أتبع ذلك ببيان ما أعده للمتقين من نعيم مقيم ، فقال . تعالى . :

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها وَأَنابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرى فَبَشِّرْ عِبادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللهُ وَأُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ (١٨) أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (١٩)

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٥٩٤.

لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعادَ﴾ (٢٠)

الطاغوت : يطلق على كل معبود سوى الله . تعالى . كالشيطان والأصنام وما يشبههما ، مأخوذ من الطغيان ، وهو مجاوزة الحد في كل شيء. ويستعمل في الواحد والجمع والمذكر والمؤنث.

والاسم الموصول مبتدأ. وجملة «أن يعبدوها» بدل اشتمال من الطاغوت ، وجملة «لهم البشرى» هي الخبر.

والمعنى : والذين اجتنبوا عبادة الطاغوت ، وكرهوا عبادة غير الله . تعالى . أيا كان هذا المعبود ، وأقبلوا على الخضوع والخشوع له وحده . عزّوجلّ ..

أولئك الذين يفعلون ذلك «لهم البشرى» العظيمة في حياتهم ، وعند مماتهم ، وحين يقفون بين يدي الله . تعالى . : ﴿فَبَشِّرْ عِبادِ﴾ أى : فبشر . أيها الرسول الكريم . عبادي الذين هذه مناقبهم ، وتلك صفاتهم ....

ثم وصفهم . سبحانه . بما يدل على صفاء عقولهم ، وطهارة قلوبهم ، فقال : ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ...﴾.

وللعلماء في تفسير هذه الجملة الكريمة أقوال منها : أن المراد بالقول الذي يتبعون أحسنه. ما يشمل تعاليم الإسلام كلها النابعة من الكتاب والسنة.

والمراد بالأحسن الواجب والأفضل ، مع جواز الأخذ بالمندوب والحسن.

فهم يتركون العقاب مع أنه جائز ، ويأخذون بالعفو لأنه الأفضل ، كما قال . تعالى . ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى ...﴾.

وكما قال . سبحانه . : ﴿وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾.

فيكون المعنى : الذين يستمعون الأقوال الحسنة والأشد حسنا فيأخذون بما هو أشد حسنا ....

ومنها أن المراد بالقول هنا ما يشمل الأقوال كلها سواء أكانت طيبة أم غير طيبة.

فهم يستمعون من الناس إلى أقوال متباينة ، فيتبعون الطيب منها ، وينبذون غيره.

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : قوله : ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ.﴾ هم الذين اجتنبوا وأنابوا لا غيرهم ، وإنما أراد بهم أن يكونوا مع الاجتناب والإنابة على هذه الصفة ... وأراد أن يكونوا نقادا في الدين ، مميزين بين الحسن والأحسن ، والفاضل والأفضل ، فإذا اعترضهم أمران : واجب ومندوب ، اختاروا الواجب ... فهم حريصون على فعل ما هو أكثر ثوابا عند الله ..

وقيل : يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن. وقيل : يستمعون أوامر الله فيتبعون أحسنها. نحو القصاص والعفو ، والانتصار والإغضاء ..

وعن ابن عباس : هو الرجل يجلس مع القوم فيسمع الحديث فيه محاسن ومساوئ ، فيحدث بأحسن ما سمع ، ويكف عما سواه. [1].

ويبدو لنا أن هذا القول الأخير المأثور عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ هو أقرب الأقوال إلى الصواب ، لأنه هو الظاهر من معنى الجملة الكريمة.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللهُ وَأُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ ثناء آخر من الله ـ تعالى ـ على هؤلاء المؤمنين الذين اجتنبوا عبادة الطاغوت ، وأخلصوا لله ـ تعالى ـ العبادة.

أى : أولئك الذين هداهم الله ـ تعالى ـ إلى دينه الحق ، وإلى الصراط المستقيم ، وأولئك هم أصحاب العقول السليمة ، والمدارك القويمة ، والقلوب الطاهرة النقية ..

قال الآلوسى : وفي الآية دلالة على حط قدر التقليد المحض ، ولذا قيل :

شمر وكن في أمور الدين مجتهدا ... ولا تكن مثل عير قيد فانقادا

واستدل بها على أن الهداية تحصل بفعل الله ـ تعالى ـ وقبول النفس لها ... [2]. ثم بين ـ سبحانه ـ أن من أحاطت به خطيئته ، لن يستطيع أحد إنقاذه من العذاب. فقال ـ تعالى ـ ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذابِ ، أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾.

والاستفهام للنفي ، والتقدير : أفمن وجب عليه العذاب بسبب إصراره على كفره حتى النهاية ، أفتستطيع أنت ـ أيها الرسول الكريم ـ أن تنقذه من هذا المصير الأليم؟ لا ـ أيها الرسول الكريم ـ إنك لا تستطيع ذلك. لأن من سبق عليه قضاؤنا بأنه من أهل النار ، بسبب استحبابه الكفر على الإيمان لن تستطيع أنت أو غيرك إنقاذه منها.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٢١.

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ٢٥٣.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ ...﴾ بيان لحسن عاقبة المؤمنين ، بعد بيان سوء عاقبة من حقت عليهم كلمة العذاب ..

والغرف جمع غرفة ، وتطلق على الحجرة التي تكون مرتفعة عن الأرض.

أى : هذا حال الذين حقت عليهم كلمة العذاب ، أما حال الذين اتقوا ربهم فيختلف اختلافا تاما عن غيرهم ، فإن الله ـ تعالى ـ قد أعد لهم ـ على سبيل التكريم والتشريف ـ غرفا من فوقها غرف أخرى مبنية ..

ووصفت بذلك للإشارة إلى أنها معدة ومهيأة لنزولهم فيها ، قبل أن يقدموا عليها ، زيادة في تكريمهم وحسن لقائهم.

وهذه الغرف جميعها «تجرى من تحتها الأنهار» ليكون ذلك أدعى إلى زيادة سرورهم.

وقوله ـ تعالى ـ ﴿وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعادَ﴾ تذييل مؤكد لمضمون ما قبله من كون المتقين لهم تلك الغرف المبنية. ولفظ «وعد» مصدر منصوب بفعل مقدر.

أى : وعدهم ـ تعالى ـ بذلك وعدا لا يخلفه ، لأنه ـ سبحانه ـ ليس من شأنه أن يخلف الموعد الذي يعده لعباده.

وقد ذكر الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية بعض الأحاديث ، منها ما رواه الإمام أحمد عن أبى مالك الأشعرى ، قال : قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم «إن في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها ، أعدها الله لمن أطعم الطعام ، وألان الكلام ، وتابع الصيام ، وصلّى والناس نيام» (١).

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة قد بشرت المتقين بأحسن البشارات وأكرمها ، وتوعدت المصرين على كفرهم وفجورهم باستحالة إنقاذهم من عذاب النار.

ثم ضرب ـ سبحانه ـ مثلا لسرعة زوال الحياة الدنيا ، وقرب اضمحلال بهجتها. كما بين حال من شرح الله صدره للإسلام فقال ـ تعالى ـ :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٨١.

يَجْعَلُهُ حُطاماً إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (٢١) أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (٢٢)

والاستفهام في قوله ـ تعالى ـ : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً ...﴾ للتقرير.

والينابيع : جمع ينبوع ، وهو المنبع أو المجرى الذي يكون في باطن الأرض ، والذي يحمل الكثير من المياه الجارية أو المخزونة في جوف الأرض.

والمعنى : لقد علمت ـ أيها العاقل ـ أن الله ـ تعالى ـ أنزل من السحب المرتفعة في جو السماء ، ماء كثيرا ، فأدخله بقدرته في عيون ومسارب في الأرض ، هذه العيون والمسارب تارة تكون ظاهرة على وجه الأرض ، وتارة تكون في باطنها ، وكل ذلك من أعظم الأدلة على قدرة الله ـ تعالى ـ ورحمته بعباده.

ثم بين ـ سبحانه ـ مظهرا آخر من مظاهر قدرته فقال : ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ ...﴾.

أى : هذا الماء الذي أنزله ـ سبحانه ـ بقدرته من السماء ، قد سلكه ينابيع في الأرض ، ثم يخرج بسبب هذا الماء زرعا مختلفا في ألوانه وفي أشكاله ، فمنه ما هو أخضر ومنه ما هو أصفر ، ومنه ما ليس كذلك مما يدل على كمال قدرة الله ـ تعالى ..

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً﴾ بيان لمظهر ثالث من مظاهر قدرته ـ عزوجل ..

والفعل «يهيج» مأخوذ من الهيج بمعنى اليبس والجفاف. يقال : هاج النبات هيجا وهياجا ، إذا يبس وأصفر. أو مأخوذ من الهيج بمعنى شدة الحركة. يقال : هاج الشيء يهيج ، إذا ثار لمشقة أو ضرر ، ثم يعقب ذلك الهيجان الجفاف واليبس.

أى : ثم يصاب هذا الزرع المختلف الألوان بالجفاف والضمور ، فتراه مصفرا من بعد اخضراره ونضارته ، ثم يجعله ـ سبحانه ـ «حطاما» أى : فتاتا متكسرا. يقال : حطم الشيء حطما ـ من باب تعب ـ إذا تكسر وتفتت وتحطم.

﴿إِنَّ فِي ذلِكَ﴾ الذي ذكرناه من إنزال الماء من السماء ، ومن سلكه ينابيع في الأرض ، ومن إخراج النبات المختلف الألوان بسببه ﴿لَذِكْرى﴾ عظيمة ﴿لِأُولِي الْأَلْبابِ﴾.

أى : لأصحاب العقول السليمة ، والأفكار القويمة.

والمقصود من هذه الآية الكريمة ، التحذير من الانهماك في الحياة الدنيا ومتعها ، حيث شبهها ـ سبحانه ـ في سرعة زوالها وقرب اضمحلالها ـ بالزرع الذي يبدو مخضرا وناضرا ... ثم يعقب ذلك الجفاف والذبول والاضمحلال.

وفي هذا المعنى وردت آيات كثيرة ، منها قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ ، فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ ، وَكانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً﴾ [1].

ثم نفى ـ سبحانه ـ المساواة بين المؤمن والكافر ، وبين المهتدى والضال فقال : ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ..﴾.

أى : أفمن شرح الله ـ تعالى ـ صدره للإسلام ، وجعله مستعدا لقبول الحق فهو بمقتضى هذا الشرح والقبول صار على نور وهداية من ربه ، كمن قسا قلبه وغلظ ، وأصبح أسيرا للظلمات والأوهام ..

لا شك أنهما لا يستويان في عقل أى عاقل.

فالاستفهام للإنكار والنفي ، و «من» اسم موصول مبتدأ ، والخبر محذوف لدلالة قوله ـ تعالى ـ ﴿فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ﴾ عليه.

أى : فهلاك وخزي لأولئك المشركين الذين قست قلوبهم من أجل ذكر الله ـ تعالى ـ ، الذي من شأنه أن تلين له القلوب ، ولكن هؤلاء الكافرين إذا ما ذكر الله ـ تعالى ـ ، اشمأزت قلوبهم ، وقست نفوسهم ، لانطماس بصائرهم. واستحواذ الشيطان عليهم.

ومنهم من جعل «من» في قوله ﴿مِنْ ذِكْرِ اللهِ﴾ بمعنى عن. أى : فويل للقاسية قلوبهم عن قبول ذكر الله وطاعته وخشيته.

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿مِنْ ذِكْرِ اللهِ﴾ أى : من أجل ذكره ، أى : إذا ذكر الله عندهم أو آياته اشمأزوا ، وازدادت قلوبهم قساوة ، كقوله ـ تعالى ـ : ﴿فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ وقرئ : عن ذكر الله.

فإن قلت : ما الفرق بين من وعن في هذا؟ قلت : إذا قلت قسا قلبه من ذكر الله ، فالمعنى ما ذكرت ، من أن القسوة من أجل الذكر وبسببه. وإذا قلت : عن ذكر الله ، فالمعنى : غلظ

---

(١) سورة الكهف آية ٤٥.

عن قبول الذكر وجفا عنه. ونظيره : سقاه من العيمة. أى : من أجل عطشه. وسقاه عن العيمة ، إذا أرواه حتى أبعده عن العطش» [1].

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة ببيان مآل هؤلاء الذين قست قلوبهم فقال : ﴿أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾.

أى : أولئك المتصفون بتلك الصفات الذميمة في ضلال واضح عن الصراط المستقيم.

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ ، كَذلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [2].

ثم مدح ـ سبحانه ـ كتابه مدحا يليق به ، وبين حال المؤمنين الصادقين عند سماعه ، وسلى نبيه ﷺ عما أصابه من أعدائه. فقال ـ تعالى ـ :

﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللهِ ذلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (٢٣) أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذاقَهُمُ اللهُ الْخِزْيَ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٦)

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٢٢ «والعيمة ـ بفتح فسكون ـ شدة العطش».

(٢) سورة الأنعام الآية ١٢٢.

وقوله ـ تعالى ـ : «مثاني» جمع مثنى من التثنية بمعنى التكرار والإعادة ولذا سميت سورة الفاتحة بالسبع المثاني ، لأنها تكرر وتعاد مع كل صلاة.

أى : الله ـ تعالى ـ نزل بفضله ورحمته عليك ـ يا محمد ـ أحسن الحديث «كتابا متشابها» أى : يشبه بعضه بعضا في فصاحته وبلاغته ، وفي نظمه وإعجازه ، وفي صحة معانيه وأحكامه ، وفي صدقه وهداياته وإرشاداته إلى ما يسعد الناس في دنياهم وآخرتهم ...

«مثاني» أى : تثنى وتكرر فيه القصص والمواعظ ، والأمثال والأحكام والوعد والوعيد ، كما تثنى وتكرر قراءته فلا تمل على كثرة الترداد ، وإنما يزداد المؤمنون حبا وتعلقا بتلاوته كلما أكثروا من هذه التلاوة.

وسمى ـ سبحانه ـ كتابه حديثا ، لأن النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم كان يحدث به قومه ، ويخبرهم بما كان ينزل عليه منه. فلفظ الحديث هنا بمعنى المحدث به لا بمعنى كونه مقابلا للقديم.

ولفظ «كتابا» بدل من قوله (أَحْسَنَ الْحَدِيثِ). وقوله : (مُتَشابِهاً مَثانِيَ) صفتان للكتاب.

ووصف بهما وهو مفرد وكلمة «مثاني» جمع ، باعتبار اشتماله على الكثير من السور والآيات والقصص والمواعظ والأحكام ..

أى : الله ـ تعالى ـ أنزل أحسن الحديث كتابا مشتملا على السور والآيات والمواعظ .. التي يشبه بعضها في الإعجاز ... والتي تثنى وتكرر فلا تمل على كثرة التكرار.

ورحم الله صاحب الكشاف فقد أجاد عند تفسيره لهذه الآية فقال ما ملخصه : «وإيقاع اسم الله مبتدأ ، وبناء «نزل» عليه ، فيه تفخيم لأحسن الحديث ورفع منه ، واستشهاد على حسنه ، وتأكيد لاستناده إلى الله ، وأنه من عنده ، وأن مثله لا يجوز أن يصدر إلا عنه ، وتنبيه على أنه وحى معجز مباين لسائر الأحاديث.

فإن قلت : كيف وصف الواحد بالجمع؟ قلت : إنما صح ذلك لأن الكتاب جملة ذات تفاصيل ، وتفاصيل الشيء هي جملته لا غير ، ألا تراك تقول : القرآن سور وآيات ... كما تقول الإنسان عظام وعروق ، فإن قلت : ما فائدة التثنية والتكرير؟ قلت : النفوس أنفر شيء عن حديث الوعظ والنصيحة ، فما لم يكرر عليها عودا عن بدء لم يرسخ فيها ، ولم يعمل عمله ، ومن ثم كانت عادة رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم أن يكرر عليهم ما كان يعظ به وينصح ثلاث مرات ، ليركزه في قلوبهم ، كي يغرسه في صدورهم ... (١).

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٢٣.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللهِ ...﴾.

استئناف مسوق لبيان آثار هذا القرآن الكريم في نفوس قارئيه وسامعيه بعد بيان أوصافه في ذاته.

وقوله «تقشعر» من الاقشعرار ، وهو الانقباض الشديد للبدن. يقال : اقشعر جسد فلان ، إذا انقبض جلده واهتز ... وهو هنا كناية عن الخوف الشديد من الله ـ تعالى ..

أى : أن هذا الكتاب العظيم عند ما يقرؤه أو يسمعه المؤمنون الصادقون الذين يخشون ربهم تقشعر جلودهم من شدة ما اشتمل عليه من زواجر ونذر. ثم تلين جلودهم وقلوبهم إذا ما قرءوا أو استمعوا إلى آيات الرحمة والمغفرة.

قال الجمل : «فإن قلت : لم ذكرت الجلود وحدها أولا ثم قرنت القلوب بها ثانيا؟.

قلت : ذكر الخشية التي تحملها القلوب مستلزم لذكر القلوب ، فكأنه قيل : تقشعر جلودهم وتخشى قلوبهم في أول الأمر ، فإذا ذكروا الله ـ تعالى ـ وذكروا رحمته وسعتها ، استبدلوا بالخشية رجاء في قلوبهم ، وبالقشعريرة لينا في جلودهم .. [(١)].

والخلاصة أن من صفات هؤلاء المؤمنين الصادقين ، أنهم يجمعون عند قراءتهم أو سماعهم للقرآن الكريم بين الخوف والرجاء ، الخوف من عذاب الله ـ تعالى ـ والرجاء في رحمته ومغفرته ، إذ أن اقشعرار الجلود كناية عن الخوف الشديد ، ولين الجلود والقلوب كناية عن السرور والارتياح ، وعدى الفعل «تلين» بإلى لتضمينه معنى تسكن وتطمئن.

ومفعول «ذكر الله» محذوف للعلم به ، أى : ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله رحمته وثوابه وجنته.

قال ابن كثير ما ملخصه : هؤلاء المؤمنون يخالفون غيرهم من وجوه :

أحدها : أن سماع هؤلاء تلاوة الآيات ، وسماع أولئك نغمات الأبيات.

الثاني : أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا ، بأدب وخشية ورجاء ومحبة وفهم وعلم ، ولم يكونوا ـ كغيرهم ـ متشاغلين لاهين عنها.

الثالث : أنهم يلزمون الأدب عند سماعها ... ولم يكونوا يتصارخون ويتكلفون ما ليس فيهم.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٥٩٨.

قال قتادة عند قراءته لهذه الآية : هذا نعت أولياء الله ، نعتهم الله بأنهم تقشعر جلودهم وتبكى أعينهم ، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله ، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم ، والغشيان عليهم ، إنما هذا في أهل البدع. وهذا من الشيطان ... [1].

واسم الإشارة في قوله ـ تعالى ـ : ﴿ذلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ﴾ يعود إلى الكتاب الذي مرت أوصافه ، وأوصاف القارئين له والمستمعين إليه.

أى : ذلك الكتاب العظيم المشتمل على أحسن الإرشادات وأحكمها ، هدى الله الذي يهدى بسببه من يشاء من عباده إلى الصراط المستقيم ، ومن يضلله ـ سبحانه ـ عن طريق الحق ، فما له من هاد يهديه إلى هذا الطريق القويم.

ثم نفى ـ سبحانه ـ المساواة بين هؤلاء الذين يخشون ربهم ، وبين غيرهم ممن قست قلوبهم ، وانحرفت نفوسهم عن الحق ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ ، وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

والاستفهام : للنفي والإنكار ، و «من» اسم موصول مبتدأ ، والخبر محذوف أى : أفمن كان يوم القيامة مصيره إلى النار المحرقة التي يتقيها ويحاول درأها عن نفسه بوجهه الذي هو أشرف أعضائه ، كمن يأتى يوم القيامة آمنا مطمئنا بعيدا عن النار وسعيرها؟.

وفي الآية الكريمة ما فيها من تهويل عذاب يوم القيامة ، إذ جرت عادة الإنسان أن يتقى الآلام بيديه وجوارحه ، فإذا ما اتقاها بوجهه الذي هو أشرف أعضائه ، كان ذلك دليلا على أن ما نزل به في نهاية الفظاعة والشدة.

وفي قوله ـ تعالى ـ : ﴿سُوءَ الْعَذابِ﴾ مبالغة أخرى ، إذ نفس العذاب سوء ، فإذا ما وصف بعد ذلك بالسوء ، كان أشد في الفظاعة والإهانة والألم.

وجملة : «وقيل للظالمين ...» عطف على «يتقى ...» أى : هذا هو مصير الظالمين ، إنهم يتقون النار بوجوههم التي هي أشرف أعضائهم ، وهذا الاتقاء لن يفيدهم شيئا ، بل ستغشاهم النار بلهبها ، ويقال لهم : ذوقوا العذاب الأليم بسبب ما كنتم تكسبون في الدنيا من أقوال باطلة ، وأفعال قبيحة.

﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من أمم الكفر والضلال ﴿فَأَتاهُمُ الْعَذابُ﴾ المقدر لكل أمة من أمم الكفر.

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٨٥.

﴿مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾ أى : من الجهة التي لا تخطر لهم على بال ، أن العذاب يأتيهم منها ، فيكون وقعه عليهم أشد وأفظع.

﴿فَأَذاقَهُمُ اللهُ الْخِزْيَ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ أى : العذاب الذي يذلهم ويخزيهم في الحياة الدنيا ﴿وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ﴾. المعد لهم ﴿أَكْبَرُ﴾ كيفا وكمّا ﴿لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أى : لو كانوا من أهل العلم والفهم لما ارتكبوا ما ارتكبوا من كفر وفسوق وعصيان ، أدى بهم إلى العذاب المهين.

ثم كرر ـ سبحانه ـ مدحه للقرآن الكريم ، بأن بين أنه مشتمل على كل مثل نافع للناس ، وأنه لا لبس فيه ولا اختلاف ، وساق مثلا للمشرك الذي يعبد آلهة كثيرة ، وللمؤمن الذي يعبد إلها واحدا ، وبين أن جميع الناس سيعمهم الموت. وأنهم جميعا سيرجعون إلى الله للحساب ، فقال ـ تعالى ـ :.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ (٣١)

واللام في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ ...﴾ موطئة للقسم.

أى : والله لقد ضربنا وكررنا بأساليب متنوعة في هذا القرآن العظيم ، من كل مثل يحتاج إليه الناس في أمورهم وشئونهم ، وينتفعون به في دنياهم ودينهم.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ تعليل لضرب المثل. أى فعلنا ذلك في كتابنا الذي هو أحسن الحديث ، كي يتعظوا ويعتبروا ويتذكروا ما أمرناهم به ، أو نهيناهم عنه.

فلعل هنا بمعنى كي التعليلية ، وهذا التعليل إنما هو بالنسبة إلى غيره ـ تعالى ـ.

وقوله ـ سبحانه ـ ﴿قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ...﴾ ثناء آخر منه ـ تعالى ـ على كتابه الكريم.

والجملة الكريمة حال مؤكدة من قوله قبل ذلك : ﴿هذَا الْقُرْآنِ ...﴾.

أى : هذا القرآن قرآنا عربيا لا لبس فيه ولا اختلاف ولا اضطراب ولا تناقض.

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿قُرْآناً عَرَبِيًّا﴾ حال مؤكدة كقولك : جاءني زيد رجلا صالحا ، وإنسانا عاقلا. ويجوز أن ينتصب على المدح ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ أى : مستقيما بريئا من التناقض والاختلاف.

فإن قلت : فهلا قيل مستقيما ، أو غير معوج؟ قلت : فيه فائدتان :

إحداهما : نفى أن يكون فيه عوج قط ، كما قال : ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً﴾.

والثانية : أن لفظ العوج مختص بالمعاني دون الأعيان ... وقيل : المراد بالعوج : الشك واللبس ، وأنشد :

وقد أتاك يقين غير ذي عوج … من الإله وقول غير مكذوب [1]

وقوله : ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ علة أخرى لاشتمال القرآن على الأمثال المتكررة المتنوعة.

أى : كررنا الأمثال النافعة في هذا القرآن للناس ، كي يتقوا الله ـ تعالى ـ ويخشوا عقابه.

ثم ضرب ـ سبحانه ـ مثلا للعبد المشرك وللعبد المؤمن ، فقال : ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً ، رَجُلاً فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ ...﴾.

وقوله ﴿مَثَلاً﴾ مفعول ثان لضرب ، و ﴿رَجُلاً﴾ مفعوله الأول. وأخر عن المفعول الثاني للتشويق إليه ، وليتصل به ما هو من تتمته ، وهو التمثيل لحال الكافر والمؤمن.

وقوله ﴿مُتَشاكِسُونَ﴾ من التشاكس بمعنى التنازع والتخاصم وسوء الخلق ، يقال : رجل شكس وشكس ـ بفتح الشين مع إسكان الكاف أو كسرها وفعله من باب كرم ـ إذا كان صعب الطباع ، عسر الخلق.

وقوله سلما» بفتح السين واللام ـ مصدر وصف به على سبيل المبالغة.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : «سالما» : أى خالصا لسيده دون أن ينازعه فيه منازع.

والمعنى : إن مثل المشرك الذي يعبد آلهة متعددة ، كمثل عبد مملوك لجماعة متشاكسين

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٢٥.

متنازعين لسوء أخلاقهم وطباعهم ، وهذا العبد موزع وممزق بينهم ، لأن أحدهم يطلب منه شيئا معينا ، والثاني يطلب منه شيئا يباين ما طلبه الأول ، والثالث يطلب منه ما يتناقض مع ما طلبه الأول والثاني ... وهو حائر بينهم جميعا ، لا يدرى أيطيع ما أمره به الأول أم الثاني أم الثالث ...؟ لأنه لا يملك أن يطيع أهواءهم المتنازعة التي تمزق أفكاره وقواه.

هذا هو مثل المشرك في حيرته وضلاله وانتكاس حاله.

أما مثل المؤمن فهو كمثل عبد مملوك لسيد واحد ، وخالص لفرد واحد ، وليس لغيره من سبيل إليه ، فهو يخدم سيده بإخلاص وطاعة ، لأنه يعرف ماله وما عليه ، وفي راحة تامة من الحيرة والمتاعب التي انغمس فيها ذلك العبد الذي يملكه الشركاء المتشاكسون.

فالمقصود بهذين المثلين بيان ما عليه العبد المشرك من ضلال وتحير وتمزق ، وما عليه العبد المؤمن من هداية واستقرار واطمئنان.

واختار ـ سبحانه ـ الرجل لضرب المثلين ، لأنه أتم معرفة من غيره لما يتعبه ولما يريحه ولما يسعده ولما يشقيه.

قال صاحب الكشاف ـ ﷺ ـ عند تفسيره لهذه الآية : واضرب ـ يا محمد ـ لقومك مثلا وقول لهم : ما تقولون في رجل من المماليك قد اشترك فيه شركاء ، بينهم اختلاف وتنازع. كل واحد منهم يدعى أنه عبده ، فهم يتجاذبونه ، ويتعاورونه في مهن شتى ، وإذا عنت له حاجة تدافعوه ، فهو متحير في أمره ، قد تشعبت الهموم قلبه ، وتوزعت أفكاره ، لا يدرى أيهم يرضى بخدمته ، وعلى أيهم يعتمد في حاجاته.

وفي آخر : قد سلم لمالك واحد وخلص له ، فهو معتنق لما لزمه من خدمته ، معتمد عليه فيما يصلحه ، فهمه واحد ، وقلبه مجتمع ، أى هذين العبدين أحسن وأجمل شأنا؟.

والمراد تمثيل حال من يثبت آلهة شتى .. ويبقى متحيرا ضائعا لا يدرى أيهم يعبد ، وممن يطلب رزقه؟ فهمّه شعاع ـ بفتح الشين أى : متفرق ـ ، وقلبه أوزاع ، وحال من لم يثبت إلا إلها واحدا ، فهو قائم بما كلفه ، عارف بما أرضاه وما أسخطه ، متفضل عليه في عاجله ، مؤمل للثواب في آجله ، »[1].

والاستفهام في قوله ـ تعالى ـ : (هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً) للإنكار والاستبعاد.

أى : لا يستوي الرجل الذي فيه شركاء متشاكسون ، والرجل الذي سلم لرجل آخر ،

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٢٦.

في رأى أى ناظر ، وفي عقل أى عاقل ، فالأول في حيرة من أمره ، والثاني على بينة من شأنه.

وساق ـ سبحانه ـ هذا المعنى في صورة الاستفهام ، للإشعار بأن ذلك من الجلاء والوضوح بحيث لا يخفى على كل ذي عقل سليم.

وانتصب لفظ «مثلا» على التمييز المحول عن الفاعل ، لأن الأصل هل يستوي مثلهما وحالهما؟.

وجملة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تقرير وتأكيد لما قبلها من نفى الاستواء واستبعاده ، وتصريح بأن ما عليه المؤمنون من إخلاص في العبودية لله ـ تعالى ـ يستحق منهم كل شكر وثناء على الله ـ عزّ وجلّ ـ حيث وفقهم لذلك.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ إضراب وانتقال من بيان عدم الاستواء على الوجه المذكور ، إلى بيان أن أكثر الناس وهم المشركون لا يعلمون هذه الحقيقة مع ظهورها ووضوحها لكل ذي عينين يبصرهما ، وعقل يعقل به.

ثم أخبر ـ سبحانه ـ رسوله ﷺ بأن الموت سينزل به كما سينزل بأعدائه الذين يتربصون به ريب المنون ، ولكن في الوقت الذي يشاؤه الله ـ تعالى ـ فقال ـ : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾.

أى : إنك ـ أيها الرسول الكريم ـ سيلحقك الموت ، كما أنه سيلحق هؤلاء المشركين لا محالة ، وما دام الأمر كذلك فأى موجب لتعجل الموت الذي يعم الخلق جميعا.

وجاء الحديث عن حلول الموت به ﷺ وبأعدائه ، بأسلوب التأكيد ، للإيذان بأنه لا معنى لاستبطائهم لموته ﷺ ولا للشماتة به ﷺ إذا ما نزل به الموت ، إذ لا يشمت الفاني في الفاني مثله.

ثم بين ـ سبحانه ـ ما يكون بينه وبينهم يوم القيامة فقال ؛ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾.

أى : ثم إنكم جميعا يوم القيامة عند ربكم وخالقكم تختصمون وتحتكمون ، فتقيم عليهم ـ أيها الرسول الكريم ـ الحجة ، بأنك قد بلغت الرسالة ، وهم يعتذرون بالأباطيل والتعليلات الكاذبة ، والأقوال الفاسدة ، وسينتقم ربك من الظالم للمظلوم ، ومن المبطل للمحق.

هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ، جملة من الأحاديث والآثار فقال

ما ملخصه : ثم إن هذه الآية ـ وإن كان سياقها في المؤمنين والكافرين ، وذكر الخصومة بينهم في الدار الآخرة ـ فإنها شاملة لكل متنازعين في الدنيا ، فإنه تعاد عليهم الخصومة في الدار الآخرة.

روى ابن أبي حاتم عن الزبير بن العوام ـ رضى الله عنه ـ قال : لما نزلت هذه الآية قلت : يا رسول الله أتكرر علينا الخصومة؟ قال : نعم. قلت : إن الأمر إذا لشديد.

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ ؛ «والذي نفسي بيده إنه ليختصم حتى الشاتان فيما انتطحتا».

وقال ابن عباس : يخاصم الصادق الكاذب ، والمظلوم الظالم ، والمهدىّ الضالّ ، والضعيف المستكبر [1].

ثم بين ـ سبحانه ـ أنه لا أحد أشد ظلما ممن كذب على الله ـ تعالى ـ وكذب بالصدق إذ جاءه ، وأن من صفات المتقين أنهم يؤمنون بالحق ، ويدافعون عنه ، وأنه ـ سبحانه ـ سيكفر عنهم سيئاتهم ... فقال ـ تعالى ـ : :

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ (٣٢) وَالَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥) أَلَيْسَ اللهُ بِكافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٨٧.

(٢) أول الجزء الرابع والعشرون.

اللهُ فما لَهُ مِنْ هادٍ (٣٦) وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقامٍ (٣٧)﴾ (٢)

والفاء في قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ ...﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، والاستفهام للإنكار والنفي.

أى مادام الأمر كما ذكرنا لك ـ أيها الرسول الكريم ـ من أنك ستموت وهم سيموتون ، وأنكم جميعا ستقفون أمام ربكم للحساب والجزاء .. فلا أحد أشد ظلما من هؤلاء المشركين الذين كذبوا على الله ، بأن عبدوا من دونه آلهة أخرى ، ونسبوا إليه الشريك أو الولد ، ولم يكتفوا بكل ذلك ، بل كذبوا بالأمر الصدق وقت أن جئتهم به من عند ربك.

والتعبير بقوله : ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جاءَهُ﴾ يدل على أنهم بادروا بتكذيب ما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم من عند ربه ، بمجرد أن سمعوه ، ودون أن يتدبروه أو يفكروا فيه.

وتكذيبهم بالصدق ، يشمل تكذيبهم للقرآن الكريم ، ولكل ما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم والاستفهام في قوله ـ تعالى ـ ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ﴾ للتقرير.

والمثوى : المكان مأخوذ من قولهم ثوى فلان بمكان كذا ، إذا أقام به. يقال : ثوى يثوى ثواء ، كمضى يمضى مضاء ...

أى : أليس في جهنم مكانا يكفى لإهانة الكافرين وإذلالهم وتعذيبهم؟ بل إن فيها لمكانا يذلهم ويذوقون فيه سوء العذاب.

ثم بين ـ سبحانه ـ حسن عاقبة أهل الصدق والإيمان فقال : ﴿وَالَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

والمراد بالذي جاء بالصدق : رسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد بالذي صدق به : ما يشمل الرسول صلى الله عليه وسلم ويشمل كل من آمن به واتبعه فيما جاء به ، كأبى بكر الصديق وغيره من الصحابة.

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَالَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ الموصول عبارة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أخرجه ابن جرير وغيره عن ابن عباس ... والمؤمنون داخلون بدلالة السياق وحكم التبعية ، دخول الجند في قولك : نزل الأمير موضع كذا ...

والجمع في قوله ـ تعالى ـ : ﴿أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ باعتبار دخول الأتباع تباعا : ومراتب التقوى متفاوتة ، ولرسول الله ﷺ أعلاها ... (١).

ثم بين ـ سبحانه ـ ما أعده لهؤلاء المتقين من نعيم فقال ﴿لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ...﴾.

أى : لهؤلاء المتقين كل ما يشاءونه عند ربهم ومالك أمرهم ، بسبب تصديقهم للحق ، واتباعهم لما جاءهم به رسولهم ﷺ.

وفي قوله : «عند ربهم» تكريم وتشريف لهم.

وقوله : ﴿ذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أى : ذلك الذي ذكرناه من حصولهم على ما يشتهونه ، جزاء من أحسنوا في أقوالهم وأفعالهم.

ثم بين ـ سبحانه ـ جانبا من مظاهر تكريمه لهم ، ورحمته بهم فقال : ﴿لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

واللام في قوله : «ليكفر ...» متعلقة بمحذوف ، أى : أعطاهم ـ سبحانه ـ ما أعطاهم من فضله ورحمته ليكفر عنهم أسوأ الذنوب التي عملوها ، كالكفر قبل الإسلام ، بأن يغفر لهم ذلك ولا يؤاخذهم عليه.

وإذا غفر الله ـ تعالى ـ لهؤلاء المتقين أسوأ أعمالهم ، غفر لهم ـ بفضله ورحمته ما هو دونه بالطريق الأولى.

«ويجزيهم أجرهم» أى : ويعطيهم ثواب أعمالهم «بأحسن الذي كانوا يعملون» أى : يعطيهم في مقابل عملهم الصالح في الدنيا جنات فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وعلى هذا التفسير يكون قوله ـ تعالى ـ : أسوأ وأحسن ، أفعل تفضيل حيث كفر ـ سبحانه ـ عنهم أسوأ أعمالهم ، وكافأهم على أعمالهم بما هو أحسن منها وهو الجنة.

وهذا منتهى الفضل والإحسان من الله ـ تعالى ـ لعباده المتقين ، حيث عاملهم بالفضل ولم يعاملهم بالعدل.

ومنهم من يرى أن قوله : أسوأ وأحسن ، بمعنى السيئ والحسن ، فيكون أفعل التفضيل ليس على بابه ، وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : ما معنى إضافة الأسوأ والأحسن إلى الذي عملوا؟ وما معنى التفضيل فيهما؟.

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٤ ص ٢.

قلت : أما الإضافة فما هي من إضافة أفعل إلى الجملة التي يفضل عليها ، ولكن من إضافة الشيء إلى ما هو بعضه من غير تفضيل. كقولك : الأشج أعدل بنى مروان.

وأما التفضيل فإيذان بأن السيئ الذي يفرط منهم من الصغائر والزلات المكفرة ، هو عندهم الأسوأ لاستعظامهم المعصية ، والحسن الذي يعملونه هو عند الله الأحسن ؛ لحسن إخلاصهم فيه ، فلذلك ذكر سيئهم بالأسوإ ، وحسنهم بالأحسن» [1].

ثم بين ـ سبحانه ـ عصمته لنبيه ﷺ بأبلغ وجه وأتمه فقال ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكافٍ عَبْدَهُ ، وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾.

وقراءة الجمهور : ﴿عَبْدَهُ﴾ بالإفراد وقرأ حمزة والكسائي : عباده ، والاستفهام للتقرير.

قال القرطبي : وذلك أنهم خوفوا النبي ﷺ مضرة الأوثان فقالوا له : أتسب آلهتنا لئن لم تنته عن ذكرها لتصيبنك بالسوء.

وقال قتادة : مشى خالد بن الوليد إلى العزى ليكسرها بالفأس ، فقال له سادنها : أحذرك منها يا خالد ، فإن لها شدة لا يقوم لها شيء. فعمد خالد إلى العزى فهشم أنفها حتى كسرها ، وتخويفهم لخالد تخويف للنبي ﷺ لأنه هو الذي أرسله. ويدخل في الآية تخويفهم النبي ﷺ بكثرة جمعهم وقوتهم ..» [2].

والمعنى : أليس الله ـ تعالى ـ بكاف عبده محمدا ﷺ من كل سوء؟ وكاف عباده المؤمنين الصادقين من أعدائهم؟ بلى إنه ـ سبحانه ـ لعاصم نبيه ﷺ من أعدائه ، ولناصر عباده المتقين على من ناوأهم.

والحال أن هؤلاء المشركين يخوفونك ـ أيها الرسول الكريم ـ من أصنامهم التي يعبدونها من دونه ـ تعالى ـ ، مع أن هذه الآلهة الباطلة أتفه من أن تدافع عن نفسها فضلا عن غيرها.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ﴾ أى : من يضلله الله ـ تعالى ـ ﴿فَما لَهُ مِنْ هادٍ﴾ يهديه إلى الصراط المستقيم.

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللهُ﴾ أى : ومن يهده الله ـ تعالى ـ إلى طريق الحق والصواب.

﴿فَما لَهُ مِنْ مُضِلٍ﴾ أى : فما له من أحد كائنا من كان يستطيع إضلاله.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٢٨.

(٢) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٢٥٨.

﴿أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقامٍ﴾ بلى إنه ـ سبحانه ـ لعزيز إذ لا يغلبه غالب ، ولا يمانعه مانع ، ولا ينازعه منازع. ولذو انتقام شديد من أعدائه ، ولا يستطيع أحد أن يمنع انتقامه منهم.

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما كان عليه هؤلاء المشركون من تناقض بين أقوالهم وأفعالهم. وأمر النبي ﷺ أن يهددهم بسوء المصير إذا ما استمروا على كفرهم ... فقال ـ تعالى ـ :

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ (٤٠) إِنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٤١) اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرى إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعاءَ قُلْ أَوَلَوْ كانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلا يَعْقِلُونَ (٤٣)

﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٤٤)

والمعنى : ولئن سألت . أيها الرسول الكريم . هؤلاء المشركين : من الذي خلق هذه السموات التي تروها بأعينكم ، وخلق هذه الأرض التي فوقها تعيشون ...

لئن سألتهم هذا السؤال ، لا يملكون في الإجابة عليه إلا أن يقولوا : خلقهم الله ، فلفظ الله فاعل لفعل محذوف.

وقولهم هذا دليل واضح على تناقضهم مع أنفسهم. لأنهم يعترفون بأن الخالق هو الله ، ولكنهم يشركون معه في العبادة آلهة أخرى لا تنفع ولا تضر ..

ولذا أمر الله . تعالى . نبيه ﷺ أن يقول لهم مبكتا وموبخا : ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، إِنْ أَرادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ. أَوْ أَرادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ﴾؟.

أى : قل . أيها الرسول الكريم . لهؤلاء الجاهلين : إذا كان الأمر كما ذكرتم من أن الخالق لهذا الكون هو الله ، فأخبرونى عن هذه الآلهة التي تعبدونها من دونه . سبحانه . : أتستطيع أن تدفع ضرا أراده الله . تعالى . بي؟ أم تستطيع أن تمنع رحمة أو خيرا أعطاه الله لي؟ كلا إنها لا تستطيع شيئا من ذلك ، وعبادتكم لها إنما هي نوع من السفه والحماقة.

وقال . سبحانه . : ﴿هَلْ هُنَّ ..﴾ بالتأنيث على سبيل التحقير لتلك الآلهة المزعومة ، ولأنهم كانوا يسمونها بأسماء الإناث ، كاللات ، والعزى ، ومناة. إلخ.

وقدم الضر لأن دفعه أهم ، وعلق . سبحانه . إرادة الضر والرحمة بذاته ﷺ فقال : ﴿إِنْ أَرادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ ...﴾ ليرد عليهم ردا يخرس ألسنتهم ، حيث خوفوه ﷺ منها وزعموا أنه لو استمر في تحقيرها فإنها ستؤذيه.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم فرض المسألة في نفسه دونهم؟ قلت : لأنهم خوفوه مضرة الأوثان وتخبيلها ، فأمر بأن يقررهم . أولا . بأن خالق العالم هو الله وحده ، ثم يقول لهم بعد التقرير : فإذا أرادنى خالق العالم الذي أقررتم به بضر من مرض أو فقر أو غير ذلك من النوازل ، أو برحمة من صحة أو غنى أو نحوهما. هل هؤلاء اللائي خوفتمونى إياهن كاشفات عنى ضره ، أو ممسكات رحمته ، حتى إذا ألقمهم الحجر وقطعهم ، حتى لا يحيروا ببنت شفة قال : ﴿حَسْبِيَ اللهُ﴾ كافيا لمضرة أوثانكم ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وفيه تهكم.

ويروى أنه ﷺ سألهم فسكتوا ، فنزل : ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللهُ ...﴾ [1].

أى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ في الرد عليهم وفي السخرية من آلهتهم : الله ـ تعالى ـ الخالق لكل شيء ، كافيني في جميع أمورى ، وعاصمنى من كيدكم وكيد من تتوهمون كيده ، وعليه وحده لا على غيره يتوكل المتوكلون ، لعلمهم أن كل ما سواه تحت ملكوته وقدرته.

ثم أمره ـ سبحانه ـ مرة أخرى أن يتحداهم وأن يتهددهم فقال : ﴿قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ﴾. أى : وقل لهم للمرة الثالثة : اعملوا ما شئتم عمله من العداوة لي ، والتهديد بآلهتكم.

والمكانة مصدر مكن ـ ككرم ـ ، يقال : مكن فلان من الشيء مكانة ، إذا تمكن منه أبلغ تمكن.

أى : اعملوا ما في إمكانكم عمله معى. والأمر للتهديد والوعيد.

﴿إِنِّي عامِلٌ﴾ أى : إنى سأقابل عملكم السيئ بعمل أحسن من جانبي ، وهو الدعوة إلى وحدانية الله ، وإلى مكارم الأخلاق.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ من منا الذي ينجح في عمله ، ومن منا يأتيه عذاب يخزيه ويفضحه ويهينه في الدنيا ، ومن منا الذي يحل عليه عذاب مقيم في الآخرة. فالمراد بالعذاب المخزى عذاب الدنيا ، والمراد بالعذاب المقيم عذاب الآخرة.

ولقد تحقق ما توعدهم ـ سبحانه ـ به ، حيث أنزل عليهم عقابه في بدر وفي غيرها فأخزاهم وهزمهم ، أما عذاب الآخرة فهو أشد وأبقى.

ثم أخذت السورة الكريمة في تسلية الرسول ﷺ عما أصابه منهم ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ...﴾.

أى : إنا أنزلنا عليك ـ أيها الرسول الكريم ـ القرآن لأجل منفعة الناس ومصلحتهم ، وقد أنزلناه متلبسا بالحق الذي لا يحوم حوله باطل.

﴿فَمَنِ اهْتَدى﴾ إلى الصراط المستقيم ، وإلى الحق المبين فهدايته تعود إلى نفسه ﴿وَمَنْ ضَلَ﴾ عن الطريق المستقيم ، فإثم ضلاله. إنما يعود على نفسه وحدها.

﴿وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ﴾ يا محمد ﴿بِوَكِيلٍ﴾ أى : بمكلف بهدايتهم ، وبإجبارهم على اتباعك ، وإنما أنت عليك البلاغ ، ونحن علينا الحساب.

---

(١) الكشاف ج ٤ ص ١٢٩.

ثم ساق ـ سبحانه ـ ما يدل على كمال قدرته ، ونفاذ مشيئته فقال ـ تعالى ـ : ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ...﴾

أى : الله ـ بقدرته وحدها يقبض أرواح مخلوقاته حين انتهاء آجالها بأن يقطع تعلقها بالأجسام قطعا كليا ، ويسلب هذه الأجسام والأبدان ما به قوام حياتها ، بأن تصير أجساما هامدة لا إدراك لها. ولا حركة فيها.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ معطوف على الأنفس ، أى : يسلب الحياة عن الأنفس التي انتهى أجلها سلبا ظاهرا وباطنا ، ويسلب الحياة عنها سلبا ظاهرا فقط في حال نومها. إذ أنها في حالة النوم تشبه الموتى من حيث عدم التمييز والتصرف.

فالآية الكريمة تشير إلى أن التوفي للأنفس أعم من الموت ، إذ أن هناك وفاتين. وفاة كبرى وتكون عن طريق الموت ، ووفاة صغرى وتكون عن طريق النوم. كما قال ـ تعالى ـ ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ ..﴾ أى : يجعلكم تنامون فيه نوما يشبه الموت في انقطاع الإدراك والإحساس ..

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ بيان لحالة الأنفس التي انتهى أجلها ، والتي لم ينته أجلها بعد.

أى : الله ـ تعالى ـ وحده هو الذي يتوفى الأنفس حين الموت ، وحين النوم ، أما الأنفس التي انتهى أجلها فيمسك ـ سبحانه ـ أرواحها إمساكا تاما بحيث لا تعود إلى أبدانها مرة أخرى ، وأما التي لم يحن وقت موتها ، فإن الله ـ تعالى ـ يعيدها إلى أبدانها عند اليقظة من نومها ، وتستمر على هذه الحالة إلى أجل مسمى في علمه ـ تعالى ـ فإذا ما انتهى أجلها الذي حدده ـ سبحانه ـ لها ، خرجت تلك الأرواح من أبدانها خروجا تاما ، كما هو الشأن في الحالة الأولى.

ولا شك أن الله ـ تعالى ـ الذي قدر على ذلك ، قادر أيضا ـ على إعادة الأرواح إلى أجسادها عند البعث والنشور يوم القيامة.

فالآية الكريمة مسوقة لبيان كمال قدرة الله ـ تعالى ـ ولبيان أن البعث حق ، وأنه يسير على قدرة الله التي لا يعجزها شيء.

ولا منافاة بين هذه الآية التي صرحت بأن الله ـ تعالى ـ هو الذي يتوفى الأنفس عند موتها ، وبين قوله ـ تعالى ـ : ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ ..﴾ وقوله ـ تعالى ـ ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ...﴾ لأن المتوفى في الحقيقة هو الله ـ تعالى ـ وملك الموت

إنما يقبض الأرواح بإذنه . سبحانه . ولملك الموت أعوان وجنود من الملائكة ينتزعون الأرواح بأمره المستمد من أمر الله . عزّ وجلّ ..

قال القرطبي : «فإذا يقبض الله الروح في حالين : في حالة النوم وحالة الموت ، فما قبضه في حال النوم فمعناه أنه يغمره بما يحبسه عن التصرف فكأنه شيء مقبوض. وما يقبضه في حال الموت فهو يمسكه ولا يرسله إلى يوم القيامة.

وفي الآية تنبيه على عظيم قدرته ، وانفراده بالألوهية ، وأنه يفعل ما يشاء ويحيي ويميت ، ولا يقدر على ذلك سواه.»[1].

واسم الإشارة في قوله : ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يعود إلى المذكور من التوفي والإمساك والإرسال.

أى : إن في ذلك الذي ذكرناه لكم من قدرتنا على توفى الأنفس وإمساكها وإرسالها ، لآيات بينات على وحدانيتنا وقدرتنا ، لقوم يحسنون التأمل والتفكير والتدبر ، فيما أرشدناهم إليه وأخبرناهم به.

ثم نعى . سبحانه . على الكفار غفلتهم وعدم تفكرهم فقال : ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعاءَ قُلْ أَوَلَوْ كانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلا يَعْقِلُونَ﴾.

و «أم» هنا بمعنى بل والهمزة ، والاستفهام للإنكار ، والمراد بالشفعاء تلك الأصنام التي زعموا أنها ستشفع لهم يوم القيامة.

والمعنى : لقد ترك هؤلاء المشركون التفكر والتدبر في دلائل وحدانيته وقدرته . سبحانه . ولم يلتفتوا إلى ما ينفعهم ، بل اتخذوا الأصنام آلهة لينالوا بواسطتها الشفاعة عند الله.

قل لهم . أيها الرسول الكريم . مرشدا ومنبها : أتفعلون ذلك ولو كانت هذه الآلهة لا تملك شيئا من أمرها ، ولا تعقل شيئا مما يتوجهون به إليها؟

ثم أمر . سبحانه . رسوله ﷺ أن يبين لهم أن الله . تعالى . هو مالك الشفاعة كلها ، وأنه لن يستطيع أحد أن يشفع إلا بإذنه ، فقال : ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفاعَةُ جَمِيعاً ..﴾.

أى : قل لهم : الله . تعالى . هو المالك للشفاعة كلها ، وآلهتكم هذه لا تملك شيئا من ذلك ، بل أنتم وآلهتكم . أيها المشركون . ستكونون وقودا لنار جهنم.

وهو سبحانه . : ﴿لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ ملكا تاما لا تصرف لأحد في شيء منهما معه ، ولا شفاعة لأحد إلا بإذنه.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٢٦١.

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة فيحاسبكم على أعمالكم ، ويجازى الذين أساءوا بما عملوا ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى.

ثم بين ـ سبحانه ـ أحوال هؤلاء المشركين ، عند ما يذكر ـ سبحانه ـ وحده دون أن تذكر معه آلهتهم ، كما بين أحوالهم السيئة يوم القيامة ، وكيف أنهم يندمون ولا ينفعهم الندم ، وكيف أنهم لو ملكوا في هذا اليوم ما في الأرض جميعا ومثله معه ، لقدموه فداء لأنفسهم من أهوال عذاب يوم القيامة .. فقال ـ تعالى ـ :

﴿وَإِذا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) قُلِ اللهُمَّ فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ عالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فِي ما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٤٨) فَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعانا ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا

وَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥١) أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٢)

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿اشْمَأَزَّتْ ..﴾ أى : نفرت وانقبضت وذعرت ، مأخوذ من الشّمز ، وهو نفور النفس مما تكرهه.

قال الإمام الرازي : اعلم أن هذا نوع آخر من الأعمال القبيحة للمشركين وهو أنك إذا ذكرت الله وحده .. ظهرت آثار النفرة في وجوههم وقلوبهم ، وإذا ذكرت الأصنام والأوثان ظهرت آثار الفرح .. وذلك يدل على الجهل والحماقة ، لأن ذكر الله رأس السعادة ، وعنوان الخيرات ، وأما ذكر الأصنام فهو رأس الحماقات ..» [1].

أى : إنك ـ أيها الرسول الكريم ـ إذا ذكرت الله ـ تعالى ـ وحده ، ونسبت إليه ما يليق به ـ سبحانه ـ من وحدانيته وقدرته .. دون أن تذكر معه الأصنام اشمأزت وانقبضت وذعرت نفوس هؤلاء المشركين الجهلاء ، أما إذا ذكرت آلهتهم سواء أذكرت الله ـ تعالى ـ معها أم لم تذكره ، إذا هم يستبشرون ويبتهجون ..

والتعبير بالاشمئزاز والاستبشار ، يشعر بأنهم قد بلغوا الغاية في الأمرين ، فهم عند ذكر الله ـ تعالى ـ تمتلئ قلوبهم إلى نهايتها غما وهما وانقباضا وذعرا. وعند ذكر أصنامهم تمتلئ قلوبهم إلى نهايتها ـ أيضا ـ بهجة وسرورا حتى لتظهر آثار ذلك على بشرتهم ...

وحالهم هذا يدل على أنهم قد بلغوا الغاية ـ أيضا ـ في الجهالة والسفاهة والغفلة ..

وهذا الذي ذكرته الآية الكريمة من اشمئزاز الكافرين عند ذكر الله ـ تعالى ـ واستبشارهم عند ذكر غيره ، نرى ما يشبهه عند كثير من الناس ..

فكم من أناس إذا حدثتهم عن ذات الله ـ تعالى ـ وصفاته ، وعن سلامة دينه وتشريعاته ، وعن آداب قرآنه وهداياته ، وعن كل ما يتعلق بوجوب تنفيذ أوامره ونواهيه .. انقبضت نفوسهم ، واكفهرت وجوههم ، وتمنوا لو أنك تركت الحديث عن ذلك.

أما إذا سمعوا ما يتعلق بالتشريعات والنظم التي هي من صنع البشر ـ استبشرت نفوسهم ، وابتهجت أساريرهم ..

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً ، وَإِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ ، وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً﴾ [2].

---

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ٢٥٨.

(٢) سورة الإسراء الآية ٤٦.

قال الآلوسى : وقد رأينا كثيرا من الناس على نحو هذه الصفة التي وصف الله ـ تعالى ـ بها المشركين ، يهشون لذكر أموات يستغيثون بهم ويطلبون منهم ، ويطربون من سماع حكايات كاذبة عنهم .. وينقبضون من ذكر الله ـ تعالى ـ وحده ـ ونسبة الاستقلال بالتصرف إليه ـ عَزَّوَجَلَّ ـ وسرد ما يدل على مزيد عظمته وجلاله. وينفرون ممن يفعل ذلك كل النفرة ، وينسبونه إلى ما يكره ..» [1].

ثم أمر الله ـ تعالى ـ نبيه ﷺ أن يلتجئ إلى خالقه وحده من شرور هؤلاء المشركين ، وأن يفوض أمره إليه ، فقال ـ تعالى ـ ﴿قُلِ اللهُمَّ فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، عالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فِي ما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

ولفظ : ﴿اللهُمَ﴾ أصله يا الله. فلما استعمل دون حرف النداء. عوض عنه بالميم المشددة التي في آخره.

ولفظ «فاطر ، وعالم» منصوبان على النداء.

أى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ على سبيل الاستعاذة والاعتزال لما عليه هؤلاء المشركون من جهل وسفه ، يا الله ، يا خالق السموات والأرض ويا عالم الغائب والمشاهد. والخفى والظاهر من أمور خلقك ، أنت وحدك الذي تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون في الدنيا ، فتجازى كل نفس بما تستحقه من ثواب أو عقاب.

وما دام الأمر كذلك ، فاهدني إلى صراطك المستقيم ، وجنبني الشرك والمشركين.

فالمقصود بالآية الكريمة تسلية الرسول ﷺ عما فعله المشركون معه ، وإرشاده إلى ما يعصمه من كيدهم. وتعليم العباد وجوب الالتجاء إلى الله ـ تعالى ـ وحده ـ لدفع كيد أعدائه عنهم.

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث ، منها ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : سألت عائشة : بأى شيء كان رسول الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟

قالت : كان إذا قام من الليل افتتح صلاته بقوله : «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض. عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم ..» [2].

(١ ، ٢) راجع تفسير الآلوسى ج ٢٤ ص ١١.

وقال صاحب الكشاف : «بعل ـ بكسر العين ـ أى : دهش وفزع رسول الله ﷺ من شدّة شكيمتهم في الكفر ، فقيل له : «ادع الله بأسمائه الحسنى ، وقل : أنت وحدك تقدر على الحكم بيني وبينهم ، ولا حيلة لغيرك فيهم». وفيه وصف لحالهم ، وإعذار لرسول الله ﷺ وتسلية له ، ووعيد لهم .. »[1].

وبعد هذه التسلية من الله ـ تعالى ـ لنبيه ﷺ بين ـ سبحانه ـ لهؤلاء الذين إذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوبهم .. بين لهم ما لهم من سوء المصير فقال : ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ ، لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ ..﴾.

أى : أن العذاب المعد لهؤلاء المشركين شيء رهيب ، ولو أن لهم جميع ما أعد في الأرض من خيرات ، ولهم ـ أيضا ـ مثل ذلك منضما إليه ، لقدموه فداء لأنفسهم ، أملا في النجاة من سوء العذاب الذي ينتظرهم يوم القيامة.

فالآية الكريمة وعيد لهم ليس بعده وعيد ، وتيئيس لهم من النجاة ليس بعده تيئيس.

ومن الآيات الكثيرة التي وردت في هذا المعنى قوله ـ تعالى ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذابِ يَوْمِ الْقِيامَةِ ، ما تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ. يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَما هُمْ بِخارِجِينَ مِنْها ، وَلَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ﴾ [2].

ثم هددهم ـ سبحانه ـ بتهديد آخر فقال : ﴿وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾.

أى : وظهر لهم يوم القيامة من ألوان العقوبات ، ومن فنون الآلام ، ما لم يكونوا في الدنيا يظنون أنه سيقع بهم ، وما لم يكن واردا في حسبانهم.

قال صاحب الكشاف : وقوله ـ تعالى ـ ﴿وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللهِ ..﴾ وعيد لهم بعذاب ما دروا كنهه لفظاعته وشدته ، وهو نظير قوله ـ تعالى ـ في الوعد : ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ..﴾.

والمعنى : وظهر من سخط الله وعذابه ، ما لم يكن قط في حسابهم ، وما لم يحدثوا به أنفسهم.

وقيل : عملوا أعمالا حسبوها حسنات ، فإذا هي سيئات.

وعن سفيان الثوري أنه قرأها فقال : ويل لأهل الرياء. ويل لأهل الرياء.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٣٢.

(٢) سورة المائدة الآيتان ٣٦ ، ٣٧.

وجزع بعض الصالحين عند موته ، فسئل عن سبب ذلك فقال : أخشى أن يبدو لي من الله ما لم أحتسبه ، ثم قرأ هذه الآية» (١).

ثم تهديد ثالث يتمثل في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ والمراد بسيئات ما كسبوا : الأعمال السيئة التي اكتسبوها في دنياهم ، وهذا البدو والظهور يكون عند عرض صحائف أعمالهم عليهم. و «ما» موصولة أو مصدرية.

أى : وظهر لهم عند عرض صحائف أعمالهم عليهم يوم القيامة ، الذي عملوه واكتسبوه في الدنيا من رذائل ﴿وَحاقَ بِهِمْ﴾ أى : وأحاط ونزل بهم العذاب الذي كانوا يستهزئون به في حياتهم ويتهكمون بمن كان يحذرهم منه في الدنيا.

وبعد هذا التصوير الرهيب لمصير هؤلاء المشركين يوم القيامة ، عادت السورة إلى بيان تناقضهم مع أنفسهم ، فهم إن سئلوا عمن خلق السموات والأرض ، قالوا : إن خالقهما هو الله ، ومع ذلك يعبدون غيره وتشمئز قلوبهم عند ذكره وحده.

وهم يتقربون إلى آلهتهم بالطاعات ، ومع ذلك فهم عند نزول الشدائد بهم ، ينسون تلك الآلهة ويتجهون إلى الله ـ تعالى ـ وحده بالدعاء.

لنستمع إلى السورة الكريمة وهي تحكى أحوالهم في السراء والضراء فتقول : ﴿فَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعانا ، ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ ...﴾.

والمراد بالإنسان هنا هو جنس الكفار ، بدليل سياق ، الآيات وسباقها ويصح أن يراد به جنس الإنسان عموما ، ويدخل فيه الكفار دخولا أوليا.

أى : فإذا أصاب الإنسان ضر ، من مرض أو فقر أو نحوهما ، دعانا قاعدا أو قائما. لكي نكشف عنه ما نزل به من بلاء.

﴿ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا ..﴾ أى : ثم إذا أجبنا لهذا الإنسان دعوته وكشفنا عنه الضر وأعطيناه على سبيل التفضل والإحسان نعمة من عندنا ، بأن حولنا مرضه إلى صحة ، وفقره إلى غنى.

﴿قالَ﴾ هذا الإنسان الظلوم الكفار ﴿إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ﴾ منى بوجوه المكاسب ، أو على علم منى بأن سأعطى هذه النعمة ، بسبب استعدادي واجتهادي وتفوقى في مباشرة

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٣٣.

الأسباب التي توصل إلى الغنى والجاه.

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿خَوَّلْناهُ﴾ لأن التخويل معناه العطاء بدون مقابل ، مع تكراره مرة بعد مرة.

وجاء الضمير في قوله ﴿أُوتِيتُهُ﴾ مذكرا مع أنه يعود إلى النعمة. لأنها بمعنى الإنعام. أى : إذا خولناه شيئا من الإنعام الذي تفضلنا به عليه ، قال إنما أوتيته على علم وتبوغ عندي.

وقوله ـ تعالى ـ ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ رد لقوله ذلك ، وزجر لهذا الجاحد عما تفوه به.

أى : ليس الأمر كما زعم هذا الجاحد ، فإننا ما أعطيناه هذه النعم بسبب علمه ـ كما زعم ـ وإنما أعطيناه ما أعطيناه على سبيل الإحسان منا عليه ، وعلى سبيل الابتلاء والاختبار له ، ليتبين قوى الإيمان من ضعيفه ، وليتميز الشاكر من الجاحد.

﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ أى : ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقائق ، ولا يفطن إليها إلا من استنارت بصيرته ، وطهرت سريرته.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما السبب في عطف هذه الآية بالفاء ، وعطف مثلها في أول السورة بالواو؟ قلت : السبب في ذلك أن هذه وقعت مسببة من قوله. ﴿إِذا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾. على معنى أنهم يشمئزون من ذكر الله ، ويستبشرون بذكر الآلهة. فإذا مس أحدهم ضر دعا من اشمأز من ذكره ، دون من استبشر بذكره ، وما بينهما من الآي اعتراض .. [1].

ثم بين ـ سبحانه ـ المصير السيئ للجاحدين السابقين ليعتبر بهم اللاحقون فقال : ﴿قَدْ قالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

والضمير في قوله ﴿قالَهَا﴾ يعود إلى ما حكاه ـ سبحانه ـ عن هذا الإنسان الجاحد من قوله : ﴿إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ﴾.

فهذه الكلمة قد قالها قارون عند ما نصحه الناصحون ، فقد رد عليهم بقوله ﴿إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ فكانت نهايته أن خسف الله به وبداره الأرض.

أى : قد قال هذه الكلمة الدالة على الجحود والغرور ، بعض الأقوام الذين سبقوا قومك. والذين يشبهونهم في البطر والكنود ، فكانت نتيجة ذلك أن أخذهم الله ـ تعالى ـ أخذ عزيز مقتدر ، ولم ينفعهم شيئا ما جمعوه من حطام الدنيا ، وما اكتسبوه من متاعها.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٣٤.

﴿فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا ..﴾ أى : فأصاب هؤلاء السابقين ، العقاب الذي يستحقونه بسبب سيئاتهم التي اكتسبوها واقترفوها في دنياهم.

فالكلام على حذف مضاف. أى : فأصابهم جزاء سيئات كسبهم بأن أنزل الله ـ تعالى ـ بهم العقوبة التي يستحقونها بسبب إصرارهم على الكفر والمعاصي.

﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤُلاءِ﴾ أى : من هؤلاء المشركين المعاصرين لك ـ أيها الرسول الكريم ..

﴿سَيُصِيبُهُمْ﴾ ـ أيضا ـ سيئات ما كسبوا ، كما أصاب الذين من قبلهم.

﴿وَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أى : وما هم بفائتين أو هاربين من عذابنا.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أى : أعموا عن التفكر والإبصار ، ولم يشاهدوا بأعينهم أن الله ـ تعالى ـ يوسع الرزق لمن يشاء من عباده ، ويضيقه على من يشاء أن يضيقه عليه منهم ، إذ أن ذلك مرجعه إلى مشيئته وحكمته ـ سبحانه ـ إذ سعة الرزق ليست دليلا على رضاه ، كما أن ضيقه ليس دليلا على غضبه.

﴿إِنَّ فِي ذلِكَ﴾ الذي ذكرناه ﴿لَآياتٍ﴾ واضحات ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالحق ويستجيبون له ، وينتفعون بالهدايات التي نسوقها لهم.

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة ، قد صورت حال المشركين أكمل تصوير ، كما بينت ما أعدّ لهم من عذاب مقيم ، بسبب إصرارهم على كفرهم ، وإعراضهم عن دعوة الحق.

ثم فتح ـ سبحانه ـ لعباده باب رحمته ، ونهاهم عن اليأس من مغفرته ، وأمرهم أن يتوبوا إليه توبة صادقة نصوحا ، قبل أن يفاجئهم الموت والحساب ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى

عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلى قَدْ جاءَتْكَ آياتِي فَكَذَّبْتَ بِها وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ﴾ (٥٩)

ذكر المفسرون في سبب نزول قوله ـ تعالى ـ ﴿قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ﴾. روايات منها : ما رواه محمد بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر عن أبيه عمر بن الخطاب قال : لما اجتمعنا على الهجرة. تواعدت أنا وهشام بن العاص بن وائل السّهمى وعيّاش بن أبى ربيعة بن عتبة ، فقلنا : الموعد أضاة بنى غفار ـ أى : غدير بنى غفار ـ وقلنا : من تأخر منا فقد حبس فليمض صاحبه فأصبحت أنا وعياش بن عتبة ، وحبس عنا هشام ، وإذا به قد فتن فافتتن ، فكنا نقول بالمدينة : هؤلاء قد عرفوا الله ـ عزّ وجلّ ـ وآمنوا برسوله صلّى الله عليه وسلّم ، ثم افتتنوا لبلاء لحقهم لا نرى لهم توبة ، وكانوا هم ـ أيضا ـ يقولون هذا في أنفسهم. فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ في كتابه : ﴿قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ ..﴾ إلى قوله ـ تعالى ـ ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

قال عمر : فكتبتها بيدي ، ثم بعثتها إلى هشام. قال هشام : فلما قدمت على خرجت بها إلى ذي طوى فقلت : اللهم فهمنيها ، فعرفت أنها نزلت فينا ، فرجعت فجلست على بعيري فلحقت برسول الله صلّى الله عليه وسلّم (١).

والأمر في قوله ـ تعالى ـ : ﴿قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ﴾ موجه إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم وإضافة العباد إلى الله ـ تعالى ـ للتشريف والتكريم.

والإسراف : تجاوز الحد في كل شيء ، وأشهر ما يكون استعمالا في الإنفاق ، كما في قوله ـ تعالى ـ : ﴿يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا﴾.

---

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٢٦٨ ، تفسير الآلوسى ج ٢٤ ص ١٥.

والمراد بالإسراف هنا : الإسراف في اقتراف المعاصي والسيئات ، والخطاب للمؤمنين المذنبين. وعدى الفعل «أسرفوا» بعلى ، لتضمنه معنى الجناية ، أى جنوا على أنفسهم.

والقنوط : اليأس ، وفعله من بابى ضرب وتعب. يقال : فلان قانط من الحصول على هذا الشيء ، أى يائس من ذلك ولا أمل له في تحقيق ما يريده.

والمعنى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لعبادي المؤمنين الذين جنوا على أنفسهم بارتكابهم للمعاصي ، قل لهم : لا تيأسوا من رحمة الله ـ تعالى ـ ومن مغفرته لكم.

وجملة «إن الله يغفر الذنوب جميعا» تعليلية. أى : لا تيأسوا من رحمة الله ـ تعالى ـ لأنه هو الذي تفضل بمحو الذنوب جميعها ـ لمن يشاء من عباده المؤمنين العصاة.

﴿إِنَّهُ﴾ ـ سبحانه ـ ﴿هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أى : هو الواسع المغفرة والرحمة لمن يشاء من عباده المؤمنين ، فهم إن تابوا من ذنوبهم قبل ـ سبحانه ـ توبتهم كما وعد تفضلا منه وكرما ، وإن ماتوا دون أن يتوبوا ، فهم تحت رحمته ومشيئته ، إن شاء غفر لهم ، وإن شاء عذبهم ، ثم أدخلهم الجنة بفضله وكرمه.

أما غير المؤمنين ، فإنهم إن تابوا من كفرهم ودخلوا في الإسلام ، غفر ـ سبحانه ـ ما كان منهم قبل الإسلام لأن الإسلام يجبّ ما قبله.

وإن ماتوا على كفرهم فلن يغفر الله ـ تعالى ـ لهم ، لقوله : ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ﴾.

قال الإمام الشوكانى : واعلم أن هذه الآية أرجى آية في كتاب الله ، لاشتمالها على أعظم بشارة ، فإنه أولا : أضاف العباد إلى نفسه لقصد تشريفهم ، ومزيد تبشيرهم. ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي .. ثم عقب على ذلك بالنهى عن القنوط من الرحمة .. ثم جاء بما لا يبقى بعده شك ولا يتخالج القلب عند سماعه ظن فقال : ﴿إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ ..﴾ فالألف واللام قد صيرت الجمع الذي دخلت عليه للجنس الذي يستلزم استغراق أفراده ، فهو في قوة إن الله يغفر كل ذنب كائنا ما كان ، إلا ما أخرجه النص القرآنى وهو الشرك.

ثم لم يكتف بما أخبر به عباده من مغفرة كل ذنب ، بل أكد ذلك بقوله ﴿جَمِيعاً﴾ فيا لها من بشارة ترتاح لها النفوس .. وما أحسن تعليل هذا الكلام بقوله : ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ..﴾ [1].

وقال الجمل في حاشيته ما ملخصه : وفي هذه الآية من أنواع المعاني والبيان أشياء حسنة ،

---

(١) راجع تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٤ ص ٤٧٠.

منها إقباله عليهم ، ونداؤهم ، ومنها : إضافتهم إليه إضافة تشريف ، ومنها : الالتفات من التكلم إلى الغيبة ، في قوله : ﴿مِنْ رَحْمَةِ اللهِ﴾ ، ومنها : إضافة الرحمة لأجل أسمائه الحسنى ، ومنها : إعادة الظاهر بلفظه في قوله : ﴿إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ﴾ ومنها : إبراز الجملة من قوله : ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ مؤكدة بإن ، والفصل ، وبإعادة الصفتين اللتين تضمنتهما الجملة السابقة.

وقال عبد الله بن مسعود وغيره : هذه أرجى آية في كتاب الله تعالى [1].

وبعد أن فتح . سبحانه . لعباده باب رحمته فتحا واسعا كريما .. أتبع ذلك بحضهم على التوبة والإنابة إليه ، حتى يزيدهم من فضله وإحسانه فقال : ﴿وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ﴾.

أى قل لهم . أيها الرسول الكريم . لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ، وارجعوا إليه بالتوبة والإنابة ، وأخلصوا له العبادة ، من قبل أن ينزل بكم العذاب الذي لا تستطيعون دفعه ثم لا تجدون من ينجيكم منه.

فأنت ترى أن الآية الأولى بعد أن فتحت للعصاة باب رحمة الله على مصراعيه ، جاءت الآية الثانية فحثتهم على التوبة الصادقة النصوح ، حتى تكون رحمة الله . تعالى . بهم أكمل وأتم وأوسع ، فإن التوبة النصوح سبب في تحويل السيئات إلى حسنات.

كما قال . تعالى . : ﴿إِلَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالِحاً فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ ، وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ [2].

ثم أمرهم باتباع أوامر القرآن الكريم ونواهيه فقال : ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

أى : واتبعوا هذا القرآن الكريم ، الذي هو أحسن ما أنزله . سبحانه . إليكم ، بسبب ما اشتمل عليه من هدايات سامية ، ومن تشريعات حكيمة. ومن آداب قويمة.

فإن اتباع ما اشتمل عليه هذا القرآن من توجيهات. يؤدى إلى السعادة في الدنيا والآخرة.

وقوله : ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ متعلق بالأمر بالاتباع ، وإرشاد إلى وجوب الامتثال بدون تأخير أو تسويف.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٦٠٥.

(٢) سورة الفرقان الآية ٧٠.

أى : سارعوا إلى اتباع إرشادات وتشريعات وآداب هذا القرآن ، من قبل أن ينزل بكم العذاب فجأة وبدون مقدمات ، بحيث لا تشعرون بإتيانه إلا عند نزوله.

فالآية الكريمة تقرير وتأكيد لما قبلها : من الدعوة إلى المسارعة بالتوبة وبالعمل الصالح.

وقوله : ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ﴾ في موضع المفعول لأجله بتقدير مضاف محذوف.

أى : اتبعوا ما أمرناكم به ، واحذروا ما نهيناكم عنه ، كراهة أن تقول نفس يوم القيامة ﴿يا حَسْرَتى﴾ أى : يا ندامتي ﴿عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ ...﴾ أى : بسبب تفريطي وتقصيرى في طاعة الله ، وفي حقه ـ تعالى ..

وأصل الجنب والجانب : الجهة المحسوسة للشيء ، وأطلق على الطاعة على سبيل المجاز ، حيث شبهت بالجهة. بجامع تعلق كل منهما ـ أى الجانب والطاعة ـ بصاحبه. إذ الطاعة لها تعلق بالله ـ تعالى .. كما أن الجهة لها تعلق بصاحبها.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم نكرت «نفس».؟ قلت : لأن المراد بها بعض الأنفس وهي نفس الكافر. ويجوز أن يكون نفس متميزة من الأنفس : إما بلجاج في الكفر شديد ، أو بعذاب عظيم ، ويجوز أن يراد التكثير ، كما قال الأعشى :

دعا قومه حولي فجاءوا لنصره ... وناديت قوما بالمسناة غيبا

وربقيع لو هتفت بجوه ... أتاني كريم ينفض الرأس مغضبا

وهو يريد : أفواجا من الكرام ينصرونه ، لا كريما واحدا .. »[1].

وجملة : ﴿وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ في محل نصب على الحال. أى : فرطت في جنب الله وطاعته ، والحال أنى لم أكن إلا من الساخرين بدينه ، المستهزئين بأتباع هذا الدين الحق.

قال قتادة : لم يكفه أنه ضيع طاعة الله حتى سخر من أهلها.

ثم ذكر ـ سبحانه ـ مقالة أخرى مما تقوله تلك النفس فقال : ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدانِي﴾ إلى طاعته واتباع دينه ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ للشرك والمعاصي ، ومن الذين صانوا أنفسهم عما يغضبه ـ سبحانه ـ ولا يرضيه.

ثم ذكر ـ سبحانه ـ مقالة ثالثة لها فقال : ﴿أَوْ تَقُولَ﴾ هذه النفس ﴿حِينَ تَرَى الْعَذابَ﴾. في الآخرة ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ أى رجعة إلى الدنيا ﴿فَأَكُونَ﴾ فيها ﴿مِنَ

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٣٦.

﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ لأقوالهم وأفعالهم ، وعقائدهم ، بحيث أخلص العبادة لله . تعالى . وأطيعه في السر والعلن.

وهكذا يصور القرآن الكريم أحوال النفوس في الآخرة ، تصويرا مؤثرا بليغا ، يحمل كل عاقل على الإيمان الصالح الذي ينفعه في ذلك اليوم الهائل الشديد.

وقوله . سبحانه . : ﴿بَلى قَدْ جاءَتْكَ آياتِي فَكَذَّبْتَ بِها وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ﴾ رد منه . عزّ وجلّ . على هذا القائل : ﴿لَوْ أَنَّ اللهَ هَدانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ وتكذيب له في هذه الدعوى.

والمراد بالآيات : الحجج والبراهين الدالة على حقيقة دين الإسلام ، وعلى رأسها آيات القرآن الكريم.

أى ليس الأمر كما ذكرت أيها النادم على ما فرط منه ، من أن الله لم يهدك إلى الطريق القويم ، بل الحق أن الله . تعالى . قد أرشدك إليه عن طريق إرسال رسوله ، وإنزال كتابه ، ولكنك كذبت رسوله ، واستكبرت عن سماع آيات الله وعن اتباعها ، وكنت في دنياك من الكافرين بها ، الجاحدين لصدقها ، فأصابك ما أصابك من عذاب في الآخرة بسبب أعمالك القبيحة في الدنيا.

قال الشوكانى : وجاء . سبحانه . بخطاب المذكر في قوله : «جاءتك ، وكذبت واستكبرت ، وكنت» لأن النفس تطلق على المذكر والمؤنث. قال المبرد : تقول العرب. نفس واحد. أى ، إنسان واحد .. [1].

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن أحوال الكافرين والمؤمنين يوم القيامة ، وعن مظاهر قدرة الله . تعالى . وعن تلقين الله . تعالى . لنبيه صلّى الله عليه وسلّم الجواب الذي يرد به على المشركين. وعن أحوال الناس عند النفخ في الصور .. قال . تعالى ..

﴿وَيَوْمَ الْقِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١) اللهُ

---

(١) تفسير فتح القدير ج ٤ ص ٤٧٢.

خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) وَما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها وَوُضِعَ الْكِتابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَداءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُونَ﴾ (٧٠)

فقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَيَوْمَ الْقِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ ..﴾ بيان لحالة الكافرين يوم القيامة ، ولما تكون عليه هيئتهم من خزي وهوان.

أى : وفي يوم القيامة إذا نظرت ـ أيها الرسول الكريم ـ أو ـ أيها العاقل ـ إلى وجوه الذين كذبوا على الله ، بأن أشركوا معه في العبادة آلهة أخرى ، أو جعلوا له صاحبة أو ولدا .. إذا نظرت إليها رأيتها مسودة مكفهرة بسبب ما أحاط بهم من عذاب ، وما شاهدوه من أهوال.

وقوله : ﴿وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾ جملة من مبتدأ وخبر ، وهي في محل نصب على الحال من

الذين كذبوا .. والاستفهام في قوله : ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ للتقرير. والمثوى : المكان والمقام.

يقال : ثوى فلان بالمكان وأثوى فيه ، إذا أقام به ، فهو ثاو ومنه قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَما كُنْتَ ثاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾.

أى : أليس في جهنم مكانا ومقرا لإهانة المتكبرين وإذلالهم ، بسبب تطاولهم على غيرهم ، وتكذيبهم لآيات الله؟ بلى إن بها ما يجعلهم يذوقون العذاب الأليم.

ثم بين ـ سبحانه ـ حال المؤمنين يوم القيامة ، بعد بيانه لحال الذين كذبوا على الله ، فقال : ﴿وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

ومفازتهم : اسم مصدر. أو مصدر ميمى. من فاز فلان بكذا ، إذا ظفر به ، ونال مراده منه.

أى : وينجى الله ـ تعالى ـ بفضله ورحمته ، ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشرك والمعاصي من عذاب جهنم ، ﴿بِمَفازَتِهِمْ﴾ أى : بسبب فوزهم برضا الله ـ تعالى ـ ورحمته ، جزاء إيمانهم وتقواهم ، وقرأ حمزة والكسائي بمفازاتهم بالجمع.

ويصح أن تكون الباء في قوله : ﴿بِمَفازَتِهِمْ﴾ للملابسة ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف هو حال من الذين اتقوا. أى ينجيهما حالة كونهم متلبسين.

وقوله : ﴿لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يجوز أن يكون تفسيرا لذلك الفوز ، كأنه قيل : وما مظاهر فوزهم فكان الجواب : لا يمسهم السوء الذي يصيب غيرهم من الكافرين والعصاة ، ولا هم يحزنون على شيء تركوه خلفهم في الدنيا.

ويجوز أن يكون حالا من الذين اتقوا. أي : ينجيهم بسبب مفازتهم ، حال كونهم لا يمسهم السوء ، أى : لا يمسهم شيء مما يكره لا في الحال ولا في الاستقبال ، ولا هم يحزنون على ما كان منهم في الماضي.

فأنت ترى أن الله ـ تعالى ـ قد كرم المتقين تكريما عظيما ، حيث نجاهم من عذاب جهنم ، وجعلهم آمنين من كل ما يغمهم في كل زمان أو مكان.

قال الإمام الرازي ما ملخصه : هذه آية جامعة ، لأن الإنسان إذا علم أنه لا يمسه السوء ، كان فارغ البال بحسب الحال ، وإذا علم أنه لا يحزن كان هادئ النفس عما وقع في قلبه بسبب فوات الماضي ، فحينئذ يظهر أنه سلم عن كل الآفات.

وقد دلت الآية على أن المؤمنين لا ينالهم الخوف والرعب في القيامة ، وتأكد هذا بقوله : ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ ..﴾ (١).

ثم ساق ـ سبحانه ـ ما يدل على كمال قدرته فقال : ﴿اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

أى : الله ـ تعالى ـ هو وحده الخالق لكل شيء في هذا الكون ، وهو ـ سبحانه ـ المتصرف في كل شيء في هذا الوجود ، بحيث لا يخرج مخلوق عن إذنه ومشيئته.

﴿لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى : له وحده مفاتيح خزائنهما ، والمقاليد جمع مقلاد ، أو اسم جمع لا واحد له من لفظه ، مأخوذ من التقليد بمعنى الإلزام. أى : أنه لا يملك أمر السموات والأرض ، ولا يتمكن من التصرف فيهما غيره ـ تعالى ..

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ : أى : هو مالك أمرهما وحافظهما ؛ لأن حافظ الخزائن ومدبر أمرها ، هو الذي يملك مقاليدها ، ومنه قولهم : فلان ألقيت إليه مقاليد الملك ، وهي المفاتيح ، ولا واحد لها من لفظها وقيل : جمع مقليد .. والكلمة أصلها فارسية.

فإن قلت : ما للكتاب العربي المبين وللفارسية؟

قلت : التعريب أحالها عربية ، كما أخرج الاستعمال المهمل عن كونه مهملا ، (٢).

ثم بين ـ سبحانه ـ مصير الكافرين فقال : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ﴾ أى : والذين كفروا بآيات الله التنزيلية والكونية الدالة على وحدانيته ، أولئك هم البالغون أقصى الدرجات في الخسران.

وهذه الآية الكريمة معطوفة على قوله ـ تعالى ـ قبل ذلك : ﴿وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ وما بينهما اعتراض للدلالة على هيمنة الله ـ تعالى ـ على شئون خلقه .. أى : وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم .. والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الكاملون في الخسران.

وهذه المقابلة فيها ما فيها من تأكيد الثواب العظيم للمتقين ، والعقاب الأليم للكافرين. ثم أمر الله ـ تعالى ـ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم أن يوبخ الكافرين على جهالاتهم. فقال : ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ﴾.

---

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ٢٦٧.

(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٤٠.

وقد ذكروا في سبب نزولها أن المشركين قالوا للنبي ﷺ استلم بعض آلهتنا ونؤمن بإلهك.

والاستفهام للإنكار والتوبيخ ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، و «غير» منصوب بقوله : ﴿أَعْبُدُ﴾ ، وأعبد معمول لتأمروني على تقدير أن المصدرية ، فلما حذفت بطل عملها.

والمعنى : قل ـ يا أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء المشركين على سبيل التوبيخ والتأنيب : أبعد أن شاهدتم ما شاهدتم من الآيات الدالة على وحدانية الله ـ تعالى ـ ، وعلى صدقى فيما أبلغه عنه ، أبعد كل ذلك تأمروني أن أعبد غير الله ـ تعالى ـ أيها الجاهلون بكل ما يجب لله ـ تعالى ـ من تنزيه وتقديس.

ووصفهم هنا بالجهل ، لأن هذا الوصف هو الوصف المناسب للرد على ما طلبوه. منه ﷺ من إشراك آلهتهم في العبادة.

ثم حذر ـ سبحانه ـ من الشرك أبلغ تحذير فقال : ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ ، لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ، وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ. بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

قال الجمل : قوله : ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ ...﴾ هذه اللام دالة على قسم مقدر وقوله ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾. هذه اللام ـ أيضا ـ دالة على قسم مقدر ، وقوله : ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾ كل من هذين اللامين واقعة في جواب القسم الثاني. والثاني وجوابه جواب الأول. وأما جواب الشرط في قوله : ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ فمحذوف ، لدخول جواب القسم عليه ، فهو من قبيل قول ابن مالك :

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم   جواب ما أخرت فهو ملتزم [1]

وقوله ﴿أُوحِيَ﴾ مسلط على ﴿إِلَيْكَ﴾ وعلى ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فيكون المعنى : ولقد أوحى إليك ـ أيها الرسول الكريم ـ وأوحى إلى الرسل الذين من قبلك أيضا لئن أشركت ، بالله ـ تعالى ـ على سبيل الفرض ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ ، أى ليفسدن عملك فسادا تاما ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾ خسارة ليس بعدها خسارة في الدنيا والآخرة.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : الموحى إليهم ، جماعة ، فكيف قال : ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ على التوحيد؟

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٦٠٨.

قلت : معناه. أوحى إليك لئن أشركت ليحبطن عملك ، وإلى الذين من قبلك مثله ، أو أوحى إليك وإلى كل واحد منهم : لئن أشركت ليحبطن عملك. كما تقول : فلان كسانا حلة. أى : كل واحد منا.

فإن قلت : هو على سبيل الفرض. والمحالات يصح فرضها .. [1].

والآية الكريمة تحذر من الشرك بأسلوب فيه ما فيه من التنفير منه ومن التقبيح له ، لأنه إذا كان الرسول ﷺ لو وقع في شيء منه ـ على سبيل الفرض ـ حبط عمله ، وكان من الخاسرين. فكيف بغيره من أفراد أمته؟

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أمر منه ـ تعالى ـ بالثبات على عبادة الله ـ تعالى ـ وحده ، وبالمداومة على شكره ، ونهى عن طاعة المشركين ، ولفظ الجلالة منصوب بقوله ﴿فَاعْبُدْ﴾ والفاء جزائية في جواب شرط مقدر.

أى : لا تطع ـ أيها الرسول الكريم ـ المشركين فيما طلبوه منك ، بل اجعل عبادتك لله ـ تعالى ـ وحده ، وكن من الشاكرين له على نعمه التي لا تحصى.

ثم بين ـ سبحانه ـ أن هؤلاء المشركين بعبادتهم لغير الله ـ تعالى ـ قد تجاوزوا حدودهم معه ـ عزّ وجلّ ـ ، ولم يعطوه ما يستحقه من تنزيه وتقديس فقال : ﴿وَما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾.

أى : أن هؤلاء المشركين بعبادتهم لغيره ـ تعالى ـ ، ما عظموه حق تعظيمه ، وما أعطوه ما يستحقه ـ سبحانه ـ من تقديس وتكريم وتنزيه وطاعة.

ثم ساق ـ سبحانه ـ ما يدل على وحدانيته. وكمال قدرته. فقال : ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ ، وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾.

والقبضة : المرة من القبض ، وتطلق على المقدار المقبوض بالكف. ومطويات أى : مجموعات تحت قدرته وملكه ، كما يجمع الكتاب المطوى ، والجملة الكريمة حال من لفظ الجلالة ، فيكون المعنى : إن هؤلاء المشركين لم يعظموا الله حق تعظيمه ، حيث أشركوا معه في العبادة آلهة أخرى هي من مخلوقاته ، والحال أنه ـ سبحانه ـ هو المتولى لإبقاء السموات والأرض على حالهما في الدنيا ، وهو المتولى لتبديلهما أو إزالتهما في الآخرة ، فالأرض كلها مع عظمتها

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٤١.

وكثافتها تكون يوم القيامة في قبضته وتحت قدرته ، كالشيء الذي يقبض عليه القابض ، والسموات كذلك مع ضخامتها واتساعها ، تكون مطويات بيمينه وتحت قدرته وتصرفه ، كما يطوى الواحد منا الشيء الهين القليل بيمينه ، وما دام الأمر كذلك فكيف يشركون معه غيره في العبادة؟

فالمقصود من الآية الكريمة بيان وحدانيته وعظمته وقدرته . سبحانه . وبيان ما عليه المشركون من جهالة وانطماس بصيرة حين أشركوا معه في العبادة غيره.

قال صاحب الكشاف : والغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعته ، تصوير عظمته ، والتوقيف على كنه جلاله لا غير ، من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز ... [1].

وقال الآلوسى : والكلام في هذه الآية عند كثير من الخلف ، تمثيل لحال عظمته . تعالى . ونفاذ قدرته .. بحال من يكون له قبضة فيها الأرض جميعا ، ويمين بها يطوى السموات ، أو بحال من يكون له قبضة فيها الأرض والسموات ، ويمين بها يطوى السموات.

والسلف يقولون : إن الكلام هنا تنبيه على مزيد جلالته . تعالى .. إلا أنهم لا يقولون إن القبضة مجاز عن الملك أو التصرف ، ولا اليمين مجاز عن القدرة ، بل ينزهون الله . تعالى . عن الأعضاء والجوارح ، ويؤمنون بما نسبه . تعالى . : إلى ذاته بالمعنى اللائق به الذي أراده . سبحانه . وكذا يفعلون في الأخبار الواردة في هذا المقام.

فقد أخرج البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال : جاء حبر من الأحبار الى النبي ﷺ فقال : يا محمد. إنا نجد الله يحمل السموات يوم القيامة على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع. فيقول : أنا الملك. فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الحبر ، ثم قرأ هذه الآية .. [2].

وقدم . سبحانه . الأرض على السموات لمباشرتهم لها ، ومعرفتهم بحقيقتها.

وخص يوم القيامة بالذكر ، وإن كانت قدرته عامة وشاملة لدار الدنيا . أيضا . لأن الدعاوى تنقطع في ذلك اليوم. كما قال . تعالى . ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾.

روى الشيخان عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «يطوى الله

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٤٣.

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٤ ص ٢٦.

السموات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول أنا الملك ، أين الجبارون ، أين المتكبرون ، أين ملوك الأرض».

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيه له ـ تعالى ـ : عما افتراه المفترون.

أى : تنزه وتقدس الله ـ تعالى ـ عن شرك المشركين ، وعن ضلال الضالين.

ثم بين ـ سبحانه ـ حال الناس عند النفخة الأولى والثانية فقال : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ﴾.

والصور : اسم للقرن الذي ينفخ فيه إسرافيل بأمر الله ـ تعالى ـ وحقيقته لا يعلمها إلا هو ـ سبحانه ـ وقوله ﴿فَصَعِقَ﴾ من الصعق بمعنى الموت أو بمعنى الصوت الشديد الذي يجعل الإنسان في حالة ذهول شديد حتى لكأنه قد فارق الحياة.

أى : ونفخ في الصور بأمر الله ـ تعالى ـ النفخة الأولى ، فخر ميتا كل من كان حيا في السموات أو في الأرض.

﴿إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ﴾ له الحياة من أهلهما ، قالوا : والمستثنى من الصعق جبريل وإسرافيل وميكائيل. ولم يرد حديث صحيح يعتمد عليه في تعيين من استثناء الله ـ تعالى ـ : من ذلك ، فالأولى تفويض من استثناه الله من الصعق إلى علمه ـ عزّ وجلّ ـ.

﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى﴾ أى : ثم نفخ في الصور نفخة أخرى ـ وهي النفخة الثانية التي يكون بعدها البعث والنشور.

﴿فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ﴾ أى : فإذا بهؤلاء الذين صعقوا بعد النفخة الأولى قيام من قبورهم ، ينظرون حولهم بدهشة وحيرة ماذا يفعل بهم ، أو ينظرون على أى حال يكون مصيرهم.

فالآية الكريمة تفيد أن النفخ في الصور يكون مرتين : المرة الأولى يكون بعدها الصعق والموت لجميع الأحياء ، والنفخة الثانية يكون بعدها البعث والنشور وإعادة الحياة مرة أخرى.

والمراد بالأرض في قوله ـ تعالى ـ : بعد ذلك : ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها ..﴾ أرض المحشر.

وأصل الإشراق : الإضاءة. يقال : أشرقت الشمس إذا أضاءت ، وشرقت : إذا طلعت.

قال ابن كثير : وقوله : ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها﴾ أى : أضاءت ـ الأرض ـ يوم

القيامة ، إذا تجلى الحق ـ تبارك وتعالى ـ للخلائق لفصل القضاء [1].

والمراد بالكتاب في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَوُضِعَ الْكِتابُ﴾ صحائف الأعمال التي تكون في أيدى أصحابها.

فالمراد بالكتاب جنسه ، أى : أعطى كل واحد كتابه إما بيمينه. وإما بشماله. وقيل المراد بالكتاب هنا : اللوح المحفوظ الذي فيه أعمال الخلق.

﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَداءِ﴾ أى : وبعد أن أعطى كل إنسان صحائف أعماله جيء بالنبيين لكي يشهدوا على أممهم أنهم بلغوهم ما كلفهم الله بتبليغه إليهم ، وجيء بالشهداء وهم الملائكة الذين يسجلون على الناس أعمالهم من خير وشر ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿وَجاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾. وقيل المراد بهم : من استشهدوا في سبيل الله.

ثم بين ـ سبحانه ـ مظاهر عدالته في جمل حكيمة فقال : ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِ﴾ أى : وقضى ـ سبحانه ـ بين الجميع بقضائه العادل ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ أى : نوع من الظلم.

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ﴾ من خير أو شر ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُونَ﴾ أى : وهو ـ سبحانه ـ عليم بما يفعلونه من طاعة أو معصية ، لا يخفى عليه شيء من أحوال خلقه ، بل هو ـ تعالى ـ يعلم السر وأخفى.

ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة ببيان مصير الكافرين ، وببيان مصير المتقين. وببيان ما يقوله المتقون عند ما يرون النعيم المقيم الذي أعده ـ سبحانه ـ لهم ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالُوا بَلى وَلكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ(٧٢) وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٠٨.

الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها وَفُتِحَتْ أَبْوابُها وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ (٧٣) وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (٧٤) وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ (٧٥)

وقوله ـ تعالى ـ ﴿وَسِيقَ﴾ من السوق بمعنى الدفع ، والمراد به هنا الدفع بعنف مع الإهانة و ﴿زُمَراً﴾ أى : جماعات متفرقة بعضها في إثر بعض. جمع زمرة وهي الجماعة القليلة ، أى : وسيق الذين كفروا إلى نار جهنم جماعات جماعات ، وأفواجا أفواجا.

﴿حَتَّى إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها﴾ لتستقبلهم بحرها وسعيرها ، وكأنها قبل مجيئهم إليها كانت مغلقة كما تغلق أبواب السجون ، فلا تفتح إلا لمن هم أهل لها بسبب جرائمهم.

﴿وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها﴾ على سبيل الزجر والتأنيب ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ أى : من جنسكم تفهمون عنهم ما يقولونه لكم.

وهؤلاء الرسل ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ﴾ المنزلة لمنفعتكم ﴿وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا﴾ أى : ويخوفونكم من أهوال يومكم هذا وهو يوم القيامة.

﴿قالُوا بَلى وَلكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ﴾ أى : قالوا في جوابهم على سائليهم : بلى قد أتانا الرسل وبلغونا رسالة الله ، ولكننا لم نطعهم ، فحقت كلمة العذاب علينا ، ووجبت علينا كلمة الله التي قال فيها : ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

وهنا رد عليهم السائلون بقولهم : ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، خلودا أبديا ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أى : فبئس المكان المعد للمتكبرين جهنم.

وبعد هذا البيان المرعب لمصير الكافرين ، جاء البيان الذي يشرح الصدور بالنسبة لحال المتقين فقال ـ تعالى ـ : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً﴾ أى : جماعات.

قال الآلوسى : أى : جماعات مرتبة حسب ترتب طبقاتهم في الفضل.

وفي صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «أول زمرة تدخل الجنة من أمتي على صورة القمر ليلة البدر».

والمراد بالسوق هنا : الحث على المسير للإسراع إلى الإكرام بخلافه فيما تقدم فإنه لإهانة الكفرة ، وتعجيلهم إلى العقاب والآلام ، واختير للمشاكلة .. [1].

ثم بين ـ سبحانه ـ ما أعده لهؤلاء المتقين من نعيم مقيم فقال : ﴿حَتَّى إِذا جاؤُها وَفُتِحَتْ أَبْوابُها وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ﴾.

والواو في قوله ﴿وَفُتِحَتْ﴾ للحال ، والجملة حالية بتقدير قد ، وجواب ﴿إِذا﴾ مقدر بعد قوله ﴿خالِدِينَ﴾.

أى : حتى إذا جاءوها ، وقد فتحت أبوابها على سبيل التكريم لهم ، وقال لهم خزنتها بفرح وحبور : سلام عليكم من جميع المكاره ، طبتم من دنس المعاصي ، فادخلوها خالدين أى : حتى إذا جاءوها وقالوا لهم ذلك سعدوا وابتهجوا.

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : وحتى هنا هي التي تحكى بعدها الجمل. والجملة المحكية بعدها هي الشرطية ، إلا أن جزاءها محذوف لأنه صفة ثواب أهل الجنة ، فدل بحذفه على أنه شيء لا يحبط به الوصف. وحق موقعه ما بعد «خالدين».

وقيل : حتى إذا جاءوها ، وفتحت أبوابها. أى : مع فتح أبوابها .. [2].

ثم بين ـ سبحانه ـ ما يقوله المتقون عند دخولهم الجنة على سبيل الشكر لله ـ تعالى ـ : فقال : ﴿وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ﴾ بأن بعثنا من مرقدنا ، ومنحنا المزيد من عطائه ونعمه ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ﴾ أى : أرض الجنة التي استقروا فيها.

﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ﴾ أى : ينزل كل واحد منا من جنته الواسعة حيث يريد ، دون أن يزاحمه فيها مزاحم ، أو ينازعه منازع.

﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ﴾ الجنة التي منحها ـ سبحانه ـ لعباده المتقين.

﴿وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ أى : محدقين محيطين بالعرش مصطفين بحافته وجوانبه. جمع حافّ وهو المحدق بالشيء. يقال : حففت بالشيء إذا أحطت به ، مأخوذ من الحفاف وهو الجانب للشيء.

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٤ ص ٣٣.

(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٤٧.

﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أى : يمجدون ربهم بكل خير ، وينزهونه عن كل سوء.

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِ﴾ أى : وقضى ـ سبحانه ـ بين العباد بالحق الذي لا يحوم حوله باطل. ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على قضائه بالحق ، وعلى مجازاته الذين أساءوا بما عملوا ، ومجازاته الذين أحسنوا بالحسنى.

وبعد. فهذا تفسير محرر لسورة «الزمر» نسأل الله ـ تعالى ـ : أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه الراجي عفو ربه

د. محمد سيد طنطاوى

القاهرة ـ مدينة نصر ـ

مساء الخميس ٢٧ من ذي الحجة سنة ١٤٠٥ ه

الموافق ١٢ / ٩ / ١٩٨٥ م.

تفسير

سورة غافر

بسم الله الرّحمن الرّحيم

مقدمة وتمهيد

١ ـ سورة «غافر» هي السورة الأربعون في ترتيب المصحف أما ترتيبها في النزول فهي السورة التاسعة والخمسون من السور المكية ، وكان نزولها بعد سورة «الزمر».

ويبدو ـ والله أعلم ـ أن الحواميم ، كان نزولها على حسب ترتيبها في المصحف ، فقد ذكر صاحب الإتقان عند حديثه عن المكي والمدني من القرآن ، وعن ترتيب السور على حسب النزول ..

ذكر سورة الزمر ، ثم غافر ، ثم فصلت ، ثم الشورى ، ثم الزخرف ، ثم الدخان ، ثم الجاثية ، ثم الأحقاف [١].

٢ ـ والمحققون من العلماء على أن سورة «غافر» من السور المكية الخالصة ، وقد حكى أبو حيان الإجماع على ذلك ، كما أن الإمام ابن كثير قال عنها بأنها مكية دون أن يستثنى منها شيئا.

وقيل : كلها مكية إلا قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ ، إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ما هُمْ بِبالِغِيهِ ...﴾ الآية.

ولكن هذا القيل وغيره لم تنهض له حجة يعتمد عليها ، فالرأى الصحيح أنها جميعها مكية.

٣ ـ وهذه السورة تسمى ـ أيضا ـ بسورة «المؤمن» لاشتمالها على قصة مؤمن آل فرعون. كما تسمى بسورة «الطول» لقوله ـ تعالى ـ في أوائلها : ﴿غافِرِ الذَّنْبِ ، وَقابِلِ التَّوْبِ ، شَدِيدِ الْعِقابِ ، ذِي الطَّوْلِ ...﴾.

وعدد آياتها خمس وثمانون آية في المصحف الكوفي والشامي ، وأربع وثمانون في الحجازي ، واثنتان وثمانون في البصري ..

٤ ـ وسورة «غافر» هي أول السور السبعة التي تبدأ بقوله ـ تعالى ـ ﴿حم﴾ والتي يطلق عليها لفظ «الحواميم».

---

(١) راجع الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ج ١ ص ٢٧.

وقد ذكر الإمام ابن كثير جملة من الآثار في فضل هذه السور ، منها : ما روى عن ابن مسعود أنه قال : «آل حم» ديباج القرآن .. ومنها ما روى عن ابن عباس أنه قال : «إن لكل شيء لبابا ، ولباب القرآن آل حم» أو قال «الحواميم» [1].

٥ . وقد افتتحت السورة الكريمة بالثناء على الله . تعالى . ، وبتسلية الرسول ﷺ عما لقيه من أذى المشركين ومن جدالهم ، وببيان وظيفة الملائكة الذين يحملون عرشه . تعالى . ، وأن منها الاستغفار للمؤمنين ، والدعاء لهم بقولهم . كما حكى القرآن عنهم . : ﴿... رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً ، فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ، وَقِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ. رَبَّنا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ ، وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. وَقِهِمُ السَّيِّئاتِ ، وَمَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ، وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

٦ . ثم دعا . سبحانه . عباده إلى إخلاص الطاعة له ، وذكرهم بأهوال يوم القيامة ، وأن الملك في هذا اليوم إنما هو لله . تعالى . وحده.

قال . تعالى . : ﴿فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ ، رَفِيعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ. يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ، لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

٧ . وبعد أن وبخ . سبحانه . الغافلين على عدم اعتبارهم بسوء عاقبة من سبقهم من الكافرين ، أتبع ذلك بجانب من قصة موسى . عليه‌السلام . مع فرعون وهامان وقارون ، وحكى ما دار بين موسى . عليه‌السلام . وبين هؤلاء الطغاة من محاورات.

كما حكى ما وجهه الرجل المؤمن من آل فرعون إلى قومه من نصائح حكيمة ، منها قوله . كما حكى القرآن عنه . : ﴿وَقالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزابِ. مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ. وَيا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنادِ. يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ما لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عاصِمٍ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ﴾.

٨ . وبعد أن ساق . سبحانه . تلك التوجيهات الحكيمة التي وجهها ذلك الرجل المؤمن . الذي يكتم إيمانه . إلى قومه .. أتبع ذلك بحكاية جانب من المحاورات التي تدور بين الضعفاء والمتكبرين بعد أن ألقى بهم جميعا في النار.

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١١٦.

كما حكى . سبحانه . ما يقولونه لخزنة جهنم على سبيل الاستعطاف والتذلل فقال :
﴿وَقالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذابِ. قالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا بَلى قالُوا فَادْعُوا وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ﴾.

٩ . ثم ساق . سبحانه . بعد ذلك ألوانا من نعمه على عباده ، لكي يشكروه عليها ، ومن تلك النعم : إيجاده الليل والنهار ، وجعله الأرض قرارا والسماء بناء ، وتصويره الناس في أحسن تقويم ، وتحليله لهم الطيبات ، وخلقه لهم في أطوار متعددة.

قال . تعالى . : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ، ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ، ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ، ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ ، وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

١٠ . ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن الذين يجادلون في آيات الله بغير علم ، فوبختهم على جهالاتهم وعنادهم ، وهددتهم بسوء المصير ، وأمرت النبي ﷺ أن يصبر على أذاهم ، وذكرته بأحوال الرسل السابقين مع أقوامهم ، وأنذرت مشركي مكة بأن مصيرهم سيكون كمصير المشركين من قبلهم ، إذ ما استمروا في طغيانهم وكفرهم ، وأنهم لن ينفعهم الإيمان عند حلول العذاب بهم.

قال . تعالى . : ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ ، وَكَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا ، سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ وَخَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ﴾.

١١ . هذا ، والمتدبر في سورة «غافر» بعد هذا العرض المجمل لآياتها يراها قد أقامت أنصع الأدلة وأقواها على وحدانية الله . تعالى . وقدرته ، كما يراها قد ساقت ألوانا من التسلية للرسول ﷺ عما لحقه من قومه ، تارة عن طريق قصص الأنبياء السابقين مع أقوامهم ، وتارة عن طريق التصريح بأن العاقبة ستكون له ولأتباعه ، كما في قوله . تعالى . : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ﴾.

كما يراها قد فصلت الحديث عن تكريم الله . تعالى . لعباده المؤمنين ، تارة عن طريق استغفار الملائكة لهم ، وتضرعهم إلى خالقهم أن يعبد الذين آمنوا عن عذاب الجحيم.

قال . تعالى . : ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ، وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً ، فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ﴾.

وتارة عن طريق وعدهم بإجابة دعائهم ، كما في قوله . تعالى . : ﴿وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ﴾.

كما يرها قد اهتمت بالحديث عن مصارع الغابرين ، بأسلوب يغرس الخوف في القلوب ، ويبعث على التأمل والتدبر.

كما في قوله ـ تعالى ـ : ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ، وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ، وَجادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ، فَأَخَذْتُهُمْ ، فَكَيْفَ كانَ عِقابِ﴾.

وكما في قوله ـ تعالى ـ : ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ ، وَما كانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ واقٍ﴾.

كما يراها قبل كل ذلك وبعد كل ذلك لها أسلوبها البليغ المؤثر في إحقاق الحق وإبطال الباطل ، وفي تثبيت المؤمن وزلزلة الكافر ، وفي تعليم الدعاة كيف يخاطبون غيرهم بأسلوب مؤثر حكيم ، نراه متمثلا في تلك النصائح الغالية التي وجهها مؤمن آل فرعون إلى قومه ، والتي حكاها القرآن في قوله ﴿وَقالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ ، أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ ، وَقَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ، وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ، إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾.

نسأل الله ـ تعالى ـ أن ينفعنا بتوجيهات القرآن الكريم ، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

د. محمد سيد طنطاوى

القاهرة ـ مدينة نصر

مساء الجمعة : ٢٨ من ذي الحجة سنة ١٤٠٥ ه‍ / ١٣ / ٩ / ١٩٨٥ م

التفسير

قال الله . تعالى . :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غافِرِ الذَّنْبِ وَقابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ (٤) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ (٥) وَكَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ﴾ (٦)

سورة «غافر» من السور التي افتتحت ببعض الحروف المقطعة ، وهو قوله . تعالى . : ﴿حم﴾.

وقد ذكرنا آراء العلماء في تلك الحروف المقطعة بشيء من التفصيل ، عند تفسيرنا لسور : البقرة ، وآل عمران ، والأعراف ، ويونس ..

وقلنا ما خلاصته : لعل أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة ، قد جيء بها في افتتاح بعض السور : على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن.

فكأنه . سبحانه . يقول لهؤلاء المعاندين والمعارضين في أن القرآن من عند الله : ها كم القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ، ومنظوما من حروف هي

من جنس الحروف الهجائية التي تنظمون منها حروفكم ، فإن كنتم في شك في أنه من عند الله ـ تعالى ـ فهاتوا مثله ، أو عشر سور من مثله ، أو سورة واحدة من مثله ، فعجزوا وانقلبوا خاسرين ، وثبت أن هذا القرآن من عند الله ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ﴾ جملة من مبتدأ وخبر ، أى : هذا الكتاب منزل عليك ـ أيها الرسول الكريم ـ من الله ـ تعالى ـ وحده ، وليس من عند أحد غيره.

ثم وصف ـ سبحانه ـ ذاته بثماني صفات تليق بذاته فقال : ﴿الْعَزِيزِ﴾ أى : الغالب لكل من سواه ، من العز بمعنى القوة والغلبة. يقال : عزّ فلان يعز ـ من باب تعب ـ فهو عزيز ، إذا كان معروفا بالقوة والمنعة ، ومنه قولهم : أرض عزاز إذا كانت صلبة قوية.

﴿الْعَلِيمِ﴾ أى : المطلع على أحوال خلقه دون أن يخفى عليه شيء منها.

﴿غافِرِ الذَّنْبِ﴾ أى : ساتر لذنوب عباده ، ومزيل لأثرها عنهم بفضله ورحمته.

فلفظ ﴿غافِرِ﴾ من الغفر بمعنى الستر والتغطية ، يقال : غفر الله ـ تعالى ـ ذنب فلان غفرا ومغفرة وغفرانا ، إذا غطاه وستره وعفا عنه.

ولفظ الذنب : يطلق على كل قول أو فعل تسوء عاقبته ، مأخوذ من ذنب الشيء ، أى : نهايته ﴿وَقابِلِ التَّوْبِ﴾ والتوب مصدر بمعنى الرجوع عن الذنب والتوبة منه. يقال : تاب فلان عن الذنب توبة وتوبا إذا رجع عنه.

أى : أنه ـ سبحانه ـ يغفر ذنوب عباده ، ويقبل توبتهم فضلا منه وكرما.

قال صاحب الكشاف : ما بال الواو في قوله ﴿وَقابِلِ التَّوْبِ﴾؟

قلت : فيها نكتة جليلة ، وهي إفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين : بين أن يقبل توبته فيكتبها له طاعة من الطاعات ، وأن يجعلها محاءة للذنوب ، كأنه لم يذنب. كأنه قال : جامع المغفرة والقبول .. [1].

﴿شَدِيدِ الْعِقابِ﴾ أى : لمن أشرك به ، وأعرض عن الحق الذي جاء به الرسول ﷺ ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ أى : ذي الفضل والثواب والإنعام على من يشاء من عباده.

والطّول : السعة والغنى والزيادة ، يقال : لفلان على فلان طول ، أى زيادة وفضل ، ومنه الطّول في الجسم لأنه زيادة فيه. قال ـ تعالى ـ : ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً ..﴾ أى : غنى وسعة.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٤٩.

﴿لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أى : لا إله بحق وصدق إلا هو . سبحانه ..

﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أى : إليه المرجع والمآب يوم القيامة ، ليحاسبكم على أعمالكم في الدنيا.

قال القرطبي : روى عن عمر بن الخطاب . رضى عنه . أنه افتقد رجلا ذا بأس شديد من أهل الشام فلما سأل عنه قيل له : تتابع في هذا الشراب.

فقال عمر لكاتبه : اكتب من عمر بن الخطاب إلى فلان ، سلام عليك ، وأنا أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ، حم تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ إلى قوله . تعالى . : ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

ثم ختم الكتاب وقال لرسوله : لا تدفعه إليه حتى تجده صاحيا. ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة. فلما وصل الكتاب إلى الرجل جعل يقرؤه ويقول : قد وعدني الله أن يغفر لي ، وحذرني عقابه ، فلم يبرح يرددها حتى بكى ، ثم نزع فأحسن النزع وحسنت توبته.

فلما بلغ عمر ذلك قال : هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أحدكم قد زل زلته فسددوه وادعوا الله له أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعوانا للشيطان عليه (١).

ثم هون . سبحانه . على نبيه ﷺ من شأن الكافرين ، وأخبره بأنهم أتفه من أن يغتر بهم فقال : ﴿ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ﴾.

والمراد بالجدال هنا : الجدال بالباطل ، وأما الجدال من أجل الوصول إلى الحق فمحمود.

وقوله : ﴿فَلا يَغْرُرْكَ﴾ جواب لشرط محذوف. والتقلب : التنقل من مكان إلى آخر من أجل الحصول على المنافع والمكاسب.

أى : ما يجادل في آيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته ، عن طريق التكذيب بها والطعن فيها .. إلا الذين كفروا بالحق لما جاءهم ، وإذا تقرر ذلك ، فلا يغررك . أيها الرسول الكريم . تقلبهم في البلاد ، وتصرفهم فيها عن طريق التجارات الرابحة ، وجمع الأموال الكثيرة ، فإن ما بين أيديهم من أموال إنما هو لون من الاستدراج ، وعما قريب ستزول هذه الأموال من بين أيديهم ، وستكون عليهم حسرة ..

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أى : قبل هؤلاء الكافرين المجادلين بالباطل ليدحضوا به الحق ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ الذين أغرقناهم بسبب هذا التكذيب لنبيهم.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٢٩١.

﴿وَالْأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أى : وكذلك الأقوام الآخرون الذين جاءوا من بعد قوم نوح ، قد تحزبوا على أنبيائهم ، وأجمعوا على تكذيبهم ، كما فعل قوم عاد مع نبيهم هود ، وكما فعل قوم ثمود مع نبيهم صالح ، وكما فعل أهل مدين مع نبيهم شعيب ..

فالضمير في قوله . تعالى . : ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يعود إلى قوم نوح. وأفردهم . سبحانه . بالذكر لأنهم أول قوم كذبوا رسولهم بعد أن مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما. ولم يزدهم دعاؤه لهم إلا عتوا ونفورا.

وقوله . تعالى . : ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَ﴾ بيان لما فعله هؤلاء الأقوام الظالمون مع أنبيائهم الذين جاءوا لهدايتهم ..

أى : أن هؤلاء الأقوام المجرمين ، لم يكتفوا بالتكذيب لأنبيائهم ، بل إن كل أمة منهم قد مكرت بنبيها ، وأرادت به السوء ، وحاولت أن تتمكن منه بالأسر أو بالقتل ، وجادلته بالجدال الباطل ، لتزيل به الحق الذي جاء به من عند ربه وتبطله.

والتعبير بقوله : ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ يشعر بأن هؤلاء المجرمين كانوا حريصين على التمكن من إيذاء نبيهم ومن الاعتداء عليه ، كما يحرص الشخص على أخذ عدوه وأسره ليفعل به ما يشاء.

وقوله . تعالى . : ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ﴾ بيان لما آل إليه مكرهم وجدالهم بالباطل.

أى : هموا بما هموا ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ، وحاولوا أن يجعلوا رسولهم بمنزلة الأسير فيهم. فكانت نتيجة كل ذلك أن أخذناهم أخذ عزيز مقتدر ، بأن دمرناهم تدميرا فكيف كان عقابي لهم؟ لقد كان عقابا مدمرا ، جعلهم أثرا بعد عين ، وترك آثار مساكنهم تشهد بهلاكهم واستئصالهم.

ثم بين . سبحانه . سنة من سننه التي لا تتخلف فقال : ﴿وَكَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ﴾.

أى : وكما حقت كلمة ربك . أيها الرسول الكريم . ووجبت بإهلاك الأمم الماضية التي كذبت أنبياءها ، وجعلهم وقودا للنار ، فكذلك تكون سنتنا مع المكذبين لك من قومك ، إذا ما استمروا في تكذيبهم لك ، ولم يعودوا إلى طريق الحق.

فالآيات الكريمة تسلية للرسول ﷺ وتحذير لمشركي قريش من الاستمرار في غيهم.

ثم بين . سبحانه . مظهرا من مظاهر رحمته بالمؤمنين ، وتكريمهم ، فذكر أن حملة عرشه

من وظائفهم الاستغفار للمؤمنين ، والدعاء لهم بالخير فقال . تعالى . :

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٩)

والمراد بالذين يحملون العرش : عدد من الملائكة المقربين إلى الله . تعالى . ولا يعلم عددهم أحد سوى الله . تعالى . لأنه لم يرد نص صحيح في تحديد عددهم.

والمراد بمن حوله : عدد آخر من الملائكة يطوفون بالعرش مهللين مسبحين مكبرين لله . تعالى . كما قال . تعالى . : ﴿وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ...﴾.

وعرش الله . تعالى . كما قال الراغب مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم ، فعلينا أن نؤمن بان لله . تعالى . عرشا عظيما ، أما كيفيته وهيئته فنفوض معرفتها إلى الخالق . عزّ وجلّ ..

وقد ذكر هذا اللفظ في القرآن الكريم في إحدى وعشرين آية.

والاسم الموصول في قوله . تعالى . : ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾ مبتدأ. وخبره قوله : ﴿يُسَبِّحُونَ ..﴾.

والجملة الكريمة مستأنفة ومسوقة لتسلية النبي صلّى الله عليه وسلّم ببيان أن هؤلاء الملائكة الذين هم

أقرب الملائكة إلى الله ـ تعالى ـ يضمون إلى تسبيحهم لذاته ـ سبحانه ـ ، الاستغفار للمؤمنين ، والدعاء لهم.

وقد ذكر كثير من المفسرين كلاما طويلا في صفة هؤلاء الملائكة وفي صفة العرش. رأينا أن نضرب عنه صفحا لضعفه وقلة فائدته.

أى : الملائكة الكرام المقربون إلينا ، والحاملون لعرشنا ، والحافون به ، من صفاتهم أنهم ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أى : ينزهون الله ـ تعالى ـ عن كل نقص ، ويلهجون بحمده وبالثناء عليه بما يليق به.

﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ ـ تعالى ـ إيمانا تاما لا يشوبه ما يتنافى مع هذا الإيمان والإذعان لله الواحد القهار.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما فائدة قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ ولا يخفى أن حملة العرش ومن حوله مؤمنون؟.

قلت : فائدته إظهار شرف الإيمان وفضله ، والترغيب فيه ، كما وصف الأنبياء في غير موضع من كتابه بالصلاح كذلك ، كما عقب أعمال الخير بقوله ـ تعالى ـ : ﴿ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأبان بذلك فضل الإيمان [1].

ويستغفرون للذين آمنوا ، أى : أنهم بجانب تسبيحهم وحمدهم لربهم ، وإيمانهم به ، يتضرعون إليه ـ سبحانه ـ أن يغفر للذين آمنوا ذنوبهم.

وفي هذا الاستغفار منهم للمؤمنين ، إشعار بمحبتهم لهم ، وعنايتهم بشأنهم ، لأنهم مثلهم في الإيمان بوحدانية ـ الله تعالى ـ وفي وجوب إخلاص العبادة والطاعة له.

ثم حكى ـ سبحانه ـ كيفية استغفارهم للمؤمنين فقال : ﴿رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً﴾.

والجملة الكريمة على تقدير قول محذوف ، وهذا القول في محل نصب على الحال من فاعل ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ وقوله ﴿رَحْمَةً وَعِلْماً﴾ منصوبان على التمييز.

أى : أنهم يستغفرون للذين آمنوا ، حالة كونهم قائلين : يا ربنا يا من وسعت رحمتك ووسع علمك كل شيء ، تقبل دعاءنا.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٥٢.

﴿فَاغْفِرْ﴾ بمقتضى سعة رحمتك وعلمك ﴿لِلَّذِينَ تابُوا﴾ إليك توبة صادقة نصوحا ﴿وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ الحق ، وصراطك المستقيم.

﴿وَقِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ﴾ أى : وصنهم يا ربنا واحفظهم من الوقوع في جهنم لأن عذابها كرب عظيم.

يا ﴿رَبَّنا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أى : وأدخلهم جناتك دخولا دائما لا انقطاع معه. يقال : عدن فلان بالمكان يعدن عدنا ، إذا لزمه وأقام فيه دون أن يبرحه ، ومنه سمى الشيء المخزون في باطن الأرض بالمعدن ، لأنه مستقر بداخلها.

﴿الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ فضلا منك وكرما.

وأدخل معهم ﴿مَنْ صَلَحَ﴾ لدخولها بسبب إيمانهم وعملهم الطيب ﴿مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ﴾ يا مولانا ﴿الْعَزِيزُ﴾ أى : الغالب لكل شيء ﴿الْحَكِيمُ﴾ في كل تصرفاتك وأفعالك.

فالمراد بالصلاح في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ﴾ : من كان منهم مؤمنا بالله ، وعمل عملا صالحا ، ودعوا لهم بذلك. ليتم سرورهم وفرحهم إذ وجود الآباء والأزواج والذرية مع الإنسان في الجنة ، يزيد سروره وانشراحه.

﴿وَقِهِمُ﴾ يا ربنا ﴿السَّيِّئاتِ﴾ أى : احفظهم يا ربنا من ارتكاب الأعمال السيئات ، ومن العقوبات التي تترتب على ذلك ، بأن تتجاوز عن خطاياهم.

﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ أى : في يوم القيامة الذي تجازى فيه كل نفس مما كسبت ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ أى : فقد رحمته برحمتك الواسعة من كل سوء.

﴿وَذلِكَ﴾ الذي تقدم من رحمتهم ومن إدخالهم الجنة ، ومن وقايتهم السوء.

﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا يضارعه فوز ، والظفر الكبير الذي لا يقاربه ظفر ، والأمل الذي لا مطمع وراءه لطامع.

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة ، قد أخبرتنا أن الملائكة المقربين يدعون للمؤمنين بما يسعدهم في دنياهم وآخرتهم.

وكعادة القرآن الكريم في قرن الترغيب بالترهيب أو العكس : جاء الحديث بعد ذلك عن الكافرين. مبينا انقطاعهم عن كل من يشفع لهم ، أو يدعو لهم بخير .كما دعا الملائكة للمؤمنين ـ فقال ـ تعالى ـ :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنادَوْنَ لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ فَتَكْفُرُونَ (١٠) قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (١١) ذلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ (١٢)

والمقت أشد أنواع البغض والغضب. يقال : مقته مقتا ، إذا غضب عليه غضبا شديدا ، ومنه قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءِ إِلَّا ما قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَمَقْتاً وَساءَ سَبِيلاً﴾ (١).

والمنادى لهؤلاء الكافرين : هم الملائكة خزنة النار ، أو المؤمنون. وهذا النداء إنما يكون يوم القيامة ، يوم توفى كل نفس ما كسبت.

أى : إن الذين كفروا بعد أن أحاطت بهم النار ، وبعد أن عادوا على أنفسهم بأشد ألوان الندامة والحسرة والمقت. لإيثارها الكفر على الإيمان.

بعد كل ذلك ﴿يُنادَوْنَ﴾ بأن يقال لهم : إن مقت الله ـ تعالى ـ لكم بسبب إصراركم على الكفر حتى هلكتم .. أشد وأعظم من مقتكم لأنفسكم مهما بلغ مقتكم لها وكراهيتكم لها.

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله ﴿يُنادَوْنَ﴾ المنادى لهم الخزنة أو المؤمنون يقولون إعظاما لحسرتهم : ﴿لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ وهذا معمول للنداء لتضمنه معنى القول ، كأنه قيل : ينادون مقولا لهم : لمقت .. ومقت مصدر مضاف إلى الاسم الجليل : إضافة المصدر لفاعله ، وكذا إضافة المقت الثاني إلى ضمير الخطاب .. (٢).

---

(١) سورة النساء الآية ٢٢.

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٤ ص ٥٠.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ تعليل لمقت الله أى : لغضب الله ـ تعالى ـ عليكم ، أشد من غضبكم على أنفسكم الأمارة بالسوء وذلك لأنكم جاءتكم دعوة الحق على ألسنة رسلكم ، فأعرضتم عنها ، وصممتم على الكفر والفسوق والعصيان ، حتى أدرككم الموت ، وها أنتم اليوم تجزون ما كنتم تعملونه في الدنيا.

ثم يحكى ـ سبحانه ـ ما يقوله الكافرون بعد أن أنزل بهم ـ سبحانه ـ عقابه العادل فيقول : ﴿قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ...﴾.

وأرادوا بالموتة الأولى : خلقهم من مادة لا روح فيها وهم في بطون أمهاتهم .. وأرادوا بالثانية : قبض أرواحهم عند انقضاء آجالهم.

وأرادوا بالحياة الأولى : نفخ أرواحهم في أجسادهم وهي في الأرحام ، وأرادوا بالثانية إعادتهم إلى الحياة يوم البعث ، للحساب والجزاء.

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ..﴾ [1].

﴿فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا﴾ أى : أنت يا ربنا الذي ـ بقدرتك وحدها ـ أمتنا إماتتين اثنتين ، وأحييتنا إحياءتين اثنتين ، وها نحن قد اعترفنا بذنوبنا التي وقعت منا في الدنيا ، وندمنا على ما كان منا أشد الندم ..

﴿فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أى : فهل بعد هذا الاعتراف ، في الإمكان أن تخرجنا من النار ، وأن تعيدنا إلى الحياة الدنيا ، لنؤمن بك حق الإيمان. ونعمل غير الذي كنا نعمل.

فأنت ترى أن الآية تصور ذلهم وحسرتهم أكمل تصوير ، وأنهم يتمنون العودة إلى الدنيا ليتداركوا ما فاتهم ، ولكن هذا التمني والتلهف جاء بعد فوات الأوان.

قال ابن كثير ما ملخصه : هذه الآية كقوله ـ تعالى ـ : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ...﴾ وهذا هو الصواب الذي لا شك فيه ولا مرية.

وقال السدى : أميتوا في الدنيا ثم أحيوا في قبورهم فخوطبوا ، ثم أميتوا ثم أحيوا يوم القيامة.

وقال ابن زيد : أحيوا حين أخذ عليهم الميثاق من صلب آدم ، ثم خلقهم في الأرحام. ثم أماتهم يوم القيامة.

وهذا القولان ضعيفان لأنه يلزمهما على ما قالا ثلاث إحياءات وإماتات.

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨.

والمقصود من هذا كله أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدي الله ، كما قال ـ تعالى ـ ﴿وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ (1).

ثم بين ـ سبحانه ـ أن تذللهم هذا لن يجديهم ، وأن ما هم فيه من عذاب سببه إعراضهم عن دعوة الحق في الدنيا ، فقال : ﴿ذلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ، وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ، فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾.

أى : ذلكم الذي نزل بكم من عذاب سببه ، أنكم كنتم في الدنيا إذا عبد الله ـ تعالى ـ وحده ، وطلب منكم ذلك كفرتم به ـ عزّ وجلّ ـ ، وإن يشرك به غيره من الأصنام أو غيرها آمنتم ، ومادام هذا حالكم في الدنيا ، فاخسئوا في النار ولا تؤملوا في الخروج منها ، بحال من الأحوال ، فالحكم لله وحده دون غيره ، وهو سبحانه الذي حكم عليكم بما حكم ..

وهو ـ سبحانه ـ ﴿الْعَلِيِ﴾ أى : المتعالي عن أن يكون له مماثل في ذاته أو صفاته ﴿الْكَبِيرِ﴾ أى : العظيم الذي هو أعظم وأكبر من أن يكون له شريك أو صاحبة أو ولد.

وجمع ـ سبحانه ـ لذاته بين هذين الوصفين للدلالة على كبريائه وعظمته.

ثم ساق ـ سبحانه ـ بعد ذلك ما يدل على فضله ورحمته بعباده ، وعلى وحدانيته وكمال قدرته ، وعلى أن يوم القيامة آت لا ريب فيه ، وعلى أن كل نفس ستجازى في هذا اليوم بما كسبت بدون ظلم أو محاباة ، لأن القضاء فيه لله الواحد القهار. فقال ـ تعالى ـ :

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آياتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً وَما يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَنْ يُنِيبُ (١٣) فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (١٤) رَفِيعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ (١٥) يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفى

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٢٢.

عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) الْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (١٧) وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ كاظِمِينَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطاعُ (١٨) يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَما تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) وَاللهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَما كانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ واقٍ (٢١) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ﴾ (٢٢)

والمقصود بآياته ـ عزّ وجلّ ـ في قوله : ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آياتِهِ ...﴾ الدلائل الدالة على وحدانيته وقدرته ، كخلقه للشمس والقمر والليل والنهار ، والبحار والأنهار ، والسماء والأرض ، والمطر والرعد ، والنجوم والرياح ، والأشجار الكبيرة والصغيرة .. إلى غير ذلك من آياته التي لا تحصى في هذا الوجود ..

أى : هو ـ سبحانه ـ الذي يريكم آياته الدالة على وحدانيته وقدرته ، لتزدادوا ـ أيها المؤمنون ـ إيمانا على إيمانكم ، وثباتا على ثباتكم ، ويقينا على يقينكم ، بأن المستحق للعبادة والطاعة هو الله الواحد القهار.

وقد ساق ـ سبحانه ـ في كتابه عشرات الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته ، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ :

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبابِ﴾ [1].

وقوله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿وَمِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ...﴾ [2].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ ، وَما خَلَقَ اللهُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [3].

والمراد بالرزق في قوله : ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً﴾ .. الأمطار التي تنزل من السماء على الأرض ، فتحييها بعد موتها ، بأن تحولها من أرض جدباء يابسة ، إلى أرض خضراء بشتى الزروع والثمار.

وأطلق ـ سبحانه ـ على المطر رزقا. لأنه سبب فيه ، وأفرده بالذكر مع كونه من جملة الآيات التي يريها ـ تعالى ـ لعباده لتفرده بعنوان كونه من آثار رحمته ، وجلائل نعمه ، الموجبة لشكره ـ عزّ وجلّ ـ ، ولوجوب إخلاص العبادة له.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَما يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ بيان لمن هو أهل للانتفاع بهذه الآيات.

أى : وما يتذكر وينتفع بهذه الآيات إلا من يرجع عن المعصية إلى الطاعة وعن الكفر إلى الإيمان ، وعن العناد والجحود ، إلى التفكر والتدبر بقلب سليم.

فقوله ﴿يُنِيبُ﴾ من الإنابة ، ومعناها الرجوع عن الكفر والمعاصي : إلى الإيمان والطاعة.

والفاء في قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ..﴾ للإفصاح عن شرط مقدر. أى : إذا كان الأمر كما ذكرت لكم من أن كل شيء في هذا الوجود يدل على وحدانية الله ـ تعالى ـ فأخلصوا له العبادة والطاعة ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ﴾ منكم ذلك ـ أيها المؤمنون ـ فلا تلتفتوا إلى كراهيتهم ، وامضوا في طريق الحق ، ودعوهم يموتوا بغيظهم ..

وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة ، وجوب إخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ ووجوب الإكثار من التضرع إليه بالدعاء.

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٩٠.

(٢) سورة الروم الآية ٢٣.

(٣) سورة يونس الآية ٦.

ومن الأحاديث التي أوردها الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ، ما رواه الإمام مسلم وأبو داود ، والنسائي ، وأحمد ، عن أبي الزبير محمد بن مسلم المكي قال : كان عبد الله بن الزبير يقول في دبر كل صلاة حين يسلم : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة وله الفضل ، وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله ، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون قال : وكان رسول الله ﷺ يهلل بهن دبر كل صلاة [١].

ثم يذكر ـ سبحانه ـ بعد ذلك من صفاته العظمى ، ما يزيد المؤمنين في إخلاص العبادة له ، فيقول : ﴿رَفِيعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ ..﴾ أى : هو ـ تعالى ـ وحده صاحب الرفعة والمقام العالي ، وهو وحده صاحب العرش العظيم ، الذي لا يعلم مقدار عظمته إلا هو ..

قال الآلوسى قوله : ﴿رَفِيعُ الدَّرَجاتِ﴾ رفيع صفة مشبهة أضيفت الى فاعلها من رفع الشيء إذا علا .. والدرجات : مصاعد الملائكة إلى أن يبلغوا العرش ، أى : رفيع درجات ملائكته ومعارجهم إلى عرشه .. ويجوز أن يكون كناية عن رفعة شأنه وسلطانه ـ عز شأنه ـ كما أن قوله ـ تعالى ـ : ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ كناية عن ملكه ـ جل جلاله ـ .. [٢].

والمراد بالروح في قوله ـ تعالى ـ : ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ﴾ : الوحى الذي يوحى به على أنبيائه ، وأمين هذا الوحى جبريل ـ عليه‌السلام ـ ..

أى : هو وحده ـ سبحانه ـ الذي يلقى الوحى. حالة كون هذا الوحى ناشئا من أمره وقضائه على من يختاره لهذا الإلقاء من عباده الصالحين. فقوله ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ متعلق بمحذوف حال من الروح.

وسمى الوحى روحا ، لأن الأرواح تحيا به ، كما أن الأجساد تحيا بالغذاء.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ﴾ بيان للوظيفة الخاصة بمن يختاره ـ سبحانه ـ من عباده لإلقاء الوحى عليه.

والإنذار : الإعلام المقترن بالتخويف والتحذير ، فكل إنذار إعلام ، وليس كل إعلام إنذارا.

والمراد بيوم التلاق : يوم القيامة ، وسمى بيوم التلاق لأنه يتلاقى فيه الأولون والآخرون والمؤمنون والكافرون ، والظالمون والمظلومون .. الكل يتلاقى في ساحة المحشر ليقضى الله

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٢٤.

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٤ ص ٥٥.

ـ تعالى ـ فيهم بقضائه العادل.

أى : يلقى ـ سبحانه ـ بوحيه على أنبيائه ، لينذروا الناس ويحذروهم من سوء العذاب يوم القيامة ، إذا ما استمروا في كفرهم وعصيانهم لخالقهم.

ثم صور ـ سبحانه ـ أحوال الناس في هذا اليوم العصيب ، فقال : ﴿يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ...﴾.

وهذه الجملة الكريمة بدل من قوله ﴿يَوْمَ التَّلاقِ﴾ ، أى : يلقى ـ سبحانه ـ على من يشاء من عباده ، لكي ينذر الناس من أهوال ذلك اليوم الذي تلتقي فيه الخلائق ، والذي يظهرون فيه ظهورا تاما ، دون أن يخفى منهم شيء على الله ـ تعالى ..

والله ـ تعالى ـ لا يخفى عليه شيء من أمرهم لا في هذا اليوم ولا في غيره ، ولكنه ـ سبحانه ـ ذكر بروزهم وعدم خفائهم عليه في هذا اليوم ، لأنهم ـ لجهلهم ـ كانوا يتوهمون في الدنيا أنهم يستطيعون التستر عنه ، كما أشار ـ سبحانه ـ إلى ذلك في قوله ـ تعالى ـ ﴿أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ، أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾.

ورحم الله صاحب الكشاف ، فقد قال : قوله : ﴿يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ﴾ أى : ظاهرون لا يسترهم شيء من جبل أو أكمة أو بناء ، لأن الأرض بارزة قاع صفصف ، ولا عليهم ثياب ، إنما هم عراة مكشوفون ، كما جاء في الحديث : «يحشرون عراة حفاة غرلا» ﴿لا يَخْفى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ أى : من أعمالهم وأحوالهم ...

فإن قلت : قوله : ﴿لا يَخْفى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ بيان وتقرير لبروزهم ، والله ـ تعالى ـ لا يخفى عليه منهم شيء برزوا أم لم يبرزوا ، فما معناه؟

قلت : معناه أنهم كانوا يتوهمون في الدنيا أنهم إذا استتروا بالحيطان والحجب ، أن الله لا يراهم وتخفى عليه أعمالهم ، فهم اليوم صائرون من البروز والانكشاف إلى حال لا يتوهمون فيها مثل ما كانوا يتوهمونه قال ـ تعالى ـ : ﴿وَلكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ ..﴾ (١).

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ﴾ السائل والمجيب هو الله ـ تعالى ..

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٥٦.

أى : ينادى الله ـ تعالى ـ في المخلوقات في ذلك اليوم ، لمن الملك في هذا اليوم الهائل الشديد؟ ثم يجيب ـ سبحانه ـ على هذا السؤال بقوله : ﴿لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

قال القرطبي ما ملخصه : قال الحسن : هو السائل ـ تعالى ـ وهو المجيب ، لأنه يقول ذلك حين لا أحد يجيبه ، فيجيب نفسه سبحانه فيقول : ﴿لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

وعن ابن مسعود قال : يحشر الناس على أرض بيضاء مثل الفضة ، لم يعص الله ـ جل وعلا ـ عليها ، فيأمر مناديا ينادى : ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ فيقول العباد مؤمنهم وكافرهم : ﴿لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

فيقول المؤمنون هذا الجواب سرورا وتلذذا ، ويقوله الكافرون غما وانقيادا وخضوعا.

ثم قال : والقول الأول ظاهر جدا ، لأن المقصود إظهار انفراده ـ تعالى ـ بالملك عند انقطاع دعاوى المدعين ، وانتساب المنتسبين ، إذ قد ذهب كل ملك وملكة [1].

وبعد أن قرر ـ سبحانه ـ أن الملك في هذا اليوم له وحده. أتبع ذلك ببيان ما يحدث في هذا اليوم فقال : ﴿الْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ ..﴾.

أى : في هذا اليوم الهائل الشديد تجازى كل نفس من النفوس المؤمنة والكافرة ، والبارة والفاجرة. بما كسبت في دنياها من خير أو شر ، ومن طاعة أو معصية.

﴿لا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ ولا جور ولا محاباة ولا وساطات .. وإنما تعطى كل نفس ما تستحقه من ثواب أو عقاب.

﴿إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسابِ﴾ لأنه ـ سبحانه ـ لا يحتاج إلى تفكير عند محاسبته لخلقه ، بل هو ـ سبحانه ـ قد أحاط بكل شيء علما ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿عالِمِ الْغَيْبِ ، لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ ، وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ﴾.

ثم يوجه الله ـ تعالى ـ أمره إلى النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم بأن يحذر كفار قريش من أهوال هذا اليوم فيقول : ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ كاظِمِينَ ..﴾.

والآزفة : القيامة. وأصل معنى الآزفة : القريبة ، وسميت القيامة بذلك لقربها ، يقال : أزف ـ بزنة فرح ـ يوم الرحيل. إذا دنا وقرب.

والحناجر : جمع حنجرة وهي الحلقوم.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٣٠١.

وكاظمين : حال من أصحاب القلوب على المعنى. فإن ذكر القلوب يدل على ذكر أصحابها.

وأصل الكظم : الحبس والإمساك للشيء. يقال : كظم القربة إذا ملأها بالماء ، وسد فاها ، حتى لا يخرج منها شيء من الماء.

والمعنى : وأنذر ـ أيها الرسول الكريم ـ الناس ، وحذرهم من أهوال يوم عظيم قريب الوقوع ، هذا اليوم تكون قلوبهم فيه مرتفعة عن مواضعها من صدورهم. ومتشبثة بحناجرهم ، ويكونون كاظمين عليها وممسكين بها حتى لا تخرج مع أنفاسهم. كما يمسك صاحب القربة فمها لكي لا يتسرب منها الماء.

فالآية الكريمة تصوير يديع لما يكون عليه الناس في هذا اليوم من فزع شديد ، وكرب عظيم. وخوف ليس بعده خوف.

والحديث عن قرب يوم القيامة قد جاء في آيات كثيرة منها قوله ـ تعالى ـ : ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ...﴾

وقوله ـ سبحانه ـ ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾.

والظاهر أن قوله هنا ﴿يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ هو المفعول الثاني للإنذار ليس ظرفا له. لأن الإنذار والتخويف من أهوال يوم القيامة واقع في دار الدنيا.

وقوله : ﴿إِذِ الْقُلُوبُ﴾ بدل من يوم الآزفة.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت «كاظمين» بم انتصب؟ قلت : هو حال من أصحاب القلوب على المعنى ، لأن المعنى : إذ قلوبهم لدى حناجرهم كاظمين عليها. ويجوز أن يكون حالا من القلوب ، وأن القلوب ، كاظمة على غم وكرب فيها مع بلوغها الحناجر.

وإنما جمع جمع السلامة ، لأنه وصفها بالكظم الذي هو من أفعال العقلاء ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ ...﴾ [1].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطاعُ﴾ نفى لكون هؤلاء الظالمين يوجد في هذا اليوم من ينفعهم أو يدافع عنهم.

والحميم : هو الإنسان الذي يحبك ويشفق عليك ويهتم بأمرك ، ومنه قيل لخاصة الرجل : حامّته.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٥٧.

والشفيع : من الشفع ، بمعنى الانضمام ، يقال شفع فلان لفلان إذا انضم إليه ليدافع عنه.

أى : ليس للظالمين في هذا اليوم قريب أو محب يعطف عليهم ، ولا شفيع يطيعهم في الشفاعة لهم ، لأنهم في هذا اليوم يكونون محل غضب الجميع ونقمتهم ، بسبب ظلمهم وإصرارهم على كفرهم.

فالآية الكريمة نفت عنهم الصديق الذي يهتم بأمرهم ، والشفيع الذي يشفع لهم ، والإنسان الذي تكون له أية كلمة تسمع في شأنهم.

ثم أكد ـ سبحانه ـ شمول علمه لكل شيء فقال : ﴿يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَما تُخْفِي الصُّدُورُ﴾.

والمراد بخائنة الأعين : النظرة الخائنة التي يتسلل بها المتسلل ليطلع على ما حرم الله الاطلاع عليه.

والجملة خبر لمبتدأ محذوف. والإضافة في قوله ﴿خائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ على معنى من ، وخائنة : نعت لمصدر محذوف.

أى : هو ـ سبحانه ـ يعلم النظرة الخائنة من الأعين ، وهي التي يوجهها صاحبها في تسلل وخفية إلى محارم الله ـ تعالى ـ كما يعلم ـ سبحانه ـ الأشياء التي يخفيها الناس في صدورهم ، وسيجازيهم على ذلك في هذا اليوم بما يستحقون.

قال القرطبي : ولما جيء بعبد الله بن أبي سرح إلى رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم بعد ما اطمأن أهل مكة ، وطلب له الأمان عثمان بن عفان ، صمت رسول الله ﷺ طويلا ، ثم قال : «نعم».

فلما انصرف قال ﷺ لمن حوله : «ما صمت إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه».

فقال رجل من الأنصار : فهلا اومأت إلى يا رسول الله؟ فقال : «إن النبي لا تكون له خائنة أعين» [1].

ثم بين ـ سبحانه ـ أن القضاء الحق في هذا اليوم مرده إليه وحده فقال : ﴿وَاللهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ...﴾.

أى : والله ـ تعالى ـ يقضى بين عباده قضاء ملتبسا بالحق الذي لا يحوم حوله باطل.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ..﴾ أى : والآلهة الذين يعبدهم الكفار من

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٣٠٣.

دون الله - تعالى - لا يقضون بشيء أصلا ، لأنهم لا يعلمون شيئا ، ولا يقدرون على شيء ، وإذا فهم أعجز وأتفه من أن يلتفت إليهم.

﴿إِنَّ اللهَ﴾ - تعالى - ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لكل شيء ﴿الْبَصِيرُ﴾ بكل شيء ، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

ثم وبخ - سبحانه - هؤلاء الظالمين على عدم اعتبارهم واتعاظهم بمن كان قبلهم فقال : ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ، كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَما كانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ واقٍ﴾.

أى : أبلغت الجهالة والغفلة وانطماس البصيرة بهؤلاء المشركين من قومك - يا محمد - أنهم لم يعتبروا ولم يتعظوا بالظالمين السابقين الذين دمرناهم تدميرا.

إنهم يمرون عليهم مصبحين وبالليل ، وإنهم ليشاهدون آثارهم ماثلة أمام أعينهم ، يشاهدون آثار قوم صالح ، ويشاهدون آثار غيرهم.

ولقد كان هؤلاء السابقون الظالمون ، أشد من مشركي قريش في القوة والبأس ، وأشد منهم في إقامة المبانى الفارهة ، والحصون الحصينة ..

فلما استمروا في جحودهم وكفرهم ، أخذهم الله - تعالى - أخذ عزيز مقتدر ، بسبب ذنوبهم. وما كان لهم من دون الله - تعالى - من يدفع عنهم عذابه ، أو يقيهم من بأسه.

﴿ذلِكَ﴾ الأخذ من أسبابه ﴿بِأَنَّهُمْ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ﴾ أى : بالدلائل الواضحات على صدقهم فيما يبلغونهم عن ربهم.

﴿فَكَفَرُوا﴾ أى : بالرسل وبما جاءوهم به ﴿فَأَخَذَهُمُ اللهُ﴾ أى : فأهلكهم - سبحانه - ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ﴾ أى : إنه - سبحانه - قوى لا يحول بين ما يريد أن يفعله حائل ، شديد العقاب لمن كفر به ، وأعرض عن دعوة رسله.

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد ساقت لنا أنواعا متعددة من مظاهر قدرة الله ، ومن أهوال يوم القيامة ، ومن علمه الشامل لكل شيء ، ومن قضائه العادل ومن أخذه للظالمين أخذ عزيز مقتدر.

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن جانب من قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون. فذكرت جانبا من التهديدات التي وجهها فرعون إلى موسى وقومه ، وكيف أن موسى - عليه السلام - رد عليه ردا قويا حكيما ، فقال - تعالى - :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ (٢٣) إِلى فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَقارُونَ فَقالُوا ساحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ وَما كَيْدُ الْكافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (٢٥) وَقالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ (٢٦) وَقالَ مُوسى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ﴾ (٢٧)

والمراد بآياتنا في قوله : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا﴾ تلك الآيات التسع التي أعطاها الله ـ تعالى ـ لموسى ، لتكون معجزات له دالة على صدقة ، وهي : العصا ، واليد ، والسنون ، والبحر ، والطوفان ، والجراد ، والقمل والضفادع ، والدم.

قال ـ تعالى ـ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ﴾.

والمراد بالسلطان المبين : الحجة القاهرة الظاهرة التي تغلب بها في الحجاج والجدال على فرعون.

أى : والله لقد منحنا موسى ـ عليه‌السلام ـ بفضلنا وقدرتنا معجزات باهرات ، ومنحناه ـ أيضا ـ حجة قوية واضحة ، يدمر بها حجج أعدائه.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿إِلى فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَقارُونَ ...﴾ بيان لمن أرسله الله ـ تعالى ـ إليهم.

وفرعون : لقب لكل ملك من ملوك مصر في تلك العهود السابقة ، والمراد به هنا : ذلك

الملك الجبار الظالم الذي أرسل في عهده موسى ـ عليه السلام ـ ، ويقال إنه «منفتاح» بن رمسيس الثاني.

و ﴿هامانَ﴾ هو وزير فرعون و ﴿قارُونَ﴾ هو الذي كان من قوم موسى فبغى عليهم. وأعطاه الله ـ تعالى ـ الكثير من الأموال .. ثم خسف به وبداره الأرض.

وخص ـ سبحانه ـ هؤلاء الثلاثة بالذكر ، مع أن رسالة موسى كانت لهم ولأتباعهم ، لأنهم هم الزعماء البارزون ، الذين كانوا يدبرون المكايد ضد موسى ـ عليه السلام ـ فيتبعهم العامة من أقوامهم.

وقوله : ﴿فَقالُوا ساحِرٌ كَذَّابٌ﴾ أرسلناه إلى هؤلاء الطغاة ومعه آياتنا الدالة على صدقه ، فكان جوابهم على دعوته إياهم الى عبادة الله ـ تعالى ـ وحده. أن قالوا في شأنه ، إنه ساحر يموه على الناس بسحره ، وأنه كذاب في دعواه أنه رسول من رب العالمين.

وهكذا كانت نتيجة أول لقاء بين موسى ـ عليه السلام ـ وبين هؤلاء الطغاة الظالمين. أنهم وصفوه بالسحر والكذب ، وهو المؤيد بآيات الله ، وبحججه الظاهرة. وما وصفوه بذلك إلا من أجل الحسد والعناد ، والحرص على دنياهم وملكهم.

ثم لم يكتفوا بهذا القول ، بل انتقلوا إلى مرحلة أخرى أشد وأطغى ، فقالوا ـ كما حكى القرآن عنهم : ﴿فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ ...﴾.

أى : فحين وصل إليهم موسى ـ عليه السلام ـ بدعوته. وخاطبهم بما أمره الله ـ تعالى ـ أن يخاطبهم به ، وجابههم بالحق الذي زوده الله ـ تعالى ـ به.

ما كان منهم إلا أن قالوا ـ على سبيل التهديد والوعيد ـ : اقتلوا الذكور من أبناء الذين آمنوا مع موسى ، ودخلوا في دينه ، واتركوا الإناث بدون قتل لخدمتكم ، وليكون ذلك أبلغ في إذلالهم. إذ بقاء النساء بدون رجال فتنة كبيرة. وذل عظيم.

والتعبير بقوله. ﴿فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا﴾ يشعر بأن هؤلاء الظالمين قد جاءهم الحق إلى بيوتهم ومساكنهم ، وأنهم لم يخرجوا لطلبه ، وإنما هو الذي جاءهم عن طريق موسى ، المؤيد بآيات الله ـ تعالى ـ.

والقائلون : ﴿اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ﴾ هم الملأ من قوم فرعون الذين كانوا يزينون له الظلم والعدوان. إرضاء له. وإرهابا لموسى ـ عليه السلام ـ ولمن آمن معه.

قال الإمام الرازي : والصحيح أن هذا القتل كان غير القتل الذي وقع في وقت ولادة موسى ، لأن القتل في ذلك الوقت كان بسبب أن المنجمين قد أخبروا فرعون بولادة عدو له يظهر عليه ، فأمر بقتل الأبناء في ذلك الوقت. وأما في هذا الوقت. فموسى . عليه السلام . كان قد جاءه وأظهر المعجزات. فعند ذلك أمر بقتل أبناء الذين آمنوا معه ، لئلا ينشئوا على دين موسى ، فيقوى بهم. وهذه العلة مختصة بالبنين دون البنات. فلهذا السبب أمر بقتل الأبناء ..[1].

وقوله . تعالى . : ﴿وَما كَيْدُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ﴾ توهين لشأن الكافرين في كل زمان ومكان ، وتشجيع للمؤمنين على أن يسيروا في طريق الحق دون أن يرهبهم وعد أو وعيد. فإن النصر سيكون في النهاية لهم.

أى : وما كيد الكافرين ومكرهم وعدوانهم ، إلا مصيره إلى الضلال والضياع والبطلان. يقال : ضل فلان الطريق إذا ضاع منه الرشد. والتبست عليه السبل. وصار تائها لا يعرف له طريقا يوصله إلى ما يريد.

ثم بين . سبحانه . لونا آخر من ألوان فجور فرعون وبغيه فقال : ﴿وَقالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى ..﴾.

والجملة الكريمة معطوفة على قوله : ﴿قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ وجملة ﴿وَما كَيْدُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ﴾ اعتراضية ، جيء بها مسارعة لبيان خسرانهم وضلالهم.

أى : وقال فرعون لحاشيته ومستشاريه وخاصته : اتركوني لأقتل موسى . عليه السلام . وأتخلص منه ومن أقواله التي فيها ما فيها من الضرر بي وبكم.

ويبدو من أسلوب الآية الكريمة أن اتجاه فرعون لقتل موسى كان يجد معارضة مستشاريه. لأنهم يرون أن قتله لا ينهى المتاعب ، بل قد يزيدها اشتعالا لأن عامة الناس سيفهمون أن قتل موسى كان بسبب أنه على الحق ، فتثور ثائرتهم لقتله ، أو لأنهم كانوا يخافون أن قتله سيؤدي إلى نزول العذاب بهم ، غضبا من رب موسى ، ولعل بعضهم كان يعتقد أن موسى على حق ولكن الخوف منعه من الجهر بذلك ، أو لأنهم كانوا يرون أن قتل موسى سيؤدي إلى تفرغ فرعون لهم ، وهم لا يريدون هذا التفرغ ، لأنه يؤدى إلى ضياع الكثير من منافعهم.

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى﴾ كانوا إذا هم بقتله كفّوه بقولهم : ليس موسى بالذي تخافه. وهو أقل من ذلك وأضعف وما هو إلا بعض السحرة .. وإنك إذا

---

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ٣٠٢.

قتلته أدخلت الشبهة على الناس. واعتقدوا أنك قد عجزت عن معارضته بالحجة.

والظاهر أن فرعون ـ لعنه الله ـ كان قد استيقن أن موسى نبيا. وأن ما جاء به آيات وما هو بسحر ، ولكن الرجل كان قتالا سفاكا للدماء في أهون شيء ، فكيف لا يقتل من أحس منه بأنه هو الذي يثل عرشه. ويهدم ملكه. ولكنه كان يخاف إن همّ بقتله. أن يعاجل بالهلاك .. »[1].

وقوله : ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ تظاهر من فرعون بأنه لا يبالى بما يكون من وراء قتله لموسى. وأنه غير مكترث لا بموسى ولا برب موسى.

فالجملة الكريمة بيان لما جبل عليه هذا الطاغية من فجور وتكبر واستهزاء بالحق فكأنه يقول : إنى قاتل لموسى وليدع ربه لكي يخلصه منى ..!!

ثم نرى فرعون بعد ذلك يتظاهر أمام حاشيته ، أنه ما حمله على إرادة قتل موسى ، إلا الحرص على منفعتهم. فيقول : ﴿إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ﴾.

أى : اتركوني لأقتل موسى. وليدع ربه لكي يخلصه منى. إن كان في إمكانه ذلك. فإنى أخاف إن لم أقتله أن يبدل دينكم الذي أنتم عليه بدين آخر أو بأن يظهر في الأرض التي تعيشون عليها الفساد ، عن طريق بث الفتن بينكم وإيقاد نار العداوة في صفوفكم. والعمل على اضطراب أمر دنياكم ومعاشكم.

وهكذا الطغاة الماكرون في كل زمان ومكان : يضربون الحق بكل سلاح من أسلحتهم الباطلة. ثم يزعمون بعد ذلك أمام العامة والبسطاء والمغلوبين على أمرهم .. أنهم ما فعلوا ذلك إلا من أجل الحرص على مصالحهم الدينية والدنيوية!!

قال الإمام الرازي : والمقصود من هذا الكلام ، بيان السبب لقتل موسى ، وهو أن وجوده يوجب إما فساد الدين أو فساد الدنيا ، أما فساد الدين فلأن القوم اعتقدوا أن الدين الصحيح هو الذي كانوا عليه. فلما كان موسى ساعيا في إفساده كان في اعتقادهم أنه ساع في إفساد الدين الحق.

وأما فساد الدنيا فهو أنه لا بد وأن يجتمع عليه قوم ، ويصير ذلك سببا لوقوع الخصومات وإثارة الفتن.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٦٠.

ولما كان حب الناس لأديانهم فوق حبهم لأموالهم ، لا جرم بدأ فرعون يذكر الدين فقال : ﴿إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ ثم أتبعه بذكر فساد الدنيا فقال : ﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ﴾ [1].

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما قاله موسى ـ عليه‌السلام ـ بعد أن سمع من فرعون تهديداته له ، وتطاوله عليه ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿وَقالَ مُوسى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ﴾.

وقوله ﴿عُذْتُ﴾ بمعنى استجرت ولجأت. يقال : عاذ فلان بفلان واستعاذ به ، إذا لجأ إليه. واستجار به.

أى : وقال موسى ـ عليه‌السلام ـ لقومه على سبيل التثبيت لهم على الحق يا قوم. إنى استجرت وتحصنت بربي وربكم من شر كل مستكبر عن الإيمان بالحق ، كافر بيوم الحساب وما فيه من ثواب وعقاب.

وفي هذا القول الذي قاله موسى لقومه : يتجلى صدق إيمانه ، وقوة يقينه ووثوقه برعاية الله ـ تعالى ـ له ، كما يتجلى فيه حرصه على نصحه لقومه بالثبات على الحق ، لأن الله ـ تعالى ـ الذي هو ربه وربهم ، كفيل برعايته ورعايتهم وبانجائه وبإنجائهم من فرعون وملئه ، كما يتجلى فيه أن الاستكبار عن اتباع الحق ، والتكذيب بالبعث ، على رأس الأسباب التي تعين على قسوة القلب ، وفساد النفس.

قال صاحب الكشاف : وقوله : ﴿وَرَبِّكُمْ﴾ فيه بعث لهم على أن يقتدوا به ، فيعوذوا بالله عياذه ، ويعتصموا بالتوكل عليه اعتصامه ، وقال : ﴿مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ لتشمل استعاذته من فرعون وغيره من الجبابرة ، وليكون على طريقة التعريض ، فيكون أبلغ. وأراد بالتكبر : الاستكبار عن الإذعان للحق ، وهو أقبح استكبار وأدله على دناءة صاحبه ، ومهانة نفسه ، وعلى فرط ظلمه وعسفه.

وقال : ﴿لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ﴾ لأنه إذا اجتمع في الرجل التجبر والتكذيب بالجزاء وقلة المبالاة بالعاقبة ، فقد استكمل أسباب القسوة والجراءة على الله وعباده. ولم يترك عظيمة إلا ارتكبها .. [2].

---

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ٣٠٣.

(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٦١.

وخلال هذا الوعيد والتهديد من فرعون وملئه لموسى - عليه السلام - ، قيض الله - تعالى - لموسى رجلا مؤمنا من آل فرعون كان يخفى إيمانه. هذا الرجل أخذ يدافع عن موسى دفاعا حكيما مؤثرا ، يحمل الترغيب تارة والترهيب أخرى ، والإرشاد تارة والتأنيب أخرى .. ويحكى القرآن ذلك بأسلوبه البليغ فيقول :

﴿وَقالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جاءَنا قالَ فِرْعَوْنُ ما أُرِيكُمْ إِلاَّ ما أَرى وَما أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشادِ (٢٩) وَقالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ (٣١) وَيا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ما لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّناتِ فَما زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ

مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ (٣٥)

قال الإمام الرازي : اعلم أنه ـ تعالى ـ لما حكى عن موسى ـ **عليه‌السلام** ـ أنه ما زاد في دفع مكر فرعون وشره على الاستعاذة بالله ، بين أنه ـ تعالى ـ قيض إنسانا أجنبيا غير موسى حتى ذب عنه على أحسن الوجوه ، وبالغ في تسكين تلك الفتنة ، واجتهد في إزالة ذلك الشر.

ثم قال ـ رحمه‌الله ـ : يقول مصنف هذا الكتاب : ولقد جربت في أحوال نفسي أنه كلما قصدني شرير بشر ولم أتعرض له ، وأكتفى بتفويض ذلك الأمر إلى الله ، فإنه ـ سبحانه ـ يقيض أقواما لا أعرفهم ألبتة. يبالغون في دفع ذلك الشر .. »(1).

وظاهر الآية الكريمة يفيد أن هذا الرجل المؤمن كان من حاشية فرعون بدليل قوله ـ تعالى ـ : ﴿مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ ولم يكن من بنى إسرائيل.

وقد رجح ابن جرير ـ رحمه‌الله ـ ذلك فقال : وأولى القولين في ذلك بالصواب عندي : القول الذي قاله السدى من أن الرجل المؤمن كان من آل فرعون ، ولذا فقد أصغى لكلامه واستمع منه ما قاله ، وتوقف عن قتل موسى عند نهيه عن قتله .. ولو كان إسرائيليا لكان حريا أن يعاجل هذا القائل له ولملئه بالعقوبة على قوله ، لأنه لم يكن يستنصح بنى إسرائيل لاعتداده إياهم أعداء له .. ولكنه لما كان من ملأ قومه ، استمع إليه ، وكف فرعون عما كان قد هم به من قتل موسى .. »(2).

قالوا : وهذا الرجل المؤمن هو الذي نصح موسى ـ عليه‌السلام ـ بقوله : ﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ، فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾.

---

(1) تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ٣٠٤.

(2) تفسير ابن جرير ج ٢٤ ص ٣٨.

وكان اسمه «حزقيل» أو «حبيب».

أى : وقال رجل مؤمن من آل فرعون وحاشيته ، وكان يكتم إيمانه عنهم ، حتى لا يصيبه أذى منهم ، فعند ما سمع فرعون يقول : ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى﴾. قال لهم : ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ ، وَقَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

أى : أتقتلون رجلا لأنه يقول ربي الله وحده ، وقد جاءكم بالحجج البينات ، وبالمعجزات الواضحة من عند ربكم ، كدليل على صدقه فيما يبلغه عنه.

فقوله : ﴿أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ﴾ في موضع المفعول لأجله. أى : أتقتلونه من أجل قوله هذا. وجملة ﴿وَقَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ حالية من فاعل يقول وهو موسى ـ عليه‌السلام ـ ..

والمقصود بهذا الاستفهام : الإنكار عليهم والتبكيت لهم ، حيث قصدوا قتل رجل كل ذنبه أنه عبد الله ـ تعالى ـ وحده وقد جاءهم بالمعجزات الواضحات الدالة على صحة فعله وقوله.

قال الإمام ابن كثير : وقد كان هذا الرجل يكتم إيمانه عن قومه القبط ، فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى﴾ فأخذت الرجل غضبة لله ـ تعالى ـ و «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر» اللهم إلا ما رواه البخاري في صحيحه حيث قال :

حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا الأوزاعى ، حدثني عروة بن الزبير قال : قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص : أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم فقال : بينا رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم بفناء الكعبة ، إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فأخذ بمنكب رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم ولوى ثوبه في عنقه ، فخنقه خنقا شديدا. فأقبل أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ فأخذ بمنكبه ودفع عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم ثم قال : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم [1].

وقال القرطبي : وعن على ـ رضى الله عنه ـ قال : اجتمعت قريش بعد وفاة أبى طالب بثلاث : فأرادوا قتل رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم فأقبل هذا يجؤه ـ أى يضربه ـ ، وهذا يتلتله ـ أى : يحركه تحريكا شديدا ـ فلم يغثه أحد إلا أبو بكر وله ضفيرتان ، فأقبل يجأ هذا ويتلتل ذا ، ويقول بأعلى صوته : ويلكم .. أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ، والله إنه لرسول

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٣١.

الله ، فقطعت إحدى ضفيرتى أبى بكر يومئذ [1].

ثم يحكى القرآن الكريم أن ذلك الرجل المؤمن ، لم يكتف بالإنكار على قومه قصدهم موسى بالقتل بل أخذ في محاولة إقناعهم بالعدول عن هذا القصد بشتى الأساليب والحجج فقال : ﴿وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ، وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ..﴾.

أى : أنه قال لهم : إن كان موسى ـ على سبيل الفرض ـ كاذبا فيما يقوله ويفعله فعليه وحده يقع ضرر كذبه ، وليس عليكم منه شيء ، وإن كان صادقا فيما يقوله ويفعله ، فلا أقل من أن يصيبكم بعض الذي يعدكم به من سوء عاقبة مخالفة ما أتاكم به من عند ربه ..

فأنت ترى أن الرجل كان في نهاية الحكمة والإنصاف وحسن المنطق ، في مخاطبته لقومه ، حيث بين لهم أن الأمر لا يخرج عن فرضين ، وكلاهما لا يوجب قصد موسى ـ عليه‌السلام ـ بالقتل.

ورحم الله صاحب الكشاف. فقد أجاد عند تفسيره لهذه الآية فقال ما ملخصه : وقوله : ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ ...﴾ هذا إنكار عظيم منه ، وتبكيت شديد لهم ، كأنه قال : أترتكبون الفعلة الشنعاء التي هي قتل نفس محرمة ، وما لكم علة قط في ارتكابها إلا كلمة الحق التي نطق بها وهي قوله ﴿رَبِّيَ اللهُ﴾ ..

ثم أخذ في الاحتجاج عليهم على طريقة التقسيم فقال : لا يخلو من أن يكون كاذبا أو صادقا ، فإن يك كاذبا فعليه يعود كذبه ولا يتخطاه ضرره ، وإن يك صادقا يصبكم بعض ما يعدكم به إن تعرضتم له.

فإن قلت : لم قال : ﴿بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ وهو ـ أى موسى ـ نبي صادق ، لا بد لما يعدهم أن يصيبهم كله لا بعضه؟

قلت : لأنه احتجاج في مقاولة خصوم موسى ومناكريه ، إلى أن يلاوصهم ـ أى يحايلهم ـ ويداريهم ، ويسلك معهم طريق الإنصاف في القول ويأتيهم من جهة المناصحة ، فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله ، وأدخل في تصديقهم له وقبولهم منه ، فقال ﴿وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ وهو كلام المصنف في مقاله ، غير المشتط فيه ، ليسمعوا منه ولا يردوا عليه ، وذلك أنه حين فرضه صادقا ، فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يعد ، ولكنه أردفه بقوله : ﴿يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ ليهضمه بعض حقه في ظاهر الكلام ، فيريهم أنه ليس

---

(1) راجع تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٣٠٨.

بكلام من أعطاه حقه وافيا ، فضلا عن أن يتعصب له ، وتقديم الكاذب على الصادق أيضا من هذا القبيل .. [1].

ثم أرشد الرجل المؤمن الحصيف قومه إلى سنة من سنن الله التي لا تتغير فقال : ﴿إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾.

أى : إن سنة الله ـ تعالى ـ قد اقتضت أنه ـ سبحانه ـ لا يهدى الى الحق والصواب ، من كان مسرفا في أموره ، متجاوزا الحدود التي شرعها الله ـ تعالى ـ ومن كان كذابا في إخباره عن الله ـ تعالى ـ ، ولو كان موسى مسرفا أو كذابا ، لما أيده الله ـ تعالى ـ بالمعجزات الباهرة. وبالحجج الساطعة الدالة على صدقه.

فالجملة الكريمة إرشاد لهم عن طريق خفى إلى صدق موسى فيما يبلغه عن ربه ، وتعريض بما عليه فرعون من ظلم وكذب.

قال الجمل في حاشيته : فالجملة الكريمة كلام ذو وجهين نظرا لموسى وفرعون.

الوجه الأول : أن هذا إشارة الى الرمز والتعريض بعلو شأن موسى ، والمعنى : إن الله هدى موسى إلى الإتيان بالمعجزات الباهرة ، ومن هداه الله إلى ذلك لا يكون مسرفا ولا كذابا.

الوجه الثاني : أن يكون المراد أن فرعون مسرف في عزمه على قتل موسى. وكاذب في ادعائه الألوهية ، والله لا يهدى من كان كذلك .. [2].

ثم أخذ في تذكيرهم بنعم الله عليهم ، وفي تحذيرهم من نقمه فقال : ﴿يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ ، فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جاءَنا﴾.

أى : وقال الرجل المؤمن لقومه ـ أيضا ـ : يا قوم ، أى : يا أهلى ويا عشيرتي ، أنتم اليوم لكم الملك ، حالة كونكم ظاهرين ، أى : غالبين ومنتصرين في أرض مصر ، عالين فيها على بني إسرائيل قوم موسى.

وإذا كان أمرنا كذلك ، فمن يستطيع أن ينصرنا من عذاب الله ، إن أرسله علينا ، بسبب عدم شكرنا له ، واعتدائنا على خلقه.

وإنما نسب إليهم ما يسرهم من الملك والظهور في الأرض دون أن يسلك نفسه معهم ، وسلك نفسه معهم في موطن التحذير ، تطييبا لقلوبهم ، وإيذانا بأنه ناصح أمين لهم ، وأنه لا

---

(١) راجع تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٦٢.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ١٣.

يهمه سوى منفعتهم ومصلحتهم ..

وهنا نجد القرآن الكريم يخبرنا بأن فرعون بعد أن استمع إلى نصيحة الرجل المؤمن ، أخذته العزة بالإثم ، وقال ما يقوله كل طاغية معجب بنفسه : ﴿ما أُرِيكُمْ إِلَّا ما أَرى ، وَما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ﴾.

أى : قال فرعون لقومه ، في رده على نصيحة الرجل المؤمن : يا قوم لا أشير عليكم ولا أخبركم إلا بما أراه صوابا وخيرا ، وهو أن أقتل موسى ـ عليه‌السلام ـ وما أهديكم برأيى هذا إلا إلى طريق السداد والرشاد.

وغرض فرعون بهذا القول ، التدليس والتمويه على قومه. وأنه ما يريد إلا منفعتهم ، مع أن الدافع الحقيقي لقوله هذا ، هو التخلص من موسى حتى يخلو له الجو في تأليه نفسه على جهلة قومه ، فإنهم كانوا كما قال ـ تعالى ـ في شأنهم : ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ﴾.

ولكن الرجل المؤمن لم يسكت أمام هذا التدليس والتمويه الذي نطق به فرعون ، بل استرسل في نصحه لقومه. وحكى القرآن عنه ذلك فقال : ﴿وَقالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ ، إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزابِ ..﴾.

أى قال لهم : يا قوم إنى أخاف عليكم إذا تعرضتم لموسى ـ عليه‌السلام ـ بالقتل أو بالتكذيب ، أن ينزل بكم عذاب مثل العذاب الذي نزل على الأمم الماضية التي تحزبت على أنبيائها ، وأعرضت عن دعوتهم ، فكانت عاقبتها خسرا ..

فالمراد بالأحزاب : تلك الأمم السابقة التي وقفت من أنبيائها موقف العداء والبغضاء. وكأن تلك الأمم من حزب ، والأنبياء من حزب آخر ..

والمراد باليوم هنا : الأحداث والوقائع والعقوبات التي حدثت فيه. فالكلام على حذف مضاف.

أى : أخاف عليكم مثل حادث يوم الأحزاب.

وقوله : ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ...﴾ بدل أو عطف بيان من قوله ﴿مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزابِ﴾.

والدأب : العادة الدائمة المستمرة يقال : دأب فلان على كذا ، إذا داوم عليه وجد فيه ، ثم غلب استعماله في الحال والشأن والعادة.

أى : أخاف عليكم أن يكون حالكم وشأنكم كحال قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم

كقوم لوط ، فهؤلاء الأقوام كذبوا أنبياءهم فدمرهم الله ـ تعالى ـ تدميرا ، فاحذروا أن تسيروا على نهجهم بأن تقصدوا موسى ـ عليه‌السلام ـ بالقتل أو الإيذاء ، فينزل بكم العذاب مثل ما نزل بهم.

(وَمَا اللّهُ) ـ تعالى ـ (يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ) أى : فما أنزله ـ سبحانه ـ بهم من عذاب ، إنما هو بسبب إصرارهم على شركهم. وعلى الإعراض عن دعوة أنبيائهم ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

ثم يواصل الرجل المؤمن تذكير قومه بأهوال يوم القيامة فيقول : (وَيا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنادِ).

أخاف عليكم يوم القيامة الذي يكثر فيه نداء أهل الجنة لأهل النار. ونداء أهل النار لأهل الجنة ، ونداء الملائكة لأهل السعادة وأهل الشقاوة.

فلفظ «التناد» ـ بتخفيف الدال وحذف الياء ـ تفاعل من النداء ، يقال : تنادى القوم ، إذا نادى بعضهم بعضا ..

وقوله : (يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ما لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عاصِمٍ ...) بدل من يوم التناد. أى : أخاف عليكم من أهوال يوم القيامة ، يوم تنصرفون عن موقف الحساب والجزاء فتتلقاكم النار بلهيبها وسعيرها ، وتحاولون الهرب منها فلا تستطيعون. لأنه لا عاصم لكم ولا مانع في هذا اليوم من عذاب الله ـ تعالى ـ وعقابه.

(وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ) أى : ومن يضلله الله ـ تعالى ـ عن طريق الحق بسبب سوء استعداده ، واستحبابه العمى على الهدى. فما له من هاد يهديه إلى الصراط المستقيم.

وهكذا نجد الرجل المؤمن بعد أن خوف قومه من العذاب الدنيوي ، أتبع ذلك بتخويفهم من العذاب الأخروى.

ثم ذكرهم بعد ذلك بما كان من أسلافهم مع أحد أنبيائهم فقال : (وَلَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّناتِ فَما زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ ، حَتَّى إِذا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً).

والذي عليه المحققون أن المراد بيوسف هنا : يوسف بن يعقوب ـ عليهما‌السلام ـ والمراد بمجيئه إليهم : مجيئه إلى آبائهم ، إذ بين يوسف وموسى ـ عليهما‌السلام ـ أكثر من أربعة قرون ، فالتعبير في الآية الكريمة من باب نسبة أحوال الآباء إلى الأبناء لسيرهم على منوالهم وعلى طريقتهم في الإعراض عن الحق.

أى : ولقد جاء يوسف ـ عليه السلام ـ إلى آبائكم من قبل مجيء موسى إليكم ، وكان مجيئه إلى آبائكم مصحوبا بالمعجزات والبينات ، والآيات الواضحات الدالة على صدقه.

﴿فَما زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ﴾ أى : فما زال آباؤكم في شك مما جاءهم به من البينات والهدى ، كشأنكم أنتم مع نبيكم موسى ـ عليه السلام ـ..

﴿حَتَّى إِذا هَلَكَ﴾ أى : مات يوسف ـ عليه السلام ـ..

﴿قُلْتُمْ﴾ أى : قال آباؤكم الذين أنتم من نسلهم ﴿لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً﴾ فهم قد كذبوا رسالته في حياته ، وكفروا بمن بعده من الرسل بعد موته ، لأنهم نفوا أن يكون هناك رسول من بعده.

فأنت ترى أن الرجل المؤمن يحذر قومه من أن يسلكوا مسلك آبائهم ، في تكذيب رسل الله ، وفي الإعراض عن دعوتهم.

قال ابن كثير : قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّناتِ﴾ يعنى : أهل مصر ، قد بعث الله فيهم رسولا من قبل موسى ، وهو يوسف ـ عليه السلام ـ ، كان عزيز أهل مصر ، وكان رسولا يدعو إلى الله أمته القبط ، فما أطاعوه تلك الساعة إلا لمجرد الوزارة. والجاه الدنيوي. ولهذا قال : ﴿فَما زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً﴾ أى : يئستم فقلتم طامعين : ﴿لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً﴾ وذلك لكفرهم وتكذيبهم [1].

وقوله : ﴿كَذلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ﴾ أى : مثل ذلك الإضلال الفظيع ، يضل الله ـ تعالى ـ من هو مسرف في ارتكاب الفسوق والعصيان ، ومن هو مرتاب في دينه. شاك في صدق رسوله ، لاستيلاء الشيطان والهوى على قلبه.

ثم بين لهم أن غضب الله ـ تعالى ـ شديد ، على الذين يجادلون في آياته الدالة على وحدانيته وعلى كمال قدرته ، وعلى صدق أنبيائه ، بغير حجة أو دليل فقال ﴿الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ ، كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا ...﴾.

وقوله : ﴿الَّذِينَ يُجادِلُونَ ...﴾ مبتدأ ، وخبره قوله ـ تعالى ـ : ﴿كَبُرَ مَقْتاً ..﴾ والفاعل ضمير يعود إلى الجدال المفهوم من قوله ﴿يُجادِلُونَ﴾ أى : كبر جدالهم و ﴿مَقْتاً﴾ تمييز محول عن الفاعل ، أى : عظم بغضا جدالهم عند الله وعند المؤمنين.

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٣٣.

أى : الذين يجادلون في آيات الله الدالة على وحدانيته ، وعلى صدق أنبيائه بغير دليل أو برهان أتاهم من الله - تعالى - عن طريق رسله ، هؤلاء الذين يفعلون ذلك ، كبر وعظم بغضا جدالهم عند الله - تعالى - وعند الذين آمنوا.

قال الجمل : وهذه الصفة - وهي الجدال بالباطل بدون برهان - موجودة في فرعون وقومه ، ويكون الرجل المؤمن قد عدل عن مخاطبتهم إلى الاسم الغائب ، لحسن محاورته لهم ، واستجلاب قلوبهم. وأبرز ذلك في صورة تذكرهم فلم يخصهم بالخطاب.

وفي قوله : ﴿كَبُرَ﴾ ضرب من التعجب والاستعظام لجدالهم [1].

وقوله : ﴿كَذلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ أى : مثل ذلك الطبع العجيب ، يطبع الله - تعالى - ويختم بالكفر والعمى على قلب كل إنسان متكبر عن الاستماع للحق ، متطاول ومتجبر على خلق الله - تعالى - بالعدوان والإيذاء.

ومع هذا النصح الزاخر بالحكم الحكيمة ، والتوجيهات السليمة ، والإرشادات القويمة من الرجل المؤمن لقومه .. ظل فرعون سادرا في غيه ، مصرا على كفره وضلاله .. إلا أن الرجل المؤمن لم ييأس من توجيه النصح بل أخذ يذكر وينذر ويبشر .. ويحكى القرآن الكريم كل ذلك فيقول :

﴿وَقالَ فِرْعَوْنُ يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ (٣٦) أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً وَكَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبابٍ (٣٧) وَقالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ (٣٨) يا قَوْمِ إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ١٥.

دارُ الْقَرارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزى إِلاَّ مِثْلَها وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسابٍ (٤٠) وَيا قَوْمِ ما لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لا جَرَمَ أَنَّما تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيا وَلا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنا إِلَى اللهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (٤٤) فَوَقاهُ اللهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا وَحاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ﴾ (٤٦)

والمراد بالصرح في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَقالَ فِرْعَوْنُ يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً ...﴾ البناء العالي المكشوف للناس ، الذي يرى الناظر من فوقه ما يريد أن يراه ، مأخوذ من التصريح بمعنى الكشف والإيضاح.

والأسباب : جمع سبب ، وهو كل ما يتوصل به إلى الشيء ، والمراد بها هنا : أبواب السماء وطرقها ، التي يصل منها إلى ما بداخلها.

أى : وقال فرعون لوزيره هامان : يا هامان ابن لي بناء ظاهرا عاليا مكشوفا لا يخفى على

الناظر وإن كان بعيدا عنه ، لعلى عن طريق الصعود على هذا البناء الشاهق أبلغ الأبواب الخاصة بالسموات ، فأدخل منها فأنظر الى إله موسى.

والمراد بالظن في قوله ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً﴾ اليقين لقوله ـ تعالى ـ في آية أخرى : ﴿وَقالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلى إِلهِ مُوسى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكاذِبِينَ﴾ [1].

فقوله ـ كما حكى القرآن عنه ـ : ﴿ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي﴾ قرينة قوية على أن المراد بالظن في الآيتين : اليقين والجزم ، بسبب غروره وطغيانه.

أى : وإنى لأعتقد وأجزم بأن موسى كاذبا في دعواه أن هناك إلها غيرى لكم ، وفي دعواه أنه رسول إلينا.

وكرر لفظ الأسباب لأن اللفظ الثاني يدل على الأول ، والشيء إذا أبهم ثم أوضح ، كان تفخيما لشأنه ، فلما أراد تفخيم ما أمل بلوغه من أسباب السموات أبهمها ثم أوضحها.

وقوله : ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ قرأه الجمهور بالرفع عطفا على ﴿أَبْلُغُ﴾ فيكون في حيز الترجي.

وقرأه بعض القراء السبعة بالنصب فيكون جوابا للأمر في قوله : ﴿ابْنِ لِي صَرْحاً ..﴾.

ولا شك أن قول فرعون هذا بجانب دلالته على أنه بلغ الغاية في الطغيان والفجور والاستخفاف بالعقول ، يدل ـ أيضا ـ على شدة خداعه ، إذ هو يريد أن يتوصل من وراء هذا القول إلى أنه ليس هناك إله سواه ولو كان هناك إله سواه لشاهده هو وغيره من الناس.

قال الإمام ابن كثير : وذلك لأن فرعون بنى هذا الصرح ، الذي لم ير في الدنيا بناء أعلى منه ، وإنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما قاله ، من أن هناك إلها غير فرعون .. [2].

وقال الجمل في حاشيته ما ملخصه : وقول فرعون هذا المقصود منه التلبيس والتمويه والتخليط على قومه توصلا لبقائهم على الكفر ، وإلا فهو يعرف حقيقة الإله ، وأنه ليس في جهة ، ولكنه أراد التلبيس ، فكأنه يقول لهم : لو كان إله موسى موجودا لكان له محل ، ومحله إما الأرض وإما السماء ، ولم نره في الأرض ، فيبقى أن يكون في السماء ، والسماء لا يتوصل

---

(١) سورة القصص آية ٣٨.

(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٤٨.

إليها إلا بسلم .. [1].

ثم بين ـ سبحانه ـ أن مكر فرعون هذا مصيره إلى الخسران فقال : ﴿وَكَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ ، وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبابٍ﴾.

والتباب : الهلاك والخسران ، يقال : تب الله ـ تعالى ـ فلانا ، أى : أهلكه ، وتبت يدا فلان ، أى : خسرتا ومنه قوله ـ سبحانه ـ : ﴿تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ...﴾.

أى : ومثل ذلك التزيين القبيح ، زين لفرعون سوء عمله ، فرآه حسنا ، لفجوره وطغيانه ، وصد عن سبيل الهدى والرشاد ، لأنه استحب العمى على الهدى. وما كيد فرعون ومكره وتلبيسه واحتياله في إبطال الحق ، إلا في هلاك وخسران وانقطاع.

ثم حكى القرآن الكريم أن الرجل المؤمن قد تابع حديثه ونصائحه لقومه ، بعد أن استمع إلى ما قاله فرعون من باطل وغرور فقال : ﴿وَقالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ ..﴾ أى : فيما أنصحكم به ، وأرشدكم إليه.

﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ﴾ أى : اتبعونى فيما نصحتكم به ، فإن في اتباعكم لي هدايتكم إلى الطريق الذي كله صلاح وسعادة وسداد. أما اتباعكم لفرعون فيؤدى بكم إلى طريق الغي والضلال.

﴿يا قَوْمِ إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ ...﴾ أى : هذه الدنيا متاع زائل مهما طالت أيامه ..

﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ﴾ وحدها ﴿هِيَ دارُ الْقَرارِ﴾ أى : هي الدار التي فيها البقاء والدوام والخلود.

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾ في هذه الدنيا ﴿فَلا يُجْزى﴾ في الآخرة ﴿إِلَّا مِثْلَها﴾ كرما من الله ـ تعالى ـ وعدلا.

﴿وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله ـ تعالى ـ إيمانا حقا.

﴿فَأُولئِكَ﴾ المؤمنون الصادقون ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسابٍ﴾ أى : يرزقون فيها رزقا واسعا هنيئا ، لا يعلم قدره إلا الله ـ تعالى ـ ، ولا يحاسبهم عليه محاسب. فقد تفضل ـ سبحانه ـ على عباده. أن يضاعف لهم الحسنات دون السيئات.

ثم استنكر موقف قومه منه فقال : ﴿وَيا قَوْمِ ما لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجاةِ﴾ من العذاب

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ١٦.

الدنيوي والأخروى ، بأن آمركم بالإيمان والعمل الصالح ، وأنهاكم عن قتل رجل يقول ربي الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وهو موسى - عليه السلام - ..

وأنتم ﴿تَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ أى : تدعونني لما يوصل إلى النار وهو عبادة غير الله - تعالى - ، والموافقة على قتل الصالحين أو إيذائهم ..

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم كرر نداء قومه؟ ولم جاء بالواو في النداء الثالث دون الثاني؟.

قلت : أما تكرير النداء ففيه زيادة تنبيه لهم ، وإيقاظ عن سنة الغفلة ، وفيه : أنهم قومه وعشيرته .. ونصيحتهم عليه واجبة ، فهو يتحزن لهم ، ويتلطف بهم ، ويستدعى بذلك أن لا يتهموه - فإن سرورهم سروره ، وغمهم غمه - وأن ينزلوا على تنصيحه لهم ، كما كرر إبراهيم - عليه السلام - في نصيحة أبيه قوله : ﴿يا أَبَتِ﴾ في سورة مريم.

وأما المجيء بالواو العاطفة في النداء الثالث دون الثاني ، فلأن الثاني داخل على كلام هو بيان للمجمل ، وتفسير له فأعطى الداخل عليه حكمه في امتناع دخول الواو. وأما الثالث : فداخل على كلام ليس بتلك المثابة [1].

وقوله : ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ...﴾ بدل من قوله : ﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ وتفسير وبيان له.

أى : أنا أدعوكم إلى النجاة من النار ، وأنتم تدعونني إلى الإشراك بالله - تعالى - وإلى الكفر به ، مع أنى أعلم علم اليقين أنه - سبحانه - لا شريك له ، لا في ذاته ولا في صفاته.

وقوله : ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ بيان للفرق الشاسع بين دعوته لهم ودعوتهم له.

فهم يدعونه إلى الشرك والكفر ، وإلى عبادة آلهة قد قام الدليل القاطع على بطلانها ، وهو يدعوهم إلى عبادة الله - تعالى - وحده ، الغالب لكل ما سواه ، الواسع المغفرة لمن تاب إليه بعد أن عصاه ..

ثم يؤكد لهم بصورة لا تقبل الشك أو التردد أن ما يطلبونه منه هو الباطل وأن ما يطلبه منهم هو الحق فيقول : ﴿لا جَرَمَ أَنَّما تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ، لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيا وَلا فِي الْآخِرَةِ ...﴾.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٦٨.

وجرم : فعل ماض بمعنى حق وثبت ووجب. وقد وردت هذه الكلمة في القرآن في خمسة مواضع ، وفي كل موضع جاءت متلوة بأنّ واسمها.

وجمهور النحاة على أنها مركبة من «لا» و «جرم» تركيب خمسة عشر. ومعناها بعد هذا التركيب معنى الفعل حق وثبت ، والجملة بعدها هي الفاعل لهذا الفعل ..

ومن النحاة من يرى أن «لا» نافية للجنس ، و «جرم» اسمها ، وما بعدها خبرها.

أى : حق وثبت لدى بما لا يقبل الشك ، أن آلهتكم التي تدعونني لعبادتها آلهة باطلة ، لا وزن لها ولا قيمة لا في الدنيا ولا في الآخرة ..

﴿وَأَنَّ مَرَدَّنا﴾ جميعا ﴿إِلَى اللهِ﴾ ـ تعالى ـ وحده ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ﴾ أى : المستكثرين من المعاصي في الدنيا ﴿هُمْ أَصْحابُ النَّارِ﴾ في الآخرة.

ثم نصح نصائحه الحكيمة الغالية بقوله : فستذكرون يا قوم ما أقول لكم من حق وصدق.

﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ﴾ ـ تعالى ـ وحده لكي يعصمني من كل سوء.

﴿إِنَّ اللهَ﴾ ـ تعالى ـ ﴿بَصِيرٌ بِالْعِبادِ﴾ لا يخفى عليه شيء من أقوالهم أو أفعالهم ، وسيجازى يوم القيامة كل نفس بما كسبت.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿فَوَقاهُ اللهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا﴾ بيان للعاقبة الطيبة التي أكرمه الله ـ سبحانه ـ بها بعد صدوعه بكلمة الحق أمام فرعون وجنده ..

أى : فكانت نتيجة إيمان هذا الرجل ، وجهره بكلمة الحق ، ونصحه لقومه ، أن وقاه الله ـ تعالى ـ ما أراده الظالمون به من أذى وعدوان ومن مكر سيئ ..

﴿وَحاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ﴾ أى : ونزل وأحاط بفرعون وقومه ﴿سُوءُ الْعَذابِ﴾ بأن أغرقهم الله ـ تعالى ـ في اليم ، وجعلهم عبرة لمن يعتبر.

ثم بين ـ سبحانه ـ سوء مصيرهم بعد موتهم ، وعند قيام الساعة ، فقال : ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ﴾ .. والغدو : أول النهار. والعشى : آخره ، وجملة : ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها ..﴾ بدل من قوله ـ تعالى ـ ﴿سُوءُ الْعَذابِ﴾. بعرض أرواح فرعون وملئه على النار بعد موتهم وهم في قبورهم في الصباح والمساء ، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ يقال لملائكة العذاب : ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ﴾ وهو عذاب جهنم وبئس المصير مصيرهم.

قال القرطبي : والجمهور على أن هذا العرض في البرزخ واحتج بعض أهل العلم في تثبيت عذاب القبر بقوله ـ تعالى ـ : ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ مادامت الدنيا ..

قال مجاهد وغيره : هذه الآية تدل على عذاب القبر في الدنيا ألا تراه يقول ـ سبحانه ـ عن عذاب الآخرة : ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ﴾.

وفي الحديث عن ابن مسعود : إن أرواح آل فرعون ومن كان مثلهم من الكفار ، تعرض على النار بالغداة والعشى ، فيقال : هذه داركم .. [1].

هذا ، والمتأمل في هذه الآية الكريمة ، يرى أن القرآن قد ساق على لسان مؤمن آل فرعون ، أسمى الأساليب وأحكمها في الدعوة إلى الحق ، فقد بدأ نصحه بنهي قومه عن قتل موسى ـ عليه السلام ـ ثم ذكرهم بنعم الله عليهم ، وبسوء عاقبة الظالمين ، وبأن نعيم الدنيا زائل ، أما نعيم الآخرة فباق ، وبأن ما يدعوهم إليه هو الحق ، وبأن ما يدعونه إليه هو الباطل.

ثم ختم تلك النصائح الغالية بتفويض أمره إلى الله فقال : ﴿فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ ، إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ﴾ فكانت نتيجة هذا التفويض ، أن وقاه الله ـ تعالى ـ من سوء مكر أعدائه ، ونجاه من شرورهم ، وأن جعل مكرهم السيئ يحيق بهم.

ثم حكى ـ سبحانه ـ جانبا مما يدور بين أهل النار من مجادلات ، وكيف أن كل فريق منهم يطلب من الملائكة تخفيف العذاب عنه ، ولكن لا يجابون إلى طلبهم ، ولا تقبل معذرتهم ، وأن سنة الله قد اقتضت أن ينصر عباده الصالحين في الدنيا والآخرة قال ـ تعالى ـ :

﴿وَإِذْ يَتَحاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ (٤٧) قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيها إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ (٤٨) وَقالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ

---

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٣١٨.

جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذابِ (٤٩) قالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا بَلى قالُوا فَادْعُوا وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (٥٠) إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ (٥١) يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢) وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْهُدى وَأَوْرَثْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ (٥٣) هُدىً وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (٥٤) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكارِ﴾ (٥٥)

و ﴿إِذْ﴾ في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَإِذْ يَتَحاجُّونَ فِي النَّارِ﴾ متعلق بمحذوف تقديره : اذكر ، أى : واذكر ـ أيها الرسول الكريم ـ لقومك ليعتبروا ويتعظوا وقت أن يتخاصم أهل النار فيما بينهم.

﴿فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ﴾ منهم ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ في الدنيا وكانوا رؤساء وقادة : ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً﴾ أى إنا كنا في الدنيا تابعين لكم ، ومنقادين لهواكم ومسخرين لخدمتكم .. والاستفهام في قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ﴾ للطلب المصحوب بالرجاء والاستجداء ..

أى : هذا هو حالنا أمامكم ، وقد كنا في الدنيا منقادين لكم انقياد العبد لسيده ، فادفعوا عنا شيئا من هذا العذاب المهين الذي نزل بنا ، فطالما دافعنا عنكم في الدنيا وسرنا وراءكم بدون تفكير أو معارضة ..

وقوله ﴿نَصِيباً﴾ منصوب بفعل مقدر يدل عليه قوله ﴿مُغْنُونَ﴾ أى : فهل أنتم تدفعون عنا جزءا من العذاب الذي نحن فيه ، وتحملون عنا نصيبا منه.

وهنا يرد عليهم المستكبرون ، بضيق وملل. ويحكى القرآن ذلك فيقول ﴿قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ أى للضعفاء.

﴿إِنَّا كُلٌّ فِيها﴾ أى : إنا نحن وأنتم جميعا في جهنم ، فكيف ندفع عنكم شيئا من العذاب ، وإننا لو كانت عندنا القدرة على دفع شيء من العذاب ، لدفعناه عن أنفسنا.

ولفظ ﴿كُلٌّ﴾ مبتدأ ، وفيها متعلق بمحذوف خبر ، والجملة من المبتدأ والخبر ، خبر إن.

وجملة : ﴿إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ﴾ من جملة الرد ، أى : إن الله ـ تعالى ـ قد حكم بين العباد بحكمه العادل ، فجعل للمؤمنين الجنة ، وجعل للكافرين النار وقدر لكل منا ومنكم عذابا لا تغنى فيه نفس عن نفس شيئا.

وبعد أن يئس الكل من نصرة بعضهم لبعض ، اتجهوا جميعا نحو خزنة جهنم لعلهم يشفعون لهم عند ربهم ، ويحكى القرآن : ذلك فيقول : ﴿وَقالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ ، لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ وهم الملائكة المكلفون بتعذيب الكافرين.

قالوا لهم : ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذابِ﴾ أى : ادعوا ربكم أن يخفف عنا يوما واحدا من الأيام الكثيرة التي ينزل علينا العذاب فيها بدون انقطاع ، لعلنا في هذا اليوم نستطيع أن نلتقط أنفاسنا التي مزقها العذاب الدائم.

وهنا يرد عليهم خزنة جهنم بقولهم : ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّناتِ﴾ أى : قالوا لهم على سبيل التوبيخ والتأنيب : أو لم تك رسلكم في الدنيا تنذركم بسوء مصير الكافرين ، وتأتيكم بالمعجزات الواضحات الدالة على صدقهم.

﴿قالُوا بَلى﴾ أى : الكافرون لخزنة جهنم : بلى أتونا بكل ذلك فكذبناهم.

وهنا رد عليهم الخزنة بقولهم : مادام الأمر كما ذكرتم من أن الرسل قد نصحوكم ولكنكم أعرضتم عنهم ﴿فَادْعُوا﴾ ما شئتم فإن الدعاء والطلب والرجاء لن ينفعكم شيئا.

﴿وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ﴾ أى : وما دعاء الكافرين وتضرعهم إلا في ضياع وخسران.

ثم بين ـ سبحانه ـ سنة من سننه التي لا تتخلف فقال : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا ، وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ﴾.

والأشهاد : جمع شاهد ، وعلى رأسهم الأنبياء الذين يشهدون على أممهم يوم القيامة بأنهم

قد بلغوهم دعوة الله ، والملائكة الذين يشهدون للرسل بالتبليغ ، وللمؤمنين بالإيمان وللكافرين بالكفر ، وكل من يقوم يوم القيامة للشهادة على غيره يكون من الأشهاد.

أى : لقد اقتضت سنتنا التي لا تتخلف أن ننصر رسلنا والمؤمنين في الدنيا بالحجة الدامغة التي تزهق باطل أعدائهم ، وبالتغلب عليهم ، وبالانتقام منهم.

وأن ننصرهم في الآخرة كذلك بأن نجعل لهم الجنة ، والنار لأعدائهم.

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ﴾ أى : في الدنيا والآخرة ، يعنى أنه ينصرهم في الدارين جميعا بالحجة والظفر على أعدائهم ، وإن غلبوا في الدنيا في بعض الأحايين امتحانا من الله ، فالعاقبة لهم ، ويتيح الله من يقتص من أعدائهم ولو بعد حين [(١)].

وما ذكره صاحب الكشاف فإننا نراه واقعا في سيرة الرسول ﷺ وفي سيرة أتباعه فلقد هاجر النبي ﷺ من مكة وليس معه سوى أبى بكر الصديق ، وعاد إليها بعد ثماني سنوات فاتحا غازيا ظافرا ، ومن حوله الآلاف من أصحابه.

والمؤمنون قد يغلبون ـ أحيانا ـ ويعتدى عليهم .. ولكن العاقبة لا بد أن تكون لهم. متى داوموا على التمسك بما يقتضيه إيمانهم من الثبات على الحق ، ومن العمل الصالح ..

وعبر ـ سبحانه ـ عن يوم القيامة ، بيوم يقوم الأشهاد ، للإشعار بأن نصر الرسل والمؤمنين في هذا اليوم سيكون نصرا مشهودا معلوما من الأولين والآخرين ، لا ينكره منكر. ولا ينازع فيه منازع.

وقوله : ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾. أى : وننصرهم يوم القيامة يوم يقدم الظالمون أعذارهم لكي نعفو عنهم. فلا يقبل منهم عذر واحد ، لأنها أعذار ساقطة. وجاءت في غير وقتها.

ولا منافاة بين هذه الآية وبين قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ لأن المقصود منها واحد. وهو أنهم ليس لهم عذر مقبول حتى يلتفت إليهم ، وإنما عذرهم مرفوض رفضا تاما.

﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ من الله ـ تعالى ـ ومن عباده المؤمنين ﴿وَلَهُمْ﴾ ـ أيضا ـ ﴿سُوءُ الدَّارِ﴾ وهي جهنم وسوؤها ما يسوء فيها من العذاب ، فالإضافة من باب إضافة الصفة إلى الموصوف. أى : ولهم الدار السوءى.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٧٢.

وفي هاتين الآيتين ما فيهما من البشارة السارة العظيمة للمؤمنين ومن الإهانة التي ليس بعدها إهانة للكافرين.

ثم ساق ـ سبحانه ـ مثالا من نصره لرسله ولعباده المؤمنين. فقال ـ تعالى ـ : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْهُدى وَأَوْرَثْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ ، هُدىً وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ﴾.

أى : والله لقد آتينا عبدنا ونبينا موسى ما يهتدى به من المعجزات والصحف والشرائع. وأورثنا من بعده قومه بنى إسرائيل الكتاب وهو التوراة. لكي ينتفعوا بإرشاداته وأحكامه وتوجيهاته.

وفعلنا ما فعلنا من أجل أن يكون ذلك الكتاب هداية وذكرى لأصحاب العقول السليمة فقوله ـ تعالى ـ ﴿هُدىً وَذِكْرى﴾ مفعول لأجله. أو هما مصدران في موضع الحال. أى : وأورثنا بنى إسرائيل الكتاب ، حالة كونه هاديا ومذكرا لأولى الألباب. لأنهم هم الذين ينتفعون بالهدايات. وهم الذين يتذكرون ويعتبرون دون غيرهم.

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآيات الكريمة بأمر النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم بالصبر على أذى أعدائه. فقال : ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ..﴾.

أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لك ـ أيها الرسول الكريم ـ من أننا سننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ ..﴾ فاصبر على ما أصابك من أعدائك ، فإن ما وعدك الله ـ تعالى ـ به من النصر ثابت لا شك فيه ، وحق لا باطل معه.

﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ فإن استغفارك هذا وأنت المعصوم من كل ما يغضبنا ـ يجعل أمتك تقتدى بك في ذلك ، وتسير على نهجك في الإكثار من فعل الطاعات.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكارِ﴾ أى : وبجانب استغفارك من الذنوب ، أكثر من تسبيح ربك ومن تنزيهه عن كل ما لا يليق به عند حلول الليل ، وعند تباكير الصباح ، فإن هذا الاستغفار ، وذلك التسبيح ، خير زاد للوصول إلى السعادة والفوز في الدنيا والآخرة.

قال الإمام الرازي ما ملخصه : واعلم أن مجامع الطاعات محصورة في قسمين : التوبة عما لا ينبغي ، والاشتغال بما ينبغي ، والأول مقدم على الثاني بحسب الرتبة الذاتية. فوجب أن يكون مقدما عليه في الذكر ..

أما التوبة عما لا ينبغي ، فنراها في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾.

وأما الاشتغال بما ينبغي ، فنراه في قوله ـ تعالى ـ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكارِ﴾.

والتسبيح عبارة عن تنزيه الله ـ تعالى ـ عن كل ما لا يليق به ، والعشى والإبكار ، قيل صلاة العصر وصلاة الفجر. وقيل : الإبكار عبارة عن أول النهار إلى النصف. والعشى عبارة عن النصف إلى آخر النهار ، فيدخل فيه كل الأوقات ، وبالجملة فالمراد منه المواظبة على ذكر الله. وأن لا يفتر اللسان عنه .. [1].

ثم تعود السورة الكريمة مرة أخرى إلى توبيخ الذين يجادلون في آيات الله بغير حجة أو برهان ، وتبين الأسباب التي حملتهم على ذلك ، وترشد إلى العلاج من شرورهم ، وتنفى المساواة بين الكافر والمؤمن ، وتدعو المؤمنين إلى الإكثار من التضرع إلى الله ـ تعالى ـ فتقول :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ ما هُمْ بِبالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦) لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَلا الْمُسِيءُ قَلِيلاً ما تَتَذَكَّرُونَ (٥٨) إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (٥٩) وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ﴾ (٦٠)

---

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ٣٢١.

والمراد بالمجادلة في قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ ..﴾ المجادلة بالباطل بدون حجة أو دليل ، أما المجادلة لإحقاق الحق والكشف عنه .. فهي محمودة ، لأنها تهدى إلى الخير والصلاح.

قال صاحب الكشاف : فأما الجدال في آيات الله ، لإيضاح ملتبسها ، وحل مشكلها ، ومقادحة أهل العلم في استنباط معانيها ورد أهل الزيغ عنها ، فأعظم جهاد في سبيل الله .. [1].

وجملة ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ما هُمْ بِبالِغِيهِ﴾ خبر إن ، والكبر بمعنى التكبر والتعالي والتعاظم على الغير.

والمعنى : إن الذين يجادلون في آيات الله - تعالى - الدالة على وحدانيته وصدق رسله ، وليس عندهم دليل أو برهان على صحة دعواهم ..

هؤلاء المجادلون بالباطل ما حملهم على ذلك إلا التكبر والتعاظم والتطلع إلى الرياسة وإلى أن تكون النبوة فيهم أو فيمن يميلون إليهم .. وهم جميعا لن يصلوا إلى شيء من ذلك ، ولن يبلغوا ما تتوق إليه نفوسهم المريضة ، لأن العطاء والمنع بيد الله - تعالى - وحده.

وصدق الله إذ يقول : ﴿ما يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها ، وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [2].

فالآية الكريمة تبين أن على رأس الأسباب التي حملت هؤلاء المجادلين بالباطل على جدالهم. هو حبهم للتكبر والتعالي ...

قال الآلوسى : قوله : ﴿بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ ...﴾ أى : بغير حجة في ذلك أتتهم من جهته - تعالى - وتقييد المجادلة بذلك مع استحالة إتيان الحجة ، للإيذان بأن المتكلم في أمر الدين ، لا بد من استناده إلى حجة واضحة وبرهان مبين ، وهذا عام في كل مجادل مبطل ..

وقوله : ﴿ما هُمْ بِبالِغِيهِ﴾ صفة لقوله ﴿كِبْرٌ﴾ أى ما هم ببالغي موجب الكبر ومقتضية ، وهو متعلق إرادتهم من دفع الآيات أو من الرياسة أو النبوة .. [3].

وقوله - سبحانه - : ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. إرشاد منه - تعالى - إلى ما يقي من شرور هؤلاء المجادلين بالباطل.

أى : هذا هو حال المجادلين بالباطل وهذا هو الدافع إلى جدالهم ، وما دام هذا هو حالهم ،

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٥٠.

(٢) سورة فاطر آية ٢.

(٣) تفسير الآلوسى ج ٢٤ ص ٧٨.

فالتجئ إلى الله ـ تعالى ـ أيها الرسول الكريم ـ لكي يحفظك من شرورهم وكيدهم ، إنه ـ تعالى ـ هو السميع لكل شيء ، البصير بما ظهر وخفى من شئون عباده.

ثم بين ـ سبحانه ـ للناس من طريق المشاهدة صغر حجمهم بالنسبة إلى بعض خلقه ـ تعالى ـ فيقول : ﴿لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾.

أى : لخلق السموات والأرض ابتداء وبدون مثال سابق ، أكبر وأعظم من خلق الناس. ومما لا شك فيه أن من قدر على خلق الأعظم ، فهو على خلق ما هو أقل منه أقدر وأقدر ، ولكن أكثر الناس لاستيلاء الغفلة والهوى عليهم ، لا يعلمون هذه الحقيقة الجلية.

وقوله ـ تعالى ـ ﴿أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ إنما هو من باب تقريب الأشياء إلى الفهم. فمن المعروف بين الناس أن معالجة الشيء الكبير أشد من معالجة الشيء الصغير. وإن كان الأمر بالنسبة إلى الله ـ تعالى ـ لا تفاوت بين خلق الكبير وخلق الصغير ، إذ كل شيء خاضع لإرادته كما قال ـ سبحانه ـ : ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف اتصل قوله ﴿لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ..﴾ بما قبله؟.

قلت : إن مجادلتهم في آيات الله كانت مشتملة على إنكار البعث. وهو أصل المجادلة ومدارها ، فحجّوا بخلق السموات والأرض لأنهم كانوا مقرين بأن الله خالقهم ، وبأنهما خلق عظيم لا يقادر قدره ، وخلق الناس بالقياس إلى خلقهما شيء قليل ، فمن قدر على خلقهما مع عظمهما. كان على خلق الإنسان مع ضآلته أقدر .. (١).

وقوله ـ تعالى ـ ﴿وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَلَا الْمُسِيءُ ...﴾ نفى لعدم المساواة بين الأخيار والأشرار. والمتقين والفجار ..

أى : كما أنه لا يصح في عرف أى عاقل المساواة بين الأعمى والبصير. كذلك لا تصح المساواة بين المؤمنين الذين قدموا في دنياهم العمل الصالح ، وبين الكافرين والفاسقين الذين لطخوا حياتهم بالعمل السيئ ، والفعل القبيح ..

ولفظ «قليلا» في قوله ـ تعالى ـ ﴿قَلِيلاً ما تَتَذَكَّرُونَ﴾ مفعول مطلق ، وهو صفة لموصوف محذوف ، و «ما» مزيدة للتأكيد. أى تذكرا قليلا تتذكرون.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٧٤.

ثم أكد ـ سبحانه ـ مجيء الساعة في الوقت الذي يختاره ـ تعالى ـ فقال : ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها﴾ أى : لا ريب ولا شك في مجيئها في الوقت الذي يشاؤه ـ عزّ وجلّ ـ ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ بذلك لغفلتهم وقصور نظرهم ، واستحواذ الشيطان عليهم ..

ثم أمر ـ سبحانه ـ عباده المؤمنين أن يكثروا من التضرع اليه بالدعاء فقال : ﴿وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ...﴾.

أى : وقال ربكم ـ أيها المؤمنون ـ تضرعوا إلى بالدعاء ، وتقربوا إلى بالطاعات ، أستجب لكم ، ولا أخيب لكم رجاء.

ولا تنافى بين تفسير الدعاء هنا بالسؤال والتضرع إلى الله ـ تعالى ـ ، وبين تفسيره بالعبادة ، لأن الدعاء هو لون من العبادة ، بل هو مخها كما جاء في الحديث الشريف.

والإنسان الذي التزم في دعائه الآداب والشروط المطلوبة ، كان دعاؤه جديرا بالإجابة ، فقد حكى لنا القرآن الكريم في آيات كثيرة ، أن الأنبياء والصالحين ، عند ما دعوا الله ـ تعالى ـ أجاب لهم دعاءهم ، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ ﴿وَنُوحاً إِذْ نادى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنا لَهُ ، فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ (١).

ثم بين ـ سبحانه ـ سوء عاقبة الذين يتكبرون عن طاعة الله وعن دعائه فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ﴾ أى : إن الذين يستكبرون عن طاعتي ، وعن التقرب إلى بما يرضيني ، سيدخلون يوم القيامة نار جهنم حالة كونهم أذلاء صاغرين.

فقوله : ﴿داخِرِينَ﴾ من الدخور بمعنى الانقياد والخضوع يقال : دخر فلان يدخر دخورا إذا ذل وهان.

هذا ، وقد ذكر الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث التي تتصل بموضوع الدعاء فارجع إليه إن شئت (٢).

وبعد أن بين ـ سبحانه ـ مصير الذين يستكبرون عن عبادته ، أتبع ذلك ببيان ألوان من النعم التي أنعم بها على عباده ، كنعمة السماء والأرض ، ونعمة خلق الإنسان ورزقه من

---

(١) لمعرفة آداب الدعاء وشروطه وفضله .. راجع كتابنا «الدعاء» طبع مجمع البحوث الإسلامية.

(٢) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٤٢.

الطيبات ، ونعمة الليل والنهار .. فقال . تعالى . :

﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٦١) ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كانُوا بِآياتِ اللهِ يَجْحَدُونَ (٦٣) اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَراراً وَالسَّماءَ بِناءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَتَبارَكَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (٦٥) قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَمَّا جاءَنِي الْبَيِّناتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (٦٦) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٦٨)

فقوله ـ تعالى ـ : ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً﴾ بيان لنعمتي الليل والنهار اللتين أنعم بهما ـ سبحانه ـ على الناس.

أى : الله ـ تعالى ـ هو وحده الذي جعل لكم ـ أيها الناس ـ الليل لتسكنوا فيه ، وتستريحوا من عناء العمل بالنهار وهيأه لهذه الاستراحة بأن جعله مظلما ساكنا ...

وجعل لكم بقدرته وفضله النهار مبصرا ، أى : جعله مضيئا مسفرا ، بحيث تبصرون فيه ما تريدون إبصاره من الأشياء المتنوعة.

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿مُبْصِراً﴾ هو من الإسناد المجازى لأن الإبصار في الحقيقة لأهل النهار.

فإن قلت : لم قرن الليل بالمفعول له ، والنهار بالحال؟ وهلا كانا حالين أو مفعولا لهما. فيراعى حق المقابلة؟

قلت : هما متقابلان من حيث المعنى ، لأن كل واحد منهما يؤدى مؤدى الآخر ، ولأنه لو قال : لتبصروا فيه فاتت الفصاحة التي في الإسناد المجازى ، ولو قيل : ساكنا ـ والليل يجوز أن يوصف بالسكون على الحقيقة ، الا ترى إلى قولهم : ليل ساج وساكن لا ريح فيه ـ لم تتميز الحقيقة من المجاز [1].

وقوله : ﴿إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ بيان لموقف أكثر الناس من نعم الله ـ تعالى ـ عليهم.

أى : إن الله ـ تعالى ـ لصاحب فضل عظيم على الناس جميعا ، ولكن أكثرهم لا يشكرونه على آلائه ونعمه ، لغفلتهم وجهلهم واستيلاء الأهواء والشهوات عليهم.

وقال ـ سبحانه ـ ﴿لَذُو فَضْلٍ﴾ بالتنكير للإشعار بأنه فضل لا تحيط به عبارة أو وصف.

واسم الإشارة في قوله ـ تعالى ـ : ﴿ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ..﴾ يعود إلى من سبقت صفاته ونعمه وهو الله ـ عزّ وجلّ ـ ..

و ﴿ذلِكُمُ﴾ مبتدأ ، وما بعده أخبار متعددة.

أى : ذلكم الذي أعطاكم من النعم ما أعطاكم هو الله ـ تعالى ـ ربكم خالق كل شيء في هذا الوجود. لا إله إلا هو في هذا الكون ..

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٧٦.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ تعجيب من انصرافهم ـ بعد هذه النعم ـ عن الحق إلى الباطل ، وعن الشكران إلى الكفران.

أى : فكيف تنقلبون عن عبادته ـ سبحانه ـ إلى عبادة غيره ، مع أنه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ هو الخالق لكل شيء ، وهو صاحب تلك النعم التي تتمتعون بها.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿كَذلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كانُوا بِآياتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ بيان لحال الذين وقفوا من نعم الله ـ تعالى ـ موقف الجحود والكفران.

ويؤفك هنا : بمعنى القلب والصرف عن الشيء ، من الأفك ـ بالفتح ـ مصدر أفكه عن الشيء بمعنى صرفه عنه ـ وبابه ضرب ـ ومنه قوله ـ تعالى ـ : ﴿قالُوا أَجِئْتَنا لِتَأْفِكَنا عَنْ آلِهَتِنا ...﴾ أى : لتصرفنا عن عبادتها.

والمعنى : مثل ذلك الصرف العجيب من الحق إلى الباطل ، ينصرف وينقلب كل أولئك الذين انتكست عقولهم ، والذين كانوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا يجحدون ويكفرون.

وبعد أن بين ـ سبحانه ـ مظاهر نعمه عن طريق الزمان ـ الليل والنهار ـ أتبع ذلك ببيان نعمه عن طريق المكان ـ الأرض والسماء ـ فقال : ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَراراً﴾ أى : جعل لكم الأرض مكانا لاستقراركم عليها ، والسعى فيها.

﴿وَالسَّماءَ بِناءً﴾ أى : وجعل لكم السماء بمنزلة القبة المبنية المضروبة فوق رءوسكم ، فأنتم ترونها بأعينكم مرفوعة فوقكم بغير عمد.

قال الآلوسى قوله : ﴿وَالسَّماءَ بِناءً﴾ أى : قبة ، ومنه أبنية العرب لقبابهم التي تضرب. وإطلاق ذلك على السماء على سبيل التشبيه ، وهو تشبيه بليغ. وفيه إشارة لكرويتها. وهذا بيان لفضله ـ تعالى ـ المتعلق بالمكان بعد بيان فضله المتعلق بالزمان (١).

وقوله : ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ بيان لفضله ـ تعالى ـ المتعلق بذواتهم.

أى : جعل لكم الأرض مستقرا ، والسماء بناء ، وصور أشكالكم في أحسن تقويم. وأجمل هيئة. كما قال ـ تعالى ـ : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ﴾ أى : ورزقكم من الرزق الطيب الحلال المستلذ.

﴿ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَتَبارَكَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ﴾ أى : ذلكم الذي أعطاكم تلك النعم المتعلقة

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٤ ص ٨٣.

بزمانكم. ومكانكم. وذواتكم. ومطعمكم ومشربكم. هو الله ربكم الذي تولاكم بتربيته ورعايته في جميع أطوار حياتكم. فتبارك الله ـ تعالى ـ وتعاظم في ذاته وفي صفاته. فهو رب العالمين ومالك أمرهم.

﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ أى : هو ـ سبحانه ـ المنفرد بالحياة الدائمة الباقية ..

﴿لا إِلهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا موجود يدانيه لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ أى : فاعبدوه عبادة خالصة لوجهه الكريم ، وأطيعوه طاعة لا مكان معها للتردد أو التكاسل ، حالة كونكم قائلين : الحمد لله رب العالمين.

قال ابن جرير : كان جماعة من أهل العلم يأمرون من قال لا إله إلا الله ، أن يتبعها بقوله : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ عملا بهذه الآية [1].

ثم لقن الله ـ تعالى ـ نبيه ﷺ الرد الذي يوبخ به المشركين فقال : ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَمَّا جاءَنِي الْبَيِّناتُ مِنْ رَبِّي ...﴾.

أى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء المشركين الذين يطلبون منك مشاركتهم في عبادة آلهتهم : قل لهم إنى نهيت من ربي وخالقي ومالك أمرى عن عبادة غيره ـ تعالى ـ ، والسبب في ذلك أن كل الدلائل والبراهين التي أكرمني ـ سبحانه ـ بها ، تشهد وتصرح بأن المستحق للعبادة هو الله ـ تعالى ـ وحده.

فقوله : ﴿لَمَّا جاءَنِي الْبَيِّناتُ مِنْ رَبِّي﴾ بيان السبب الذي من أجله نهاه ربه عن عبادة غيره ، وهذه البينات تشمل دلائل التوحيد العقلية والنقلية.

وقوله ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ﴾ أى : إنى بعد أن نهاني ربي عن عبادة غيره ، أمرنى بأن أسلم وجهى إليه بالعبادة والطاعة ، إذ هو وحده رب العالمين ومالك أمرهم.

ثم بين ـ سبحانه ـ مظاهر قدرته في خلق الإنسان في أطوار مختلفة ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ﴾ أى : خلق أباكم آدم من تراب ، وأنتم فرع عنه.

﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ وأصل النطفة : الماء الصافي. أو القليل من الماء الذي يبقى في الدلو أو القربة ، وجمعها نطف ونطاف. يقال : نطفت القربة إذا تقاطر ماؤها بقلة.

---

(١) تفسير ابن جرير ج ٢٤ ص ٥٣.

والمراد بها هنا : المنى الذي يخرج من الرجل ، ويصب في رحم المرأة ، ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ والعلقة قطعة من الدم المتجمد.

﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ أى : ثم يخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالا صغارا ، بعد أن تكامل خلقكم فيها. فقوله : ﴿طِفْلاً﴾ اسم جنس يصدق على القليل والكثير.

ثم ﴿لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ بعد ذلك ، بعد أن تنتقلوا من مرحلة الطفولة إلى المرحلة التي تكتمل فيها أجسامكم وعقولكم.

﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً﴾ بعد ذلك ، بأن تصلوا إلى السن التي تتناقص فيها قوتكم والجملة الكريمة معطوفة على قوله ﴿لِتَبْلُغُوا﴾ ، أو معمولة لمحذوف كالجمل التي تقدمتها ، أى : ثم يبقيكم لتكونوا شيوخا.

﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ﴾ أى : ومنكم من يدركه الموت من قبل أن يدرك سن الشيخوخة ، أو سن الشباب ، أو سن الطفولة.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى﴾ معطوف على مقدر. أى : فعل ذلك بكم لكي تعيشوا ، ولتبلغوا أجلا مسمى تنتهي عنده حياتكم ، ثم تبعثون يوم القيامة للحساب. والجزاء.

وقوله : ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أى : ولعلكم تعقلون عن ربكم أنه هو الذي يحييكم يوم القيامة كما أماتكم ، وكما أنشأكم من تلك الأطوار المتعددة وأنتم لم تكونوا قبل ذلك شيئا مذكورا.

ثم ختم ـ سبحانه ـ هذه الآيات الزاخرة بكثير من النعم بقوله ـ تعالى ـ ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي﴾ من يريد إحياءه ﴿وَيُمِيتُ﴾ من يشاء إماتته.

﴿فَإِذا قَضى أَمْراً﴾ أى : فإذا أراد إبراز أمر من الأمور إلى هذا الوجود ﴿فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ﴾ أى لهذا الأمر ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ في الحال بدون توقف على سبب من الأسباب ، أو علة من العلل.

ثم ساق ـ سبحانه ـ بعد ذلك ما يسلى النبي ﷺ عما أصابه من المشركين ، بأن بين له سوء عاقبتهم يوم القيامة ، وبأن أمره بالصبر على كيدهم ، وبشره بأن العاقبة ستكون له ولأتباعه .. فقال ـ تعالى ـ :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتابِ وَبِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِنْ دُونِ اللهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكافِرِينَ (٧٤) ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ (٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٧٨)

والاستفهام في قوله ـ تعالى ـ : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ ...﴾ للتعجب من أحوال هؤلاء المشركين. حيث أنكروا الحق الواضح وانساقوا وراء الأوهام والأباطيل.

والمعنى : انظر ـ أيها الرسول الكريم ـ إلى أحوال المشركين ، وتعجب من سلوكهم

الذميم ، حيث جادلوا في الآيات الدالة على وحدانية الله وقدرته بدون علم أو حجة.

وقوله : ﴿أَنَّى يُصْرَفُونَ﴾ أى : انظر كيف يصرفون عن آيات الله الموجبة للإيمان بها. إلى الجحود والتكذيب والجدال بالباطل فيها؟

لقد كان من المنتظر منهم أن يهتدوا إلى الحق بعد أن وصل إليهم .. ولكنهم عموا وصموا عنه. لانطماس بصائرهم ، واستحواذ الشيطان عليهم.

وقوله : ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتابِ ..﴾ بدل من قوله ﴿الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ﴾.

أى : تعجب من هؤلاء الذين كذبوا بالقرآن الكريم. الذي أنزلناه إليك ـ يا محمد ـ لتخرجهم به من الظلمات إلى النور.

وكذبوا ـ أيضا ـ ﴿بِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا﴾ من سائر الكتب والمعجزات. فهم لم يكتفوا بالتكذيب بك بل أضافوا إلى ذلك تكذيبهم بكل كتاب ورسول.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وعيد شديد لهم على تكذيبهم بالرسل وبكتبهم ، أى : فسوف يعلمون سوء عاقبة تكذيبهم لأنبياء الله ـ تعالى ـ ولكتبه التي أنزلها عليهم.

ثم فصل ـ سبحانه ـ هذا الوعيد ، وبين ما أعده لهم من عذاب فقال : ﴿إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ. فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾.

و «إذ» هنا ظرف بمعنى «إذا» وهو متعلق بيعلمون ، وعبر ـ سبحانه ـ بالظرف الدال على المضي ، للدلالة على تحقق الخبر ، حتى لكأن العذاب قد نزل بهم فعلا.

والأغلال : جمع غل ـ بضم الغين ـ وهو القيد يوضع في اليد والعنق فيجمعهما.

والسلاسل : جمع سلسلة ، وهي ما يربط بها الجاني على سبيل الإذلال له.

والحميم : الماء البالغ أقصى درجات الحرارة.

ويسجرون : مأخوذ من سجر التنور ، إذا ملأه بالوقود.

والمعنى : فسوف يعلمون سوء عاقبة تكذيبهم وجدالهم بالباطل يوم القيامة ، وقت أن توضع الأغلال والقيود في أعناقهم ، ثم يسحبون ويجرون إلى الحميم بعنف وإهانة ، ثم يلقى بهم في النار التي تمتلئ بهم ، ويكونون وقودا لها.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : وهل قوله : ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ. إِذِ الْأَغْلالُ ..﴾ إلا مثل قولك : سوف أصوم أمس؟.

قلت : المعنى على إذا ، إلا أن الأمور المستقبلة لما كانت في أخبار الله ـ تعالى ـ متيقنة مقطوعا بها ، عبر عنها بلفظ ما كان ووجد. والمعنى على الاستقبال .. [1].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ تبكيت وتأنيب لهم.

أى : ثم قيل بعد هذا العذاب المهين لهم : أين تلك الآلهة التي كنتم تعبدونها من دون الله ، لكي تدفع عنكم شيئا من العذاب الأليم الذي نزل بكم؟.

وقوله ﴿قالُوا ضَلُّوا عَنَّا ، بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً ...﴾ حكاية لجوابهم الذي يدل على حسرتهم وبؤسهم.

أى : قالوا : ذهبوا وضاعوا وغابوا عنا ولم نعد نعرف لهم طريقا ، ولا هم يعرفون عنا طريقا ، ثم أضربوا عن هذا القول توهما منهم أن هذا الإضراب ينفعهم فقالوا : بل لم نكن نعبد من قبل في الدنيا شيئا يعتد به ، وإنما كانت عبادتنا لتلك الآلهة أوهاما وضلالا ..

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿كَذلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكافِرِينَ﴾ أى مثل هذا الضلال البين والتخبط الواضح ، يضل الله ـ تعالى ـ الكافرين ، ويجعلهم يتخبطون في إجابتهم على السائلين لهم.

ثم بين ـ سبحانه ـ الأسباب التي أدت بهم الى هذا العذاب المهين فقال : ﴿ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَبِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ، ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها ، فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ وقوله : ﴿تَمْرَحُونَ﴾ من المرح وهو التوسع في الفرح مع الأشر والبطر.

أى : ذلكم الذي نزل بكم من العذاب ، بسبب فرحكم وبطركم في الأرض بالباطل ، وبسبب مرحكم وأشركم وغروركم فيها.

وحق عليكم أن يقال لكم بسبب ذلك : ادخلوا أبواب جهنم المفتوحة أمامكم ، حالة كونكم خالدين فيها خلودا أبديا ، فبئس ﴿مَثْوَى﴾ أى : مكان ﴿الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن قبول الحق جهنم.

وقال ـ سبحانه ـ ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ ولم يقل فبئس مدخل المتكبرين ، للإشارة إلى خلودهم في جهنم ، إذ الثواء معناه الإقامة الدائمة ، مأخوذ من ثوى فلان بالمكان إذا أقام به إقامة دائمة.

ثم ذكر الله ـ تعالى ـ لنبيه صلى‌الله‌عليه‌وسلم الوصية بالصبر فقال : ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ،

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٧٨.

﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ﴾.

وقوله : ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ أصله : فإن نرك ، فزيدت «ما» لتوكيد «إن» الشرطية ، وجوابها محذوف ، وقوله ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ جوابه ﴿فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ﴾.

والمعنى : إذا كان حال هؤلاء المشركين كما ذكرنا لك يا محمد ، فاصبر على جدالهم بالباطل ، إن وعد الله ـ تعالى ـ بتعذيبهم وبنصرك عليهم حق.

فإن نرك بعض الذي نعدهم به من القتل والأسر والهزيمة فبها ونعمت ، أو نتوفينك قبل ذلك فإلينا مرجعهم يوم القيامة ، فنجازيهم بما يستحقون من عقاب.

فالآية الكريمة تأمر النبي ﷺ بمداومة الصبر ، وتحض على تبليغ ما أنزل إليه من ربه بدون كلل أو ملل ، ثم بعد ذلك يترك النتائج لله ـ تعالى ـ يسيرها كيف يشاء ، فإما أن يطلعه على ما توعد به أعداءه ، وإما أن يتوفاه قبل ذلك.

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَإِنْ ما نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ، فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسابُ﴾ (١).

ثم ساق ـ سبحانه ـ تسلية أخرى للرسول ﷺ فقال : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً ...﴾ أى : رسلا كثيرين ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ أى من قبل إرسالك إلى الناس.

﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْكَ﴾ كنوح وهود وصالح وإبراهيم. وغيرهم.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ أخبارهم وأحوالهم لأن حكمتنا قد اقتضت ذلك.

كما قال ـ تعالى ـ في آية أخرى : ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْناهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ، وَكَلَّمَ اللهُ مُوسى تَكْلِيماً﴾ (٢).

والمراد بالآية في قوله ـ تعالى ـ ﴿وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ المعجزة الخارقة الدالة على صدقه فيما يبلغه عن ربه.

أى : وما صح وما استقام لرسول من الرسل أن يأتى بمعجزة من عند نفسه ، وإنما يأتى بها بإذن الله ـ تعالى ـ ومشيئته ، إذ المعجزات جميعا عطايا من الله ـ تعالى ـ لرسله لتأييدهم في دعوتهم.

---

(١) سورة الرعد الآية ٤٠.

(٢) سورة النساء الآية ١٦٤.

﴿فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللهِ﴾ أى : فإذا جاء الوقت الذي حدده . سبحانه . لعذاب أعدائه ﴿قُضِيَ بِالْحَقِ﴾ أى : قضى بين الناس جميعا بالحق ، فينجى . سبحانه . بقضائه العادل عباده المؤمنين.

﴿وَخَسِرَ هُنالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أى : وخسر . عند مجيء أمر الله ، عند القضاء بين خلقه . المبطلون ، وهم الذين ماتوا مصرين على كفرهم أو فسوقهم عن أمره.

وكما قال . تعالى . في آيات أخرى منها قوله . تعالى . : ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾.

ثم بين . سبحانه . في أواخر هذه السورة الكريمة ، جانبا آخر من نعمه على عباده ، ووبخ الفاسقين على عدم اعتبارهم بأحوال من سبقهم من الأمم ، وهددهم بأنهم عند مجيء العذاب إليهم لن ينفعهم إيمانهم .. فقال . تعالى . :

﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعامَ لِتَرْكَبُوا مِنْها وَمِنْها تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيها مَنافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْها حاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْها وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠) وَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَأَيَّ آياتِ اللهِ تُنْكِرُونَ (٨١) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثاراً فِي الْأَرْضِ فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ

مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ وَخَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ﴾ (٨٥)

وقوله - تعالى - ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعامَ ..﴾ بيان لنعمة أخرى من نعمه التي تتعلق بما سخره - سبحانه - لخدمة الإنسان من دواب، بعد بيانه قبل لكثير من النعم التي تتعلق بالليل والنهار، والسماء والأرض ... إلخ.

والأنعام: جمع نعم، وأطلق على الإبل والبقر والغنم، قالوا والمراد بها هنا: الإبل خاصة: لأن معظم المنافع التي ذكرت هنا توجد فيها.

أى: الله - تعالى - هو الذي خلق لكم بقدرته الإبل ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْها وَمِنْها تَأْكُلُونَ﴾ أى لتركبوا بعضا منها، ولتأكلوا بعضا آخر منها. فمن في الموضعين للتبعيض.

﴿وَلَكُمْ فِيها مَنافِعُ﴾ أخرى غير الأكل وغير الركوب، كالانتفاع بألبانها وأوبارها وجلودها ...

﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْها حاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ أى: ومن منافعها - أيضا - أنكم تستعملونها في الأمور الهامة كحمل الأثقال، والانتقال عليها من مكان إلى مكان ..

كما قال - تعالى - ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقالَكُمْ إِلى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾ [1].

﴿وَعَلَيْها وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ أى: وعلى هذه الإبل في البر وعلى السفن في البحر تحملون.

كما قال - تعالى -: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ﴾ [2].

هذا، ولا مانع من أن يكون المراد بالأنعام هنا ما يشمل الإبل والبقر والغنم، وإلى هذا المعنى ذهب الإمام ابن كثير، فقد قال: يقول - تعالى - ممتنا على عباده بما خلق لهم من الأنعام! وهي: الإبل والبقر والغنم، فالإبل تركب وتؤكل وتحلب، ويحمل عليها الأثقال في

---

(١) سورة النحل الآية ٧.

(٢) سورة الزخرف الآية ١٢.

الأسفار والرحال إلى البلاد النائية ، والأقطار الشاسعة ، والبقر تؤكل ويشرب لبنها ، وتحرث عليها الأرض ، والغنم تؤكل ويشرب لبنها ، والجميع تجز أوبارها وأصوافها وأشعارها. فيتخذ منه الأثاث والثياب والأمتعة ..» [1].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَأَيَّ آياتِ اللهِ تُنْكِرُونَ﴾ تعجب من غفلتهم عن هذه الآيات المبثوثة في الكون. والتي تدل جميعها على وحدانية الله ـ تعالى ـ وقدرته.

ولفظ «أى» منصوب بقوله «تنكرون» وقدم وجوبا لأن له صدر الكلام.

أى : أنه ـ سبحانه ـ في كل وقت وحين يريكم آياته الدالة على قدرته ووحدانيته ، فقولوا لي. أية تلك الآيات تنكرون دلالتها على ذلك.

إنها جميعا تنطق وتصرح بوجوب إخلاص العبادة لله ـ عزّ وجلّ ـ فكيف جحدتموها أو غفلتم عنها مع وضوحها؟

فالآية الكريمة توبيخ شديد لأولئك الذين استحبوا العمى على الهدى مع أن كل شيء في هذا الكون يدعوهم إلى الإيمان بالله الواحد القهار.

ثم وبخهم ـ سبحانه ـ مرة أخرى لعدم اتعاظهم بمصارع الغابرين فقال : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ..﴾.

أى : أقبعوا في بيوتهم. فلم يسيروا في أقطار الأرض. فينظروا كيف كانت عاقبة الأمم المكذبة من قبلهم ، كقوم صالح وقوم لوط ، وقوم شعيب وغيرهم.

فالاستفهام للتوبيخ والتأنيب ، والفاء في قوله : ﴿أَفَلَمْ ..﴾ للعطف على مقدر.

ثم فصل ـ سبحانه ـ حال الذين كانوا من قبل كفار مكة فقال : ﴿كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾ أى : في العدد ﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ أى في الأبدان والأجسام ﴿وَآثاراً فِي الْأَرْضِ﴾ أى : وكانوا أظهر منهم في العمران والحضارة والغنى.

﴿فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى أن هؤلاء الغابرين عند ما حل بهم عذابنا لم تغن عنهم شيئا كثرتهم أو قوتهم أو أموالهم ... بل أخذناهم أخذ عزيز مقتدر في زمن يسير.

ثم بين ـ سبحانه ـ موقف هؤلاء الجاحدين من رسلهم فقال : ﴿فَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ..﴾.

أى : فحين جاء الرسل إلى هؤلاء الجاهلين ، فرحوا بما لديهم من العلوم الدنيوية كالتجارة

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٤٧.

والزراعة .. واغتروا بتلك القشور التي كانوا يسمعونها ممن كانوا يزعمون أنهم على شيء من العلم الديني ، واستهزءوا بما جاءهم به الرسل من علوم تهدى إلى الرشد ، وتدعو إلى إخلاص العبادة لله. واعتقدوا ـ لغبائهم ـ وانطماس بصائرهم ـ أنه لا علم أنفع من علومهم ففرحوا بها ..

ورحم الله صاحب الكشاف فقد فصل القول عند تفسيره لهذه الآية فقال : قوله : ﴿فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ فيه وجوه :

منها : أنه أراد العلم الوارد على سبيل التهكم في قوله ـ تعالى ـ : ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ وعلمهم في الآخرة أنهم كانوا يقولون لا نبعث ولا نعذب.

ومنه : أن يريد علم الفلاسفة والدهريين عن بنى يونان ، وكانوا إذا سمعوا بوحي الله : دفعوه وصغروا علم الأنبياء إلى علمهم.

ويجوز أن يريد بما فرحوا به من العلم : علمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها ، كما قال ـ تعالى ـ ﴿يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ﴾ فلما جاءهم الرسل بعلوم الديانات .. لم يلتفتوا إليها وصغروها واستهزءوا بها ، واعتقدوا أنه لا أنفع وأجلب للفوائد من علمهم ، ففرحوا به» (١).

ويبدو لنا أن هذا الرأى الأخير الذي ذكره صاحب الكشاف ، هو أقرب الآراء إلى الصواب.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ بيان لما نزل بهم من عذاب بسبب تكذيبهم لرسلهم ، واستهزائهم بهم. أى : ونزل بهؤلاء الكافرين العذاب الأليم بسبب استهزائهم برسلهم ، وإعراضهم عن دعوتهم.

ثم بين ـ سبحانه ـ حالهم عند ما أحاط بهم العذاب فقال : ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا﴾ أى عاينوا عذابنا النازل بهم.

﴿قالُوا﴾ بفزع وخوف ﴿آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ أى : وكفرنا بما كنا به مشركين في الدنيا من عبادة لغير الله ـ تعالى ـ واعتماد على سواه.

وقد بين ـ سبحانه ـ أن إيمانهم هذا لن ينفعهم لأنه جاء في غير وقته فقال ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ﴾ شيئا من النفع لأنه إيمان جاء عند معاينة العذاب ، والإيمان الذي يدعى في هذا

---

(١) راجع تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٨١.

الوقت لا قيمة له ، لأنه جاء في وقت الاضطرار لا في وقت الاختيار.

ولفظ «سنة» في قوله ـ تعالى ـ : ﴿سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ ..﴾ منصوب على أنه مصدر مؤكد لفعل محذوف.

أى : سن الله ـ تعالى ـ ذلك ، وهو عدم نفع الإيمان عند حلول العذاب سنة ماضية في الناس ، بحيث لا تتخلف في أى زمان أو مكان.

﴿وَخَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ﴾ أى : في هذا الوقت الذي ينزل الله ـ تعالى ـ فيه العذاب على الكافرين يخسرون كل شيء ، بحيث لا تنفعهم لا أموالهم ولا أولادهم ولا آلهتهم التي كانوا يتوهمون شفاعتها.

وبعد : فهذا تفسير وسيط لسورة «غافر» نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده :

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه الراجي عفو ربه

د. محمد سيد طنطاوى

القاهرة ـ مدينة نصر ـ مساء الثلاثاء

٩ من المحرم سنة ١٤٠٦

٢٤ / ٩ / ١٩٨٥ م

تفسير

سورة فصّلت

بسم الله الرّحمن الرّحيم

مقدمة وتمهيد

١ . سورة «فصلت» هي السورة الحادية والأربعون في ترتيب المصحف ، أما ترتيبها في النزول فكان بعد سورة «غافر».

وهي من السور المكية الخالصة ، وعدد آياتها ثنتان وخمسون آية في المصحف البصري والشامي ، وثلاث وخمسون في المصحف المكي والمدني ، وأربع وخمسون في المصحف الكوفي. وسورة «فصلت» تسمى . أيضا بسورة السجدة ، وحم السجدة ، وبسورة المصابيح ، وبسورة الأقوات [١].

٢ . والذي يقرأ هذه السورة الكريمة بتدبر وتأمل ، يراها في مطلعها تمدح القرآن الكريم : وتذكر موقف المشركين منه ومن الرسول ﷺ وتلقن الرسول ﷺ الجواب الذي يكبتهم ، وتهددهم بالعذاب الأليم.

قال . تعالى . : ﴿حم. تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ. وَقالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ وَفِي آذانِنا وَقْرٌ ، وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ﴾.

٣ . ثم انتقلت السورة إلى الحديث عن مظاهر قدرة الله . تعالى . ، عن طريق بيان خلقه للأرض وما اشتملت عليه من جبال وأقوات ، وعن طريق خلق السماء بطبقاتها المتعددة ، وعن طريق تزيين السماء الدنيا بمصابيح وحفظها.

قال . تعالى . : ﴿قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ، وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً ، ذلِكَ رَبُّ الْعالَمِينَ. وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها وَبارَكَ فِيها ، وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً لِلسَّائِلِينَ. ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ﴾.

٤ . وبعد أن هدد الله . تعالى . مشركي مكة بالعذاب الذي أصاب من قبلهم قوم عاد

---

(١) راجع تفسير الآلوسى ج ٢٤ ص ٩٤.

وثمود ، وفصل لهم موقف هؤلاء الأقوام من رسلهم وكيف أنهم عند ما كذبوا رسلهم واستحبوا العمى على الهدى ، أخذتهم صاعقة العذاب الهون ..

بعد كل ذلك تحدثت عن أحوالهم السيئة يوم يحشرون للحساب يوم القيامة ، وكيف أن حواسهم تشهد عليهم في هذا اليوم العصيب.

ولنتدبر قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ. حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ. وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ : لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا ، قالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

٥ ـ وكعادة القرآن الكريم في قرنه الترغيب بالترهيب أو العكس ، وفي بيان عاقبة الأخيار والأشرار ، أتبعت السورة الحديث عن المشركين وسوء عاقبتهم ، بالحديث عن المؤمنين وحسن مصيرهم ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ. نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ ، وَلَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ ، وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ. نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾.

٦ ـ ثم ساقت سورة «فصلت» أنواعا من الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته ، قال ـ تعالى ـ : ﴿وَمِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى ، إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٧ ـ ثم أخذت السورة في تسلية الرسول ﷺ وفي إقامة الأدلة الساطعة على أن هذا القرآن من عند الله.

قال ـ تعالى ـ : ﴿ما يُقالُ لَكَ إِلَّا ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ، إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقابٍ أَلِيمٍ. وَلَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا : لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ ، ءَ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ، قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ ، وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ ، وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ﴾.

٨ ـ ثم ختم ـ سبحانه السورة الكريمة ، ببيان أن مرد علم قيام الساعة إليه ـ تعالى ـ وحده ، وببيان طبيعة الإنسان في حالتي اليسر والعسر ، وببيان أن حكمته ـ سبحانه ـ اقتضت أن يطلع الناس في كل وقت على بعض من آياته الدالة على وحدانيته وقدرته. قال

ـ تعالى ـ ﴿سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ. أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ ، أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾.

٩ ـ وبعد : فهذا عرض إجمالى لسورة فصلت ، ومنه نرى : أنها اهتمت بإقامة الأدلة على وحدانية الله ـ تعالى ـ وقدرته ، وبأن هذا القرآن من عند الله ـ تعالى ـ ، وبأن الرسول ﷺ صادق فيما يبلغه عن ربه ، وبأن يوم القيامة حق لا ريب فيه.

كما اهتمت بالحديث عن مصارع الغابرين الذين استحبوا العمى على الهدى وببيان أحوالهم يوم القيامة ... وببشارة الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وأحسنوا القول والدعوة إلى الله ... بأحسن البشارات وأفضلها ..

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات : وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

القاهرة ـ مدينة نصر

صباح الأربعاء : ١٠ من المحرم ١٤٠٦ ه

٢٥ / ٩ / ١٩٨٥ م

د. محمد سيد طنطاوى

قال الله ـ تعالى ـ :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (٤) وَقالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ وَفِي آذانِنا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ (٥) قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (٨)

سورة «فصلت» من السور التي بدئت ببعض حروف التهجي.

والرأى الراجح في هذه الحروف أنها جيء بها للإيقاظ والتنبيه على أن هذا القرآن من عند الله ـ تعالى ـ ، بدليل أنه مؤلف من جنس الحروف التي يتخاطب بها المشركون ، ومع ذلك فقد عجزوا عن أن يأتوا بسورة من مثله.

وقوله : ﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ بيان لمصدر هذا القرآن ، وقوله ﴿تَنْزِيلٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف.

أى : هذا القرآن ليس أساطير الأولين . كما زعم الجاحدون الجاهلون . وإنما هو منزل من عند الله . تعالى . صاحب الرحمة العظيمة الدائمة.

إذ لفظ «الرحمن» بمعنى عظيم الرحمة ، لأن فعلان صيغة مبالغة في كثرة الشيء وعظمته ، أما صيغة فعيل فتستعمل في الصفات الدائمة ككريم ، فكأنه . تعالى . يقول : هذا الكتاب منزل من الله . تعالى . العظيم الرحمة الدائمة.

قال بعض العلماء : وإنما خص هذان الوصفان بالذكر ، لأن الخلق في هذا العالم كالمرضى المحتاجين ، والقرآن مشتمل على كل ما يحتاج إليه المرضى من الأدوية ، وعلى كل ما يحتاج إليه الأصحاء من الأغذية. فكان أعظم النفع من الله على هذا العالم إنزال القرآن الناشئ عن رحمته ولطفه بخلقه [1].

ثم أثنى . سبحانه . على هذا القرآن الذي أنزله بمقتضى رحمته وحكمته فقال : ﴿كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ، بَشِيراً وَنَذِيراً﴾.

ومعنى : ﴿فُصِّلَتْ آياتُهُ﴾ : ميزت في ألفاظها بفواصل ومقاطع ، وميزت في معانيها لاشتمالها على أنواع متعددة من المعاني الحكيمة.

وقوله ﴿قُرْآناً﴾ منصوب على المدح ، أو على الحال من كتاب ، و ﴿عَرَبِيًّا﴾ صفة للقرآن.

وقوله ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ متعلق بفصلت.

أى : هذا القرآن منزل من عند الله . تعالى . الذي وسعت رحمته كل شيء ، وهو كتاب فصلت آياته ووضحت وميزت من حيث ألفاظها تفصيلا بليغا ، إذ اشتملت على فواصل ومقاطع فيما بينها ليسهل فهمه وحفظه.

وفصلت آياته من حيث معانيها تفصيلا حكيما. إذ بعضها جاء لبيان ذاته وصفاته وأفعاله . تعالى . ، وبعضها اشتمل على ألوان من نعمه التي لا تحصى ، وبعضها جاء بأسمى أنواع الهدايات والآداب والأحكام والقصص والمواعظ ، وبعضها جاء لتبشير المؤمنين بحسن الثواب ، ولإنذار الكافرين بسوء العقاب.

وخص . سبحانه . الذين يعلمون بالذكر ، لأنهم هم الذين ينتفعون بما اشتمل عليه هذا الكتاب من تفصيل لآياته شامل لألفاظها ومعانيها.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٢٨.

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أى لقوم عرب يعلمون ما نزل عليهم من الآيات المفصلة المبينة بلسانهم العربي ، لا يلتبس عليهم شيء منه.

فإن قلت : بم يتعلق قوله : ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؟

قلت : يجوز أن يتعلق بتنزيل ، أو بفصلت ، أى : تنزيل من الله لأجلهم. أو فصلت آياته لهم. وأجود أن يكون صفة مثل ما قبله وما بعده ، أى : قرآنا عربيا كائنا لقوم عرب ؛ لئلا يفرق بين الصلات والصفات .. [1].

وقوله . تعالى . : ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ بيان لموقف الناس من هذا القرآن المنزل من الرحمن الرحيم.

والمراد بالأكثر هنا : الكافرون الذين لا ينتفعون بهدايات القرآن الكريم.

أى : هذا القرآن أنزلناه إليك لتخرج الناس به من الظلمات إلى النور ، فأعرض أكثرهم عن هداياته لاستحواذ الشيطان عليهم ، فهم لا يسمعون سماع تدبر واتعاظ ، وإنما يسمعون بقلوب قاسية ، وعقول خالية من إدراك معانيه ، ومن الاستجابة له.

ونفى . سبحانه . سماعهم له ، مع أنهم كانوا يسمعون من الرسول ﷺ ومن أصحابه ، لأنهم لما سمعوه ولم يؤمنوا به .. صار سماعهم بمنزلة عدمه.

ثم حكى . سبحانه . أقوالهم التي تدل على توغلهم في الكفر والعناد فقال : ﴿وَقالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ ، وَفِي آذانِنا وَقْرٌ ، وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ ، فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ﴾ ، والأكنة : جمع كنان وهو الغطاء للشيء. و ﴿وَقْرٌ﴾ الصمم الذي يحول بين الإنسان وبين سماع ما يقال له.

والحجاب : من الحجب بمعنى الستر لأنه يمنع المشاهدة ، ومنه قيل للبواب حاجب ، لأنه يمنع من الدخول.

أى : وقال الكافرون للنبي ﷺ على سبيل تيئيسه من إيمانهم : إن قلوبنا قد كستها أغطية متكاثفة جعلتها لا تفقه ما تقوله لنا ، وما تدعونا إليه ، وإن آذاننا فيها صمم يحول بيننا وبين سماع حديثك ، وإن من بيننا ومن بينك حاجزا غليظا يحجب التواصل والتلاقي بيننا وبينك ، وما دام حالنا وحالك كذلك فاعمل ما شئت فيما يتعلق بدينك ، ونحن من جانبنا سنعمل ما شئنا فيما يتعلق بديننا.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٨٤.

وهذه الأقوال التي حكاها القرآن عنهم ، تدل على أنهم قوم قد بلغوا أقصى درجات الجحود والعناد : فقلوبهم قد أغلقت عن إدراك الحق ، وأسماعهم قد صمت عن سماعه ، وأشخاصهم قد أبت الاقتراب من شخص الرسول ﷺ الذي يحمل لهم الخير والنور ، وما حملهم على ذلك إلا اتباعهم للهوى والشيطان.

وصدق الله إذ يقول : ﴿فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ﴾.

ثم لقن الله ـ تعالى ـ رسوله ﷺ الجواب الذي يرد به عليهم فقال : ﴿قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ﴾.

أى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء الجاحدين : إنما أنا بشر مثلكم في الصفات البشرية أوجدنى الله ـ تعالى ـ بقدرته كما أوجدكم ، وينتهى نسبي ونسبكم إلى آدم ـ عليه السلام ـ إلا أن الله ـ تعالى ـ قد اختصني بوحيه ورسالته ـ وهو أعلم حيث يجعل رسالته ـ وأمرنى أن أبلغكم أن إلهكم وخالقكم .. هو إله واحد لا شريك له ، فعليكم أن تخلصوا له العبادة والطاعة.

وقوله : ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ أى : فالزموا الاستقامة في طريقكم إليه ـ تعالى ـ بالإيمان به وطاعته والإخلاص في عبادته.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿.. وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ. الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ﴾ تهديد لهم بسوء المصير إذا استمروا على عنادهم وشركهم.

والويل : لفظ دال على الشر أو الهلاك ، وهو مصدر لا فعل له من لفظه ، والمراد به هنا : الدعاء عليهم بالخزي والهلاك.

أى : فهلاك وخزي وعقاب شديد لهؤلاء المشركين ، الذين لا يؤتون الزكاة ، أى : لا يؤمنون بها ، ولا يخرجونها إلى مستحقيها ، ولا يعملون على تطهير أنفسهم بأدائها .. وفضلا عن كل ذلك فهم بالآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب كافرون.

قال ابن كثير : والمراد بالزكاة ها هنا : طهارة النفس من الأخلاق المرذولة ..

وقال قتادة : يمنعون زكاة أموالهم ، واختاره ابن جرير ..

وفيه نظر ، لأن إيجاب الزكاة إنما كان في السنة الثانية من الهجرة ، وهذه الآية مكية. اللهم إلا أن يقال : لا يبعد أن يكون أصل الزكاة ـ وهو الصدقة ـ كان مأمورا به في ابتداء البعثة ، كقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ﴾ فأما الزكاة ذات النصب والمقادير فإنما بين

أمرها في المدينة ، ويكون هذا جمعا بين القولين .. »[1].

وقال بعض العلماء : قد استدل بعض علماء الأصول بهذه الآية الكريمة على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة ، لأنه ـ تعالى ـ صرح في هذه الآية الكريمة ، بأنهم مشركون ، وأنهم كافرون بالآخرة ، وقد توعدهم ـ سبحانه ـ بالويل على كفرهم بالآخرة ، وعدم إيتائهم الزكاة ، سواء أقلنا إن الزكاة في الآية هي زكاة المال المعروفة ، أو زكاة الأبدان عن طريق فعل الطاعات ، واجتناب المعاصي.

ورجع بعضهم ـ أن المراد بالزكاة هنا زكاة الأبدان ـ لأن السورة مكية وزكاة المال المعروفة إنما فرضت في السنة الثانية من الهجرة.

وعلى أية حال فالآية تدل على خطاب الكفار بفروع الإسلام.

أعنى امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وما دلت عليه هذه الآية من أنهم مخاطبون بذلك ، وأنهم يعذبون على الكفر والمعاصي ، جاء موضحا في آيات أخر كقوله ـ تعالى ـ : ﴿ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ. قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ. وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ، وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ ..﴾[2].

وخص ـ سبحانه ـ من بين أوصاف المشركين منع الزكاة مقرونا بالكفر بالآخرة. لأن أحب شيء إلى الإنسان ماله ، وهو شقيق روحه ، فإذا بذله للمحتاجين ، فذلك أقوى دليل على استقامته ، وصدق نيته.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ بيان لحسن عاقبة المؤمنين ، بعد بيان سوء عاقبة الكافرين.

أى : إن الذين آمنوا إيمانا حقا وعملوا الأعمال الصالحات ، لهم أجر عظيم غير ﴿مَمْنُونٍ﴾ أى غير مقطوع عنهم ، من مننت الحبل إذا قطعته ، أو غير منقوص عما وعدهم الله به ، أو غير ممنون به عليهم ، بل يعطون ما يعطون من خيرات جزاء أعمالهم الصالحة في الدنيا ، فضلا من الله ـ تعالى ـ وكرما.

ثم أمر الله ـ تعالى ـ رسوله صلى‌الله‌عليه‌وسلم أن يوبخ هؤلاء المشركين على إصرارهم على

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٥٣.

(٢) تفسير أضواء البيان ج ٧ ص ١١٤ للشيخ محمد أمين الشنقيطى.

كفرهم ، مع أن مظاهر قدرة الله ـ تعالى ـ الماثلة أمام أعينهم تدعوهم إلى الإيمان ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً ذلِكَ رَبُّ الْعالَمِينَ(٩) وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها وَبارَكَ فِيها وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ (١١) فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها وَزَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَحِفْظاً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (١٢)

قال الإمام الرازي ما ملخصه : اعلم أنه ـ تعالى ـ لما أمر نبيه ﷺ أن يقول للناس : ﴿قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ ...﴾ أردفه بما يدل على أنه لا يجوز إثبات الشركة بينه ـ تعالى ـ وبين هذه الأصنام في الإلهية والمعبودية ، وذلك بأن بين كمال قدرته وحكمته في خلق السموات والأرض في مدة قليلة .. والاستفهام في قوله ﴿أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ ...﴾ بمعنى الإنكار ، وهو لإنكار شيئين : الكفر بالله .. وجعل الأنداد له [1].

والمعنى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء المشركين على سبيل الإنكار لأفعالهم : أإنكم لتكفرون بالله ـ تعالى ـ الذي خلق الأرض في يومين.

قال الآلوسى : وإن واللام في قوله ﴿أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾ لتأكيد الإنكار .. وعلق ـ سبحانه ـ كفرهم بالاسم الموصول لتفخيم شأنه ـ تعالى ـ واستعظام كفرهم به.

---

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ٣٤٠.

واليوم في المشهور عبارة عن زمان كون الشمس فوق الأفق ، وأريد منه ها هنا الوقت مطلقا ، لأنه لا يتصور ذلك قبل خلق السماء والكواكب والأرض نفسها ، ثم إن ذلك الوقت يحتمل أن يكون بمقدار اليوم المعروف ، ويحتمل أن يكون أقل منه أو أكثر ، والأقل أنسب بالمقام .. [1].

قال سعيد بن جبير - رضى الله عنه - إن الله - تعالى - قادر على أن يخلق هذا الكون كله في لحظة ، ولكنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ، ليعلم خلقه التثبت والتأني في الأمور.

وقوله : ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً﴾ معطوف على قوله ﴿لَتَكْفُرُونَ﴾ وداخل معه في حكم الإنكار.

والأنداد : جمع ند وهو مثل الشيء يضاده وينافره ويتباعد عنه. وأصله من ند البعير إذا نفر وذهب على وجهه شاردا.

أى : وتجعلون له أمثالا ونظراء تعبدونها من دونه ، وتسمونها - زورا وكذبا - آلهة ، وجمع - سبحانه - الأنداد باعتبار واقعهم ، لأنهم كانوا يعبدون آلهة شتى ، فمنهم من عبد الأصنام ، ومنهم من عبد الملائكة ، ومنهم من عبد الكواكب.

واسم الإشارة في قوله ﴿ذلِكَ رَبُّ الْعالَمِينَ﴾ يعود إلى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة.

أى : ذلك الموصوف بتلك القدرة الباهرة ، رب العالمين جميعا ، وخالق جميع المخلوقات ، والمتولى لتربيتها دون سواه.

وقوله : ﴿وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها ..﴾ معطوف على ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾.

والرواسي : جمع راس من الرسو - بفتح الراء وسكون السين - بمعنى الثبات والاستقرار في المكان ، يقال : رسا الشيء إذا ثبت واستقر. وهو صفة لموصوف محذوف.

أى : وجعل فيها جبالا رواسى من فوقها ، لكي تستقر وتثبت ، ولا تميد أو تضطرب بكم. وقال - تعالى - : ﴿مِنْ فَوْقِها﴾ لبيان الواقع ، إذ وجود الجبال من فوق الأرض ، ومشاهدة الإنسان لذلك بعينيه ، يزيده اقتناعا بقدرة الله - تعالى - الباهرة وحكمته البليغة.

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٤ ص ٩٩.

﴿وَبارَكَ فِيها﴾ أى : وجعلها مباركة زاخرة بأنواع الخيرات والمنافع ، عن طريق الزروع والثمار المبثوثة فوقها ، والمياه التي تخرج من جوفها. والكنوز التي تحصل من باطنها.

﴿وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها﴾ والأقوات : جمع قوت. والمراد بها أرزاق أهل الأرض وما يصلحهم.

أى : وجعل أقوات أهلها التي يحتاجون إليها في معايشهم ومنافعهم ، على مقادير محددة معينة ، بحيث نشر في كل قطر من أقطارها أقواتا تناسب أهله ، وبذلك يتبادل الناس المنافع فيما بينهم ، فيعمر الكون ، ويزيد الاتصال والتعارف فيما بينهم.

قال ابن جرير : بعد أن ذكر جملة من الأقوال في معنى هذه الآية : والصواب من القول في ذلك أن يقال : إن الله ـ تعالى ـ أخبر أنه قدر في الأرض أقوات أهلها ، وذلك ما يقوتهم من الغذاء ، ويصلحهم من المعاش. ولم يخصص ـ جل ثناؤه ـ بقوله ﴿وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها﴾ أنه قدر فيها قوتا دون قوت ، بل عم الخبر عن تقديره جميع الأقوات .. [1].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ متعلق بمحذوف يدل ، عليه ما قبله.

أى : خلق الأرض ، وجعل فيه رواسى من فوقها ، وبارك فيها. وقدر فيها أقواتها في تمام أربعة أيام ، فتكون المدة التي خلق فيها الأرض وما عليها أربعة أيام.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿سَواءً لِلسَّائِلِينَ﴾ تأكيد لما دلت عليه الآية الكريمة من أن خلق كل من الأرض وما فيها وما عليها قد حدث في أربعة أيام.

قال الآلوسى : وقيدت الأيام الأربعة بقوله : ﴿سَواءً﴾ فإنه مصدر مؤكد لمضمر هو صفة الأيام. أى : ـ في أربعة أيام ـ استوت سواء ، أى : استواء.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿لِلسَّائِلِينَ﴾ متعلق بمحذوف وقع خبرا لمبتدأ محذوف ، أى : هذا الحصر في أربعة ، كائن للسائلين عن مدة خلق الأرض ، وما فيها .. [2].

وقال الجمل في حاشيته : فإن قيل لم جعلت مدة خلق الأرض بما فيها ، ضعف مدة خلق السموات ، مع كون السماء أكبر من الأرض وأكثر مخلوقات وعجائب؟

قلت : للتنبيه على أن الأرض هي المقصودة بالذات لما فيها من الثقلين ومن كثرة المنافع ، فزادت مدتها ليكون ذلك أدخل في المنة على ساكنيها ، وللاعتناء بشأنهم وشأنها ـ أيضا ـ.

---

(١) تفسير ابن جرير ج ٢٤ ص ٦٣.

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٤ ص ١٠١.

زادت مدتها لما فيها من الابتلاء بالمعاصي والمجاهدات والمعالجات .. [1].

ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر قدرته في خلق السماء ، فقال : ﴿ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ ..﴾.

ومعنى استوائه - سبحانه - إلى السماء ، ارتفاعه إليها بلا كيف أو تشبيه أو تحديد ، لأنه - سبحانه - منزه عن ذلك.

والدخان : ما ارتفع من لهب النار. والمراد به هنا : ما يرى من بخار الأرض أو بخار الماء ويصح أن يكون معنى : ﴿ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ﴾ : تعلقت إرادته - تعالى - بخلقها.

قال الآلوسى : قوله : ﴿ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ﴾ أى : قصد إليها وتوجه ، دون إرادة تأثير في غيرها ، من قولهم : استوى إلى مكان كذا ، إذا توجه إليه لا يلوى على غيره ..

وقوله : ﴿وَهِيَ دُخانٌ﴾ أى أمر ظلماني ، ولعله أريد بها مادتها التي منها تركبت. [2].

وقوله - تعالى - : ﴿فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ...﴾ بيان لما وجهه - سبحانه - إليهما من أوامر.

والمراد بإتيانهما : انقيادهما التام لأمره - تعالى ..

أى : فقال - سبحانه - للسماء وللأرض أخرجا ما خلقت فيكما من المنافع لمصالح العباد ، فأنت يا سماء ، أبرزى ما خلقت فيك من شمس وقمر ونجوم .. وأنت يا أرض أخرجى ما خلقت فيك من نبات وأشجار وكنوز.

قال الفخر الرازي : والمقصود من هذا القول : إظهار كمال القدرة ، أى : ائتيا شئتما أم أبيتما ، كما يقول الجبار لمن تحت يده : لتفعلن هذا شئت أم لم تشأ ، ولتفعلنه طوعا أو كرها ، وانتصابهما على الحال ، بمعنى طائعين أو مكرهين .. [3].

وقوله : ﴿قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ﴾ بيان لامتثالهما التام لأمره - تعالى ..

أى : قالتا : فعلنا ما أمرتنا به منقادين خاضعين مستجيبين لأمرك ، فأنت خالقنا وأنت مالك أمرنا.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٣٢.

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٤ ص ١٠٢.

(٣) تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ٣٥٣.

قال القرطبي : وقوله : ﴿قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ﴾ فيه وجهان : أنه تمثيل لظهور الطاعة منهما ، حيث انقادا وأجابا فقام مقام قولهما. ومنه قول الراجز :

امتلأ الحوض وقال قطني مهلا رويدا ملأت بطني

يعني : ظهر ذلك فيه.

وقال أكثر أهل العلم : بل خلق الله ـ تعالى ـ فيهما الكلام فتكلمتا كما أراد ـ سبحانه ـ.[1]

وجمعهما ـ سبحانه ـ جمع من يعقل ، لخطابهما بما يخاطب به العقلاء.

ثم فصل ـ سبحانه ـ بديع صنعه في خلق السموات فقال : ﴿فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ ...﴾. أى : ففرغ من خلقهن وتسويتهن على أبدع صورة وأحكم صنع في مقدار يومين.

والضمير في قوله ﴿فَقَضاهُنَ﴾ إما راجع إلى السماء على المعنى لأنها سبع سموات ، وإما مبهم يفسره ما بعده وهو سبع سموات.

وقوله : ﴿وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها﴾ أى : وأوحى في كل منها ما أراده وما أمر به ، وخلق فيها ما اقتضته حكمته من الملائكة ومن خلق لا يعلمه إلا هو ـ سبحانه ـ.

وقوله : ﴿وَزَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَحِفْظاً﴾ أى : وزينا السماء الدنيا أى القريبة منكم ـ بكواكب مضيئة ، وحفظناها حفظا عظيما من الاختلال والاضطراب والسقوط ﴿ذلِكَ﴾ الذي ذكرناه لكم من خلق السموات والأرض ، وخلق ما فيهما.

﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أى : تقدير الله ـ القاهر ـ لكل شيء. والعليم بما ظهر وبما بطن في هذا الكون.

وقد أخذ العلماء من هذه الآيات الكريمة أن خلق الأرض وما عليها من جبال ومن أقوات للعباد قد تم في أربعة أيام ، وأن خلق السموات كان في يومين فيكون مجموع الأيام التي خلق الله ـ تعالى ـ فيها السموات والأرض وما بينهما ستة أيام.

وقد جاء ذلك في آيات متعددة ، منها قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ..[2].

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٣٤٤.

(٢) سورة الأعراف الآية ٥٤.

وقوله ـ سبحانه ـ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ ..﴾ (١).

كما أخذ العلماء منها ـ أيضا ـ : أن خلق الأرض متقدم على خلق السموات بدليل قوله ـ تعالى ـ بعد حديثه عن خلق الأرض ، ثم استوى إلى السماء وهي دخان.

وبدليل قوله ـ تعالى ـ في آية أخرى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ، ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ﴾ (٢).

وعلى هذا الرأى سار جمهور العلماء ، وردوا على من قال بأن خلق السموات متقدم على خلق الأرض ، لأن الله ـ تعالى ـ يقول في سورة النازعات : ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ بَناها. رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها ، وَأَغْطَشَ لَيْلَها وَأَخْرَجَ ضُحاها. وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها﴾ أى : بسطها.

ردوا عليهم بما روى عن ابن عباس من أنه سئل عن الجمع بين الآيات التي معنا ، وبين آيات سورة النازعات فقال : إنه ـ تعالى ـ خلق الأرض أولا غير مدحوة ثم خلق السماء ، ثم دحا الأرض بعد ذلك ، وجعل فيها الرواسي والأنهار وغيرهما.

أى : أن أصل خلق الأرض كان قبل خلق السماء ، ودحوها بجبالها وأشجارها كان بعد خلق السماء ، وردوا عليهم ـ أيضا ـ بأن لفظ «بعد» في قوله ـ تعالى ـ ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها﴾ بمعنى مع أى : والأرض مع ذلك بسطها ومهدها لسكنى أهلها فيها. وردوا عليهم ـ أيضا ـ بأنه ـ تعالى ـ لما خلق الأرض غير مدحوة ، وهي أهل لكل ما فيها كان كل ما فيها كأنه قد خلق بالفعل لوجود أصله فيها.

قال بعض العلماء : والدليل من القرآن على أن وجود الأصل يمكن به إطلاق الخلق على الفرع ، ـ وإن لم يكن موجودا بالفعل ـ قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ...﴾.

فقوله : ﴿خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ﴾ أى : بخلقنا وتصويرنا لأبيكم آدم الذي هو أصلكم (٣).

كما أخذ منها العلماء أن وجود هذا الكون ، بتلك الصورة البديعة ، المتمثلة في هذه الأرض

(١) سورة ق الآية ٣٨.
(٢) سورة البقرة الآية ٢٩.
(٣) أضواء البيان ج ٧ ص ١٠٢ للشيخ الشنقيطى.

وما أقلت. وفي هذه السموات وما أظلت .. من أكبر الأدلة التي تحمل العقلاء على إخلاص العبادة لله الواحد القهار.

وبعد هذا الحديث المتنوع عن مظاهر قدرة الله في هذا الكون ، انتقلت السورة إلى تهديد المشركين ، وإنذارهم بأن عاقبتهم ستكون كعاقبة الظالمين الذين سبقوهم ، فقال . تعالى . :

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ قالُوا لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (١٤) فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْزى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ (١٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ﴾ (١٨)

ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات والتي قبلها روايات تتعلق بما بين النبي ﷺ وبين بعض المشركين ، منها ما ذكره محمد بن كعب القرظي قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة قال يوما لقريش . ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده : يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه ، وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها.

فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، فقم إليه فكلمه. فقام إليه عتبة فقال : «يا محمد ، يا بن أخى ، إنك منا حيث قد علمت من السلطة ـ أى من الشرف ـ في العشيرة وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل بعضها.

ثم قال : إن كنت ـ يا بن أخى ـ تريد ما لا أعطيناك من المال حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد ملكا جعلناك ملكا علينا .. وإن كان الذي يأتيك رئيا تراه ـ أى ترى بعض الجن ـ طلبنا لك الطب حتى تبرأ.

فلما فرغ عتبة قال ﷺ : «أفرغت يا أبا الوليد؟» قال : نعم. قال : «فاسمع منى» قال : افعل. فتلا عليه النبي ﷺ من أول سورة «فصلت».

ـ وفي رواية أنه لما بلغ قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ ...﴾ قال له عتبة : حسبك ما عندك غير هذا.

ثم عاد عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : لقد جاءكم عتبة بوجه غير الذي ذهب به ، فلما جلس إليهم قالوا له : ما وراءك يا أبا الوليد؟

فقال : لقد سمعت من محمد ﷺ قولا ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالسحر ، ولا بالشعر ، ولا بالكهانة. يا معشر قريش ، أطيعونى واجعلوها لي ، خلّوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فو الله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ.

فقالوا : لقد سحرك محمد ﷺ فقال : «هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم» (١).

فقوله ـ تعالى ـ : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ﴾ تهديد لهؤلاء المشركين ، بعد أن وضح الحق لهم في أكمل صورة ..

والصاعقة ـ كما يقول ابن جرير ـ : كل أمر هائل رآه الرائي أو عاينه أو أصابه. حتى يصير من هوله وعظيم شأنه إلى هلاك وعطب وذهاب عقل ، يكون مصعوقا .. (٢).

والمراد بها هنا : العذاب الشديد الذي أنزله الله ـ تعالى ـ على قوم عاد ثمود فصعقهم وأهلكهم.

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٥٢.

(٢) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٢٩٠.

والمعنى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء المشركين لقد أقمت لكم الأدلة الناصعة على وحدانية الله ـ تعالى ـ وعلى عظيم قدرته ، وعلى أنى رسول من عنده ، وصادق فيما أبلغه عنه.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عن دعوتك ، ولجوا في طغيانهم ، واستمروا في كفرهم وعنادهم.

﴿فَقُلْ﴾ لهم على سبيل التحذير : لقد ﴿أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ﴾.

وخص ـ سبحانه ـ عادا وثمود بالذكر ، لأن مشركي قريش يعرفون ما جرى لهؤلاء الظالمين. إذ قوم عاد كانوا بالأحقاف ـ أى بالمكان المرتفع الكثير الرمال ـ في جنوب الجزيرة العربية ورسولهم هو هود ـ عليه‌السلام ..

وأما ثمود فهم قوم صالح ـ عليه‌السلام ـ ، ومساكنهم كانت بشمال الجزيرة العربية ، وما زالت آثارهم باقية ، وأهل مكة كانوا يمرون عليها في طريقهم إلى بلاد الشام للتجارة.

والضمير في قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ، أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ ...﴾ يعود إلى قوم عاد وثمود.

والمراد بالرسل : هود وصالح ـ عليهما‌السلام ـ من باب إطلاق الجمع على الاثنين ، أو من باب إدخال من آمن بهما معهما في المجيء إلى هؤلاء الأقوام لدعوتهم إلى عبادة الله وحده.

وقوله : ﴿إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ ...﴾ حال من قوله ﴿صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ﴾ وقوله ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ متعلق بجاءتهم.

والمراد بالجملة الكريمة : أن الرسل بذلوا كل جهدهم في إرشاد قوم عاد وثمود إلى الحق ولم يتركوا وسيلة إلا اتبعوها معهم وبينوا لهم بأساليب متعددة حسن عاقبة المؤمنين وسوء عاقبة الكافرين.

وقوله : ﴿أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ﴾ بيان لما نصح به الرسل أقوامهم و «أن» يصح أن تكون مصدرية ، أى : بأن لا تعبدوا إلا الله ، ويصح أن تكون مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير شأن محذوف. أو تفسيرية لأن مجيء الرسل يتضمن قولا.

أى جاء الرسل إلى قوم عاد وثمود بكل دليل واضح على وجوب إخلاص العبادة لله ، ولم يتركوا وسيلة إلا اتبعوها معهم ، وقالوا لهم : اجعلوا عبادتكم لله ـ تعالى ـ وحده.

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : قوله : ﴿إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ...﴾.

أى : أتوهم من كل جانب ، واجتهدوا بهم ، واعملوا فيهم كل حيلة ، فلم يروا منهم إلا العتو والإعراض ، كما حكى الله ـ تعالى ـ عن الشيطان أنه قال : ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ...﴾ يعنى لآتينهم من كل جهة ، ولأعملن فيهم كل حيلة.

وعن الحسن : أنذروهم بعذاب الله الدنيوي والأخروى.

وقيل معناه : إذ جاءتهم الرسل من قبلهم ومن بعدهم ، بمعنى أن هودا وصالحا قد أمروهم بالإيمان بهما وبجميع الرسل الذين من قبلهم والذين من بعدهم ، فكأن الرسل جميعا قد جاءوهم [1].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿قالُوا لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ﴾ حكاية للرد السيئ الذي رد به قوم عاد وثمود على رسلهم.

ومفعول المشيئة محذوف أى : قال هؤلاء الكافرون لرسلهم على سبيل التكذيب لهم ، والتهكم بهم. أنتم لستم رسلا ، ولو شاء الله ـ تعالى ـ أن يرسل إلينا رسلا لأرسل ملائكة ، ومادام الأمر كذلك فإنا بما أرسلتم به ـ أيها الرسل ـ كافرون ، وإلى ما تدعونا إليه مكذبون.

والسبب الذي حمل هؤلاء الجاهلين على هذا القول : زعمهم أن الرسل لا يكونون من البشر ، مع أن كل عقل سليم يؤيد أن الرسول لا يكون إلا من البشر كما قال ـ تعالى ـ : ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ..﴾.

ثم فصل ـ سبحانه ـ بعد ذلك حال كل فريق منهم ، وبين ما نزل به من عذاب مهين فقال : ﴿فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ...﴾

أى. هذا هو قولهم على سبيل الإجمال لرسلهم ، وإليك جانبا من حال قوم عاد ، ومن أقوالهم الباطلة.

إنهم قد استكبروا في الأرض بغير الحق. واغتروا بما بين أيديهم من نعم ، وقالوا على سبيل التباهي والتفاخر والتكبر : من أشد منا قوة.

وقيد استكبارهم في الأرض بأنه بغير الحق. لبيان واقعهم ، حيث كانوا كما وصفهم الله ـ تعالى ـ في آيات أخرى متجبرين متعالين على غيرهم ، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ :

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٩١.

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ. وَتَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ. وَإِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾.

الاستفهام في قوله ـ تعالى ـ الذي حكاه عنهم ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ للإنكار والنفي.

أي : لا أحد أقوى منا ، فنحن في استطاعتنا أن ندفع كل عذاب ينزل بنا ، وهذا هو الشعور الكاذب الذي يشعر به الطغاة الجاهلون في كل زمان ومكان.

وقد رد الله ـ تعالى ـ عليهم وعلى أمثالهم ردا منطقيا حكيما يخرس ألسنتهم فقال : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَكانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ﴾.

أي : أعموا وصموا عن الحق ، ولم يعلموا أن الله ـ تعالى ـ الذي أوجدهم من العدم ، هو ـ سبحانه ـ أشد منهم قوة وبأسا.

إنهم لغرورهم وجهالاتهم نسوا كل ذلك ، وكانوا بآياتنا الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا يجحدون ، ويعاندون وينكرون الحق الذي جاءتهم به رسلهم.

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما نزل بهم من عذاب بسبب إصرارهم على كفرهم ، وبسبب غرورهم وبطرهم فقال : ﴿فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ ، لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ...﴾.

ولفظ «صرصرا» من الصر ـ بفتح الصاد ـ وهو شدة الحر ، أو من الصر ـ بكسر الصاد ـ وهو شدة البرد الذي يقبض البدن ، أو من الصرة التي هي الصيحة المزعجة ، ومنه قوله ـ تعالى ـ ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ ...﴾ أى : في صيحة.

ولا مانع من أن تكون هذه الريح التي أرسلها الله ـ تعالى ـ عليهم ، قد اجتمع فيها الصوت الشديد المزعج ، والبرد الشديد القاتل.

وقوله : ﴿نَحِساتٍ﴾ جمع نحسة ـ بفتح النون وكسر الحاء ـ صفة مشبهة من نحس ـ كفرح وكرم ـ ضد سعد.

أي : فأرسلنا على قوم عاد ريحا شديدة الهبوب والصوت ، وشديدة البرودة أو الحرارة في أيام نحسات أو مشئومات نكدات عليهم بسبب إصرارهم على كفرهم وفعلنا ذلك معهم لنذيقهم العذاب المخزى لهم في الحياة الدنيا.

﴿وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْزى﴾ أى : أشد خزيا وإهانة لهم من عذاب الدنيا.

﴿وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ﴾ أى : وهم لا يجدون أحدا يدفع عنهم هذا العذاب بحال من الأحوال.

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك ، حال ثمود وما نزل بهم من عذاب فقال : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ ...﴾.

أى : وأما قوم ثمود الذين أرسلنا إليهم نبينا صالحا ، فبينا لهم عن طريقه سبيل الرشاد وسبيل الغي. فالمراد بالهداية هنا : البيان والإرشاد والدلالة على الخير.

﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى﴾ أى : فاختاروا الكفر على الإيمان ، وآثروا الغي على الرشد.

فالمراد بالعمى هنا الكفر والضلال ، والمراد بالهداية الإيمان والطاعة.

﴿فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى : فكانت نتيجة إيثارهم الكفر على الإيمان ، وتصميمهم على ذلك .. أن أنزلنا عليهم الصاعقة التي أهلكتهم ، والعذاب المبين الذي أبادهم ، بسبب ما اكتسبوه من ذنوب وقبائح.

وقد حكى ـ سبحانه ـ ما أنزله بعاد وثمود من عذاب في آيات كثيرة ، منها قوله ـ تعالى ـ : ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعادٌ بِالْقارِعَةِ. فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ. وَأَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ. سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً. فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ﴾ [1].

وقد ذكر بعضهم أن الأيام النحسات التي نزل فيها العذاب على قوم عاد ، كانت في أواخر شهر شوال ، وأن أولها كان في يوم الأربعاء ، وآخرها ـ أيضا ـ كان في يوم الأربعاء ، ولذا صار بعض الناس يتشاءم من هذا اليوم.

والحق أن ما ذكروه في هذا الشأن لا دليل عليه ، ولا يلتفت إليه ، وأن ما أصاب هؤلاء إنما كان بشؤم كفرهم ومعاصيهم.

قال بعض العلماء بعد أن ذكر بعض الآثار التي ذكروها في أن يوم الأربعاء يوم نحس : «فهذه الروايات وأمثالها لا تدل على شؤم يوم الأربعاء على من لم يكفر بالله ولم يعصه ، لأن أغلبها ضعيف ، وما صح معناه منها فالمراد بنحسه شؤمه على أولئك الكفرة العصاة الذين أهلكهم الله فيه بسبب كفرهم ومعاصيهم» [2].

ثم بين ـ سبحانه ـ فضله على المؤمنين ، ورحمته بهم فقال : ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا ..﴾ أى ونجينا الذين آمنوا من عذاب الدنيا ومن عذاب الآخرة.

---

(١) سورة الحاقة الآيات من ٤ ـ ٧.

(٢) تفسير أضواء البيان ج ٧ ص ١٢٤ للشيخ الشنقيطى.

﴿وَكانُوا يَتَّقُونَ﴾ أى : يتقون الله . تعالى . ، ويصونون أنفسهم عن كل ما لا يرضيه.

ثم بين . سبحانه . بعد ذلك جانبا من أحوال الظالمين يوم القيامة ، يوم تشهد عليهم أسماعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، يوم يعلمون أن ما جاءهم به رسلهم حق لا ريب فيه ، فقال . تعالى . :

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا قالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ (٢٣) فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ (٢٤)

والظرف في قوله : ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ متعلق بمحذوف تقديره : اذكر.

وقوله ، ﴿يُوزَعُونَ﴾ من الوزع وأصله الكف ، تقول : وزع فلان فلانا عن الشيء ، أى : كفه ومنعه عنه. ومنه قول الشاعر :

ولن يزع النفس اللجوج عن الهوى ... من الناس ، إلا وافر العقل كامله

والمراد هنا : أن يكف أولهم ويمنع عن التحرك حتى يرد آخرهم فيلحق بأولهم ، بحيث

يجتمعون جميعا للحساب ثم يدعون إلى نار جهنم.

والمعنى : واذكر ـ أيها العاقل ـ يوم يحشر أعداء الله جميعا إلى النار ، بعد أن حوسبوا على أعمالهم السيئة ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أى : فهم يحبسون في هذا اليوم العصيب حتى يلحق آخرهم بأولهم ، ويكفون جميعا عن الحركة حتى يقضى الله ـ تعالى ـ بقضائه العادل فيهم.

والتعبير بقوله : ﴿أَعْداءُ اللهِ﴾ يدل على ذمهم ، وعلى أن ما أبهم من عذاب مهين. إنما هو بسبب عداوتهم لله ـ تعالى ـ ولرسله ـ صلوات الله عليهم ـ ، حيث أعرضوا عن الحق الذي جاءهم به الرسل من عند ربهم.

والتعبير بقوله ﴿يُوزَعُونَ﴾ يشعر بأنهم يحبسون ويمنعون عن الحركة بغلظة وزجر.

ثم بين ـ سبحانه ـ أحوالهم عند ما يعرضون على النار فقال : ﴿حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

والمراد بشهادة هذه الأعضاء عليهم : أنها تنطق ـ بإذن الله ـ تعالى ـ وتخبر بما اجترحوه من سيئات ، وبما فعلوه من قبائح.

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : «فإن قلت «ما» في قوله : ﴿حَتَّى إِذا ما جاؤُها﴾ ما هي؟.

قلت : مزيدة للتأكيد ، ومعنى التأكيد فيها : أن وقت مجيئهم النار لا محالة أن يكون وقت الشهادة عليهم ، ولا وجه لأن يخلو منها ...

فإن قلت : كيف تشهد عليهم أعضاؤهم وكيف تنطق؟.

قلت : الله ـ عزوجل ـ ينطقها ... بأن يخلق فيها كلاما ..

وشهادة الجلود بالملامسة للحرام ، وما أشبه ذلك مما يفضى إليها من المحرمات. وقيل : المراد بالجلود الجوارح. وقيل : هو كناية عن الفروج ..» [1].

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما يقوله هؤلاء الكافرون لجوارحهم على سبيل التوبيخ والتعجيب فقال : ﴿وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا ..﴾.

أى : وقال هؤلاء الكافرون لجلودهم التي تشمل جميع جوارحهم بتعجب وذهول : لماذا شهدتم علينا مع أننا ما دافعنا إلا عنكم. لكي ننقذكم من النار؟.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٩٥.

وهنا ترد عليهم جوارحهم بقولها ـ كما حكى سبحانه عنها ـ ﴿قالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ..﴾.

أى : قالوا في الرد عليهم : أنطقنا الله ـ تعالى ـ الذي أنطق كل شيء بقدرته التي لا يعجزها شيء ﴿وَهُوَ﴾ ـ سبحانه ـ الذي ﴿خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ولم تكونوا شيئا مذكورا.

﴿وَإِلَيْهِ﴾ وحده ﴿تُرْجَعُونَ﴾ فيحاسبكم على أعمالكم ، ويحكم فيكم بحكمه العادل.

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية عددا من الأحاديث ، منها ما جاء عن أنس ابن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : ضحك رسول الله ﷺ ذات يوم وتبسم فقال : «ألا تسألون عن أى شيء ضحكت»؟ قالوا : يا رسول الله ، من أى شيء ضحكت؟ قال : «عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة ، يقول : أى ربي ، أليس قد وعدتني أن لا تظلمني؟ قال : بلى. فيقول : فإنى لا أقبل على شاهدا إلا من نفسي. فيقول الله ـ تعالى ـ : أو ليس كفى بي شهيدا. وبالملائكة الكرام الكاتبين؟ قال : فيردد هذا الكلام مرارا قال : فيختم على فيه ، وتتكلم أركانه بما كان يعمل. فيقول : بعدا لكن وسحقا ، فعنكن كنت أجادل» (١).

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ ، وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ ، بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٢).

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما يقال لهؤلاء الكافرين يوم القيامة من جهته ـ تعالى ـ أو من جهة جوارحهم التي شهدت عليهم فقال ـ تعالى ـ : ﴿وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ ، وَلكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

وقوله : ﴿تَسْتَتِرُونَ﴾ من الاستتار بمعنى الاستخفاء ، «وما» نافية. وقوله : ﴿أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ ..﴾ في موضع نصب على نزع الخافض أى : من أن يشهد عليكم .. أو مفعول لأجله.

أى : مخافة أو خشية أن يشهد عليكم سمعكم.

والمعنى : أن جوارحهم تقول لهم يوم القيامة على سبيل التبكيت : أنتم ـ أيها الكافرون ـ لم تكونوا في الدنيا تخفون أعمالكم السيئة ، خوفا من أن نشهد عليكم ولكنكم كنتم تخفونها

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٥٩.

(٢) سورة يس الآية ٦٥.

لاعتقادكم أن الله ـ تعالى ـ لا يعلم ما تخفونه من أعمالكم ، ولكنه يعلم ما تظهرونه منها.

وما حملكم على هذا الاعتقاد الباطل إلا جهلكم بصفات الله ـ تعالى ـ وكفركم باليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء ، واستبعادكم أننا سنشهد عليكم.

قال القرطبي : قوله ـ تعالى ـ : ﴿وما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ ...﴾ يجوز أن يكون هذا من قول الجوارح لهم ، ويجوز أن يكون من قول الله ـ تعالى ـ لهم ، أو الملائكة.

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال : اجتمع عند البيت ثلاثة نفر ، قرشيان وثقفى ، ـ أى شخص من قبيلة ثقيف ـ أو ثقفيان وقرشي ، قليل فقه قلوبهم ، كثير شحم بطونهم. فقال أحدهم : أترون الله ـ تعالى ـ يسمع ما نقول : فقال الآخر : يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا.

فأنزل الله ـ عزّوجلّ ـ : ﴿وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ﴾.

فالآية الكريمة تنعى على المشركين جهالاتهم الفاضحة ، حيث ظنوا أن الله ـ تعالى ـ لا يعلم الكثير من أعمالهم ، وتنبه المؤمنين إلى أن من الواجب عليهم أن يعلموا أن الله ـ تعالى ـ معهم ، ولا يخفى عليه شيء من أقوالهم أو أفعالهم ، وأنه ـ سبحانه ـ يعلم السر ، وأخفى ورحم الله من قال :

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت. ولكن قل : على رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما يخفى عليك ، يغيب

ثم بين ـ سبحانه ـ سوء عاقبة ظن هؤلاء الكافرين الجاهلين فقال : ﴿وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ﴾.

و ﴿ذلِكُمْ﴾ اسم إشارة يعود إلى ظنهم السابق ، وهو مبتدأ ، وقوله ﴿أَرْداكُمْ﴾ خبره.

أى : وذلكم الظن الذي ظننتموه بربكم ، وهو أنه ـ سبحانه ـ لا يعلم كثيرا مما تعملون سرا ، هذا الظن ﴿أَرْداكُمْ﴾ أى : أهلككم ، يقال ردى فلان ـ كصدى ـ إذا هلك ﴿فَأَصْبَحْتُمْ﴾ أيها الكافرون من الخاسرين لكل شيء في دنياكم.

﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا﴾ عن العذاب ﴿فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ﴾ أى : فالنار هي المكان المعد لثوائهم فيه ، ولبقائهم به بقاء أبديا. يقال : ثوى فلان بالمكان إذا أقام به إقامة دائمة.

﴿وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ أى : وإن يطلبوا الرضا عنهم ، فما هم من المرضى عنهم ، وإنما هم من المغضوب عليهم ، أو وإن يطلبوا منا الرجوع إلى ما يرضينا بأن نعيدهم

إلى الدنيا ، فما هم من المجابين إلى ذلك.

قال القرطبي : وأصل الكلمة من العتب . بفتح العين وسكون التاء . وهي الموجدة ، يقال : عتب عليه يعتب . كضرب يضرب . إذا وجد عليه. فإذا فاوضه فيما عتب عليه فيه ، قيل : عاتبه ، فإذا رجع إلى مسرتك فقد أعتب. والاسم العتبى ، وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرى العاتب قال الشاعر :

فإن أك مظلوما فعبدا ظلمته ... وإن تك ذا عتبى فمثلك يعتب [1]

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة ، قد بينت الأحوال السيئة التي يكون عليها الكافرون يوم القيامة ، والمجادلات التي تدور بينهم وبين جوارحهم في هذا اليوم العسير عليهم.

ثم بين . سبحانه . جانبا من الأسباب التي أوقعتهم في هذا المصير الأليم ، ومن الأقوال السيئة التي كانوا يتواصون بها فيما بينهم ، وعن عاقبة هذا التواصي الأثيم فقال . تعالى . :

﴿وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ (٢٥) وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذلِكَ جَزاءُ أَعْداءِ اللهِ النَّارُ لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ جَزاءً بِما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا لِيَكُونا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ (٢٩)

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٣٥٤.

قال الجمل ما ملخصه : قوله : ﴿وَقَيَّضْنا ...﴾ أى : سببنا وهيأنا وبعثنا لهم قرناء يلازمونهم ويستولون عليهم استيلاء القيض على البيض. والقيض قشر البيض ..

والتقييض ـ أيضا ـ التيسير والتهيئة ، تقول قيضت لفلان الشيء ، أى : هيأته ويسرته له .. [1].

والقرناء : جمع قرين ، وهو الصديق الملازم للشخص الذي لا يكاد يفارقه ، وله تأثير عليه والمراد بما بين أيديهم : شهوات الدنيا وسيئاتها. والمراد بما خلفهم : ما يتعلق بالآخرة من بعث وحساب وثواب وعقاب.

والمعنى : إن حكمتنا قد اقتضت أن نهيئ ونسبب لهؤلاء المشركين قرناء سوء ، هؤلاء القرناء يزينون لهم القبيح من أعمال الدنيا التي يعيشون فيها ، كما يزينون لهم إنكار ما يتعلق بما خلفهم من أمور الآخرة ، كتكذيبهم بالبعث والحساب والجزاء.

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ. وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [2].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ...﴾ بيان لما ترتب على استجابتهم لقرناء السوء ، وانقيادهم لهم انقياد التابع للمتبوع.

أى : وثبت عليهم القول الذي قاله ـ سبحانه ـ لإبليس ، وتحقق مقتضاه وهو قوله ـ تعالى ـ : ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [3].

وقوله : ﴿فِي أُمَمٍ﴾ في محل نصب على الحال من الضمير في ﴿عَلَيْهِمُ﴾ أى : وثبت عليهم العذاب. حالة كونهم داخلين في جملة أمم كافرة جاحدة ، قد مضت من قبلهم ، وهذه الأمم منها ما هو من الجن ، ومنها ما هو من الإنس.

وجملة ﴿إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب. والضمير لكفار قريش ولغيرهم من الأمم السابقة التي هلكت على الكفر.

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما تواصى به المشركون فيما بينهم فقال : ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٣٩.

(٢) سورة الزخرف الآيتان ٣٦ ، ٣٧.

(٣) سورة «ص» آية ٨٥.

وقوله : ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ من اللغو ، وهو الكلام الساقط الذي لا فائدة فيه يقال : لغا فلان في كلامه يلغو ، إذا نطق بكلام ساقط لا خير فيه.

ويبدو أن هذا الكلام قد قاله الزعماء من كفار مكة لأتباعهم ، فقد ورد عن ابن عباس أنه قال : قال أبو جهل . لأتباعه . : إذا قرأ محمد فصيحوا في وجهه ، حتى لا يدرى ما يقول.

أى : وقال زعماء الكفر لأتباعهم : لا تسمعوا لهذا القرآن الذي يقرأه محمد ﷺ وأصحابه ، ولا تنصتوا إليه ، بل ابتعدوا عن قارئيه ، والغوا فيه أى : وأظهروا عند قراءته أصواتكم باللغو من القول ، كالتشويش على القارئ ، والتخليط عليه في قراءته بالتصفيق وبرفع الصوت بالخرافات والهذيان ..

﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ أى : لعلكم بعملكم هذا تتغلبون على المسلمين ، وتجعلونهم ينصرفون عن قراءة القرآن.

ولا شك أن قولهم هذا دليل واضح على خوفهم من تأثير القرآن في القلوب ، هذا التأثير الذي حمل كثيرا منهم عند سماعه على الدخول في الإسلام ونبذ الكفر والكافرين.

كما يدل على أنهم لعجزهم عن معارضته ، وعن الإتيان بسورة من مثله ، لجئوا إلى تلك الأساليب السخيفة ، لصرف الناس عن سماع القرآن الكريم.

وقد رد . سبحانه . على فعلهم هذا بما يناسبه من تهديد فقال : ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذاباً شَدِيداً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

أى : فو الله لنجعلن الذين كفروا بهذا القرآن والذين شوشوا على قارئيه بالصياح والاستهزاء ، لنجعلنهم يذوقون العذاب الذي يهينهم ، ويحسون به إحساسا أليما. ولنجزينهم في الآخرة الجزاء المناسب لقبح أعمالهم التي عملوها في الدنيا.

قال الآلوسى : قوله . تعالى . : ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى : جزاء سيئات أعمالهم التي هي في أنفسها أسوأ ، فأفعل للزيادة المطلقة وقيل : إنه . سبحانه . لا يجازيهم بمحاسن أعمالهم كإغاثة الملهوف ، وصلة الأرحام. وإكرام الضيف ... لأن هذه الأعمال قد حبطت بسبب كفرهم .. [(١)].

وقال الجمل في حاشيته : وفي هذا تعريض بمن لا يكون عند سماعه لكلام الله خاضعا خاشعا متفكرا متدبرا. وتهديد ووعيد شديد لمن يصدر عنه عند سماعه ما يشوش على القارئ

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٤ ص ١١٩.

ويخلط عليه القراءة ، فانظر إلى عظمة القرآن المجيد ، وتأمل في هذا التغليظ والتشديد ، واشهد لمن عظمه وأجل قدره ، وألقى إليه السمع وهو شهيد ، بالفوز العظيم .. »[1].

واسم الإشارة في قوله . تعالى . : ﴿ذلِكَ جَزاءُ أَعْداءِ اللهِ ...﴾ يعود إلى ما تقدم من العذاب الشديد المعد لهؤلاء الكافرين ، وهو مبتدأ ، وجملة ﴿جَزاءُ أَعْداءِ اللهِ﴾ خبره.

وقوله ﴿النَّارُ﴾ بدل أو عطف بيان.

أى : ذلك العذاب الشديد الذي نذيقه للكافرين جزاء عادل لأعداء الله ، وهذا العذاب الشديد يتمثل في النار التي أعدها . سبحانه . لهم.

وجملة : ﴿لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ﴾ مؤكدة لما قبلها. أى : لهم في تلك النار الإقامة الدائمة الباقية المستمرة ، فهي بمثابة الدار المهيأة لسكنهم الدائم.

وقوله . سبحانه . : ﴿جَزاءً بِما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ﴾ بيان لحكم الله العادل فيهم.

أى : نجازيهم جزاء أليما بسبب جحودهم لآياتنا الدالة على وحدانيتنا وعلى صدق رسلنا.

ثم صور . سبحانه . أحوالهم وهم يتقلبون في النار وحكى بعض أقوالهم التي يقولونها وهم في ذلك العذاب الأليم فقال : ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ على من أضلوهم.

﴿رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ...﴾ أى : قالوا يا ربنا أطلعنا على الفريقين اللذين زينوا لنا الكفر والفسوق والعصيان من أفراد الجن والإنس ﴿نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا لِيَكُونا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ أى : أرنا إياهم لننتقم منهم ، بأن ندوسهما بأقدامنا احتقارا لهم ، وغضبا عليهم ، ليكونا بذلك في أسفل مكان من النار ، وفي أحقره وأكثرهم سعيرا. وهكذا تتحول الصداقة التي كانت بين الزعماء والأتباع في الدنيا ، إلى عداوة تجعل كل فريق يحتقر صاحبه ، ويتمنى له أسوأ العذاب.

وكعادة القرآن في المقارنة بين عاقبة الأشرار وعاقبة الأخيار ، جاء الحديث عن حسن عاقبة المؤمنين ، بعد الحديث عن سوء مصير الكافرين ، فقال . تعالى . :

﴿إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ

---

(١) حاشية الجمل ج ٤ ص ٤١.

الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢) وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صالِحاً وَقالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَما يُلَقَّاها إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَما يُلَقَّاها إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٣٦)

والمعنى : إن الذين قالوا بكل صدق وإخلاص ربنا الله ـ تعالى ـ وحده ، لا شريك له لا في ذاته ولا في صفاته.

﴿ثُمَّ اسْتَقامُوا﴾ أى : ثم ثبتوا على هذا القول ، وعملوا بما يقتضيه هذا القول من طاعة الله ـ تعالى ـ في المنشط والمكره ، وفي العسر واليسر ، ومن اقتداء برسوله صلى الله عليه وسلم في كل أحواله.

قال صاحب الكشاف : و ﴿ثُمَ﴾ لتراخى الاستقامة عن الإقرار في المرتبة وفضلها عليه. لأن الاستقامة لها الشأن كله. ونحوه قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا﴾ والمعنى : ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته [1].

ولقد بين لنا النبي صلى الله عليه وسلم أن الاستقامة على أمر الله جماع الخيرات ، ففي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال : قلت : يا رسول الله «قل لي في الإسلام قولا لا أسأل

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٩٨.

عنه أحدا بعدك». قال : «قل آمنت بالله ثم استقم ...» [1].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا﴾ بيان للآثار الطيبة التي تترتب على هذا القول المؤيد بالثبات على طاعة الله ـ تعالى ـ :

وتنزل الملائكة عليهم بهذه البشارات يشمل ما يكون في حياتهم عن طريق إلهامهم بما يشرح صدورهم ، ويطمئن نفوسهم ، كما يشمل تبشيرهم بما يسرهم عند موتهم وعند بعثهم.

قال الآلوسى : قوله ـ تعالى ـ : ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ﴾ قال مجاهد : عند موتهم. وعن زيد بن أسلم : عند الموت ، وعند القبر ، وعند البعث ، وقيل : معنى ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ﴾ يمدونهم فيما يعن ويطرأ لهم من الأمور الدينية والدنيوية بما يشرح صدورهم ، ويدفع عنهم الخوف والحزن بطريق الإلهام كما أن الكفرة يغريهم ما قيض لهم من قرناء السوء بتزيين القبائح. [2] والخوف : غم يلحق النفس لتوقع مكروه في المستقبل.

والحزن : غم يلحقها لفوات نفع في الماضي.

أى : إن الذين قالوا ربنا الله باعتقاد جازم ، ثم استقاموا على طاعته في جميع الأحوال ، تتنزل عليهم من ربهم الملائكة ، لتقول لهم في ساعة احتضارهم وعند مفارقتهم الدنيا ، وفي كل حال من أحوالهم : لا تخافوا ـ أيها المؤمنون الصادقون ـ مما أنتم قادمون عليه في المستقبل ، ولا تحزنوا على ما فارقتموه من أموال أو أولاد.

﴿وَأَبْشِرُوا﴾ عما قريب ، بالجنة التي كنتم توعدون بها في الدنيا.

ثم يقولون لهم ـ أيضا ـ على سبيل الزيادة في المسرة : ﴿نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

أى : نحن نصراؤكم على الخير ، وأعوانكم على الطاعة في الحياة الدنيا التي توشكون على مفارقتها ، وفي الآخرة التي هي الدار الباقية ، سنتلقاكم فيها بالتكريم والترحاب.

﴿وَلَكُمْ فِيها﴾ أى : في الدار الآخرة ، ما تشتهي أنفسكم ، من أنواع الطيبات التي أعدها لكم خالقكم في جناته.

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٦٥.

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٤ ص ١٢١.

﴿وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ﴾ أى : ما تتمنوه وتطلبونه ، فقوله ﴿تَدَّعُونَ﴾ افتعال من الدعاء بمعنى الطلب.

قوله ـ تعالى ـ : ﴿نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ حال من قوله : ﴿ما تَدَّعُونَ﴾ ، وأصل النزل : ما يقدم للضيف عند نزوله على المضيف من مأكل طيب ، ومشرب حسن ، ومكان فيه راحته.

أى : لكم في الدار الآخرة جميع ما تطلبونه وما تدعونه ، حال كون هذا المعطى لكم رزقا وضيافة مهيأة لكم من ربكم الواسع المغفرة والرحمة.

ثم سمت السورة الكريمة بعد ذلك بمنازل الذين يقومون بالدعوة إلى الحق بحكمة وإخلاص فقال ـ تعالى ـ : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صالِحاً وَقالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

أى. لا أحد أحسن قولا ، وأعظم منزلة ، ممن دعا غيره إلى طاعة الله ـ تعالى ـ وإلى المحافظة على أداء ما كلفه به.

ولم يكتف بهذه الدعوة لغيره ، بل أتبع ذلك بالعمل الصالح الذي يجعل المدعوين يزدادون استجابة له.

﴿وَقالَ﴾ : بعد كل ذلك على سبيل السرور والابتهاج والتحدث بنعمة الله ﴿إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

أى : من الذين أسلموا وجوههم لله ـ تعالى ـ وأخلصوا له القول والعمل.

قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية ، أى : وهو في نفسه مهتد بما يقوله ، فنفعه لنفسه لازم ومتعد ، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه ، وينهون عن المنكر ويأتونه .. وهذه الآية عامة في كل من دعا إلى خير ، وهو في نفسه مهتد.

وقيل المراد بها المؤذنون الصلحاء ... والصحيح أن الآية عامة في المؤذنين وفي غيرهم» (١).

ثم أرشد ـ سبحانه ـ إلى ما ينمى روح المحبة والمودة .. بين الداعي والمدعوين بصفة خاصة ، وبين المسلم وغيره بصفة عامة ، فقال : ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾.

أى : ولا تستوي الخصلة الحسنة ولا الخصلة السيئة ، لا في ذواتهما ولا في الآثار التي تترتب

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٦٨.

عليهما ، إذ الخصلة الحسنة جميلة في ذاتها ، وعظيمة في الآثار الطيبة التي تنتج عنها ، أما الخصلة السيئة فهي قبيحة في ذاتها وفي نتائجها.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إرشاد منه ـ تعالى ـ إلى ما يجب أن يتحلى به عباده المؤمنون.

أى : ما دامت الخصلة الحسنة لا تتساوى مع الخصلة السيئة ، فعليك ـ أيها المسلم ـ أن تدفع السيئة إذا جاءتك من المسيء ، بأحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات ، بأن تقابل ذنبه بالعفو ، وغضبه بالصبر ، وقطعه بالصلة وفظاظته بالسماحة.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ بيان للآثار الجميلة التي تترتب على دفع السيئة بالحسنة.

والولي : هو الصديق المحب الشفيق عليك ، من الولي بمعنى القرب.

والحميم : يطلق في الأصل على الماء الحار ... والمراد به هنا : الصديق الصدوق معك.

أى : أنت إذا دفعت السيئة بالحسنة ، صار عدوك الذي أساء إليك ، كأنه قريب منك ، لأن من شأن النفوس الكريمة أنها تحب من أحسن إليها ، ومن عفا عنها ، ومن قابل شرها بالخير ، ومنعها بالعطاء.

ولما كانت هذه الأخلاق تحتاج إلى مجاهدة للنفس .. عقب ـ سبحانه ـ على هذه التوجيهات السامية بقوله : ﴿وَما يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا. وَما يُلَقَّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

والضمير في ﴿يُلَقَّاها﴾ يعود إلى تلك الخصال الكريمة السابقة ، التي على رأسها الدفع بالتي هي أحسن.

أى : وما يستطيع القيام بتلك الأخلاق العظيمة التي على رأسها الدعوة إلى الله ومقابلة السيئة بالحسنة .. إلا الذين صبروا على المكاره وعلى الأذى.

وما يستطيعها ـ أيضا ـ إلا صاحب الحظ الوافر ، والنصيب الكبير ، من توفيق الله ـ تعالى ـ له إلى مكارم الأخلاق.

والمتأمل في هذه الآيات الكريمة يراها قد رسمت للمسلم أحكم الطرق ، وأفضل الوسائل ، التي ترفع درجته عند ـ خالقه ـ تعالى ..

ثم أرشد ـ سبحانه ـ عباده إلى ما يبعدهم عن كيد الشيطان ، فقال : ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

والنزغ والنخس والغرز بمعنى واحد. وهو إدخال الإبرة أو طرف العصا في الجلد. المراد به هنا : وسوسة الشيطان وكيده للإنسان.

والمعنى : وإن تعرض لك من الشيطان وسوسة تثير غضبك ، وتحملك على خلاف ما أمرك الله ـ تعالى ـ به .. فاستعذ بالله ، أى : فالتجئ إلى حماه واستجر به من كيد الشيطان ﴿إِنَّهُ﴾ ـ سبحانه ـ هو السميع لدعائك ، العليم بكل أحوالك ، القادر على دفع كيد الشيطان عنك.

فالآية الكريمة ترشد المؤمن إلى العلاج الذي يحميه من وسوسة الشيطان وكيده ، ألا وهو الاستعاذة بالله السميع لكل شيء ، العليم بكل شيء القادر على كل شيء.

وبعد هذه البشارات الكريمة ، والتوجيهات الحكيمة للمؤمنين .. ساق ـ سبحانه ـ أنواعا من الأدلة الكونية الدالة على وحدانيته وقدرته ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿وَمِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ (٣٨) وَمِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣٩)

والمراد بالآيات في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَمِنْ آياتِهِ ..﴾ العلامات الدالة دلالة واضحة على وحدانية الله ـ تعالى ـ وقدرته.

أى : ومن آياته على وحدانيته وقدرته ـ تعالى ـ وعلى وجوب إخلاص العبادة له ، وجود

الليل والنهار والشمس والقمر بتلك الطريقة البديعة ، حيث إن الجميع يسير بنظام محكم ، ويؤدى وظيفته أداء دقيقا. كما قال ـ تعالى ـ : ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ، وَلَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

وقوله ـ تعالى ـ ﴿لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ ، وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ ..﴾ نهى عن السجود لغيره ـ تعالى ـ وأمر بالسجود له وحده.

أى : لا تسجدوا ـ أيها الناس ـ للشمس ولا للقمر ، لأنهما ـ كغيرهما ـ من جملة مخلوقات الله ـ تعالى ـ ، واجعلوا طاعتكم وعبادتكم لله الذي خلق كل شيء في هذا الكون ، إن كنتم حقا تريدون أن تكون عبادتكم مقبولة عنده ـ عزّ وجلّ ـ ..

فالآية الكريمة تقيم الأدلة على وجوب إخلاص العبادة لله ـ عزّ وجلّ ـ وتنهى عن عبادة غيره ـ تعالى ـ ..

قال الجمل : هذا رد على قوم عبدوا الشمس والقمر ، وإنما تعرض للأربعة مع أنهم لم يعبدوا الليل والنهار ، للإيذان بكمال سقوط الشمس والقمر عن رتبة السجودية لهما ، بنظمهما في المخلوقية في سلك الأعراض التي لا قيام لها بذاتها ، وهذا هو السر في نظم الكل في سلك آياته.

وإنما عبر عن الأربع بضمير الإناث ـ مع أن فيها ثلاثة مذكرة ، والعادة تغليب المذكر على المؤنث ـ لأنه لما قال : ومن آياته ، فنظم الأربعة في سلك الآيات ، صار كل واحد منها آية فعبر عنها بضمير الإناث في قوله ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ [1].

ثم بين ـ سبحانه ـ أن استكبار الجاهلين عن عبادة الله ـ تعالى ـ وحده ، لن ينقص من ملكه شيئا فقال : ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا ، فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾.

أى : فإن تكبر هؤلاء الكافرون عن إخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ فلا تحزن أيها الرسول الكريم ـ فإن الذين عند ربك من الملائكة ـ ينزهونه ـ تعالى ـ ويعبدونه عبادة دائمة بالليل والنهار وهم لا يسأمون ولا يملون ، لاستلذاذهم لتلك العبادة والطاعة ، وخوفهم من مخالفة أمره ـ عزّ وجلّ ـ ..

فالآية الكريمة تهون من شأن هؤلاء الكافرين ، وتبين أنه ـ تعالى ـ في غنى عنهم وعن عبادتهم ؛ لأن عنده من مخلوقاته الكرام من يعبده بالليل والنهار بدون سأم أو كلل.

---

(١) حاشية الجمل ج ٤ ص ٤٤.

والمراد بالعندية في قوله ـ تعالى ـ ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ عندية المكانة والتشريف لا عندية المكان.

وقوله ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ تعليل لجواب الشرط المقدر ، أى : فإن استكبروا فدعهم وشأنهم فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار.

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ. يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ (١).

ثم بين ـ سبحانه ـ آية أخرى من آياته الدالة على وجوب إخلاص العبادة له فقال : ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً ، فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ..﴾.

و ﴿خاشِعَةً﴾ أى ، يابسة جدبة ، خشعت الأرض ، إذا أجدبت لعدم نزول المطر عليها وقوله : ﴿اهْتَزَّتْ﴾ أى : تحركت بالنبات قبل بروزه منها وبعد ظهوره على سطحها و ﴿رَبَتْ﴾ أى : انتفخت وعلت ، لأن النبات إذا قارب الظهور ترى الأرض ، ارتفعت له ، ثم تشققت عنه. يقال : ربا الشيء إذا زاد وعلا وارتفع ، ومنه الربوة للمكان المرتفع من الأرض.

أى : ومن آياته ـ تعالى ـ الدالة على وجوب العبادة له وحده ، أنك ـ أيها العاقل ـ ترى الأرض يابسة جامدة ، فإذا أنزلنا عليها بقدرتنا المطر ، تحركت بالنبات ، وارتفعت بسببه ، ثم تصدعت عنه.

وعبر ـ سبحانه ـ هنا بقوله ﴿خاشِعَةً﴾ لأن الحديث عن وجوب السجود لله ـ تعالى ـ وحده ، والحديث عن السجود والطاعة يناسبه الخشوع.

وفي سورة الحج قال ـ سبحانه ـ : ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً ..﴾ لأن الحديث هناك كان عن البعث ، وعن إمكانيته ، فناسب أن يعبر بالهمود الذي يدل على فقدان الحياة.

قال ـ تعالى ـ ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ..﴾ (٢).

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى ، إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بيان لمظاهر قدرته ـ عزوجل ـ ..

---

(١) سورة الأنبياء الآيتان ١٩ ، ٢٠.

(٢) سورة الحج الآية ٥.

أى : إن الذي أحياها بنزول المطر عليها ، ويخرج النبات منها ، لقادر عن أن يحيي الموتى عن طريق البعث والنشور ، إنه . سبحانه . على كل شيء قدير.

وبعد هذا الحديث عن مظاهر قدرة الله في هذا الكون ، جاءت الآيات بعد ذلك لتهديد الذين يلحدون في آياته . تعالى . ولتمدح القرآن الكريم ، ولتسلى النبي ﷺ عما لقيه من أعدائه ، ولتبين أن من عمل صالحا فثمار عمله لنفسه ، ومن عمل سيئا فعلى نفسه وحده يجنى .. قال . تعالى . :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا أَفَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) ما يُقالُ لَكَ إِلاَّ ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقابٍ أَلِيمٍ (٤٣) وَلَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (٤٤) وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (٤٥) مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها وَما رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (٤٦)

وقوله ـ تعالى ـ ﴿يُلْحِدُونَ﴾ من الإلحاد وهو الميل عن الاستقامة ، والعدول عن الحق.

يقال ألحد فلان في كلامه إذا مال عن الصواب ، ومنه اللحد في القبر ، لأنه أميل إلى ناحية منه دون الأخرى.

والمعنى : إن الذين يميلون عن الحق في شأن آياتنا بأن يؤولوها تأويلا فاسدا ، أو يقابلوها باللغو فيها وعدم التدبر لما اشتملت عليه من توجيهات حكيمة ..

هؤلاء الذين يفعلون ذلك : ﴿لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا﴾ أى ليسوا بغائبين عن علمنا ، بل هم تحت بصرنا وقدرتنا ، وسنجازيهم بما يستحقون من عقاب مهما ألحدوا ومالوا عن الحق والصواب.

فالجملة تهديد لهم على تحريفهم الباطل لآيات الله ـ تعالى ..

ثم بين ـ سبحانه ـ البون الشاسع بين عاقبة المؤمنين وعاقبة الكافرين ، فقال : ﴿أَفَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾؟.

والغرض من هذا الاستفهام بيان أن الذين يلحدون في آيات الله سيكون مصيرهم الإلقاء في النار ، وأن الذين استجابوا للحق وساروا على طريقه وهم المؤمنون ، سيأتون آمنين من الفزع يوم القيامة.

قال الآلوسى : «وكان الظاهر أن يقابل الإلقاء في النار بدخول الجنة ، لكنه عدل عنه إلى ما في النظم الجليل ، اعتناء بشأن المؤمنين ، لأن الأمن من العذاب أعم وأهم ، ولذا عبر عن الأول بالإلقاء الدال على القهر والقسر ، وعبر عن الثاني بالإتيان الدال على أنه بالاختيار والرضا ، مع الأمن ودخول الجنة ..» (١).

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تهديد آخر لهم على إلحادهم.

أى : اعملوا أيها الملحدون ما شئتم من أعمال قبيحة ، فإنها لا تخفى على خالقكم ـ عزوجل ـ ، لأنه بصير بكم ، ومطلع على أفعالكم ، وسيجازيكم عليها الجزاء العادل الذي تستحقونه.

فالمقصود من الأمر في قوله ـ تعالى ـ ﴿اعْمَلُوا﴾ التهديد والوعيد.

ثم أضاف ـ سبحانه ـ إلى ما سبق تهديدا ثالثا فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ﴾.

وخبر «إن» هنا محذوف للعلم به مما سبق ، أى : إن الذين كفروا بالقرآن الكريم حين

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢ ص ١٢٧.

جاءهم على لسان رسول الله ﷺ ، خاسرون أو هالكون أو معذبون عذابا شديدا. ﴿وَإِنَّهُ﴾ أى : هذا القرآن الكريم هو الحق الذي جاءهم به ﷺ ، لعل هذا التدبر يوصلهم إلى الهداية والرشاد ﴿لَكِتابٌ عَزِيزٌ﴾. أى : لكتاب منيع معصوم بعصمة الله ـ تعالى ـ له من كل تحريف أو تبديل.

ثم أكد ـ سبحانه ـ هذا المعنى فقال : ﴿لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أى : لا يستطيع الباطل أن يتطرق إليه من أى جهة من الجهات ، لا من جهة لفظه ولا من جهة معناه لأن الله ـ تعالى ـ تكفل بحفظه وصيانته ، كما قال ـ تعالى ـ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : أما طعن فيه الطاعنون وتأوله المبطلون؟

قلت : بلى ، ولكن الله قد تكفل بحمايته عن تعلق الباطل به ، بأن قيض قوما عارضوهم بإبطال تأويلهم ، وإفساد أقاويلهم. فلم يخلوا طعن طاعن إلا ممحوقا ، ولا قول مبطل إلا مضمحلا. (١).

وقوله : ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أى : هذا الكتاب منزل من لدن الله الحكيم في أقواله وأفعاله ، المحمود على ما أسدى لعباده من نعم لا تحصى.

ثم سلى ـ سبحانه ـ نبيه ﷺ عما أصابه من أعدائه فقال : ﴿ما يُقالُ لَكَ إِلَّا ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾.

أى : لا تحزن ـ أيها الرسول الكريم ـ من الأقوال الباطلة التي قالها المشركون في حقك ، فإن ما قالوه في شأنك قد قاله السابقون عليهم في حق رسلهم.

فالآية الكريمة من أبلغ الآيات في تسلية الرسول ﷺ لأنها كأنها تقول له ، إن ما أصابك من أذى قد أصاب إخوانك ، فاصبر كما صبروا.

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿كَذلِكَ ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ. أَتَواصَوْا بِهِ ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ﴾ (٢).

ثم علل ـ سبحانه ـ هذه التسلية وهذا التوجيه بقوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقابٍ أَلِيمٍ﴾.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢٠٢.

(٢) سورة الذاريات الآيتان ٥٢ ، ٥٣.

أى : ما يقال لك إلا مثل ما قيل لإخوانك من قبلك ، ومادام الأمر كذلك. فاصبر كما صبروا ، إن ربك الذي تولاك بتربيته ورعايته ، لذو مغفرة عظيمة لعباده المؤمنين وذو عقاب أليم للكفار المكذبين.

ثم رد ـ سبحانه ـ على بعض الشبهات التي أثاروها حول القرآن الكريم ردا يخرس ألسنتهم فقال : ﴿وَلَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ ءَ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ..﴾.

والأعجمي : يطلق على الكلام الذي لا يفهمه العربي ، كما يطلق على من لا يحسن النطق بالعربية. وقوله : ﴿ءَ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ خبر لمبتدأ محذوف.

أى : ولو أنزلنا هذا القرآن بلغة العجم كما قالوا : هلا أنزل هذا القرآن بلغة العجم.

لو فعلنا ذلك ـ كما أرادوا ـ لقالوا مرة أخرى على سبيل التعجب : هلا فصلت ووضحت آيات هذا الكتاب بلغة نفهمها؟ ثم لأضافوا إلى التعجب والإنكار ، تعجبا آخر فقالوا : أقرآن أعجمى ورسول عربي؟.

ومقصدهم من هذه الشبهة الداحضة ، إنما هو إنكار الإيمان به سواء أنزل بلغة العرب أم بلغة العجم.

فهم عند نزوله عربيا قالوا من بين ما قالوا : لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ، ولو نزل بلسان أعجمى ، لاعترضوا وقالوا : هلا نزل بلسان عربي نفهمه.

ولو جعلنا بعضه أعجميا وبعضه عربيا لقالوا : أقرآن أعجمى ورسول عربي.

وهكذا المعاندون الجاحدون لا يقصدون من وراء جدالهم إلا التعنت والسفاهة.

ثم أمر الله ـ تعالى ـ رسول ﷺ أن يرد عليهم بالرد الذي يكبتهم فقال : ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ ..﴾.

أى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء الجاحدين : هذا القرآن هو للذين آمنوا إيمانا حقا هداية إلى الصراط المستقيم ، وشفاء لما في الصدور من أسقام.

كما قال ـ سبحانه ـ في آية أخرى : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ..﴾.

ثم بين ـ سبحانه ـ موقف الكافرين من هذا الكتاب فقال : ﴿وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ أى : بهذا الكتاب ، وبمن نزل عليه الكتاب.

﴿فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ﴾ أى : في آذانهم صمم عن سماع ما ينفعهم.

﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ أى : وهذا القرآن عميت قلوبهم عن تدبره وعن الاهتداء به.

وقوله ـ تعالى ـ ﴿أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ﴾ ذم شنيع لهم على إعراضهم عن هذا القرآن الذي ما أنزله الله ـ تعالى ـ إلا لإخراجهم من الظلمات إلى النور.

أى : أولئك الكافرون الذين لم ينتفعوا بالقرآن مثلهم في صممهم وانطماس بصائرهم ، كمثل من يناديه مناد من مكان بعيد ، فهو لا يسمع منه شيئا ، ولا يعقل عنه شيئا ، لوجود المسافة الشاسعة بين المنادى ، وبين من وقع عليه النداء.

قال القرطبي : قوله ـ تعالى ـ : ﴿أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ﴾ يقال ذلك لمن لا يفهم من التمثيل.

وحكى أهل اللغة أنه يقال للذي يفهم : أنت تسمع من قريب ، ويقال للذي لا يفهم : أنت تنادى من بعيد أى : كأنه ينادى من موضع بعيد منه ، فهو لا يسمع النداء ولا يفهمه. وقال الضحاك : ﴿يُنادَوْنَ﴾ يوم القيامة بأقبح أسمائهم ﴿مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ﴾ فيكون ذلك لتوبيخهم وفضيحتهم .. [1].

ومن يتدبر هذه الآية الكريمة يرى مصداقها في كل زمان ومكان ، فهناك من ينتفع بهذا القرآن قراءة وسماعا وتطبيقا .. وهناك من يستمعون إلى هذا القرآن ، فلا يزيدهم إلا صمما ، ورجسا إلى رجسهم وعمى على عماهم.

ثم بين ـ سبحانه ـ زيادة في التسلية لرسوله صلى‌الله‌عليه‌وسلم ، أن اختلاف الأمم في شأن ما جاء به الرسل شيء قديم فقال ـ تعالى ـ : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ..﴾.

أى : ولقد آتينا نبينا موسى ـ عليه‌السلام ـ كتابه التوراة ليكون هداية ونورا لقومه ، فاختلفوا في شأن هذا الكتاب ، فمنهم من آمن به ، ومنهم من صد عنه.

﴿وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ ـ أيها الرسول الكريم ـ وهي ألا يعذب المكذبين من أمتك في الدنيا عذابا يستأصلهم ويهلكهم.

لو لا ذلك ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أى : لأهلكهم كما أهلك السابقين من قبلهم.

﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أى : كفار قومك ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ أى : لفي شك من هذا القرآن وريبة من أمره ، جعلهم يعيشون في قلق واضطراب.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٣٧١.

ثم بين ـ سبحانه ـ سنة من سننه التي لا تتخلف فقال : ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها ..﴾.

أى : من عمل عملا صالحا بأن آمن بالله ، وصدق بما جاء به رسله ، فثمرة عمله الصالح لنفسه.

﴿وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها﴾ أى : ومن عمل عملا سيئا ، فضرر هذا العمل واقع عليها وحدها ﴿وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أى : وليس ربك ـ أيها الرسول الكريم ـ بذي ظلم لعباده الذين خلقهم بقدرته ، ورباهم بنعمته.

فقوله ﴿بِظَلَّامٍ﴾ صيغة نسب ـ كتمار وخباز ـ وليس صيغة مبالغة.

قال بعض العلماء ما ملخصه : «وفي هذه الآية وأمثالها سؤال معروف ، وهو أن لفظة «ظلام» فيها صيغة مبالغة. ومعلوم أن نفى المبالغة لا يستلزم نفى أصل الفعل. فقولك ـ مثلا ـ : زيد ليس بقتال للرجال لا ينفى إلا مبالغته في قتلهم ، فلا ينافي أنه ربما قتل بعض الرجال.

ومعلوم أن المراد بنفي المبالغة ـ وهي لفظ ظلام ـ في هذه الآية وأمثالها المراد به نفى الظلم من أصله.

وقد أجابوا عن هذا الإشكال بإجابات منها : أن نفى صيغة المبالغة هنا ، قد جاء في آيات كثيرة ما دل على أن المراد به نفى الظلم من أصله ، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ وقوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً ..﴾.

ومنها : أن المراد بالنفي في الآية ، نفى نسبة الظلم إليه. لأن صيغة فعال تستعمل مرادا بها النسبة ، فتغنى عن ياء النسب .. كقولهم «لبان» أى : ذو لبن ، ونبال أى صاحب نبل ..» [1].

ثم بين ـ سبحانه ـ في أواخر هذه السورة الكريمة ، أن علم قيام الساعة إليه ـ تعالى ـ وحده ، وأن الإنسان لا يسأم من طلب المزيد من الخير فإذا مسه الشر يئس وقنط. وأن حكمته ـ تعالى ـ قد اقتضت أن يقيم للناس الأدلة على قدرته ووحدانيته من أنفسهم وعن طريق هذا الكون الذي يعيشون فيه فقال ـ تعالى ـ :

---

(١) راجع تفسير أضواء للبيان ج ٧ ص ١٤٠ للشيخ الشنقيطى.

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ مِنْ أَكْمامِها وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكائِي قالُوا آذَنَّاكَ ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (٤٨) لا يَسْأَمُ الْإِنْسانُ مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ (٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْناهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذا لِي وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِما عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ (٥٠) وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ (٥١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ (٥٤)

(١) وقوله ـ تعالى ـ : ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ مِنْ أَكْمامِها وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ..﴾ بيان لانفراد الخالق ـ عزّ وجلّ ـ بوقت قيام الساعة ، وبإحاطة

---

(١) أول الجزء الخامس والعشرون.

علمه ـ تعالى ـ بكل شيء ، وإرشاد للمؤمنين إلى ما يقولونه إذا ما سئلوا عن ذلك.

والأكمام : جمع كم ـ بكسر الكاف ـ وهو الوعاء الذي تكون الثمرة بداخله.

أى : إلى الله ـ تعالى ـ وحده مرجع علم قيام الساعة ، وما تخرج ثمرات من أوعيتها الكائنة بداخلها ، وما تحمل من أنثى حملا ولا تضعه إلا بعلمه وإرادته ـ عزّ وجلّ ـ و «من» في قوله ﴿مِنْ ثَمَراتٍ﴾ وفي قوله ﴿مِنْ أُنْثى﴾ مزيدة لتأكيد الاستغراق. وفي قوله ﴿مِنْ أَكْمامِها﴾ ابتدائية.

قال الجمل : «فإن قلت : قد يقول الرجل الصالح قولا فيصيب فيه ، وكذلك الكهان والمنجمون.

قلت : أما قول الرجل الصالح فهو من إلهام الله ، فكان من علمه ـ تعالى ـ الذي يرد إليه ، وأما الكهان والمنجمون فلا يمكنهم القطع والجزم في شيء ما يقولونه ألبتة ، وإنما غايته ادعاء ظن ضعيف قد لا يصيب. وعلم الله ـ تعالى ـ هو العلم اليقين المقطوع به الذي لا يشركه فيه أحد [1].

ثم بين ـ سبحانه ـ تبرأ المشركين من آلهتهم يوم القيامة فقال : ﴿وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكائِي قالُوا آذَنَّاكَ ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ. وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ ، وَظَنُّوا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾.

والظرف «يوم» منصوب بفعل مقدر ، ومعنى «آذناك» أعلمناك وأخبرناك ، آذن فلان غيره يؤذنه ، إذا أعلمه بما يريد إعلامه به.

والنداء والسؤال إنما لتوبيخهم والتهكم بهم في هذا الموقف العظيم.

والظن هنا بمعنى اليقين.

أى : واذكر ـ أيها العاقل ـ لتعتبر وتتعظ يوم ينادى الله ـ تعالى ـ المشركين فيقول لهم يوم القيامة : أين شركائى الذين كنتم تعبدونهم من دوني ليقربوكم إلى أو ليشفعوا لكم عندي؟

﴿قالُوا﴾ على سبيل التحسر والتذلل : يا ربنا لقد ﴿آذَنَّاكَ﴾ أى : لقد أعلمناك بأنه ما منا أحد يشهد بأن لك شريكا ، فقد انكشفت عنا الحجب ، واعترفنا بأنك أنت الواحد القهار.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٤٨.

﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ أى : وغاب عن هؤلاء المشركين ، ما كانوا يدعون من قبل أى : ما كانوا يعبدونه في الدنيا من أصنام وغيرها.

﴿وَظَنُّوا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ أى : وأيقنوا بأنه لا مهرب ولا منجى لهم من العذاب.

يقال : حاص يحيص حيصا ومحيصا إذا هرب.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿لا يَسْأَمُ الْإِنْسانُ مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ﴾ بيان لما جبل عليه الإنسان من حب للمال وغيره من ألوان النعم. ومن ضيقه بما يخالف ذلك.

ويبدو أن المراد بالإنسان في هذه الآية وأمثالها جنسه الغالب ، وإلا فهناك مؤمنون صادقون ، إذا رزقهم الله النعم شكروا ، وإذا ابتلاهم بالمحن صبروا.

والمراد بالخير ما يشمل المال والصحة والجاه والسلطان وما إلى ذلك مما يشتهى.

والسأم : الملل ، يقال سئم فلان هذا الشيء ، إذا مله وضاق به وانصرف عنه.

واليأس : أن ينقطع قلب الإنسان عن رجاء الحصول على الشيء ، يقال : يئس فلان من كذا ـ من باب فهم ـ ، إذا فقد الرجاء في الظفر به.

والقنوط : أن يظهر أثر ذلك اليأس على وجهه وهيئته ، بأن يبدو منكسرا متضائلا مهموما.

فكأن اليأس شيء داخل من أعمال القلب بينما القنوط من الآثار الخارجية التي تظهر علاماتها على الإنسان.

أى : لا يسأم الإنسان ولا يمل ولا يهدأ من طلب الخير والسعة في النعم.

﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ من عسر أو مرض ﴿فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ﴾ أى : فهو كثير اليأس والقنوط من رحمة الله ـ تعالى ـ وفضله ، بحيث تنكسر نفسه ، ويظهر ذلك على هيئته.

وعبر ـ سبحانه ـ بيئوس وقنوط وهما من صيغ المبالغة ، للإشارة إلى شدة حزنه وجزعه عند ما يعتريه الشر.

ثم بين ـ سبحانه ـ حالة أخرى من حالات هذا الإنسان فقال ﴿وَلَئِنْ أَذَقْناهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذا لِي وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً ، وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى ...﴾.

أى : ولئن أعطينا هذا الإنسان الجحود نعمة منا تتعلق بالمال أو بالصحة أو بغيرهما ، من بعد أن كان فقيرا أو مريضا ... ليقولن على سبيل الغرور والبطر : هذا الذي أعطيته شيء استحقه ، لأنه جاءني بسبب جهدي وعلمي.

ثم يضيف إلى ذلك قوله : ﴿وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً﴾ أى : وما أعتقد أن هناك بعثا أو حسابا أو جزاء.

﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي﴾ على سبيل الفرض والتقدير ﴿إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى﴾ أى : إن لي عنده ما هو أحسن وأفضل مما أنا فيه من نعم في الدنيا.

وقوله ـ تعالى ـ ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِما عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ﴾ بيان للعاقبة السيئة التي يكون عليها هذا الإنسان الجاحد.

أى : فلنعلمن هؤلاء الكافرين بأعمالهم السيئة ، ولنرينهم عكس ما اعتقدوه بأن ننزل بهم الذل والهوان بدل الكرامة والحسنى التي أيقنوا أنهم سيحصلون عليها ، ولنذيقنهم عذابا غليظا ، لا يمكنهم الفكاك منه أو التفصى عنه لشدته وإحاطته بهم من كل جانب ، فهو كالوثاق الغليظ الذي لا يمكن للإنسان أن يخرج منه.

ثم أكد ـ سبحانه ـ ما ذكره من حالات الإنسان فقال : ﴿وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ﴾ بنعمة من نعمنا التي توجب عليه شكرنا وطاعتنا.

﴿أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ﴾ أى : أعرض عن شكرنا وطاعتنا ، وتكبر وتفاخر على غيره وادعى أن هذه النعمة من كسبه واجتهاده.

وقوله ﴿وَنَأى بِجانِبِهِ﴾ كناية عن الانحراف والتكبر والصلف والبطر.

والنأى البعد. يقال : نأى فلان عن مكان كذا ، إذا تباعد عنه.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ﴾ بيان لحالة هذا الإنسان في حالة الشدة والضر.

أى : هكذا حالة هذا الإنسان الجاحد ، في حالة إعطائنا النعمة له يتكبر ويغتر ويجحد.

وفي حالة إنزال الشدائد به يتضرع ويتذلل إلينا بالدعاء الكثير الواسع.

وفي معنى هذه الآيات الكريمة ، جاءت آيات كثيرة ، منها قوله ـ تعالى ـ : ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى. أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى﴾.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً ، إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً ، وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً﴾.

ثم أمر الله ـ تعالى ـ رسوله صلى‌الله‌عليه‌وسلم أن يوبخ هؤلاء الكافرين على جحودهم وجهالاتهم فقال : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ...﴾.

أى قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء الجاحدين : أخبرونى إن كان هذا القرآن من عند الله ـ تعالى ـ وحده ، ثم كفرتم به مع ظهور الأدلة والبراهين على وجوب الإيمان به.

والاستفهام في قوله ـ تعالى ـ : ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ﴾ للنفي والإنكار أى : لا أحد أكثر ضلالا منكم ـ أيها الكافرون ـ بسبب معاداتكم للحق ، وابتعادكم عنه ، ونفوركم منه نفورا شديدا.

والشقاق والمشاقة بمعنى المخالفة والمعاداة. من الشق ـ أى : الجانب ـ فكأن كل واحد من المتعاديين أو المتخالفين : صار في شق غير شق صاحبه.

ووصف ـ سبحانه ـ شقاقهم بالبعد ، للإشارة بأنهم قد بلغوا في هذا الضلال مبلغا كبيرا ، وشوطا بعيدا.

فالآية الكريمة تجهيل لهؤلاء الكافرين ، وحث لهم على التأمل والتدبر.

ثم بين ـ سبحانه ـ أن حكمته قد اقتضت أن يطلع الناس في كل زمان ومكان على دلائل وحدانيته وقدرته ، وعلى صدق رسوله ﷺ فيما بلغه عنه ، فقال : ﴿سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ..﴾.

والمراد بالآيات في قوله ﴿آياتِنا﴾ : الدلائل والبراهين الدالة على وحدانيته ـ سبحانه ـ وعلى صدق رسوله ﷺ.

والآفاق : جمع أفق ـ كأعناق جمع عنق ـ وهو الناحية والجهة ، يقال : أفق فلان يأفق ـ كضرب يضرب ـ إذا سار في آفاق الأرض وجهاتها المتعددة.

والمعنى : سنطلع الناس على دلائل وحدانيتنا وقدرتنا في أقطار السموات والأرض ، من شمس وقمر ونجوم ، وليل ونهار ، ورياح وأمطار ، وزرع وثمار ، ورعد وبرق وصواعق ، وجبال وبحار.

سنطلعهم على مظاهر قدرتنا في هذه الأشياء الخارجية التي يرونها بأعينهم ، كما سنطلعهم على آثار قدرتنا في أنفسهم عن طريق ما أودعنا فيهم من حواس وقوى ، وعقل ، وروح ، وعن طريق ما يصيبهم من خير وشر ، ونعمة ونقمة.

ولقد صدق الله ـ تعالى ـ وعده ، ففي كل يوم بل في كل ساعة ، يطلع الناس على أسرار جديدة في هذا الكون الهائل ، وفي أنفسهم .. وكلها تدل على وحدانيته ، ـ تعالى ـ وقدرته ، وعلى صحة دين الإسلام الذي جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ استئناف مسوق لتوبيخ

الكافرين على عنادهم مع ظهور الأدلة على أن ما جاء به الرسول ﷺ من عند ربه هو الحق المبين.

والهمزة للإنكار ، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، والباء مزيدة للتأكيد ، وقوله ﴿بِرَبِّكَ﴾ فاعل كفى.

والمعنى : ألم يغن هؤلاء الجاحدين عن الآيات الموعودة الدالة على صحة هذا الدين ، أن ربك ـ أيها الرسول الكريم ـ شهيد على كل شيء ، وعلى أنك صادق فيما تبلغه عنه .. بلى. إن في شهادة ربك وعلمه بكل شيء ما يغنيك عن كل شيء سواه.

ثم بين ـ سبحانه ـ في ختام السورة حقيقة أمر أولئك الكافرين فقال : ﴿أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ ، أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾.

أى : ألا إن هؤلاء المشركين في مرية وشك وريبة من لقاء ربهم يوم القيامة ، لإنكارهم البعث والحساب والجزاء ...

ألا إنه ـ سبحانه ـ بكل شيء محيط إحاطة تامة لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

وسيجمعهم يوم القيامة للحساب والجزاء ، ولن يستطيعوا النجاة من ذلك.

وبعد : فهذا تفسير لسورة «فصلت» نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

القاهرة ـ مدينة نصر

صباح الخميس ٢٥ من المحرم ١٤٠٦ ه‍

١٠ / ١٠ / ١٩٨٥ م

كتبه الراجي عفو ربه

د. محمد سيد طنطاوى

فهرس إجمالي لتفسير «سورة يس»

المقدمة ٧

١ . يس ١١

١٣ . واضرب اهم مثلا ١٨

٢٠ . وجاء من أقصى المدينة....................................... ٢٢

٣٣ . وآية لهم الأرض الميتة أحييناها ٢٨

٤٥ . واذا قيل لهم اتقوا... ٣٧

٥٥ . إن اصحاب الجنة ٤٢

٦٥ . اليوم نختم على أفواههم..................................... ٤٧

٦٩ . وما علمناه الشعر ٥٠

٧١ . أو لم يروا أنا خلقنا... ٥٢

٧٧ . أو لم ير الإنسان أنا خلقناه ٥٥

فهرس إجمالي لتفسير «سورة الصافات»

مقدمة وتمهيد ٦٣
١ . والصافات صفا...٦٦
٦ . إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ٦٩
١١ . فاستفتهم أهم أشد خلقا ٧٢
٢٢ . احشروا الذين ظلموا وأزواجهم..٧٦
٤٠ . إلا عباد الله المخلصين أولئك لهم رزق معلوم ٨٢
٥٠ . فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ٨٤
٦٣ . أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم ٨٧
٧٥ . ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون..٩١
٨٣ . وان من شيعته لإبراهيم ٩٣
١١٣ . ولقد مننا على موسى وهارون...١٠٦
١٢٣ . وإن إلياس لمن المرسلين...١٠٧
١٣٣ . وان لوطا لمن المرسلين ١٠٩
١٣٩ . وإن يونس لمن المرسلين...١١٠
١٤٩ . فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون.....................................١١٣
١٧٠ . ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين.....................................١١٩

فهرس إجمالي لتفسير «سورة ص»

مقدمة ١٢٥

١ . ص والقرآن ذي الذكر.................................... ١٢٨

١٢ .كذبت قبلهم قوم نوح ١٣٧

١٧ . اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ١٤١

٢٧ . وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا................ ١٥٤

٣٠ . ووهبنا لداود سليمان نعم العبد ١٥٧

٤١ . واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه ١٦٥

٤٥ . واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب..................... ١٧٠

٤٩ . هذا ذكر وان للمتقين لحسن مآب ١٧٢

٦٥ . قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله ١٧٨

فهرس إجمالي لتفسير «سورة الزمر»

مقدمة ١٨٧

١ . تنزيل الكتاب من الله.. ١٩١

٥ . خلق السموات والأرض بالحق.. ١٩٥

٨ . واذا مس الإنسان ضر.. ٢٠٠

١٠ . قل يا عباد الذين آمنوا.. ٢٠٣

١٧ . والذين اجتنبوا الطاغوت.. ٢٠٧

٢١ . ألم تر أن الله أنزل من السماء.. ٢١٠

٢٣ . الله نزل أحسن الحديث.. ٢١٣

٢٧ . ولقد ضربنا للناس.. ٢١٧

٣٣ . فمن أظلم ممن كذب على الله.. ٢٢١

٣٨ . ولئن سألتهم من خلق.. ٢٢٥

٤٥ . وإذا ذكر الله وحده.. ٢٣٠

٥٣ . قل يا عبادي الذين أسرفوا.. ٢٣٦

٦٠ . ويوم القيامه ترى.. ٢٤١

٧١ . وسبق الذين كفروا.. ٢٤٩

فهرس إجمالي لتفسير «سورة غافر»

مقدمة وتمهيد ٢٥٥

١ ـ حم ٢٥٩

٧ ـ الذين يحملون العرش ٢٦٣

١٠ ـ إن الذين كفروا ينادون ٢٦٦

١٣ ـ هو الذي يريكم آياته ٢٦٨

٢٣ ـ ولقد أرسلنا موسى ٢٧٧

٢٨ ـ وقال رجل مؤمن ٢٨٢

٣٦ ـ وقال فرعون يا هامان ٢٩٠

٤٧ ـ واذ يتحاجون في النار ٢٩٦

٥٦ ـ إن الذين يجادلون في آيات الله ٣٠١

٦١ ـ الله الذي جعل لكم الليل ٣٠٥

مقدمة وتمهيد ٣٢١
١ . حم ٣٢٤
٩ . قل أئنكم لتكفرون.. ٣٢٩
١٣ . فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة ٣٣٥
١٩ . ويوم يحشر أعداء الله ٣٤١
٢٥ . وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم.. ٣٤٥
٣٠ . إن الذين قالوا ربنا الله ٣٤٨
٣٧ . ومن آياته الليل والنهار.. ٣٥٣
٤٠ . إن الذين يلحدون.. ٣٥٦
٤٧ . إليه يرد علم الساعة ٣٦٢